

جيمس فريزر

الفولكلور

في العهد القديم (التوراة)

الجزء الأول

ترجمة

دكتورة نبيلة إبراهيم



دار المعارف



چیمس فریزر

الفولکلور فی العہد القدیم (النورۃ)

الجزء الأول

ترجمة: د. نبيلة إبراهيم

الطبعة الثانية



دار المعارف

تصميم الغلاف : سوسن أحمد

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة — ج.م.ع

مقدمة

يقول فريزر في مقدمة الطبعة المختصرة لكتاب « الفولكلور في العهد القديم » التي قمنا بترجمتها : « وقد حاولت في هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقباً بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعلمية في المراحل الأكثر قدماً وفجاجة ، تلك التي تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التي تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات • وإذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح في هذه المحاولة ، فانه سنيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل في ضوء أكثر صدقا وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحي الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهجمية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعى بطيء » • كما يقول في خاتمة هذه المقدمة : « ولقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم فى النظر بصغة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر على صفحاته ••

ولقد نجح فريزر الى حد كبير فى تحقيق مأربه ، فكان يضع يده على طقوس وعادات قديمة ترد بين ثنايا العهد القديم ، من الممكن أن يمر بها القارىء مر الكرام • دون أن يفكر فى مغزاها أو أصلها • ومثال ذلك ما ورد فى سفر التكوين^(١) بصدد مقتل هابيل بيد أخيه قابيل : « فقال قابيل للرب ذنبى أعظم من أن يحتمل ، انك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أخفتنى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ،

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ ، ١٦ •

فيكون كل من وجدنى يقتلنى • فقال له الرب ، لذلك كل من قتل قايين
فسبعة أضعاف ينتقم منه • وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله
كل من وجدته » • وهنا يقف فريزر عند عبارة « وجعل الرب لقايين
علامة لكى لا يقتله كل من وجدته » ويتساءل عن كنه هذه العلامة وعن
سبب تعليم الرب لقابيل بها ، مستخدما فى ذلك المنهج المقارن
الذى تمكن بواسطته من استجلاء مغزى هذا الفعل ، أعنى مقارنته
بعادات مماثلة كانت أو لا تزال تعيش بين الشعوب البدائية التى
تعيش مرحلة متخلفة من التطور الحضارى • ومثال ذلك أيضا ما ورد
فى قصة آدم فى سفر التكوين ^(١) : « وقال الرب الاله هوذا الانسان
قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر • والآن لعله يمد يده ويأخذ
من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد • فأخرجه الرب الاله
من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها • فطرد الانسان وأقام
شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة
الحياة » • وهنا يتساءل المؤلف عما اذا كان الرب الرحيم الذى
أسكن آدم وحواء وأنعم عليهما من كل الخيرات ، كان يخشى حقا أن
يأكل الأبوان الأولان من ثمار شجرة الخلد فيصبا خالدين مثله •
وقد دفعه هذا التساؤل لأن يتعرض لفكرة الخلود عند الشعوب البدائية
وعلاقتها بالحياة التى أوقعت آدم وحواء فى الخطيئة كما هو مذكور
فى التوراة • وقد استخلص الكاتب من ذلك كيف أن كاتب السفر قد
خلط بين قصة الخلق الأصلية وبين المعتقدات والتصورات البدائية ،
وكان نتيجة هذا الخلط أن نسبت قصة التكوين فى التوراة الى الرب
صفات لا تليق بوجدانيته وألوهيته ••

وبهذا استطاع فريزر من خلال القراءة المتفحصه للتوراة ، ومن
خلال تخصصه العميق فى علم الأنثروبولوجيا ، أن يحصى ما فى التوراة

(١) سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ •

من تقاليد وعادات وتصورات بدائية ، وأن يقوم بتحليلها وفحصها واستبيان كنهها عن طريق المنهج الأنثروبولوجي المقارن •

وربما حق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب احتفاظ الدين اليهودي بهذه الكثرة اللافتة من المعتقدات والطقوس القديمة • فالواقع أن الدين اليهودي هو أول الأديان السماوية • وإذا كان الدين المسيحي قد جاء من بعده ثم الدين الاسلامي ، فمن المفروض أن الدين الجديد لا يأتي لتغيير جوهر دين سماوي سبقه ، اللهم الا اذا كان الناس أنفسهم قد غيروا هذا الجوهر ، وانما يأتي الدين الجديد لتأكيد الدين الذي سبقه من ناحية ، وليس تشريعات جديدة أو توضيح وتفصيل بعض ما أوجزه الدين السابق من ناحية أخرى • ومعنى هذا أن الدين السماوي برىء مما تضمنته التوراة من معتقدات وتصورات بدائية ، وأن هذه المعتقدات والتصورات أقحمت على التوراة اقحاما • • —

وإذا كان فريزر قد استطاع أن يبرز ما في التوراة من بقايا معتقدات وديانات قديمة ، ففى وسعنا الآن أن نشير الى مدى تأثير هذه المعتقدات والديانات على الدين السماوي وفقا لمفهومه الواسع ، أو بتعبير آخر فاننا نشير الى مدى ما ألحقته هذه المعتقدات والديانات بالدين السماوي من تشويه • •

ان الأديان السماوية تهدف أولا وقبل كل شيء الى القضاء على عبادة الأوثان بشتى مظاهرها ، كما أنها تهدف الى السمو بمرتبة الأنبياء وتقدير صفاتهم التي تسمو في مجملها فوق صفات البشر العاديين بوصفهم قادة لهم ونماذج بشرية يحتذى بها • وهى تهدف كذلك الى تنزيه الخالق سبحانه عن كل الصفات الانسانية • فاذا نظرنا الى التوراة في ضوء ما أوضحه فريزر ، فاننا نجد أن الدين اليهودي

على هذا النحو تكتنفه بعض مظاهر عبادة الأوثان ، فقد قدس أنبياءهم بعض الأشجار وبصفة خاصة شجرة البلوط كما أشار المؤلف الى ذلك ، وكما استشهدنا على ذلك بكثير من نصوص التوراة في المكان المناسب من الترجمة . وكان يعقوب قد رأى في رؤياه حجرا انتصب فوقه سلم أخذت الملائكة تصعد وتهبط عليه ، فلما استيقظ نصب الحجر وصب فوقه الزيت وعده مقدسا ، ومنذئذ أصبح الحجر مقدسا لدى العبريين القدماء . ولم يثق إبراهيم بعهد الرب في أن أرض الميعاد ستكون له ولقومه من بعده ، الا بعد أن أدى الطقوس القديمة التي كان الناس يتبعونها عندما يتعاهد طرفان على أمر من الأمور ، فتذبح ذبيحة وتشطر ثم يمر بين شطريها الطرفان المتعاهدان . « وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لقرثها . فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها . فقال له خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها ، ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على أبرام سبات واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه . فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستبعدون لهم فيذلونهم أربعمئة سنة ، ثم الأمة التي يستبعدون لها أنا أدينها . . . ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين القطع . في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا ، لنسلك أعطى هذه الأرض بين نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » (١) . ولعلنا نلاحظ في هذه الأمثلة وغيرها أن اليهودي كان يسعى دائما لأن يكون بينه وبين الرب وساطة حسية تعد من وجهة نظره مقدسة قداسة الرب ، فالبلوطة مقدسة والحجر مقدس

(١) سفر التكوين ١٥ : من ٧ الى ١٨ .

والذبيحة المشطورة التي يمر الرب بين شطريها في شكل دخان مقدسة كذلك • وعلى هذا النحو تتمثل قوة شمشون فيما يستمدّه من آلاله من قوّة ، بل كانت قوته مستكنة في خصلات شعره التي لم تقص قط منذ نعومة أظفاره • فلما قصت خصلات شعره ، فقد شمشون قوته وخارت قواه ولم يعد بعد شمشون الجبار •

فاذا انتقلنا الى تصوير التوراة للأنبياء فاننا نقرأ عجا • ويكفى أن تكون شخصية يعقوب على هذا النحو الذي صورته التوراة من الخداع والغش والحيلة والمكر حتى يمكننا أن ننزع أيدينا على الصفات المستحبة عند الرجل اليهودي • فيعقوب في التوراة رجل مادي ذكي لبق • وقد استطاع بهذه الصفات أن يخفى ما به من صفات لا انسانية مثل الخداع والغش والمكر • ولم تكتف التوراة بتصوير يعقوب على هذا النحو الكريه عندما خدع أخاه عيسو ، بل عادت فأكدت له هذه الصفات في معاملته لخاله لابان • فقد كان يعقوب ينوى أن يسلب الجزء الأكبر من قطيع خاله لابان وأن يرحل به سرا مع بناته اللاتي كان قد تزوج بهن وخدم خاله مقابل ذلك عدة سنين نمت له فيها قطعانه وأغنماه • ولننظر الآن الى الحيلة التي عمد اليها يعقوب فيسبيل اتمام هذا الغرض كما تصورها التوراة • فقد اتفق يعقوب مع خاله أن يأخذ لنفسه كل الغنم المخطط والمرقظ ويأخذ خاله الغنم الأسود • ووافق الخال على ذلك ، لأن الغنم المخطط والمرقظ لم يكن كثيرا • » ثم أخذ يعقوب لنفسه قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب ، وقشر فيها خطوطاً بيضاء كاشطاً عن البياض الذي على القضبان ، وأوقف القضبان التي قشرها في الأجران في مساقى الماء حيث كانت الغنم تجيء لتشرب • فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطاً وبلقا وأفرز يعقوب الخرفان • وجعل له قطعاناً وحده ولم يجعلها مع غنم لابان • وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن وضع يعقوب القضبان أمام عيون الغنم في الأجران لتتوحم بين القضبان • • • • • وحين استضعفت الغنم لم يضعها • فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب • فانتسح الرجل كثيراً جداً وكان له غنم كثير

وجوار وعبيد وجمال وحمير » • ثم جاء الى زوجته وقال لهما : « قد تطلب الله مواشى أبيكما وأعطاني » • وبهذا « خدع يعقوب قلب لابان الآرامى اذ لم يخبره بأنه هارب » (١) ••

ولم يكن صموئيل أقل حيلة ومكرا من يعقوب • فعندما ثار الشعب اليهودى ضد الحكم الكهنوتى ونادى بأن يحكمهم ملك دنيوى ، عين صموئيل الملك شاعول ملكا على بنى اسرائيل بتفويض من الرب كما تذكر التوراة • وقد وقع الاختيار صموئيل على شاعول بصفة خاصة لأنه كان يود أن يكون الملك الجديد خاضعا لسطوته • وعلى الرغم مما كان يتمتع به شاعول من هيبة وجلال أكسباه حب الشعب اياه ، فإنه كان فى الوقت نفسه يتميز بجانب ضعيف فى شخصيته أدراكه صموئيل كل الادراك قبل أن يقع اختياره عليه • ولكن عندما بدأ صموئيل يشعر بأن شاعول قد أخذ يستقل عنه ، وأن الشعب أخذ يتجمع من حوله ، أسرع وبحث عن مناوىء له متمثلا فى داود • واستطاع داود أن يجمع من حوله زمرة من بنى اسرائيل ، وبذلك دب الخلاف بينه وبين شاعول • ولم يكن فى استطاعة شاعول فى هذه الحالة وهو الانسان المرهف الحس ، أن يقود الجيش ضد الفلسطينيين • لما كان صموئيل قد مات فى ذلك الوقت ، فقد فزع شاعول الى قبره لعله يعينه فى مأزقه • واستطاعت ساحرة عين دور أن تستحضر له روح صموئيل • فصرخ به شبع صموئيل قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعادك اياى • فقال شاعول ، قد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقتى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع • فقال صموئيل ، ولماذا تسألنى والرب قد فارقتك وصار عدوك ، وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدى • وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تسمع لصوت الرب » (٢) •

(١) سفر التكوين ٣٠ : من ٢٧ الى ٤٣ .
(٢) سفر صموئيل الاول ٢٨ : ١٥ الى ١٨ .

والواقع أن من يقرأ سفر صموئيل لا يرى أن شاعول قد ارتكب
 اثماً في حق الرب أو في حق صموئيل • فقد كان صموئيل قد أمره
 بمحاربة شعب العماليق وقال له : « ولا تقف عنهم بل اقتلهم رجلاً
 وامرأة ، طفلاً ورضيعاً » • فامتثل شاعول لأوامره وقبض على أجاج
 ملك العماليق وأحضره إلى صموئيل حياً • ولكن الشعب اليهودي
 استحل لنفسه ذبح بعض الغنائم مثل خيـار الغنم والبقر • فلما تهدده
 صموئيل قائلاً : « لماذا لم تسمع لصوت الرب بل ثرت على الغنيمة
 وعملت الشر في عيني الرب » تحداه شاعول قائلاً : « انى قد سمعت
 لصوت الرب وذهبت في الطريق الذى أرسلنى فيها الرب وأتيت بأجاج
 ملك عماليق • • فأخذ الشعب من الغنيمة غنماً وبقراً وأائل الحرام لأجل
 الذبح للرب الهك » • وإذا كان صموئيل قد عين شاعول ملكاً على
 الشعب اليهودي بتفويض من الرب كما يتضح من قوله : « اياى أرسل
 الرب لمسحك ملكاً على شعبه إسرائيل » ، فإنه عاد وعبر عن حقه عليه
 فى خاتمة تجربته معه فقال : « والرب ندم لأنه ملك شاعول على
 إسرائيل » (١) • •

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى طريقة تشخيص التوراة للرب ، فأننا
 نجد فى هذا التشخيص أثر المعتقدات والتصورات القديمة من ناحية ،
 كما نلاحظ من ناحية أخرى عدم مقدرة اليهودى على السمو بالخالق
 وتنزيهه عن الصفات البشرية • فقد ظهر الرب ليعقوب فى صورة انسان
 أمسك يعقوب بتلابيبه حتى لا ينفلت منه الا بعد أن يباركه ويبارك
 قومه ، وكأنه لم يكن ليحصل على بركة الرب الا على هذا النحو • • فبقى
 يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر • ولما رأى أنه لا يقدر
 عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع فخذ يعقوب فى مصارعة معه وقال
 أطلقنى لأنه قد طلع الفجر • فقال له لا أطلقك ان لم تباركنى • فقال له

(١) انظر سفر صموئيل الاول الاصحاح الخامس عشر والسادس
 عشر •

ما اسمك ؟ فقال يعقوب • فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت • وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك » (١) ••

وإذا كان الرب قد صور فى التوراة على هيئة انسانية ، فلا عجب أنها خلعت عليه صفات انسانية ، بل صفات غير محببة الى النفس البشرية • فقد طرد الرب آدم وحواء وفقا لقصة التوراة ، لا لمجرد مخالفتها للمحظور الذى حذرهما منه الرب ، ولكن لأنهما سلباه صفة كان يود أن يستبقيها لنفسه دون البشر وهى معرفة الخير والشر • ومن ثم فقد أسرع الرب فى طردهما من الجنة قبل أن يتمكنوا من أن يسلباه صفات الهية أخرى وبصفة خاصة صفة الخلود ، وذلك اذا ما تهورا وأكلا من الشجرة الثانية المحرمة وهى شجرة الحياة • « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر • والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد • فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها » • بل أن الرب ظل يخشى من أن يسطو الانسان على شجرة الخلد خلصة ولذلك فقد جعل « لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (٢) ••

وربما كان هذا المجال مناسباً لأن نقارن ما رواه القرآن بما روته التوراة فيما يختص بالقصص الدينى الذى تعرض فريزر لبحثه فى هذا الكتاب ، حتى نلقى بذاك مزيداً من الضوء على مدى ما اعترض القصص الدينى فى التوراة من تحرير وتغيير ••

قال تعالى فى سورة البقرة : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا

(١) سفر التكوين ٣٢ : من ٢٤ الى ٢٩ •

(٢) سفر التكوين ٣ : من ٢٢ الى ٢٤ •

بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين • « كما قال تعالى في سورة طه : « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى • فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى • » فهذه الآيات تقدم الخطوط الأساسية لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا في الجنة الى أن أخرجا منها • فبعد أن خلق الله آدم وحواء أمرهما ألا يأكلا من شجرة ما في الجنة ، فلما عصيا أمره أخرهما الله من الجنة وجعلهما يهبطان الى الأرض ليعيشا فيها هما ونسلهما من بعد حياة غير خالدة • فالمسألة هنا تتعلق بتحريم وعصيان لهذا التحريم ، أو هي بتعبير آخر اختبار لطبيعة الجنس البشرى ، تلك الطبيعة التي لازمت الانسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، وهي التي تتمثل في ضعفه أمام قوة الاغراء المادى • وإذا كان هذا هو هدف القصة ، فاننا نجد أن القرآن قد نحا الى التجريد الذى هو من أخص خصائص القرآن الكريم • ومن ثم فإن القصة لم تصور لنا كيف استطاع الشيطان أن يقتحم عالم آدم في الجنة ، كما أنها لم تصف الشجرة التي حرمت عليه • وإذا كانت الشجرة قد وصفت بأنها شجرة الخلد على لسان الشيطان ، فانما كان هذا على سبيل اغراء الشيطان لآدم بالأكل منها •

ولما كانت قصة آدم في القرآن قد عرضت على هذه الصورة التجريدية ، فقد كان من الطبيعى أن يخوض المفسرون في تفصيلاتها ، وأن يتركوا العنان لخيالهم لكي يصوروا كيف خلق الله آدم، بل الطريقة التي أحضر بها الطين من الأرض ، وطبيعة الشجرة التي نهى الله آدم عن أكل ثمرها (١) ••

ومن المفسرين من يقف موقف الحذر ازاء هذه التفصيلات حيث ان القرآن لم يتعرض لها في شيء • ومن ذلك ما ذكره الطبرى معلقا على

(١) انظر تفسير الطبرى ج ١ من ص ١٥٣ الى ١٨١ (ط • دار المعارف) •

آراء المفسرين الذين خاضوا في وصف الشجرة المحرمة ، فقال : « ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن أو في السنة الصحيحة • فأنى يأتي ذلك من أتى ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها » (١) ••

ومن المعروف أن تفسير القرآن قد تعرض لتأثير ما سمي بالاسرائيليات • وإذا كانت قصة الخلق في التوراة لقد ذكرت غواية الحية لحواء ، فإن هذا التصوير لم يكن بعيدا عن أذهان المسلمين الذين حاولوا أن يوفقوا بينه وبين ما ذكره القرآن الكريم من غواية الشيطان لآدم وحواء معا • ومن ثم فقد صور الخيال الشعبي الشيطان وقد دخل في جوف حية حتى يصل الى الجنة التي كان قد طرد منها من قبل • وإذا كانت التوراة قد لعنت الحية على لسان الرب عندما قال لها « ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك » (٢) • فإن هذه الصورة قد انتقلت بدورها الى التفسير ، فصورت الحية قبل أن تحل بها اللعنة بأنها كانت لها قوائم كقوائم الجمل • فلما حلت بها اللعنة ، فقدت قوائمها وأصبحت ترحف على بطنها •

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى قصة التوراة ، فإننا نفاجأ أول الأمر بأن القصة تنحو الى تشخيص الرب على نحو انساني • فهو يتمشى في الجنة في المساء الرطب ، وهو ينادي آدم الذي اختبأ وراء الشجر ، ولم يكن يعرف آنذاك أنه قد أكل من الشجرة المحرمة • ثم أنه صنع لآدم وحواء ثيابا من الجلد وألبسهما اياها بدلا من ورق الشجر الشحيح الذي غطيا به عورتهم • وعلى هذا النحو تتعرض القصة لذكر تفاصيل عن الشجرتين المحرمتين ، فتذكر أن احدى الشجرتين كانت شجرة

(١) تفسير الطبري ج ١ ص ١٧٩ •

(٢) سفر التكوين ٣ : ١٤ •

معرفة الخير والشر وأن الشجرة الأخرى كانت شجرة الحياة • فلما أكل آدم وحواء من شجرة معرفة الخير والشر وأصبحا ندا للاله في المعرفة ، خشى أن يأكلا من شجرة الحياة فطردهما من الجنة ••

وبهذا تختلف قصة آدم وحواء في كل من القرآن والتوراة اختلافا جوهريا •• ففضلا على اختلافهما في طريقة العرض ، فانهما تختلفان في المغزى والهدف • فاذا كان آدم قد أخرج من الجنة في قصة القرآن ، فلأن سكناه في الأرض كانت مقدرة له من قبل بدليل قوله تعالى للملائكة قبل خلقه آدم: « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك • قال انى أعلم ما لا تعلمون » • فاذا كان عصيان آدم الله مقدرًا له من قبل ، فان هدف القصة يتضح بعد ذلك وهو تأكيد النوازع الانسانية ، وابرار جوانب لضعف فيها التى جعلتها موضوعا لاغراء الشيطان على الدوام • أما قصة التوراة ، فقد أخرج الله آدم من الجنة غيظًا منه وحنقًا عليه ، لأنه أصبح نده في المعرفة • وقد تصور أن البلاء سيكون أكبر من ذلك لو أنه أكل من شجرة الخلد ••

فاذا انتقلنا الى قصة قابيل وهابيل فى كل من التوراة والقرآن ، فاننا نجد أن قصة التوراة قد أضافت تلك الاضافة التى حيرت مؤلف هذا الكتاب فأخذ يتساءل عن مغزاها الى أن ردها الى المعتقدات والعادات البدائية • فقد تضرع قابيل الى الرب بعد أن قتل أخاه وقال له : « انك قد طردتني اليوم عن وجه الارض ومن وجهى أخفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » • ويبدو أن الرب قد حنا عليه رغم فعلته الشائنة فقال له : « لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجدته » (١) • وهنا نجد أنه على الرغم من أن قابيل قد قتل

(١) سفر التكوين ٤ : ١٣ الى ١٦ •

أخاه فقد أعلن الرب وفقا لنص التوراة ، أن من قتل قايين منه بسبعة
أضعاف جريمته ...

أما قصة قابيل وهابيل في القرآن فتد على النحو التالي : « وائل
عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل
من الآخر • قال لأقتلك قال انما يتقبل الله من المتقين • لئن بسطت الى
يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين •
انى أريد أن تبوأ باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء
الظالمين • فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين •
فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال
يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى فأصبح
من النادمين » (١) • وهنا يؤكد الله سبحانه وتعالى تأصل الشر في
الجنس البشرى ، حيث ان قابيل المقاتل سوف يترك من ورائه سلالة
التي تنزع مثله الى الشر ، كما أنه أكد نهاية بنى الانسان عندما يموتون
ويوارون في التراب ••

والفرق جلى بين صورة يعقوب في القرآن وصورته في التوراة •
فأين صورة الشيخ الجليل الذى أخذ يبكى على ابنه يوسف حتى
ابيضت عيناه ، والذى كان يعلم بمكر بنيه ورد عليهم في وقار قائلا :
« فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » (٢) ، من تلك الصورة
الماكرة الخادعة التي رسمتها التوراة للنبي الجليل ! ••

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب تصوير التوراة للاله
والأنبياء على هذا النحو ، ثم عن سبب ارتباط دينهم بكثير من المعتقدات
الوثنية • فهل يرجع سبب هذا الى أن التوراة قد كتبها مؤلفون حوروا
ما شاء لهم التحوير في روايات دينهم ، وعبروا عن معتقدات اليهود

(١) سورة المائدة من آية ٢٦ الى ٣٠ •

(٢) سورة يوسف من الآية ١٨ •

وتصوراتهم بصفة عامة ؟ ولكن لماذا ظل اليهود مرتبطين بهذه المعتقدات البدائية على الرغم من نزول الدين السماوى على موسى ؟ ربما استطعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات المختلفة اذا استطعنا أن نفحص بعض الشيء فى فلسفة الأديان ..

وأول شىء ينبغى علينا أن نقرره بهذا الصدد ، هو أن العقيدة ضرورة روحانية تنبثق من ذات الانسان فى كل زمان ومكان ، سواء كانت العقيدة فى شكلها الأولى الساذج أو كانت فى صورتها المتطورة الراقية . وأساس العقيدة هو احساس الانسان بالارتباط بقوة أكبر منه لا يريد أن يتحرك الا من خلالها . فالانسان البدائى لم ير اذن فى الرعد والبرق والمطر والنور والمظلمة آلهة مجرد أنه كان يخاف من الرعد أو يرغب فى المطر الى غير ذلك ، وإنما رأى فى هذه الظواهر آلهة تعبيرا عن احتياجه النفسى الى الارتباط بقوة علوية يتحرك ويرغب من خلالها . فالآله والانسان منذ قديم الزمن ليسا قوتين تقف كل منهما فى مقابل الأخرى ، بل هما بالأحرى متداخلتان . ذلك أن الانسان يجد نفسه مرتبطا بالآله وواقعا فى أسرهما ، وداخلا ضمن ملكوته . ولا عجب بعد ذلك أن نجد العقيدة تحتضن العناصر الآتية : الحب والادراك والمقدرة على تشخيص طبيعة الآله ، والارادة والتأثير . فبدون الحب تكون العقيدة عمياء ، وبدون الادراك تكون العقيدة باهتة ، وبدون المقدرة على تمثيل المخلوق تكون العقيدة غير حقيقية وبدون الارادة والتأثير تكون العقيدة غير مثمرة (١) . ولا تخلو أكثر الاشكال الدينية سذاجة من ادراك للقوة فوق الطبيعية ومن الاحساس بالحب ازاءها ، ومن المقدرة على تشخيصها ، وأخيرا من العادات والطقوس التى تعبر عن ارادة الانسان والسعى الى التأثير فى هذه القوة الالهية ..

فاذا أصبح تصور القوى الالهية حيا فى نفس الانسان ، أصبح للظواهر الطبيعية والأحلام والموت الى غير ذلك مغزى دينى ، واكتسبت

Othamar Spann : Religious Philosophie, p. 12 (Wien 1947). (١)

مخاوفه ورغباته صفة روحانية • ويمكننا أن نتمثل موقف الانسان من القوى العليا وطريقة وصوله اليها اذا تصورنا شكلا مخروطيا تقع في قمته القوة العليا وفي أسفله يقف الانسان ، وبين القوة العليا والانسان يقف الوسيط الذى يتمثل في الطبيعة بشتى مظاهرها • وهناك وسيلتان يصل بهما الانسان الى القوى العليا ، طريق مباشر دون وساطة وهو ما يسميه الفلاسفة طريق الأحوال الصوفية ، وطريق آخر غير مباشر يصطدم فيه الانسان بالوسيط الذى ربما كان عائقا في سبيل وصول الانسان للالتحاق بالقوى العليا ، ويسمى طريق الأحوال السحرية • وكلا الطريقتين يخوضهما الانسان نتيجة وعيه بذاته • فالوعى بالذات كما قال هيجل يعنى الوعى بذاتية الذات وموضوعيتها • فعندما تسعى الذات الى تشخيص الذات العليا ، فان هذا التشخيص يمثل الجانب الموضوعى من هذا الادراك (٢) • والوعى بالذات يقود الى الأجواء غير المادية ، أى أنه يمثل تلك الحالة التى ينغمس فيها الانسان فى الوجود الكلى • ولعل هذا يفسر لنا حرص الشعوب جميعا على رواية قصة الخلق ، وذلك أن قصة الخلق تعد تشخيصا لحاجة الانسان الى ارتباطه بالقوى العليا ، فهو اذن مرتبط بها منذ الأزل ، بمعنى أنها هى التى خلقتة وهى التى حددت مصيره • أى أن الانسان والطبيعة معا يعدان فيضا من الله • على أن ادراك الانسان للقوى العليا لا ينبع من حاجته الى ارتباطه بالكل الكامل فحسب ، وانما ينبع كذلك من احساسه بعدم كمال ذاته وعدم كمال عالمه • فعن طريق مقارنة وجود الله العلى الكامل من خلال التجربة الصوفية ، بوجود الانسان المادى ، يتبع بالضرورة استبعاد كل ما يشعر به الانسان من نقص فى ذاته أو فى عالمه عن الخالق • ولهذا السبب فان الحالة الروحية تنبثق من نزوع الانسان الى التخلص من غربته عن عالم الخالق ، والى السعى نحو التمثل به ، وهو الأمر الذى يقوده الى تشكيل حياته بتقاليد محددة وبسلوك ندى طابع روحانى ، أى أن الانسان

يخوض تجربة داخلية تسمو به فوق المدركات الحسية أى فوق النطاق
المادى المحدود ..

على أن الانسان يخوض هذه التجربة بوصفها كلا اذا بدأ من أعلى
الى أسفل ، وذلك نتيجة احساسه الفطرى بارتباطه بالقوى العليا ..
ويؤيد هذا قصة ابراهيم عليه السلام عندما سعى من خلال التجربة
التأملية الى البحث عن الاله فى العالم الارضى ، بل فى العالم السماوى
البعيد . فاصطدم بالكوكب أول الأمر فقال : « هذا ربى فلما أفل قال
لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن
لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال
هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى
وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من
المشركين » (١) . فابراهيم عليه السلام كان يخوض تجربة صوفية بدأها
من العالم العلوى وظل يبحث عن تشخيص للخالق حتى أقر بأنه أكبر من
كل القوى الطبيعية المتدفقة منه ..

أما اذا بدأ الانسان تجربته الروحية من أسفل الى أعلى ، فانه
يسير فى الطريق غير المباشر الذى يصطدم فيه بالظواهر الطبيعية المتعددة
التي يخلع عليها صفات سحرية . وهو يظل يعيش فى هذا العالم
السحرى الذى يحول بينه وبين خوض التجربة التأملية التي يتصل
الانسان عن طريقها بالله اتصالا مباشرا . وفى هذا العالم السحرى تلعب
الأرواح الخيرة والشريرة التي تعد فى الحقيقة تشخيصا لمخاوف الانسان
ورغباته — نتيجة احساسه بارتباطه بقوى فوق الطبيعية — دورا كبيرا
فى حياة مثل هذا الانسان . ولهذا فإنه يخشى الاساءة الى ظواهر الطبيعة
لأنها فى الوقت نفسه تعد اساءة القوى العليا . وهو يتجنب هذه الاساءة
لأنه يخشى عقاب القوى الخفية المتربصة به ..

(١) سورة الانعام من آية ٧٦ الى ٧٩ .

فاذا حاولنا أن نتبين في ضوء هذا الكلام ملامح الدين اليهودي كما يعرض في التوراة ، فاننا نرى أن اليهودي لم يستطع أن يتصل بالله اتصالا مباشرا عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطني . وانما وقف في منتصف الطريق حيث الوسيط أو الوسائط التي يمكن أن تربطه العادات والتصورات القديمة التي استطاع فريزر أن يكشف عن الكثير بالقوى الالهية . وهذا يفسر سبب تعلقه بطقوس السحر وبكثير من منها . حقا ان كل شعب من شعوب العالم أيا كان نوع دينه السماوي ، احتفظ أو مازال يحتفظ ببعض المعتقدات القديمة التي ربما استطاع أن يكيّفها ويغير صورتها بحيث يمكن أن تتلاءم مع دينه الجديد ، ولكن الدين السماوي في حد ذاته اجتهد في أن يخلص العقيدة الجديدة من الشوائب القديمة ومن التصورات الوثنية ومن تلك الوسائط المادية التي يمكن أن تكون عائقا بينه وبين الصعود في مراتب من النور الباطني الذي يصل به الى وجود الله وطبيعته ..

ولم يستطع اليهود — كما هو معروف عن تعلقهم الشديد بالمادة — أن ينسلخوا من هذه المادية وأن يسموا بدينهم ، أو على الأقل يحتفظوا بأصوله الروحية السامية . ومن ثم فقد ظلوا متعلقين بكل الوسائط المادية التي حجبته عن الرؤية الالهية الخالصة . ولا عجب بعد ذلك أن يلجأ شاعول لى ساحرة عين دور لكي تكشف له عن مصير شعبه في الحرب بدلا من أن يفرع إلى الله ليعينه فيها . ولا عجب ألا يثق ابراهيم من عهد الرب الا بعد أن أدى الطقوس الوثنية القديمة التي كانت تتبع عند عقد عهد من العهود بين طرفين . ولا عجب أن شخص اليهودي الرب على هيئة انسان أمسك يعقوب بتلابيه حتى يباركه . ولا عجب أن ترسبت في دينه كثير من المظاهر البدائية على نحو ما أوضحه المؤلف في كتابهم المقدس ..

* * *

وبعد تلك الجولة في عالم الأديان التي حاولنا من خلالها أن نتبين طبيعة الدين اليهودي ، نحاول الآن أن نلقى بعض الضوء على منهج فريزر في هذا الكتاب ، وبوصفه باحثا أنثروبولوجيا بصفة عامة ..

لقد كان العالمان الأنثروبولوجيان : مالينوفسكى وفريزر متعاصرين • ومع أن كلا منهما كان له منهجه الخاص به في البحث الأنثروبولوجي الاجتماعي ، إلا أن كلا منهما يعد عملاقا في مبدانه ، فكلاهما كان يبحث وهو على وعى تام بما تتصف به الطبيعة البشرية من تعقيد ، وكلاهما كان يكتب بأسلوب حاذق موضوعي ، وإن لم يصل أسلوب مالينوفسكى الى ما وصل اليه أسلوب فريزر من لباقة ودقة • وكلاهما أغرم بوصف المظهر الشعائري للحياة • وقد كانت عملية تحليل المعتقدات بالنسبة لكليهما رحلة استكشاف للروح الانسانية • وكلاهما كان يبحث دائما عن القرائن للحقائق المدركة كما أن كليهما كان يتحرك من الحقائق الى النظرية ومن النظرية الى الحقائق ، وإن كان فريزر أكثر استقصاء للظواهر في أبحاثه من مالينوفسكى ••

ومع كل وجوه التشابه هذه بين الباحثين ، فإن مالينوفسكى قدم للبحث مادة أكثر غنى ووفرة في كتاباته الاثنوجرافية (الأنثروبولوجيا الوصفية) • وهو فضلا على هذا وضع نموذجا للعمل الميداني ولتوثيق نظريته التي تتلخص في تحقيق المنهج الوظيفي على أكمل وجه ، بحيث يحتذى به في العصر الحديث • ولقد أشاد فريزر بمنهجه هذا فقال : « ان من أهم ما ميز منهج مالينوفسكى أنه كان يضع نصب عينيه الطبيعة الانسانية المعقدة بوصفها كلا • فلقد كان ينظر الى الانسان في المحيط الذي يحيط به لا في المسطح المكاني الذي يعيش فيه ، ذلك أنه كان يتذكر على الدوام أن الانسان مخلوق تتحكم فيه العاطفة بقدر ما يتحكم فيه العقل • ومن ثم فقد كان كل همه أن يستكشف الجانب العاطفي بقدر ما يستكشف الأساس العقلي لسلوكه » (١) • فهل كان هذا الأساس المنهجي والنظري ينقص فريزر في أبحاثه ومن فقد أقر بأهميته ؟ ان ما كان ينقص منهج فريزر بحق هو توسيع ثم نطاق العمل الميداني واستكشاف الروح الانسانية من جانبيه العقلاني والعاطفي وذلك

Man and Culture : Edited by Raymond Firth, p. 71, London, (١)
1960.

عن طريق الربط القائم بين جميع ممارسات الانسان وسلوكه • أى أنه كان يتقصه ما وصف به مالىنوفسكى من أنه ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به وليس فى المسطح الذى يعيش فيه • فكثيرا ما اعتمد فريزر فى دراساته على ما دونه المبشرون عن القبائل البدائية ، وكثيرا ما اعتمد فى أبحاثه على دراسات الباحثين بدلا من اعتماده على الاتصال المباشر بالناس عن طريق العمل الميدانى • ذلك أن منهجه كان يعتمد على جمع الحقائق جمعا مستقصيا وبشتى الطرق بقصد اثبات نظريته فى ظاهرة من الظواهر الانسانية • ولهذا فقد أخفق فريزر فى أن يجد تفسيراً لبعض الظواهر الاعتقادية • ومثال هذا أنه قد تحدث بصدد بحثه عن تقديس بعض الأشجار ، عن عادة تعليق الخرق الملونة عليها • ومع استقصائه البالغ فى البحث بقصد تأكيد هذه الظاهرة ، إلا أنه لم يقدم أى تفسير لمغزى تعليق الخرق على الأشجار بقصد التوصل الى روح الشجرة • وسبب هذا أنه لم يكن يهتم باستكناه مغزى الفعل بقدر ما كان يهتم بسرده ••

ومع كل هذا فلقد قدم فريزر للقارىء المتخصص مادة وافرة لا غنى عنها فى دراسة الحياة الانسانية • ولقد استطاع أن يثبت عن طريق دراساته المقارنة تلك التقاليد والمعتقدات التى خلفت مع الانسان عبر التاريخ والتي ترجع فى أصولها الى الحياة البدائية الأولى • وبهذا استطاع أن يستكشف ما تخلف فى التوراة من معتقدات وعادات قديمة كانت لها أبلغ الأثر فيما اتسم به الدين اليهودى من جوانب ضعف ، فضلا على أنها كشفت عن شخصية اليهودى الذى استغل الدين كل الاستغلال فى سبيل تحقيق أطماعه المادية ••

وإذا كان فريزر قد تناول تلك الموضوعات التى طرقها تناول العالم المدقق الذى ينقب فى موضوعية تامة عن خبايا الأمور بقصد استكشاف كنهها ، فأننا نرى أنه قد استخدم هذا المنهج فى غير ضرورة فى قصة موسى عليه السلام • فقد حاول فى هذا الفصل

أن يعزل القصة عن الحقائق التاريخية ، وأن يقرن بينها وبين ما يماثلها من قصص شعبي مروي . وقد اقتضت منا الأمانة العلمية أن نترجم هذا الفصل كما هو على مسئولية المؤلف ..

هذا وقد تطلبت منا الترجمة الكاملة التي تقع في مجلدين ، كل مجلد على حدة ، أن نذيلها بهوامش لتوضح بعض الأمور التي لم يوضحها المؤلف في كتابه هذا . كما أننا أشرنا الى مصدر آيات التوراة التي أغفل عمدا ذكر مكانها في التوراة على سبيل الاختصار كما ذكر في مقدمته . وكذلك استشهدنا في بعض الأحيان بآيات لم يشر اليها المؤلف وذلك بقصد القاء مزيد من الضوء على ما تعرض له المؤلف في دراسته من عادات وطقوس عند العبريين القدماء .

حول المؤلف والكتاب

إذا كان فريزر يمثل حقبة في الدراسات الأنثروبولوجية انقضت بموته عام ١٩٤١^(١) ، فإن هذا يعنى أنه يمثل مدرسة في الميدان الأنثروبولوجى تسير وفقاً لمنهج محدد وتهدف الى تحقيق هدف بعينه . ولذا يتحتم علينا ، قبل أن نعرض لكتابه « الفولكلور في العهد القديم » أن تبين معالم هذه المدرسة ومنهجها وهدفها ، لنرى ما إذا كان فريزر قد استطاع بمؤلفه هذا أن يؤكد منهجه وهدفه . ولكننا قبل أن نفعل هذا ، يحق لنا أن نقدم القارىء صورة تقريبية لشخصية هذا العالم الانسانى الكبير ، ولعلاقاته بعلماء عصره بخاصة هؤلاء الذين كانوا يعملون في ميدانه .

لقد كان فريزر يمثل أكثر من أى باحث من الباحثين المعاصرين له ، الاتجاه الانسانى الذى كان يستلهم الدراسات المقارنة في سبيل فهم التراث الاغريقى واللاتينى والشرقى القديم . وربما ظل اسمه خاتمة العلماء الانسانيين الكلاسيكيين الكبار . ولقد كان واسع العلم متعدد الاتجاهات ، فقد درس علم الطبيعة وعلم الأحياء ، وبعض فروع أخرى من العلوم الطبيعية . وكان يقرأ هوميرو باللغة الاغريقية وأوفيد وفرجيل باللاتينية ، والكتاب المقدس بالآرامية . وفضلاً عن ذلك فإن أعماله الكبيرة المتعددة لم تمنعه من كتابة المقالات والشعر^(٢) .

أما عن علاقة فريزر بعلماء عصره ، فإننا ندع العالم الأنثروبولوجى المرموق مالبنوفسكى ، يتحدث عن ذلك حيث أنه كان على علاقة وثيقة

(1) Manlinoski : A Scientific Theory of Culture : 1944 P. 179.

(2) Ibid : P. 179.

به زما طويلا ، وحيث أنه تعرض لنقد أعماله ونظرياته نقد العالم
الحصيف المنصف ، فذكر ما له وما عليه • يقول مالفينوفسكى :

« لقد عرفت فريزر طيلة الواحد والثلاثين عاما الأخيرة من
عمره • وفى خلال هذه السنوات الطوال استطعت أن أتتبع كثيرا
من علاقاته الشخصية مع جماعة الأنثروبولوجيين ، كما حاولت أن أفهم
منهجه فى تناول المشكلات والحقائق ، وأن أدرس تطور أفكاره
ونظرياته ، فانتهيت الى أن فريزر كان مصدر الهام كثير من المفكرين
والكتاب المحدثين فى الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية والانسانية •
ومع كل هذا فقد كان فريزر يعانى مشقة كبيرة فى مناقشة موضوع
من الموضوعات أو رأى من الآراء مع باحث من الباحثين ، اذ قلما
نجح الانسان لكبير فى أن يدير مناقشة على طريقة المدرس الذى
يعطى ويأخذ • وكان من الضرورى لمحدثه أن يترىث معه حتى توانيه
لحظة الالهام ، فيرتجل بضعة فقرات جميلة شبيهة بتلك التى نجدها
فى كتاباته • وعلى الرغم من هذا العيب ، فقد عرف عن فريزر اهتمامه
البالغ بالحقائق الجديدة التى تسفر عنها استكشافات الباحثين فى
العمل الميدانى ، كما عرف عنه مقدرته فى حث الباحثين الميدانيين عن
طريق المراسلة • ولقد كان لخدماته التى أرسلها الى فى أثناء
رحلاته فى غينيا الجديدة وميلانيزيا أكبر عون لى فى أبحاثه سواء عن
طريق اقتراحاته أو استفساراته أو تعليقاته •

ومن الطبيعى أن يكون فريزر بناء على افتقاره لروح الجدل
والمناقشة ، محاضرا غير ناجح ، بل انه كان محاضرا غير مكثر ،
وكان يفضل أن يقرأ محاضراته عن أن يقرأها ارتجالا ويناقشها مع
طلابه • ومعنى هذا أن فريزر لم يكن معلما بالمعنى الضيق لهذه
الكلمة ، اذ لم يكن فى وسعه أن يطور جدله ويدافع عن نظرياته
عن طريق النقاش • ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان معلما
بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ورائدا من كبار رواد العالم فى مجال
البحث الأنثروبولوجى ، فقد كان فرويد يعتمد عليه فى أبحاثه عند

تطبيقه لنظرياته في علم النفس التدايلي في المجال الأنثروبولوجي •
وكان له تأثيره الكبير على دور كلیم ومدرسته التي كان من أعلامها فان
جينيب وليفي بريل ، وهربرت ، وبوجلبيه • كما أرسى الباحثون الألمان
من أمثال فونت ، وتور نفالد ، وبرويس وغيرهم ، دعائم علمهم على
أساس نظريات فريزر وعلمه الواسع في الدراسات الأنثروبولوجية
أساس نظريات فريزر وعلمه الواسع في الدراسات الأنثروبولوجية •
وسواء اتفق الباحثون الانجليز من أمثال ويسترمارك وكرولي
وجيلبرت موري ، وجين هاريسون ، وسيدني هارتلاند واندرو لانج ،
معه في نظرياته وآرائه أم لم يتفقوا معه ، فانهم بدون شك قد
استمدوا توجيهاتهم ومفاتيحهم في البحث منه • بل انه ترك أثرا بعيد
المدى في جماعة من المفكرين الرواد في مجال لتاريخ والفلسفة وعلم
النفس والأخلاق من أمثال أثناتول فرانس وبرجسون وأرنولد توينبي ،
وشبنجلر • ويتضح هذا عندما كان هؤلاء يتعرضون للموضوعات
الأنثروبولوجية الأساسية مثل « التابو » والطوطمية والسحر والزواج
وأشكال الديانة البدائية وتطور النظم السياسية (١) •

وقد وهب فريزر ميزتين كبيرتين احدهما مقدرة الفنان على
خلق عالم خيالي خاص به ، وثانيتهما حصافة العالم الصادق في
التمييز بين ما هو وثيق الصلة بالموضوع الرئيسي وما هو ثانوي •
وقد تولد عن الخصلة الأولى أسنوبه الساحري ومقدرته على صياغة
الشواهد الاثنوجرافية الجامدة في شكل قصص دراسي ، كما يبدو
هذا تماما في كتابه « الفولكلور في العهد القديم » ، كما تولد عنها مقدرته
على خلق الرؤى من البلاد البعيدة والحضارات الغريبة • أما الميزة
العلمية الثانية ، فقد تولد عنها حسه التجريبي الذي قادة الى التجوال
بين عالم المادة الاثنوجرافية لكي يستخلص منها الشواهد التي كثيرا
ما كانت تؤدي الى بطلان نظرياته نفسها ، وان كانت تقدم لنا في المكان

(1) Malinowski : op. cit. pp. 182-184.

المناسب لها حقائق عن السحر والدين وعن الطوطمية ونظم الزواج ، وكل ذلك داخل الاطار الواقعي ، بما جعلها تنبض برغبات الناس ومعتقداتهم واهتماماتهم . وبهذا استطاع فريزر أن ينظم المعرفة الجافة المتراكمة في شكل هندسي رائع من الشواهد ، محتضنا الكثير من الأفكار التي صاغها الباحثون من بعده في شكل نظريات وقد كان من أهم ثمار هذا الجهد العلمي الرائع ، كتاب « الغصن الذهبي » الذي يحكى قصة الفكر والروح الانسانية الموغل في القدم ، وكتاب « الطوطمية والزواج من الأبعاد » وهو الكتاب التعليمي ثم كتاب « الفولكلور في العهد القديم » الذي يعد أشبه بأسطورة أنثروبولوجية رائعة .

وبقدر ما كان فريزر يعيش في عالم الخيال ، كان يعيش في عالم الواقع الموضوعي . وقد استطاع أن يشكل نظرياته في شكل طبع من الشواهد التي جمعها من جميع أنحاء العالم . وهذا يفسر لنا سبر اهتمامه بحقائق العمل الميداني وعدم اكترائه بالنظريات الا فيما ندر . ذلك أنه كان يرغب دائما في أن يضيف شيئا الى عالمه الحي ، عالم الوجود الانساني الدرامي . وفيما عدا هذا كان يكره تشريح هذا العالم عن طريق النقد النظري . وعندما غضب من اندرولانج لنقده الساخر من كتابه « الغصن الذهبي » لم يكن غضبه منه لتجريحه الشخصي فيما يقوله الباحثون ، بقدر ما كان بسبب تجريحه عالم أوريرس وفيربيوس وبالدور (1) .

مكانة فريزر في مجال الدراسات الأنثروبولوجية :

كان فريزر على رأس المدرسة التطورية التي ركزت اهتمامها على دراسة الجانب البدائي في الجنس البشري . وقد كان فريزر يبحث عن هذا الجانب البدائي في التقاليد والعادات والممارسات

(1) Malinowski : op. cit p. 185.

بصفة عامة كما كان يبحث عنه عند البدائيين ، بل ولدى الجنس البشرى في كافة مستويات رقيه الحضارى ، أما الوسيلة التى كان يستعين بها في هذه الدراسة الواسعة فهي المنهج المقارن الذى يعتمد على جمع المادة من جميع أنحاء العالم ثم المقارنة بينها • وقد تطلب منه ارتباط المنهج المقارن بفكرة التطورة في سبيل فهم الانسان بعض افروض العامة التى تتلخص في أن الناس يتشابهون أساسا في الجوهر ، لأن الشعوب جميعا قد بدأت من مرحلة بدائية ، ومرت تدريجيا بمراحل مختلفة من التطور • ومن الممكن استكشاف المقياس العام لسلوكهم وأفكارهم عن طريق الاستقراء الذى يعتمد على النظره الشاملة للمادة المجموعة • وعند ذاك يواجه الباحث ما يسمى بالبقايا المتخلفة ، وهى تلك البقايا المتبقية من المعتقدات والعادات التى عاشت مع الانسان في عصوره البدائية • ثم ترسبت أو ترسب بعضها معه في أطوار رقيه • وتعد عملية احصاء تلك البقايا المتخلفة من المعتقدات والعادات مفتاحا لفهم الاستمرار في حدود النغير ، كما أنها تمثل من ناحية أخرى الحلقة التى تصل بين المراحل التطورية المختلفة • فإذا غاص الباحث حتى أدنى المستويات الحضارية ، فإنه يصل الى المستوى الهمجى الأدنى للأجناس البشرية ، أى أنه يصل الى أصل الطقوس الانسانية والعادات والأفكار • فالحضارة معقدة كل التعقيد في حين أن الهمجية بسيطة نسبيا • كما أنها تعد بدون شك البؤرة التى نشأت عنها كل الحضارات عن طريق عملية التطور البطيء • ولهذا ينحتم على من يسعى الى فهم نتاج الحضارات المعقد أن يبدأ من العناصر البسيطة ، أى أن يبدأ بفهم حياة البدائيين وسلوكهم •

على أنه على الرغم من اهتمام فريزر البالغ بنظرية تطور الجنس البشرى عن الأصول البدائية ، وعلى الرغم من محاولاته العلمية في ابراز تلك الأصول عند الأجناس البشرية ، فإنه لم يطور قط أية نظرية كاملة لأسس هذا التطور • فنحن لا نجد في أعماله أى تحديد

دقيق لتلك المفاهيم التي ردها وهي : أصول الجنس البشرى ،
مراحل التطور ، البقايا المتخلفة • بل اننا لا نجد عنده أية محاولة
تهىء له مجرد تصور عملية تطور الجنس البشرى أو تتيح لنا فرصة
ادراك القوى الدافعة في سبيل هذا التطور .

وقد أدرك فريزر كما أدرك غيره أن أساس المعتقدات والعادات
والتصورات ينبع من أنشطة الانسان الروحية والعقلية وهي
والسحر والدين والعلم • وليست هذه الجوانب ، من وجهة نظر فريزر ،
متداخلة في حياة الانسان في كل زمان ومكان بحيث يؤدي كل منها
دورا حيويا في حياته العملية والروحية ، ولكنها تعيش منفصلة مع
الناس ، بحيث يؤدي كل منها دورا مهما في مراحل الحضارة
المختلفة ، فالسحر يسيطر على حياة الانسان البدائي الهمجى كما
كان يحلو لفريزر أن يسميه ، ذلك لانه يعد الوسيلة الوحيدة التي
يحاول الانسان البدائي عن طريقها اخضاع ظواهر الطبيعة
لسيطرته • فلما أصبح الانسان بعد ذلك أكثر ذكاء ، أصبح أكثر
وعيا بقدرته وخضوعه في الوقت نفسه للقوى العلوية التعسفية • ومن
ثم فقد أخذ يسترضى تلك القوى عن طريق تأدية الشعائر والطقوس .
وفي النهاية يصل الانسان الى مرحلة العلم ، وهي المرحلة التي يعيشها
الانسان المتحضر اليوم • وهنا يبدى فريزر تشاؤمه ازاء مصير
الانسان ، ذلك أن العلم يعمل في هدوء وبلا هوادة على تحطيم عالمنا
الذى يسبح فيه كوكبنا كذرة أو هباءة (١) .

ويرتكز السحر من وجهة نظر فريزر على أساسين : الأساس الأول هو
ان التشبيه ينتج التشبيه ، والأساس الثانى هو ان الأشياء التي كانت
دات مرة متصلة ببعضها البعض ، يستمر تأثيرها في بعضها الآخر ،
وان انقطعت الصلة الظاهرة بينهما • فهذان الأساسان يمثلان من وجهة
نظر فريزر قوانين النظرة السحرية عند الانسان البدائى • وعلى

(1) Kardiner Bribble : They Studied Man p. 89.

الرغم من ان الانسان البدائي لم يعبر عن هذه القوانين بالكلمات ، بل انه لم يدركها ادراكا مجردا ، الا أنه كان يعتقد بكل بساطة ان طقوسه السحرية تنظم له احوال الطبيعة تنظيما مستقلا عن ارادته . وكلا الاساسين يندرجان تحت ما يسميه فريزر بسحر المشاركة ، لأن كليهما يفترض أن الأشياء تؤثر في بعضها البعض وهي متباعدة عن طريق العلاقة السرية التي تصل بينهما بطريق ما .

ويمكننا ان نستدل بمثالين من كتاب الغولكلور في العهد القديم يوضحان هذين الاساسين لمفهوم السحر عند البدائيين من وجهة نظر فريزر ، أما المثال الأول الذي يوضح نظرية : « الشبيه ينتج الشبيه » ، فهو يقع ضمن الأمثلة العديدة التي ساقها فريزر في الفصل الأول من الباب الثاني ، وهو الفصل الذي يقع تحت عنوان « عهد ابراهيم » . وقد حاول فريزر في هذا الفصل أن يستدل على أن الشعائر التي أداها ابراهيم لعقد عهد بينه وبين الرب ، شبيهة كل الشبه بالشعائر التي تؤديها الشعوب البدائية بقصد عقد بين طرفين ، فهم يذبحون ذبيحة ويشطرونها شطرين يمر بينهما الطرفان المتعاهدان في الوقت الذي يتلو أحد الأفراد دعوات شريرة على من يحنث باليمين أو ينقض العهد ، وذلك بأن يكون مصيره كمصير الذبيحة المشطورة . فالبدائي يعتقد كل الاعتقاد أن شطر الذبيحة على هذا النحو ينتج عنه جزاء مشابه يحل بمن ينقض العهد أو يحنث باليمين .

وأما الأساس الثاني وهو استمرار تأثير الأشياء في بعضها البعض رغم بعد الشقة بينهما ، فيتضح من خلال الأمثلة العديدة التي أتى بها فريزر في فصل شمشون ودليلة وغيره من الفصول . ومثال ذلك أن البدائي يعتقد أنه في وسعه أن يعزل روحه عن جسده ليحتفظ بها في مكان آمن . فإذا حدث أن لحق ضرر بروحه ، فإن هذا الضرر يصيبه في الحال على الرغم من انفصال روحه عن جسده . ونحن نلاحظ أن كلا المثالين يجتمعان مرة أخرى تحت مفهوم سحر المشاركة . فمصير الذبيحة ينتقل الى الحانث باليمين عن طريق سحر

المشاركة ، وبهذه الطريقة نفسها ينتقل الضرر من الروح الذى أصيب
بأذى الى صاحبه .

وإذا كان السحر وسيلة لاختضاع الظواهر الطبيعية لسيطرة
الانسان ، فإن الدين ، من وجهة نظر فريزر ، ليس سوى عملية
استرضاء القوى العليا التى تتحكم فى مصير الانسان والظواهر
الطبيعية معا . ولقد حاول الانسان البدائى فى مرحلة حضارية أرقى من
المرحلة السحرية ، أن يحدد لنفسه تلك المفاهيم الكلية مثل القوة
والحياة والروح والاختصاص ، ولكنه عندما حاول ذلك ، خلط فى
التمييز بين الخصائص الانسانية وخصائص الطبيعة ، كما أنه شعر
بعجزه وعجز أدواته السحرية عن تفسير تلك الظواهر . ومن ثم فقد
افترض العقل البدائى وجود آلهة أو سحرة علويين يعيشون فى عالم
غير مرئى ، ومن الممكن التوصل اليهم والتضرع لهم ، ليسدوا النقص
فى قدرات القوة السحرية .

وأما المرحلة الحضارية الثالثة وهى مرحلة العلم ، فهى تلك
المرحلة التى يعيشها الأوروبي اليوم بعد أن تجاوز مرحلتى السحر
والدين . وفريزر فى هذا لا يخفى تعصبه للجنس الأوروبي الذى يرى
أنه قد غاق بتطوره العلمى سائر الأجناس الأخرى .

وإذا نحن أمعنا النظر فى تحديد فريزر لهذه المفاهيم ، فأننا
نجد أن مذهب التطورى قد فرض عليه هذا التقسيم التعسفى بين
السحر والدين والعلم ، كما سنشير الى ذلك بالتفصيل عندما نتعرض
للنقد الذى وجه لفريزر ازاء هذا التقسيم . على أننا أشرنا آنفا
الى أن فريزر لم يكن رجلا نظريات ، ولم يكن يعد النظرية ، على حد
تعبيره ، سوى مشجب يعلق عليه كل الحقائق التى يجمعها ⁽¹⁾ . ولهذا
فإن فريزر يصبح رجلا عمليا بمجرد أن يفرغ من مناقشاته النظرية ،

(1) Kardiner, Brehle : They Studied Man : p. 91.

ويدخل في مجال دراسة الشعوب • عند ذلك تتداخل عنده الظواهر المختلفة للحضارة الانسانية والاهتمامات البشرية ، كما أنه يصبح كاتباً ممتعاً ومشوقاً يستطيع بمقدرته على العرض والربط بين الظواهر المختلفة ، أن يتجول مع القارىء عبر صحراء استراليا وبين أحراش الأمازون وفي برارى آسيا ، ووسط طبيعة أفريقية المتنوعة ، كما يجعله يعيش الشعوب المختلفة في أفكارها ومعتقداتها وعاداتها ، وذلك عندما يلقي الضوء على الشواهد المتراكمة بنظرة ثاقبة في الدوافع الانسانية • بل ان فريزر كثيراً ما كان يقترب من منهج التحليل النفسى للدوافع الشعورية واللاشعورية للسلوك البشرى ، وذلك على رغم مقتته لعلم النفس التحليلى مقفلاً جعله يعزف عن قراءة كما ما كتبه فرويد بهذا الصدد • ويعد فريزر في مقدرته على تفسير الدوافع الانسانية من خلال الأفعال والشعائر ، وفي تأكيده أن الفعل أكثر ضماناً للبحث من الأقوال — يعد من أصحاب المدرسة السلوكية بالمعنى الاجتماعى لهذه الكلمة • ذلك أنه ينزع على الدوام الى توثيق التفسيرات النفسية بأشكال من لسلوك الانسانى ، وأنه كان ينظر الى الحقائق الأنثروبولوجية بوصفها جزءاً مكملًا للحياة الانسانية بصفة عامة ، وذلك في إطار الحضارة ، بل في إطار الطبيعة التى يعيش فيها الانسان •

وعلى الرغم من الجهد العلمى المخلص الذى بذله فريزر في دراساته التى ستظل تعيش بوصفها أعمالاً رائدة ، مهما جد عليها من أبحاث في مجال الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية ، وعلى الرغم من أنه فتح للباحثين من بعده آفاقاً جديدة واسعة في الأبحاث الانسانية بصفة عامة ، فإن فريزر لم يسلم من النقد والتجريح من قبل الباحثين في ميدانه ، فمنهم من ظلمه حقه ، وأنكر ما في أبحاثه من أصالة وما لها من أثر بعيد في الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة ، ومنهم من أسرف على النقيض من ذلك في تمجيده ، بحيث جعله البطل الذى مهد عن طريق نظرياته الأصلية ، طريق التقييم العلمية الصائبة لمن بعده ، في

الوقت الذى جعل هذا البعض مالىنوفسكى نبيا مزيفا قاده الدراسات الأنثروبولوجية الى متاهات لا حدود لها (١) . وهناك نوع ثالث وعلى رأسهم مالىنوفسكى الذى نقده نقد العالم الموضوعى الحصيف ، فذكر فضله على الدارسين من بعده ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، فى الوقت الذى تعرض لنقد نظرياته . بخاصة نظريته السابق ذكرها فى السحر والدين والعلم . ويهمنى أن نسوق للقارئ هذا النقد حيث أنه يلقي مزيدا من الضوء على نظرية فريزر هذه التى تعد محور كثير من أعماله ان لم تعد محورها جميعا .

لقد كان مالىنوفسكى رائد المدرسة الوظيفية كما كان فريزر رائد المدرسة التطورية . وهذا الاختلاف الجوهرى فى اتجاه كل منهما فى مجال البحث ، دفع كثيرا من الباحثين لأن يقرنوا بين العالمين ، هذا فضلا عن أن هذا الاختلاف يشير بادىء بدء الى تباين وجهتى نظرهما فى تناول المشكلات الاجتماعية المتعددة . وفيما يختص بنظرية السحر والدين والعلم ، فقد عاب مالىنوفسكى على فريزر أنه لم يفرق بين هذه الأمور من حيث الدور النفسى والاجتماعى الذى لعبه كل منها فى الحياة الاجتماعية ، بل انه فرق بينها من حيث أنها تعد مراحل متعاقبة للسلوك البشرى وتفكيره . ولو أن فريزر فرق بين هذه الأمور الحيوية فى حياة الانسان لأدرك أنها تعيش معا بنسب متفاوتة فى كل زمان ومكان، وأن كلا منها لعب دورا أساسيا فى حياة الانسان البدائى بحيث أنها جميعا شكلت حياته على نحو ما . فالانسان فى كل الظروف يمتلك معرفة من نوع ما تتركز على أساس تجريبى وهو يستخدمها منطقيا . فأبسط وسائله التكنولوجية وطريقة إشعاله النار وتكييفه لوسائل معيشته تتطلب منه معرفة من نوع ما عن المادة وطريقة تشكيلها واستعمالها . أى أن المعرفة ، بل المعرفة العلمية بحق هى رائد الانسان على الدوام فى علاقته بالمحيط الذى يعيش فيه . ولا يمكن أن

(1) Current Anthropology : 1966, p. 560.

توجد حضارة من الحضارات أيا كان مستواها ، بدون هذه المعرفة .
وويرتب على هذا أن الشخص الذى لديه الخبرة العلمية والمقدرة على
السيطرة على الوسائل الفنية ، تكون له مكانة بارزة في قومه .

والسحر بمعنى استخدام التعاويذ والطقوس في سبيل الوصول الى
نتيجة ذات تأثير فعال في حياة الناس ، بعد عاملا مساعدا للعلم والخبرة
التجريبية . فعندما تخون المعرفة العلمية الانسان البدائي ، فانه يتعامل
مع الطقس والمرض على سبيل المثال تعامللا سحريا . فالدافع النفسى
وراء ممارسة السحر اذن هو مقاومة المصير العثر وجلب المصير الخير .
وكما أن المعرفة الشعبية لأحوال الجو والظواهر الطبيعية بصفة عامة
تعد من مستلزمات الزعيم ، فان خبرته في عالم السحر تعد لازمة أخرى
له . وهو يصبح زعيما في هذه الحالة لا لأنه قادر على استخدام الوسائل
السحرية فحسب ، بل لأنه يقدم الجماعة ضمانا للخير ووسائل لتجنب
الشر ، وهكذا يرى مالينوفسكى أننا اذا شئنا أن نعدل مفهوم السحر
عما اصطلح عليه فريزر ، فاننا نقول : ان الدافع النفسى للسحر ليس
هو ترابط الأفكار التى ينجم عنها أن الشبيه ينتج الشبيه ، وأن العلاقة
التي تقوم بين الأشياء تستمر بينها على بعد الشقة بين بعضها البعض ،
وانما يتلخص هذا الدافع في سعى الانسان وراء نتائج طيبة تعود بالخير
على الجميع (١) .

وعلى هذا النحو يختلف ما لينوفسكى عن فريزر في مفهوم الدين .
فليس الدين مجرد استرضاء الانسان للقوى الالهية ، ولكنه احتجاج
نفسى يرتبط بالقضايا الأساسية الوجود الانسانى . فاذا كان السحر
يختص بمشكلات تفصيلية نوعية محددة وحسية ، فان الدين يختص
بمشكلات كبرى مثل الموت والخلود . فهو ببنيته الدوجماتية نظام
للاعتقاد الذى يحدد وضع الانسان بالنسبة للوجود ، والانسان يحل
مشكلاته الأبدية عن طريق الإيمان بالخلود وعن طريق مصالحته للالهة .

(1) Malinowski : «A scientific Theory of Culture, pp. 198-199.

ومن هنا يختلف العلم والسحر والدين عن بعضها البعض من حيث التفكير
الذهنى والتنظيم الاجتماعى والوظيفة • فالعلم يختص بالمعرفة والخبرة
الفنية ، والسحر حشد من الطقوس والأفعال والتعاويذ التى تجلب
المصير الخير للجماعة ، وأما الدين فيختص بالصلاة والشعائر وتقديم
التضحيات التى تربط الانسان بالقوى الإلهية وتعينه على استكناه
مصيره •

وهكذا نرى أن كلا من مالىنوفسكى الوظيفى وفريزر التطورى
يمثلان الضدين من حيث أن الأول يهتم بصلة هذه الجوانب الروحية
والفكرية بعضها ببعض ، فى حين أن الثانى يهتم بنشأتها بعيدا عن بعضها
البعض • كما أن مالىنوفسكى لم ير ، كما رأى فريزر ، أن الاهتمام
بالسحر يمثل نقصا فى عقلية الانسان البدائى حيث أنه يعيش فى مرحلة
حضارية محددة وحيث أن كلا من السحر والدين والعلم يؤدى وظيفة
بدرجات متفاوتة مع الانسان فى جميع مستوياته الحضارية •

وهناك فرق آخر جوهري بين الباحثين ، وهو أن فريزر كان يعد
الطقوس بديلة للأسطورة والعكس صحيح ، فإذا ما عثر على أسطورة
استطاع أن يحدد عن طريقها بالطقوس البديلة لها • أما مالىنوفسكى
فقد كان يرتبط كل الارتباط بالشواهد المرئية • حقا ان الأسطورة تعد
ميثاقا للسلوك الجماعى : فالعمليات الحضارية التى كرس جهده فى
البحث عنها عن طريق العمل الميدانى الذى يركز على الفروض النظرية،
تكون موضوعا لقوانين محددة • وهذه القوانين بدورها يهتدى اليها
الدارس عن طريق تحليله لوظيفة العناصر الأساسية من مجرد افتراضه
لتطور المراحل الحضارية عن طريق تعقبه للمخلغات الأثرية والاعتقادية •
فالباحث فى ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتحتم عليه اذن أن يحل
العناصر الحضارية ويربط بين بعضها البعض ربطا وثيقا حتى يتمكن من
الاهتداء الى الدور الذى تلعبه هذه العناصر فى حياة الشعوب وفى بنيتها
الحضارية • ومن ثم فان مالىنوفسكى قد رحب ببعض نظريات فرويد
فى علم النفس التحليلى بوصفها وسيلة لفهم العلاقة الوظيفية بين

الفولكلور والتنظيم الاجتماعي ، ومثال ذلك نظرية فرويد في الكبت نتيجة الدوافع الاجتماعية . وقد وجد مالمينوفسكى أن هذه النظرية تيسر للباحث تفسير بعض الرغبات المحددة والعقد اللتين تشير اليهما المادة الفولكلورية ويؤكدها التنظيم الاجتماعي . أى أنها تهى للباحث فرصة اقتفاء أثر النماذج الغريزية والميول العاطفية داخل نسيج البنية الاجتماعية . وفى الوقت نفسه رفض مالمينوفسكى استخدام عقدة أوديب فى تفسير البنية الاجتماعية للأسرة ، حيث أن الأسرة من وجهة نظره تكوين وظيفى يرتكز أولا وقبل كل شىء على بنية المجتمع وحضارته (٩) . أما فريزر فلم يكن فى الحقيقة يستعين بنظريات الباحثين ودراساتهم الا فى حدود امدادهم اياه بالمادة الأنثروبولوجية المدونة أو المروية .

وعلى الرغم من الاختلاف البين بين منهج كل من فريزر ومالمينوفسكى فى أبحاثهما ، وعلى الرغم من تباين النتائج العلمية التى توصل اليها كل منهما ، فإن الجهد الذى بذله فريزر فى دراساته مازال وسوف يظل يلعب دورا أساسيا فى الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة . ولقد أقر مالمينوفسكى بهذا الفضل أكثر من مرة ، فقال من بين ما قاله : « لم أكد استمر فى قراءاتى فى عمل فريزر العظيم « الغصن الذهبى » حتى وجدت نفسى منغمسا فى هذا العمل الرائع وواقعا فى أسرهِ . بل اننى فرضت على نفسى منذئذ خدمة الدراسات الأنثروبولوجية » (١) . كما قال عنه ك . س ماثور : « حقا ان عظمة فريزر لا تتمثل فى نظرياته ، ولكنها تتمثل فى غنى مادته وطريقة تحكمه فيها عبر مساحات شاسعة من كوكبنا وعبر عصور طويلة ، كما تتمثل فى مقدرته على تصنيف مادته وتفسيرها » (٢) .

ويهمنا الآن أن نتبين من خلال عرضنا لكتاب « الفولكلور فى العهد

(1) They Studied Man. p. 172.

(2) Current Anrhropology, 1966, p. 567.

القديم» (١) ودراسة مادته ، كيف حقق فريزر من ناحية ، منهجه التطوري ، حيث أنه يصرح في مقدمته بأن هذا هو هدفه من بحثه فيقول : « وقد حاولت في هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبا بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعلمية في المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التي تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التي تعيش حتى اليوم من عادات • وإذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح في هذه المحاولة ، فإنه سيكون من الممكن النظر في تاريخ بنى اسرائيل في ضوء أكثر صدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحي الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعي بطيئة • ومن ناحية أخرى فأننا نود أن ندرس نظرية فريزر في السحر والدين كما تتمثل في هذه الدراسة •

الفولكلور في العهد القديم :

ينقسم الكتاب بأجزائه الثلاثة الى أربعة أبواب كبيرة يندرج تحت كل منها عدة فصول « وهذه الأبواب هي على التوالى : عصور الحياة الأولى ، عصر الآباء والشيوخ ، عصر الملوك والقضاة ، القانون • ويتفق هذا القسم مع تطور تاريخ بنى اسرائيل الذى يبدأ ، شأنهم أى شعب آخر ، بآدم عليه السلام • أى أن المؤلف يبدأ بأول قصة في العهد القديم وهي قصة الخلق •

(١) صدر الكتاب في ثلاثة مجلدات كبيرة عام ١٩١٩ • وفي عام ١٩٢٢ أصدر المؤلف طبعة مختصرة له تكاد تحتوى على كل أبواب وفصول النسخة الأصلية المطولة • وليس هذا الكتاب سوى عمل واحد من أعمال فريزر العديدة التى ربما استغرق مجرد ذكرها بضع صفحات من هذا البحث •

أولا : عصور الحياة الأولى :

١ - قصة الخلق :

ملخص هذه القصة أن الرب ، وفقا لرواية الاصحاح الأول في سفر التكوين شرع في خلق كل الكائنات وفي نهاية الأمر خلق الرجل والمرأة من الطين ، أو انه وفقا لرواية الاصحاح الثاني من هذا السفر نفسه خلق الرجل ومن بعده سائر الكائنات وفي النهاية خلق المرأة من ضلع الرجل . ثم أسكن آدم وحواء في جناته وكفل لهما فيها الحياة البرغدة ، وسمح لهما أن يأكلا الثمار فيما عدا ثمار شجرة المعرفة ، ثم جاءت الحية الى حواء وأسرت اليها بأن الرب انما حرم عليهما أن يأكلا من ثمار هذه الشجرة حتى لا يكونا عارفين بالخير والشر . وكان هذا الاغراء كفيلا بأن يجعل يد حواء تمتد الى ثمار الشجرة لتأكل منها وتقدم منها لزوجها كذلك . ولم يكن الرب قد علم بما ارتكبه الأبووان الأولان من حماقة . وذات يوم عندما كان الرب يتمشى في جناته وجد آدم وحواء مختبئين خجلا بعد أن انكشفت لهما عورتهم أثر أكلهما من الشجرة فنادى عليهما وأسرع في طردهما عن الجنة ، وذلك خوفا من أن يتهورا مرة أخرى ويأكلا من شجرة الحياة فيصبا خالدين مثله .

وقد استلقت نظر فريزر في هذه القصة مشكلات ثلاثة فتحت له باب المقارنة على مصراعيه بين هذه القصة وقصص الخلق التي رويت أو تترال تروى بين الشعوب البدائية . وهذه المشكلات هي : أولا : خلق الانسان الأول من الطين . ثانيا الدور الذي لعبته الحية في صراع حواء ثالثا : حرمان الانسان من الخلود . أما عن العنصر الأول فتكاد تتفق حكايات جميع شعوب العالم على أن الانسان الأول قد شكل من طين : فمن ذلك ما حكى « عن سكان استراليا السود الذين يسكنون ضواحي ملبورن أن « بندر - جل » الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينة الكبيرة ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح وأخذ

يسويه بسكينة حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان فصنع الأقدام أول الأمر ثم الأرجل فالجذع فالأذرع فالرأس . وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا . وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الكافور وصنع منها شعيرا لصقته في رأسي رجلية المصنوعين من الطين . ثم نظر اليهما مرة أخرى تعبيرا عن سعادته وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة في غم كل منهما وفي أنه وسرته . وفي الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملي النمو » (١) .

وأما عن اقحام الحية نفسها في حياة أول رجل وأمرأة خلقهما الرب ، فهو يرجع من وجهة نظر فريزر الى اعتقاد الانسان البدائي في أن الحية كانت سببا في حرمان الانسان الخلود بعد أن سلبت منه هذه المنحة الجليلة . وقد اعتقد الانسان البدائي في هذا الاعتقاد لأنه رأى أن الحية تغير جلدها في مواسم معينة ومن ثم فقد تصور أنها بذلك تجدد شبابها ولا تموت على الاطلاق . على أن الحية ليست هي الحيوان الماكر الوحيد الذي ربط بينه وبين الانسان البدائي وبين حرمانه الخلود ، فقد روت حكايات عديدة كيف أن القمر أرسل الأرنب أو الكلب أو السلحفاة لتبلغ الانسان أنه عندما يموت فسوف يحيا مرة أخرى تماما كما يحدث للقمر الذي يصبح محاقا ثم ما يلبث أن يولد هلالا مرة أخرى . ولكن هذه الحيوانات كانت دائما تغير من قصوى الرسالة وتبلغها خطأ للانسان . وبهذا كتب على الانسان الموت بسبب تبليغ هذه الحيوانات الرسالة الخاطئة اما عمدا أو غباء .

على أن حكاية التوراة لم تحك أن الانسان كان قد منح منحة الخلود ثم فقدها بسبب خداع الحية له . ولكن لما كان ذكر شجرة الخلود

(1) Folklore in the Old Testament, p. 4.

يعد غريبا عن الموضوع بخاصة اذا وضعناها جنبا الى جنب مع شجرة المعرفة ، فقد افترض المؤلف أن حكاية التوراة تعد رواية محرفة لرواية أخرى أصلية حكّت عن شجرتين في الجنة حرمتا على الانسان وهما شجرة الفناء وشجرة انحية . وقد افترض المؤلف كذلك أن الرب الذي كان رحيمًا كل الرحمة بالانسان فأسكنه جناته وأنعم عليه من كل خير ، أمر الانسان ألا يأكل من شجرة الفناء وأن يأكل من شجرة الحياة ثم جاءت الحية الماكرة التي شاعت أن تحرم الانسان من الخلود ، وأضلت الانسان حتى أكل من شجرة الفناء وبذلك حرم الخلود وأصبح من الفانين .

— فإذا صححت الرواية على هذا النحو ، ولا بد لها من ذلك حتى يكون هناك تناسق بين مغزى الشجرتين المعنيتين من ناحية ، وحتى لا تنسب الى الرب صفة الأنانية التي نسبتها إليه التوراة عندما صورته حريصًا على الاستئثار بالمعرفة والخلود لنفسه (١) — فإن الحكاية تكون شبيهة كل الشبه بحكايات البدائيين التي روت عن خلق الانسان من الطين وعن اكتسابه الخلود ثم حرمانه هذه المنحة نتيجة خداع حيوان من الحيوانات الماكرة له .

٢ — علامة قابيل : وبعد أن هبط آدم وحواء الى الأرض أنجبا قابيل وهابيل . « وكان هابيل راعيا ذاغنم وكان قايين عاملا في الأرض . وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من ثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم قابيل من أبكار غنمه ومن سمانها . فنظر الرب الى هابيل وقربانه ، ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر . فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه .

(١) « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر والان لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الابد . فأخرجه الرب من جنة عدن يعمل الارض التي أخذ منها . فطرد الانسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبريم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » . سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ .

فقال الرب لقايين : لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك • ان أحسنت أفلا
رفع وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة واليك اشتياقها وأنت
تسود عليها • وكلم قايين هابيل أخاه وحدث اذ كانا في الحقل أن قايين
قام على أخيه وقتله • فقال الرب لقايين : أين هابيل أخوك • فقال
لا أعلم ، أحارس لأخي • فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ الى
من الأرض ، فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم
أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها تائها وهاربا
تكون في الأرض • فقال قايين للرب : ذنبي أعظم من أن يحتمل ، أنك
قد طردتني اليوم من وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا
من الأرض ، فيكون كل من وجدني يقتلني • فقال له الرب لذلك كل من
قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه • وجعل الرب لقايين علامة لكي
لا يقتله كل من وجده» (١) •

وعندما قرأ فريزر هذه القصة قراءة العالم الفاحص ، لاحظ مايلي :
أولا : أنه على الرغم ، من أن قابيل قتل أخاه هابيل ، فان الرب حكم
بأن من يقتل قابيل ينتقم منه سبعة أضعاف • **ثانيا** : أنه يبدو أن
الأرض كانت تعج بالناس بحيث أن قابيل كان يخشى من يتعقبه ويأخذ
منه بالنار ، والواقع أن الأرض ، وفقا للروايات الدينية ، لم يكن يعمرها
آنذاك سوى آدم وأبنائه • **ثالثا** : استلقت نظر المؤلف بصفة خاصة
قول « الرب : صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن ملعون
أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت
الأرض لاتعود تعطيك قوتها • » ومن ثم فقد تساءل المؤلف عن علاقة
الأرض بفعل الآثم ، بحيث أنه لو عاد وأفلحها ، فانها لن تقدم له
ثمارها اليانعة • **رابعا** : ان الرب جعل لقابيل علامة ما لكي لا يقتله
كل من وجده • وأمام هذه المشكلات التي أثارها الحكاية وقف المؤلف
يحل رموزها بأسلوبه المتدفق واستقصائه البالغ في تقصى التراث الشعبي

(١) سفر التكوين ٤ : من ٢ : ١٥ •

البدائي • وقد بدأ تساؤله عن كنه هذه العلامة التي علم بها الرب قايين وسبب تعليمه إياه بها ، لأنه رأى أن فهم مغزى هذه العلامة يعد مفتاحاً لفهم سائر النقاط التي أثارها •

لقد كانت الشعوب البدائية وشعوب الحضارات تنفى القاتل وتحرم عليه أن يطأ أرض بلده إلا بعد القيام بأجرات طقوس وشعائر محددة كما هو واضح في قانون أتيكا ، وذلك خوفاً من أن تصاب الأرض بالدنس أو على الأقل تصاب بالجذب • ويؤيد هذا قصة « أخاميون » الاغريقية • فقد ظل « الأخاميون » القاتل لأمه ، شريداً هائماً على وجهه • وكان كلما وطئت قدمه أرضاً لفظته هذه الأرض • حتى لجأ في نهاية الأمر إلى نبوءة دلفي يلتمس عندها العون • وأخبرته النبوءة أن الأرض الوحيدة التي لن تشقى بمأساته هي الأرض التي لم يكن البحر قد انحسر عنهما وقت ارتكابه جريمته • فاستمر الأخاميون في تجواله حتى عثر على هذه الأرض • ولكنه ما كاد يطأها بقدمه حتى لفظته هذه الأرض كذلك • وهكذا ظل الأخاميون هائماً على وجهه طوال حياته • وهنا يتساءل الكاتب عما إذا كانت العلامة التي علم بها قاييل إشارة إلى إثمه حتى يتجنبه الناس خوفاً من أن يصابوا بعدوى هذا الجرم ؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك ، كما تشير إلى ذلك معتقدات بعض الشعوب القديمة ، فإن هذا يتناقض مع السبب الذي من أجله علم الرب قاييل ، إذ من الواضح من القصة التوراتية أن الرب علمه لكي لا يقتله كل من وجده • فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من البحث عن مغزى آخر لهذه العلامة • وهنا يتجول بنا المؤلف مرة أخرى مع الشعوب البدائية لعلنا نهتدي إلى تفسير آخر لهذه العادة • ولا بد أن يكون التفسير في هذه الحالة في صالح القاتل ، حيث أن الرب نفسه قد أصدر حكماً في صالح قاييل القاتل • وقد انتهى فريزر من خلال المقارنات ، إلى أن هذه العلامة لا بد أنه كان يقصد بها أبداء قاييل في مظهر متنكر لشبح العلامة لا بد أنه كان يقصد بها إيذاء قاييل في مظهر متنكر لشبح يقول في خاتمة بحثه : « ويمكننا أن نفترض على نحو هذا (أى على

نحو ما تفعل بعض القبائل البدائية) أن قابيل قد هدا روعه بعد أن علمه الرب بعلامة معتقدا بذلك أن شبح أخيه الذي قتله لن يتعرف عليه ويضايقه . على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بها على وجه التحديد شكل العلامة التي علم بها أول قاتل على وجه الأرض . ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضوع . فإذا كان من حقنا أن نحكم على هذه العلامة . مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك في الوقت الحاضر ، فإن الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضاء أو سوداء ، وربما مزج بين هذه الألوان ليكون منها لونا مناسباً فعلمه به ، وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال وربما لونه بلون أبيض كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل الأرونقانيون ، وربما لون نصف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « المساي » والنانديون^(١) .

ولم يشأ فريزر أن ينتهي من هذا الفصل قبل أن يبدى سخريته مما تضمنته التوراة من سخافات فقال . « ان تفسير علامة قابيل على هذا النجو من شأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ، فإن تفسير العلامة بأن الرب قد علم قابيل بها لكي يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان آخر فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن هناك على وجه الأرض من يقتله ، حيث أن الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل وولديه . أما اذا تبيننا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح انسان حى ، فإننا نتجنب بذلك التهاون الوقح المائل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم مع صفات الرب العالم بكل شئ »^(٢) ثم يقول مزهوا بمنهجه المقارن : « ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب »^(٣) .

٣ - الطوفان الكبير : وقد روت كل شعوب العالم على وجه التقريب

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٤٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٥ .

قصصا عن الطوفان الكبير الذى أغرق الأرض ومن عليها فيما عدا رجلا واحدا . وربما كانت أقدم قصة من هذا النوع ، تلك القصة البابلية التى وردت ضمن ألواح ملحمة جلجامش الشهيرة . ومن المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة كانت مستقلة بادية الأمر ، ثم أدمجت ضمن حوادث الملحمة وتعد هذه القصة وغيرها من القصص التى روت عن حوادث انفيضانات ، صدى لحوادث طبيعية غمرت فيها الأنهار الأرض أو حدث صدع فى صخور كانت تعد بمثابة خزان طبيعى ، فتدفقت المياه أثر ذلك كما حدث عندما تدفقت مياه البحر الأسود فى البحر الأبيض محطمة السدود الصخرية التى كانت تفصلهما تماما عن بعضها البعض ، كما يؤكد علماء الجيولوجيا . وبناء على ذلك فربما انتقلت قصة طوفان نوح التى وردت فى الكتب السماوية والتى ربما حدثت فى بلاد بابل ، حيث أن الحوادث الطبيعية من هذا النوع كانت مألوفة فى هذه المنطقة ، الى بلاد أخرى فحكى عنها ثم أطلقت على البطل الذى خاض هذا الطوفان اسما محليا . على أن هذا لا ينفى أن هناك قصصا أخرى نشأت مستقلة فى أنحاء أخرى من بلاد العالم وأن هذه القصص قد تأثرت بقصة الطوفان التى رواها المبشرون بشكل أو بآخر ، ذلك أن هذه القصص تكاد تتفق جميعا مع القصة الدينية فى عناصرها الأساسية وهى حدوث طوفان كبير أغرق الأرض ومن عليها فيما عدا رجلا واحدا أو رجلا وزوجته . ثانيا : نجاة هذا الشخص فى فلك أو على رمث بعد أن جمع معه صنوفا شتى من الطيور والحيوانات ومن الحبوب حتى يتمكن من تعمير الأرض بعد أن ينتهى الطوفان . ثالثا : محاولة هذا الشخص استكشاف أحوال الأرض بعد انتهاء الطوفان عن طريق إطلاق طير حمل اليه قطعة من طين الأرض اليابسة أو فرعاً من فروع الشجر .

وعلى الرغم من أن فصل الطوفان الكبير قد استغرق حيزا كبيرا من كتاب فريزر ، اذ أنه يقع فيما بين ص ١٠٤ و ص ٣٦٠ من الجزء الأول

من الكتاب الأصلي ، الا أن هذا الفصل لا يدخل ، ومن وجهة نظرنا ، ضمن أبحاث الكتاب الأساسية التي تتركز حول دراسة أشكال العبادات وطقوس السحر دراسة مقارنة بين العبرين القدماء والشعوب البدائية .
حقا ان فريزر ملترم في هذا الفصل كذلك بمنهجه المقارن ، الا أنه يقارن فيه بين قصص مختلفة رويت فيما يبدو ازاء حوادث طبيعية معينة .

٤ - برج بابل : من بين المسائل الشائكة التي تتصل بالبحث في أصل الجنس البشري ، مسألة اللغة أو بالأحرى اللغات المختلفة التي تحدثت بها أجناس البشر منذ الأزل . فكيف تعددت هذه اللغات واختلفت كل الاختلاف بعد أن كان الجنس البشري كلا واحدا يعيش في بقعة واحدة من الأرض ؟ هذه المسألة جذبت بطبيعة الحال أنظار العبرين القدماء وفسروها على النحو التالي :

كان الجنس البشري بأسره يتحدث لغة واحدة في بداية الحياة . ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من جهة الشرق حتى وصلوا الى سهول شنعار الفسيحة : أو الى أرض بابل ، وهناك حطوا رحالهم وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن ألصقوا بعضه ببعض الآخر بملاط من الطين . على أنهم لم يكتفوا ببناء مدينة ، وانما رأوا أن يشيدوا برجاً عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التي بنوا بها مساكنهم . والسبب الذي دفعهم لبناء هذا الهرج هو أن يكون البرج علامة لهم من ناحية ، وحتى لا يتفرق الناس على وجه الأرض من ناحية أخرى ، ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه في السهول المترامية ، فإنه ينظر الى الورا غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعكست عليه أضواء سماء المساء البراقة . أو أنه ينظر شرقا فيعصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغروب . وعند ذاك يسلك طريقه مسترشدا بهذا المعلم حتى يصل الى بيته . وقد كانت هذه الخطة سليمة لولا أنهم لم

يكونوا قد وضعوا في حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم • فبينما كانوا يشيدون البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء لييصر المدينة والبرج الذي كان الناس يعلون به في سرعة فائقة • فساء هذا المنظر وقال لهم : « ها هم أولاء شعب واحد له لسان واحد ، وهذا ما شرعوا في عمله ، ولن يمنعهم شيء من تحقيق غرضهم » ^(١) ويبدو أن الرب كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان السماء يتسلقه الناس ويقضون مضجعه وهو الأمر الذي لم يفكر فيه الناس • ولذلك فقد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة في مهدها ، وقال لنفسه أو لجمعه السماوي « لنهبط الى الأرض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا » ^(٢) وعند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم على وجه الأرض • ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج • وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة لأن الرب قد بلبل فيه لغات الناس جميعا • وقد روت القبائل الاغريقية وقبائل المكسيك وبورما بل والاغريق القدماء حكايات شبيهة بتلك الحكاية ، وكان الغرض من بناء البرج اما قتل الاله الذي كان يسكن معهم في الأرض ذات يوم ثم غضب من الناس وصعد الى ملكوته السماوي ، أو رؤية القمر على حقيقته • وقد كانت النتيجة واحدة في كل هذه الحكايات وهي سقوط البرج وقتل الناس الذين حاولوا تسلقه وبلبله السنة الناس جميعا وتفرقهم في بقاع الأرض • والى هنا ينتهى المجلد الأول من الترجمة ، أما المجلد الثانى فيشتمل على الجزأين التاليين :

أولا : عصر الشيوخ والآباء :

١ - عهد ابراهيم : يبدأ هذا العصر بأبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام • وتحكى التوراة ان ابراهيم خرج من أرض بابل الى أرض كنعان • وهناك ظهر الرب وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور

(١) سفر التكوين ١١ : ٦ •

(٢) سفر التكوين ١١ : ٨ •

الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لثريتها • فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم
انى أرثها • فقال له خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة
وحمامة ، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط ، وجعل شق كل واحد مقابل
صاحبه • وأما الطير فلم يشقه فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام
يزجرها • ولما صارت الشمس الى المغرب وقع على ابرام سبات واذا
رغبة مظلمة عظيمة واقعة عليه • فقال لابرام أعلم يقينا أن نسلك سيكون
غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمئة سنة •
ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها • وبعد ذلك يخرجون بأمالك
جزيلة ••• ثم غابت الشمس فصارت العتمة واذا تنور دخان ومصباح
نار يجوز بين تلك القطع • في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام
ميثاقا » (١) •

فهذه القصة تحكى عن ميثاق عقد بين ابراهيم والرب ومن ثم فقد
سمى فريزر هذا الفصل « عهد ابراهيم » • ومن الواضح أن
العهد قد تم بين ابراهيم والرب بعد أن أدى ابراهيم طقوسا معينة بناء
على أمر الرب ، وهى القيام بذبح تلك الطيور التى ذكرها الرب وشطرها
ثم وضع شطرى كل حيوان فى مقابل بعضهما بعضا • وعندما مر الرب
بين هذه القطع كان هذا تأكيدا للعهد الذى قطعه الرب مع ابراهيم
على أن تكون الأرض التى رحل اليها له ولنسله من بعده •

ومن الطبيعى أن تستلفت هذه الشعيرة التى أدّاها ابراهيم فى سبيل
اتمام هذا العهد بينه وبين الرب ، نظر العلامة فريزر الذى قضى عمره
فى دراسة شعائر البدائيين وطقوسهم ، فراح يقارنها بشعائر البدائيين
لاستخلاص مغزاها وهدفها • وقد انتهى فريزر ، بعد استقصاء بالغ
لتلك الشعيرة ، الى أنها تفسر من خلال نظريتين : النظرية الأولى هى
نظرية الجزاء والنظرية الثانية هى نظرية التطهير أو الوفاء • أما النظرية

(١) تكوين ١٥ : ٧ الى ١٨ •

الأولى فتدعمها تلك العادة التي كانت تتبع في جزيرة نياس عند عقد عهد بين طرفين أو عندما كان يقسم الطرفان على أمر ما • وفي هذه الحالة يجز الطرفان رقبة خنزير رضيع بينما يدعو كل طرف على نفسه بأن يصاب بمثل هذه القتلة إذا ما نقض العهد أو حنث باليمين • وأما النظرية الثانية فيؤكد ما يقوم به عرب موآب عندما ينتابهم القحط أو الوباء • عند ذاك يقف الشيخ وسط الخيمة ويهتف قائلا : « اغتدوا أنفسكم أيها الناس ، اغتدوا أنفسكم » عندئذ تأخذ كل أسرة شاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين تعلقهما أسفل الخيمة أو على عامودين أمام الخيمة • ثم يمر أعضاء الأسرة جميعا بين شطري الضحية اعتقادا منهم أن شطري الضحية لهما القدرة السحرية على طرد شبح الوباء أو الكارثة • ومعنى هذا أن الناس ينظرون الى الكارثة أو الوباء بوصفه شخصا شريرا يشهر سيفه ويأتى على كل ما يقابله • فإذا اعترضت الضحية طريقه كالأسد الرابض نشب صراع مفرع بينهما ينتهى بقهر هذا الكائن الشرير بينما تظل الضحية المنتظرة مسيطرة • فالتفسير المتطهيرى أو الوقائى يتلاءم مع هذا المثال ، فى حين ينتفى عنه التفسير الجزائى • اذ ليس من المعقول أن يتسبب قتل الشاة فى موت الناس الذين يمرون بين أجزائها • بل ان الناس يعتقدون ، على عكس هذا ، أن الضحية تحميهم من الشر الذى يتهدد حياتهم بشكل أو بآخر • وفى ضوء هذين التفسيرين حاول فريزر أن يفسر مغزى الشعيرة العبرية • وقد رأى أنه من الأوفق تفسيرها من خلال النظرية الوقائية عن أن نفسرها من خلال النظرية الجزائية • ولكنه فى الوقت نفسه أخذ يتساءل عن صلة هذه الشعيرة بفكرة التطهير أو الوقاء • وفى هذا يتبنى فريزر وجهة نظر روبرتسون سميث فيما سماه « بالسر المقدس » لهذه الشعيرة • ويفترض روبرتسون بناء على هذه النظرية أن الذين يمرون بين أجزاء الضحية أو يقفون فوقها ، يتحدون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا فى رابطة الدم • أى أن هذا العهد ليس سوى شكل آخر لعادة تنتشر حتى اليوم على نطاق واسع تعرف بعهد الدم •

والمتعاهدون ، وفقا لهذه العادة يمزجون قدرا من دمائهم بعضا ببعض ، وبذلك ينشأ فيما بينهم نوع من القرابة العصبية الوثيقة • على أن فريزر المدقق لم يتبين نظرية روبرتسون سميت بطريقة عمياء ، وانما رأى أن تفسير الشعيرة العبرية ينبغي أن يجمع بين نظريتي الجزاء والوقاية معا • فشطر الذبيحة الى شطرين يرمز الى مصير الحانث بالعهد ، كما أن مرور المتعاهدين بين شطري الذبيحة يفسر من خلال النظرية الوقائية أو نظرية السر المقدس • فكلتا النظريتين ، من وجهة نظره ، تكمل احدهما الأخرى ، كما أنهما معا تقدمان تفسيراً متكاملًا لهذه الشعيرة •

على أننا نرى أن الشعيرة العبرية لا يمكن أن تفسر الا من خلال نظرية السر المقدس على نحو ما شرحها روبرتسون سميث فيكون مغزها عندئذ هو عقد أواصر الرباط المقدس بين ابراهيم والرب أثر هذا الميثاق الذى عقده الرب معه • اذ ليس من المعقول أن تفسر الشعيرة أو بالأحرى يفسر جزء منها بالنظرية الجزائية التى يلقي الرب وفقا لها جزاء مشابها بمصير المضحية اذا ما حنث بالعهد الذى قطعه على ابراهيم •

٢ - أرث يعقوب أو نظام وراثته الابن الأصغر :

ويستمر فريزر مع التوراه فى تعقب تاريخ بنى اسرائيل • ولكنه ترك اسحق جانبا ليفرغ لعرض حياة يعقوب الحافلة بالمغامرات التى لم تخل من معتقدات وطقوس بدائية ظلت عالقة بها •

وقد بدأ فريزر هذا الفصل بتصوير شخصية يعقوب كما تتمثل فى التوراه • ولا بد أن الكاتب اليهودى قد أبرز من خصال يعقوب ما هو محبب الى نفسه وإلى قومه • ذلك أن يعقوب فى التوراه يعد « مثالا للتاجر السامى اللين الحذق الوافر الحيلة الذى يحرص على الكسب وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة بل بالحذق دون أن يتردد كثيرا

في اختيار الوسائل التي يبرز بها منافسيه ويتفوق عليهم » (٢٣) . ومن ثم فقد خلت شخصية يعقوب في التوراة من كل من الوقار الذي اتسم به جده ابراهيم . والورع التأمل الذي اتصف به اسحق . وقد عكف فريزر على حادثتين في حياة يعقوب لم يتردد فيهما في استخدام كل أساليب المكر والخداع في سبيل الحصول على مكسب شخصي . مون حسن الحظ أن هاتين الحادثتين الشائقتين اشتملتا على نماذج من الطقوس والمعتقدات البدائية التي عنى فريزر بابرارها من خلال حكايات التوراة . أما الحادثة الأولى فهي حادثة خداع يعقوب لأخيه الأكبر عيسى لكي يسلب منه حقه في الارث وفي بركة أبيه ، وأما الحادثة الثانية فهي حادثة خداعه لخاله لابان بعد أن تزوج من ابنتيه ، وقضى معها زمنا طويلا . وبين الحادثتين هناك حوادث أخرى لم يتركها المؤلف عابرا ، وإنما حاول كذلك أن يستخلص ما فيها من معتقدات وعادات بدائية .

وقد عمد يعقوب الى الحيلة التالية التي تحكيها التوراة في سبيل خداع أخيه لقد جاء الى أبيه الكفيف اسحق مصطنعا مذمسا أخيه عيسو ، بأن ارتدى جلد نعجة ، ومصطنعا صوته ، وادعى لأبيه أنه عيسو وأنه جاءه ليخلع عليه البركة . فباركه أبوه ، وبذلك سلب حق أخيه في البركة . أما سائر حق عيسى في الارث فقد اشتراه منه مقابل أكلة من الثريد عندما كان عيسو يعاني آلام الجوع . وهنا يتساعل فريزر عما اذا كان سلوك يعقوب على هذا النحو حقا بدافع خداع أخيه وأبيه ، أم أن عادة الابن الأصغر في الارث كانت ما تزال تتبع فعلا في هذا الوقت ثم تغيرت فيما بعد الى عادة حق الابن الأكبر في الارث في زمن كتابة سفر التكوين ، ومن ثم فقد فسر كاتب السفر خلع اسحق البركة على ابنه يعقوب على أنه من قبيل خداع يعقوب لأخيه وأبيه ؟

(٢٢) الفولكلور في العهد القديم : ص ١٧٢ .

هذا هو موضوع هذا الفصل • ومن ثم فقد استطرد فريزر في ذكر تفاصيل عادة حق ارث الابن الأصغر ، فساق الشواهد العديدة عليها • فقد كانت العادة المتبعة في الأسر القديمة التي كانت تعيش في ظل النظام الرعوى أو الزراعى المتنقل ، أن يهجر الابن الأكبر أبويه بحثا عن حياة رعوية أو زراعية مستقلة ، كما كان اخوته يفعلون فعله عندما يكبرون بحيث لا يبقى في بيت الوالدين سوى الابن الأصغر الذى يكلف برعاية والديه وأخوته • ومن الطبيعى بعد ذلك أن يكون لهذا الابن الأصغر حق ارث مسكن والديه كذلك أدوات البيت والأرض الى غير ذلك • ومما ساعد على ممارسة هذه العادة كثرة الأراضى وقلة السكان • فلما استقرت الأسر فيما بعد ولم يعد هناك مزيد من الأراضى الشاسعة ، انتقل هذا الحق الى الابن الأكبر • ولم تكن عادة حق ارث الابن الأصغر متبعة بين القبائل البدائية فحسب ، كما لاحظ ذلك فريزر ، وانما كانت نظاما منتشرا في كثير من بقاع العالم ومنها انجلترا وفرنسا •

وحيث أن يعقوب كان من وجهة نظر فريزر ، صاحب الحق الشرعى في ارث أبيه ، وهو الأمر الذى غفل عنه كاتب سفر التكوين ، حيث أن هذه العادة كانت قد تغيرت في عصره ، فان ارتداء يعقوب جلد النعجة لم يكن بناء على ذلك ، بدافع اصطناع ملمس أخيه لخداع أبيه ، ومن ثم فانه ينبغى أن يفسر هذا التصرف تفسيرا مقنعا آخر • وقد توصل فريزر ، من خلال المنهج المقارن الى أن هذه العادة كانت تتبع في مناسبات حيوية متعددة منها الميلاد والتبنى والمرض والختان • فإذا كانت مناسبة من هذه المناسبات ، بقرت نعجه ، ووضع المريض أو الصبى أو الطفل أو المريض بداخلها • وقد تتبع هذه العادة بشكل آخر وهو لف الصبى أو الطفل أو المريض بشرائح من جلد النعجة بعد ذبحها وتفسير هذه العادة هو أن الشخص الذى يوضع في بطن النعجة أو يرتدى جلدها يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى

يكون بمثابة الحاجز بينه وبين اذاء القوى الشريرة المتربصة به في هذه المناسبات بصفة خاصة . ومن ثم فان القوى الشريرة توجه أذاها الى الحيوان بدلا من الشخص .

وأحيانا كانت هذه العادة تتبع في مناسبة أخرى يطلق عليها الميلاد الجديد . وهذا الميلاد الجديد يكون في حالة التبنى أو رفع شخص الى مرتبة أسمى من مرتبته الاجتماعية ، أو في حالة ما اذا عاد شخص الى قومه بعد غيبة طويلة ، بحيث أنهم عدوه من الأموات . وفي هذه الحالة يوضع الشخص في تجويف نعجة ويصطنع صراخ الطفل وكأنه يولد من جديد . وهكذا ينتهي فريزر من هذا الفصل بالنتيجة التالية فيقول : « فاذا عدنا من النقطة التي بدأنا منها فاننا نذكر على سبيل الافتراض أن حكاية الخديعة التي ارتكبها يعقوب مع أبيه أسحق تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجديد من عنزة ، الذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه أو يرغبون في اتباعه عندما يفضل الابن الأصغر في الحقوق على حساب أخيه الأكبر الذى مازال على قيد الحياة ، تماما كما يتظاهر الرجل الهندى في أيامنا هذه بأنه يولد من جديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم اما نتيجة حظه العثر أو بسبب سوء سلوكه . وربما بسط هذا الاحتفال الغريب عند العبرين كما بسط عند الأكيكوير ، فأصبح يمثّل في ذبح عنزة ووضع قطع من جلدها على الشخص الذى يعتقد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى . فاذا كان افتراضى هذا صحيحا ، فان كاتب قصة يعقوب في سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة ، وان كان قد أساء فهمها في الوقت نفسه » (١) .

ثم رحل يعقوب الى حران موطن خاله لابان ، وذلك بناء على نصيحة أمه . أما السبب الذى يعزوه المصدر اليهودى لذلك ، فهو خوف

(١) الفولكلور في العهد القديم ص ٢٢٣ .

الأم على ابنها يعقوب من غضب أخيه عيسو . وأما المصدر الكهنوتي فيفسر ذلك بأن الأم لم تشأ لابنها أن يتزوج من بنات الكنعانيين الذين كان العبريون يعدونهم كفرة فارسلته الى خاله ليتزوج من إحدى بناته . ومهما يكن سبب رحيل يعقوب الى حران ، فإنه اتخذ طريقه الى هناك عبر الجبال والصخور والفيافي الشاسعة فلما جن عليه الليل وكان يسير فوق جبل ، استلقى على الأرض ووضع رأسه على صخرة وراح في نوم عميق . فرأى في رؤياه سلما منتصبا يصل بين السماء والأرض والملائكة صاعدة هابطة عليه . ثم سمع صوت الرب يباركه ويعده بأن هذه الأرض ستكون له ولأبنائه من بعده . فلما استيقظ يعقوب مسح الحجر الذي اتخذته وسادة له وأطلق على المكان اسم « بيت ايل » أى بيت الرب . ومنذئذ أصبح هذا الحجر مقدسا لدى العبريين القدماء . ويعلق فريزر على هذه الحادثة بأنها حكاية لفقها العبريون القدماء ليبرروا بها حلمهم القديم في امتلاك هذه الأرض ليصبحوطنا قوميا لهم . ذلك أن هذا المكان بعينه كان الكنعانيون ، سكان البلاد الأصليون يعبدون آلهتهم عنده . ومهما يكن مصدر هذه الحكاية فإنها تخفى بين سطورها بقايا عبارات ومعتقدات قديمة . وهنا يسوق فريزر القرائن التى تشير الى اعتقاد بعض الشعوب فى أن لجوءهم الى بعض الأماكن المقدسة ونومهم فى ساحتها ، يساعدهم على ظهور الآله لهم فى رؤياهم فينتسنى لهم عند ذاك أن يسألونها عما يعن لهم من أمور . أو يطلبون منها الشفاء من مرضهم . كما كان الناس فى الزمن القديم يتصورون أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم . بل أن بعض الشعوب كان يضع سلما صغيرا فى القبور لكى يسهلوا على الأرواح عملية الصعود الى مأواها . ولم تكن فكرة عبادة الحجر الذى يسكنه الرب غريبة على الاسرائيليين القدماء . فقد اتهم النبى أشعيا الاسرائيليين الذين كانوا يعبدون الأحجار المساء المتأكلة بفعل المياه وهى تلك الصخور التى كانت تقع فى الأخاديد الجذباء ، ويصبون عليها الخمر ويقدمون لها النباتات ،

اتهمهم بالوثنية • وعلى كل فان الاسرائيليين لم ينفردوا بعبادة
الأحجار ، بل شاركهم في ذلك كثير من الشعوب من بينهم العرب
الجاهليين •

٣ - العهد على ركام الأحجار : ثم تستمر التوراة في سرد
قصة يعقوب ، فتحكى عن زواجه من ابنتى خاله لابان ، لبئة وراحيل •
وفي مقابل ذلك مكث يعقوب عند خاله فترة من الزمن يرعى له قطعان
ماشيته • وبعد فترة من الزمن ، راجع يعقوب مكسبه المادى عند
خاله فلم يجده شيئاً • فقرر ن يسلب مواشيه ، وأن يهرب مع
زوجتيه وأولاده تحت جنح الليل الى بلاده • واحتال بعد ذلك على
زوجتيه لاقتناعهما على الهرب فوافقتا • وقبل الرحيل عمدت راحيل
الى سرقة آلهة بيت أبيها خوفاً من أن تنتقم تلك الآلهة لأبيها من فعلتهم ،
ثم أخفت تلك الآلهة تحت محفة جملها وجلست فوقها دون أن
تخبر يعقوب بذلك ، ثم رحلت القافلة تحت جنح الليل منتهزا يعقوب
فرصة غياب خاله في سفر من الأسفار • فلما عاد الخال واكتشف
ما حدث ، جمع رجاله وأسرع في أثر القافلة حتى لحق بها ، وعند
ذاك انهال على يعقوب تأنيبا وتعنيفا لآلته سرق أمواله وبناته فحسب
ولكن لأنه سرق آلهة بيته التى تحرسه • فانكر يعقوب تلك التهمة
بشدة وسمح لخاله أن يفتش الركب ، ففعل لابان ذلك ولكنه لم يعثر
للآلهة على أثر • وفي تلك اللحظة استرد يعقوب أنفاسه ، ووجدها
فرصة لأن يكيل الكيل لخاله أضعافا فانهال عليه تعنيفا ، وأخبره
أنه لم يأخذ منه الا ما يستحقه نتيجة خدمته له تلك السنين
الطويلة • ولما لم يجد لابان جدوى من مناقشته طلب منه الصلح وقلبه
مفعم بالأسى لما حدث • وعند ذاك وقف يعقوب ولابان على حجر
جمع عليه ركام أحجار صغيرة وأقسما على ألا يحنث أحدهما بعهد
الصلح الذى قطعاه على نفسيهما • وبعد ذلك عاد لابان خاسرا الى
بلاده ، في حين استأنف يعقوب رحلته فائزا بنصيب الأسد •

فهذا مثال يعرزه فريزر من بين نصوص والتوراة ليبدل به على نظريته في سحر المشاركة • فالوقوف على الحجر وتلاوة القسم عليه ، يكسب القسم صلابة الحجر وقوته • ومما يؤكد هذا ما تتبعه بعض الشعوب من جعل العروس تقف على حجر قبل أن تطأ بيت زوجها قائلاً : « لتطىء بقدميك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته وتتغلبى على الأعداء وتطئهم بقدميك » (١) •

٤ - يعقوب عند مخاضة نهر اليبوق : ثم استمر في سيره مع الراكب حتى وصل إلى مخاضة نهر اليبوق ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله عليهم • وعند ذاك أمر يعقوب القافلة أن تسبقه وبقى هو وحيدا عند شاطئ النهر • فلما ساد الكون السكون ولم يعد يسمع من بعيد سوى صوت ثغاء الغنم ، ظهر ليعقوب رجل أخذ يناضل معه يعقوب طوال الليل • ثم قال هذا الرجل ليعقوب : « أطلقنى لأنه قد طلع الفجر » • ولكن يعقوب تعلق بتلابيبه وقال له : لا أطلقك ان لم تباركنى » فلما سأل الرجل يعقوب عن اسمه وأخبره به أجابه قائلاً : « لا يدعنى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » • ولم يطلق يعقوب سراح هذا الشخص الا بعد أن باركه • ثم سمى هذا المكان الذى تقابل فيه مع هذا الشخص « فيثيل » ، أى وجه الرب • وقد فسر هو هذا الاسم بقوله • « لأنى نظرت الله وجهها لوجه ونجيت نفسى » (٢) •

ويعلق فريزر على هذه القصة قائلاً : « والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل أن مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا بها رائحة الوثنية • ولكننا اذا ربطنا هذه القصة من ناحية باللامح الطبيعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها ، واذا ربطناها من ناحية أخرى بالأساطير الشبيهة بها ،

(١) الفولكلور في العهد القديم ص ٢٣٧ •

(٢) التكوين ٣٢ : من ٢٦ الى ٣٢ •

فاننا نفترض بادئ بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه » (١) ولعل هذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن السير مع القافلة ، وبقائه وحده فى الظلام عند مخاضة النهر . وربما حسب يعقوب أن إله النهر يفرع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة أو بين الأشجار ، حتى إذا مر الركب وساد الهدوء النهر فيما عدا صوت التيار الرتيب الهامس ، دفعة الفصول لأن يخرج من مخبئه ليستطلع أحوال النهر ويعرف سبب هذا الهرج والمرج . وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصل منه على لبركة التى يسعى اليها .

وليس غريبا أن تفسر الحكاية على هذا النحو ، حيث أن الشعوب جميعا كانت أو ما تزال تعتقد فى أن للمياه روحا أو شيطانا أو الها ، وأنه لابد من استرضاء هذا الكائن قبل عبور الماء حتى يكون عبورهم سالما . ولقد حاول كاتب القصة أن يخفى هذا الأثر الوثيق بأن جعل هذا الكائن هو رب يعقوب . ولكن الحكاية رغم ذلك ما تزال تكشف فى وضوح عن هذا المعتقد البدائى القديم .

٥ - قدح يوسف : وفى ختام هذا الباب الذى يتصل بآباء بنى إسرائيل وشيوخهم ، يأتى فريزر على قصة يوسف . والقصة فى حد ذاتها لا تعنيه بطبيعة الحال ، الا بمقدار ما تتضمنه هى كذلك من معتقدات بدائية . فعندما تقابل يوسف مع اخوته فى مصر بعد غيبته الطويلة عنهم ، أمر يوسف أحد خدامه أن يخفى قدحه فى جوال أخيه بنيامين . وما كاد الأخوة يتخذون طريقهم آفلين الى بلادهم ، حتى أرسل يوسف الخادم فى اثرهم يتهمهم بسرقة قدح يوسف .

(١) الفولكلور العهد القديم ص ٢٥٢ .

ثم فُتِس أجولتهم واستخرج القدح بطبيعة الحال من جوال بنيامين •
 فأخذهم جميعا وعاد بهم الى يوسف • وعند ذاك قال لهم يوسف :
 « ما هذا الفعل الذى فعلتم ، ألم تعلموا أن رجلا مثلى يتفاعل » (١) •
 ولما كانت كلمة يتفاعل تعنى التكهّن كما هو واضح فى الترجمة الانجليزية
 المعتمدة للتوراة ، فقد وقف فريزر عند هذا النص وقفة ليستخلص منه
 اعتقادا من الاعتقادات السائدة ، وهو التنبؤ بالأمور الغيبية عن
 طريق التأمل فى قدح ممتلئ ماء أو به رواسب من القهوة أو الشاي ،
 وهذا الاعتقاد سائد بين الناس حتى اليوم ، وقد أشار فريزر الى
 عديد من الأمثلة التى تؤيد ذلك •

ثانيا : عصر القضاة والملوك :

١ - موسى فى اليم : وينتهى عصر الشيوخ والآباء عند بنى اسرائيل
 بموت يوسف • وقد وصفت مجموعة من السير التى تميزت بألوانها
 الحية وتصويرها الرائع ، رحلة هؤلاء الشيوخ والآباء من شواطئ
 الفرات الى شواطئ نهر النيل • وهنا يترك المؤرخ هذه الحقبة
 من الزمن لسدّل فيها الستار على الفصل الأول من تاريخ
 بنى اسرائيل • وعندما ارتفع الستار مرة أخرى على المشهد نفسه ،
 كانت قد ولت حقبة من الزمن تقدر بأربعمئة سنة نمت فى أثنائها أسرة
 الشيوخ وأصبحت أمة • من هنا يبدأ تأريخ هذه الأمة وعلى رأسها
 يقف موسى بشخصيته القوية ، ذلك المشرع والقائد الكبير الذى قاد
 شعبه من مصر وسار به عبر الصحراء المصرية وشرع لهم قوانينهم
 حتى توفى فى نهاية الأمر على مرأى من أرض الميعاد التى لم يقدر لها أن
 يطاها بقدمه •

وقد تشكك فريزر فيما اذا كانت قصة طرح موسى فى الماء
 بعد وضعه فى صندوق من القش ، وعثور ابنة فرعون على هذا الصندوق

(١) التكوين ٤٤ : ١٥ •

واحتضانها الطفل ورعايتها له ، تعتمد على أصل تاريخي أم أنها مجرد صورة أخرى لحكايات من هذا القبيل رويت عن مؤسس الممالك والدول بصفة خاصة ، من أمثال سرجون ملك بابل الذي عاش في القرن الثالث ق . م ، وتراخان ملك جيلجيت التي تقع في قلب جبال الهملايا الثلجية ، وغير ذلك من الشخصيات الأسطورية . وقد افترض فريزر ، مقتفيا بعض آراء الباحثين أن هذه القصة وشبهاتها تشتملان على بقايا اعتقاد قديم هو طرح الطفل في الماء اثر ولادته لاثبات شرعية بنوة الطفل أو عدم شرعيته . فإذا طفا الطفل فإنه يكون ابنا شرعيا والا فإنه يكون ابن زنا .

٢ - شمشون ودليته : ومن بين قصة بني اسرائيل المشهورين ، شمشون الجبار . وقصته مع دليته معروفة بوصفها تراثا شعبيا روائيا . فقد كانت قوة شمشون تكمن في خصلات شعره التي لم تحلق منذ نعومة أظفاره . ولما لم يكن يعلم بهذا السر سواه ، فقد بذل أعداؤه جهدا ضائعا في سبيل القضاء عليه . ومن ثم فقد لجئوا الى حبيبتة دليته ورشوها بالمال حتى تكشف لهم عن مكن قوته . واحتالت دليته على شمشون حتى تتعرف منه على هذا السر ، ولكن شمشون كان يخدعها في كل مرة فيخبرها خطأ بمكن قوته . وفي نهاية الأمر ضعف أمام قوة اغرائها والاحاحها وأفشى لها السر ، وأفشته هي بدورها الى أعدائه . وفي الحال قيد شمشون الجبار وقصت خصلات شعره فخارت قواه وانتقم منه أعداؤه شر انتقام .

فهذه القصة تكشف عن اعتقاد شعبي قديم مؤداه أن قوة الانسان أو روحه تكمن في جزء ما من جسمه أو في أي شيء مادي خارج جسمه . فإذا استطاع شخص ما أن يهتدي الى معرفة مكن هذه القوة أو الروح ، وأن يصيبها بضرر ، فإن الضرر سرعان ما ينتقل الى الشخص المعنى فيصاب بأذى قد يفضي به الى الموت . وليست قصة شمشون ودليته كما تروى على هذا النحو ، سوى رواية من

الروايات المتعددة التي تحكى عن هذا الموضوع وتتدرج تحت ما نسميه بالحكايات الخرافية • وقد قدم فريزر للقارىء نماذج وافرة من هذا النوع ليؤيد بها هذا الاعتقاد من ناحية ، ويربط بينها وبين قصة شمشون ودليلة من حيث الشكل والمضمون من ناحية أخرى •

٣ - حزمة الحياة : ثم صادف فريزر نصا آخر في قصة داوود وأبيجال يشير الى اعتقاد آخر شديد الصلة بهذا الاعتقاد • فقد ظل داود يهيم مع رجاله على وجهه في البرارى « هربا من تعقب شاعول له ، حتى وصل الى أرض يملكها مزارع غنى يدعى نابال • فطلب داود منه أن يزوده بزاد وغير ، ولكنه أبى فلما تهدده داود أسرع زوجة نابال الجميلة وتدعى أبيجال وقدمت لداود ما طلبه • ثم قالت له من بين عبارات الاطراء به : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك • ولكن نفس سيدى لتكن محزومة في حزمة الحياة مع الرب الهك • وأما نفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » ^(١) ومغزى هذه العبارة هو أن أرواح الأحياء يمكن أن ترتبط في حزمة ضامنا لسلامتها • وأما في حالة أرواح الأعداء فان الحزمة تحل وتبعثر أرواحهم منها وتذروها الرياح • ويعلق فريزر على هذه بقوله : « ولا يمكن أن تعتري الشخص العبرى هذه الفكرة ، حتى وإن كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط في ذهنه بعقيدة تتصل بنظرتهم الى الروح » ^(٢) ومن الممكن ، وفقا لهذه العقيدة ، أن تربط أرواح القبيلة أنتى يشار اليها بعصى أو بحجارة في حزمة واحدة ، ثم تودع هذه الحزمة في مكان آمن لا يصيبه سوء • وكلما ولد لهذه القبيلة طفل ، أضافوا عصاة أو حجرا لهذه الحزمة • ومما يؤيد هذا ، كما يقول فريزر ، حزم « شارونجا » وهى عبارة

(١) سفر صموئيل الاول ٢٠ : ٢٩ •

(٢) الفولكلور في العهد القديم ص ٢٨٥ •

عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه ومن العصي التي تحتفظ بها قبيلة أرونتا وبعض القبائل الأخرى التي تسكن استراليا الوسطى ، بعناية كبيرة وسرية تامة في كهوف وشقوق الصخور • وكل حجر من هذه الأحجار السحرية وكذلك كل عصاة ترتبط ارتباطا وثيقا بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كان أم ميتا •

ثم استطرد فريزر من الحديث عن اعتقاد الشعوب في امكان بقاء الروح في أى صورة ما بعيدا عن الجسد ، الى الحديث عن اعتقادها في تحضير الأرواح • وقد حارب أنبياء بنى اسرائيل المتأخرين هؤلاء المشعوذين الذين كانوا يقومون بتحضير الأرواح أو حبسها بقصد ايدائها ، وأودعوهم السجون • وكان من بين هؤلاء الذين حاربوهم الملك شاعول • ومع ذلك فعندما اعتبرت شاعول غمة بسبب عجزه عن محاربة الفلسطينيين ، أسرع الى ساحرة عين دور التي كانت قد أفلنت من العقاب ، وطلب منها أن تحضر له روح صموئيل النبي الذي كان قد توفي غاضبا عليه • فلما استحضرت له الساحرة روح صموئيل بعد أن طمأنها شاعول على حياتها ، خاطب شبح النبي الملك شاعول قائلا : « لماذا أقلقتنى بأصعادك اياى » • فقال شاعول : « قد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يحيينى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع ^(١) » • ولكن روح النبي لم تطمئنه ، بل انها على العكس أصرت على غضب الرب عليه •

٤ — جريمة عد السكان : وقد كان العبريون القدماء يعتقدون فى أن القيام بتعداد السكان يجلب عليهم الشر • فقد ورد بين حكايات سفرى صموئيل والأخبار أن يهوه أو ربما الشيطان قد أوحى الى الملك داوود بفكرة مشئومة هى أن يقوم بتعداد قومه • ومهما يكن

(١) سفر صموئيل الاول ٢٨ من ١٣ — ١٥ •

مصدر هذا الوحي على وجه التأكيد ، لأن الكتاب الدينيين يختلفون حول هذا الموضوع ، فان نتيجة هذا العمل أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببني اسرائيل . فقد تناقص عددهم اثر ذلك مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون فيما بينهم . ونظر الناس الى هذه الطارئة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عددهم . ويفسر هذا الاعتقاد بأن الأرواح الشريرة تظل متربصة بمن يملك عددا من الأغنام والماشية أو عددا من الأبناء ، فاذا علمت عددهم على وجه التحديد ، أصابتهم بأذى . ومن ثم فان من يضطر الى عد شيء يمتلكه ، فله يراوغ في العد على سبيل خداع الروح الشرير . وهذه الطريقة في العد معروفة تملأ لدينا حتى اليوم عندما يقول الناس في العد : الله واحد . هالوش ثاني .. وهكذا .

عبادة شجر البلوط : وقد احتلت شجرة البلوط المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء . وما تزال هذه الشجرة تنمو بوفرة في فلسطين كما يقول المؤلف . وكثيرا ما يرد ذكر شجرة البلوط بصفة خاصة في التوراة . ومثال ذلك ما ورد في سفر التكوين ١٠ : ٦ : « واجتاز ابرام في الأرض الى مكان شكيم الى بلوطنة مورة وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض . » وكذلك ما ورد في هذا السفر ١ : ١٨ « فنقل أبرام خيامه وأتى عند بلوطات ممرا التي في حبون . بنى هناك مذبحا للرب . » وبالمثل ما ورد في الاصحاح ١٨ : ٢٧ من هذا السفر : « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفين لديه » .

ومازال الفلاحون في فلسطين ، كما يقول فريزر ، ينظرون الى أشجار البلوط التي تنمو بوفرة ، في جهات كثيرة في فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية ، اذ أنهم يعتقدون أنها مأوى الجن والأرواح . ومع مرور الزمن ربط الأهالي بين عبادة هذه

الأشجار وعبادة الأولياء ، فكانوا بقيمون قبر الولي عند بلوطة خضراء وهناك يذبحون الضحية اليه ، ويتوسلون اليه أن يحقق لهم أمرا من الأمور . وهذا الربط بين الأشجار وضريح الولي يشير الى الاعتقاد في أن روح الولي تسكن الشجرة . وبهذا يكون هذا الاعتقاد امتدادا للاعتقاد البدائي القديم في أن للشجرة روحا تؤدي لها الطقوس المحددة في مناسبات بعينها .

ومن عادة بعض الشعوب ان لم يكن من عادة شعوب العالم جمعاء ، أنه عندما تتعرض أسرة وفاة فرد منها تفرض على الأحياء قيود معينة تحدد من زوايا متعددة حرية الفرد التي يتمتع بها في حياته العادية . وكلما كانت صلة الأحياء بالميت أكثر قربا كانت القيود التي تفرض عليهم أكثر تعنتا . وعلى الرغم من أن أسباب فرض هذه القيود لاتزال مجهولة في الغالب لمن يضطر أن يخضع لها ، إلا أن الشواهد العديدة تشير الى أن كثيرا من هذه القيود ، ان لم يكن جميعها ، قد نشأ نتيجة الخوف من شبح الميت والرغبة في الهروب من ترقياته غير المستحبة بصرف نظره عنهم اما عن طريق طرده أو اغرائه أو الى ارغامه على أن يذعن لمصيره ، ويكف عن مضايقة أهله وأصدقائه . وقد كان العبريون القدماء يراعون اتباع كثير من القيود عند حدوث الوفاة كما يتضح هذا من نصوص التوراة . وقد استطاع فريزر أن يضيف الى قائمة القيود التي تفرض سلوكا معينة على المكثومين عند العبريين ، قيودا آخر لم يطرأ على ذهن الكتاب الدينيين كما يقول ، اذ لم يثيروا اليه في كتاباتهم ، وان دلت عليه أصول الألفاظ وأكدته العادات المتشابهة التي تتبعها الشعوب البدائية . فكلمة الأرملة باللغة العبرية تعنى الخرساء أو الصامتة . وقد دعاه هذا التحليل اللغوي الى التساؤل عن سبب ارتباط كلمة الأرملة بالصمت . وقد أجاب عن هذا التساؤل من خلال فحص تلك العادة البدائية التي تفرض على أقرباء الميت بعض القيود ومن بينها الصمت .

ومن بين القبائل التي تراعى هذه العادة القبائل الأفريقية وقبائل وسط استراليا وشمالها • فالأرملة في هذه القبائل يفرض عليه الصمت لمدة طويلة أو قصيرة ، ولا يسمح لها بالكلام الا بعد تأدية الصمت : ومن بين القبائل التي تراعى هذه العادة القبائل الافريقية شعائر محددة • والسبب في هذا فيما يرى فريزر ، هو الخوف من أن ينجذب شبح الزوج الخطير اليها اذا ما سمع صوتها ، فيتعرض لاذاثها ما لم تؤد بعض الشعائر المحددة •

وبهذا ينتهى الجزء الثالث من الكتاب الذى استطاع فيه المؤلف أن يبرز من بين روايات عصر القضاة والملوك ، العديد من التقاليد المعتقدات العبرية التي تركز في أصولها على تقاليد ومعتقدات بدائية •

ثالثا : القانون : وبعد ذاك يفرع المؤلف لبحث الجزء الرابع والأخير من الكتاب وعنوانه « القانون » • ويميز النقاد في مجموعة القوانين المعقدة التي تكون الجزء الأكبر من أسفار موسى الخمسة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل • وهذه المجموعات الثلاث تختلف عن بعضها البعض في تاريخها وطابعها ، وهي تشمل وفقا لترتيبها التاريخي على كتاب العهد وقانون سفر التثنية وقانون السفر الكهنوتي • ويعرف أقدم قانون في أسفار موسى الخمسة بما يسمى بكتاب العهد وهو الذى يتضمن سفر الخروج من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرين آية ٣٣ ، وقد سمي هذا القانون بالتشريع الأول وهو يتصل كل الاتصال بسفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ١١ الى آية ٢٧ ، وهو ما يسمى في بعض الأحيان بكتاب العهد الصغير • ويقول فريزر انه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبل تقنينها كانت تنتشر بوصفها نظاما عادية ، ذلك أن القوانين لا تفرض فرضا على المجتمع ، بل لابد أن تكون متلائمة مع عادات الناس ومعتقداتهم الى حد بعيد اذا قدر لها

أن تعيش • أما المجموعة الثانية من القوانين التي يميزها النقاد في أسفار موسى الخمسة ، فهي تلك التي يشتمل عليها سفر التثنية ، وهو السفر الذي دعا الى الاصلاح الدينى عن طريق ازالة الأماكن المقدسة المحلية جميعها ، وتركيز عبادة يهوه الشعائرية في معبد اورشليم وحده •

فاذا كانت القوانين تركز في العادة على أصل قديم من التشريع الشعبى ، فان قارئ التوراة اذن لن يفاجأ اذا ما صادف بين نصوصه عادات وشعائر تركز على تشريعات وثنية قديمة • ومن ثم فان القارئ لن يفاجأ عندما يقرأ وصية من بين الوصايا العشر تنص على عدم طبخ الجدى فى لبن أمه ، وهى الوصية التى تقع فى سفر الخروج ٢٤ آية ١ • وهنا تبرز مشكلة وهى أن الوصايا التى دونت فى هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج وهى تلك الوصايا التى نقرأها مرة أخرى فى الاصحاح الخامس من سفر التثنية • ففى الرواية الأولى تختفى القيم الأخلاقية كلية ، اذ أنها تشير جميعا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشعائر المادية التى يطلبها الرب من عباده • ومثال ذلك (تحفظ عيد الفطير سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك — لا تذبح على خمير دم ذبيحتى ، ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح) • أما عن العلاقة بين الانسان والرب ، وبين الانسان والانسان ، فليس هناك شئ يذكر بهذا الصدد • وانما تختص بهذه العلاقات الانسانية الرواية الثانية للوصايا ، وهى التى تحض الانسان على البعد عما يغضب الرب والناس • وقد يدعو هذا الى افتراض قدم التشريع الأول عن الثانى ، ومع ذلك فمازال على القارئ أن يتساءل عن أهمية وصية تحريم طبخ الجدى بلبن أمه • وأغلب الظن أن هذا التحريم كان موجها ضد بعض الشعائر السحرية أو الوثنية التى رفضها المشرع وسعى فى القضاء عليها • وأساس هذه الشعيرة أنها تقوم على سحر المشاركة ، ذلك أن طبخ الجدى فى

اللبن يؤدي الى الاضرار بسائر القطيع الذى يتأثر بذلك عن طريق المشاركة . ولما كان اللحم المطهر فى اللبن من الأكلات المحببة عند العبريين » فقد نص المشرع على تجنب هذا الفعل حتى لا تضار الماشية » . وليس هذا التشريع غريبا عن تشريعات القبائل البدائية التى تمنع على لبن الأبقار اثر ولادتها العجول حتى لا تصاب الأبقار بخبر ، ذلك أن هناك مشاركة بين الحيوان واللبن الذى يجلب منه .

٢ - ومن بين القوانين التى تشير كذلك الى اعتقاد قديم ، ذلك التشريع الذى نص عليه فى كتاب العهد على النحو التالى : « اذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات ، يرحم الثور ولا يؤكل لحمه ، أما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا من قبل ، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرحم وصاحبه أيضا يقتل » (١) .

٣ - وقد كان من عادة القبائل الهجمية تنفيذ قانون الأخذ بالثأر من الحيوان كما هو الحال مع الانسان بل ان هذا كان متبعاً فى أوروبا فى العصور الوسطى بصور تدعو الى الضحك ، فقد كانت المحاكمات تنصب من أجل محاكمة الحيوانات التى تؤدى الزرع كالفتران مثلا . وكانت هذه الحيوانات تستدعى للمثول أمام هيئة القضاء ، ويعين لها مدافعون عنها . فاذا لم تحضر الفتران حكم عليها بالنفى أو الحرمان من رحمة الكنيسة الى غير ذلك من الأحكام التى لم تنفذ قط بطبيعة الحال .

٤ - ومن بين تلك التشريعات كذلك ، ذلك التشريع الذى سن

(١) سفر الخروج ١٢ : ١٨ .

تعليق الأجراس في جبة الكاهن عند دخوله المعبد ، والا أصيب
بضرر قد يفضى به الى الموت • فقد نص القانون الكهنوتي على أن يصنع
رداء الكاهن وفقاً للوصف التالي : « وتصنع جبة الرداء كلها من
اسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها في وسطها ويكون لفتحتها حاشية
حواليها صنعة الحائك كفتحة الدرع يكون لها لا تشق ، وتصنع
على أذيالها رمانات من اسمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيالها
حواليها وجلجل من ذهب بينها حواليها جلجل ذهب ورمانة على
أذيال الجبة حواليها • فتكون على هرون للخدمة ليسمع صوتها
عند دخوله الى القدس أمام الرب وعند خروجه لئلا يموت » (١) •

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدي الأجراس المجلجلة التي
يعلقها بين تطريز الثوب حتى يسمع صوت رنينها عند دخوله
المعبد ، والا مات ؟ عندما قارن فريزر هذا الاعتقاد بالاعتقاد السائد
بين الشعوب البدائية والحضارية في أن صليل الأجراس في
المناسبات التي تكون فيها الأرواح مهددة بمطاردة الأشباح الشريرة
لها ، يعمل على ابعاد هذه الأشباح ، رأى أن تفسير هذا التشريع
الذي يحتم على الكاهن ارتداء الأجراس ، لا يمكن أن يفسر الا من
خلال هذا المعتقد البدائي ، وهو أن الأرواح الشريرة تتربص بالكهنة
عند دخولهم المعبد فتتعرض لابذائهم ما لم يعملوا على طردها بعيدا
عنهم • وليست عادة دق النواقيس في الكنائس سوى امتداد لهذا
المعتقد البدائي القديم وان نسي السبب الأصلي في استخدامها •

ولعلنا ندرك الآن بعد تلك الجولة في ثنايا كتاب « الفولكلور في
العهد القديم » أن فريزر قد قدم لنا بحق « أسطورة أنثروبولوجية
رائعة » للشعب العبري • وقد كان في تقسيمه كتابه الى هذه الأبواب

(١) سفر الخروج ١٨ من ٣٢ الى ٣٥ •

الأربعة موفقا كل التوفيق ، حيث أنه تمكن بأسلوبه الشائق ومقدرته الفائقة على المقارنات من أن يبرز صنفًا من المعتقدات والتصورات العبرية في كل مرحلة من مراحل تاريخهم الديني الطويل . وإذا كان فريزر قد نجح بحق في إرجاع تلك المعتقدات إلى أصولها البدائية ، فهذا يعني أنه نجح في تحقيق هدفه الذي عبر عنه في مقدمة كتابه عندما قال : « لقد دفعني الهدف من دراستي هذه إلى أن أنعم النظر بصفة أساسية في الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل في العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التي تنتشر على صفحاته » .

وفي خاتمة هذه الدراسة يمكننا أن نتساءل عما إذا كان فريزر قد تمكن من تطبيق نظريته في السحر والدين من حيث أن السحر يعيش بين الشعوب في مرحلة حضارية أدنى من الدين ، حتى إذا ما انتشر الدين واستقر في النفوس انقضت المرحلة السحرية إلى غير رجعة . فهل تنتمي تلك المعتقدات والتصورات والعادات التي عرضناها في هذا البحث إلى السحر أم إلى الدين . أحسب لو أن فريزر سأل نفسه هذا السؤال لأدرك التناقض بين نظريته وأبحاثه ، وهو الأمر الذي أخذه الباحثون عليه وعدوه من نقاط الضعف في أبحاثه الأنثروبولوجية . فلو أن مرحلة الدين تعد منفصلة تماما عن مرحلة السحر ، لما برزت تلك الطقوس السحرية بين سطور التوراة ، كتاب اليهود المقدس . ولعله يبدو الآن تفوق نظرية مالينوفسكي في العلم والسحر والدين في مجال الدراسات الأنثروبولوجية على نظرية فريزر . ذلك أننا لو افترضنا وفقا لمالينوفسكي أن السحر والدين يعيشان جنبا إلى جنب ، وأن كلا منهما يلعب دورا مستقلا في حياة الشعوب ، لاستطعنا أن نميز بين ما ينتمي إلى السحر وما ينتمي إلى الدين في التوراة . فعبادة الأماكن المقدسة وتقديم التضحيات للرب ينتميان في وضوح إلى الجانب الديني الذي يسعى الإنسان بدافعه

الى استرضاء الاله لحماية كيانه ووجوده في حياة • وأما ارتداء يعقوب لجلد النعجة ، ولجوء شاول الى ساحرة عين دور وفرض الصمت على 'الأرملة أثر وفاة زوجها ، وتقديم الضحية لآله النهر ، الى غير ذلك من الطقوس والشعائر التي عرضها الكتاب ، فهي تنتمي جميعا الى ائجانب السحري الذي يقوم بوظيفة محاربة القوى الشريرة حتى يكون المصير الخير حليف الانسان • واذا كنا نلاحظ أن الطقوس السحرية تغلب بحق الطقوس الدينية في التوراة ، فان هذا ان دل على شيء فانما يدل على أن اليهودى لم يستطع نتيجة ارتباطه الشديد بالمادة ، أن يسمو بدينه السماوى الى طبيعته الروحانية التأملية ، ومن ثم فقد ظلت طقوس السحر البدائية عالقة بنفسه وانتشرت بدورها بقصد أو غير قصد بين سطور التوراة •

يونيو ١٩٨١

د. نبيلة ابراهيم
استاذة الادب الشعبى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

مدخل بقلم المؤلف

(١)

نبهني بعض الباحثين الى أن عددا من القراء الذين لا يقدرون على شراء الطبعة الأصلية من كتابي « الفولكلور في العهد القديم » ، الذي يقع في ثلاثة أجزاء ضخمة ، أو الذين لا يجدون متسعا من الوقت لقراءة هذه الطبعة ، يرحبون بظهور طبعة مختصرة لهذا الكتاب . ولهذا فقد قمت باعداد هذا الموجز تقديرا مني لهذه الفكرة ، فحذفت بعض فصول الطبعة الأصلية نهائيا ، واختصرت سائرها . ولكي أفسح المجال للنص نفسه فقد حذفت ، بصفة خاصة ، المقدر الأكبر من الهوامش التي تحتوى على الشواهد المقتبسة من أعمال بعض الباحثين ، ولم أبق منها الا القليل ، وذلك في بعض الأحوال النادرة التي كنت أرغب فيها في تقديم تفسير ما ، أو أرى من الضروري — في مجال الاستشهاد بنص من العهد القديم — أن أبدى الأسباب التي دعنتني الى أن أتبنى قراءة مخالفة لتلك التي أخذت بها الترجمة الانجليزية الرسمية أو المعتمدة للعهد القديم . أما القراء الذين يرغبون في التعرف على الأصول الخاصة بأي موضوع فعليهم أن يرجعوا الى الطبعة الأصلية التي تحتوى على كثير من الوثائق ..

ولقد لاحظ « رينان » أن التاريخ البشرى لا يقدم للعقل الفلسفى المشتغل بالبحث عن أصول الأشياء سوى ثلاث حقب ذات أهمية أساسية ، هي : تاريخ الاغريق ، وتاريخ بنى اسرائيل ، وتاريخ روما . ويمكننا الآن — على سبيل المثال — أن نضيف الى هذه التواريخ الثلاثة التي تعتمد جميعها على وثائق مكتوبة ، تاريخا رابعا على الأقل ، هو تاريخ البشرية في العصور والبلاد التي لم تكن تعرف

الكتابة • فمنذ أن قدم رينان للعالم تاريخه الكبير عن بني اسرائيل وعن المسيحية في عصورها الأولى ، ازدادت معلوماتنا عن التاريخ البشرى اتساعا وغنى ، سواء عن طريق الكشف الأثرية لعصور ما قبل التاريخ أو نتيجة لدراسة الأجناس البدائية على نحو أكثر دقة ، تلك الأجناس التي تقدم الينا صورة دقيقة — على نحو أو آخر — لمرحل التطور الاجتماعى المختلفة التي اجتازها قديما أسلاف الأجناس المتحضرة • وقد تضافرت هذه العلوم الحديثة نسبيا على كشف القناع الذى حدهما ، ذلك القناع الذى ظل مسدلا حتى هذا الوقت على طفولة البشرية ، وأخذت تتيح لنا أن ننفذ بأبصارنا — إن جاز لنا هذا التعبير — خلال الحائط المصمت الذى ظل حتى زمن متأخر حجر عثرة في طريق الباحثين عما وراء نطاق التراث الكلاسيكى ، وتكشف لنا آفاقا تبدو لا نهائية للفكر البشرى ونشاطه في تلك الأحقاب المظلمة السحيقة التى انقضت بين ظهور الجنس البشرى على وجه الأرض ، وبلوغه حالة النضج الكامل في إطار الحياة الانسانية المتحضرة • ومن ثم ظهرت هذه الحماسة التى صاحبت الدراسات الفولكلورية ودراسة الآثار القديمة في الوقت الراهن ، في نطاق دائرة الباحثين الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم • ويمكننا أن نقول : أنه من بين القوى التى تشكل وجهة نظرنا المستنيرة في أيامنا هذه وتجور فيها بدأت مناهج البحث الانسانى هذه تؤثر في حركة الفكر العامة تأثيرا ثانويا فقط بالقياس الى الحافز الذى تركته في أذهاننا صور التقدم المثيرة التى أحرزتها العلوم الطبيعية • فالسؤال عن صحة المعتقدات وأنماط السلوك لانسانى من الصعب فصله عن محاولة معرفة أصولها ، تلك الأصول التى مازال علم الفولكلور وعلم الآثار القديمة يلقيان عليها مزيدا من الضوء ••

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبا بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية في المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى

تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات . واذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح فى هذه لمحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل فى ضوء أكثر صدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحي الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طرق عملية انتخاب طبيعى بطيئة .

(٢)

توصلت الأبحاث الحديثة التى تدرس فجر التاريخ البشرى بشتى اتجاهاتها الى نتيجة مؤكدة الى حد بعيد ، مؤداها أن كل الأجناس المتحضرة قد تطورت ، فى زمن أو آخر ، من المرحلة الهمجية التى تشبه فى قليل أو كثير المرحلة التى لا تزال بعض الشعوب المتأخرة تعيشها اليوم . كما انتهت هذه الأبحاث الى أن هناك آثارا ليست بالقليلة من الطرز البدائية القديمة فى الحياة والتفكير ما تزال ماثلة فى عادات الناس وتقاليدهم — حتى بعد أن كانوا قد كفوا منذ زمن طويل عن التفكير والسلوك الهمجيين . وهذه الآثار الباقية تدخل فى اختصاص علم الفولكلور الذى يمكن أن نعرفه ، بمعناه الواسع ، بأنه العلم الذى يستوعب مجموعة المعتقدات والعادات الماثورة لدى شعب من الشعوب ، مادام مرد هذه لمعتقدات والعادات الى السلوك الجمعى لعامة الناس ، وكانت بمنأى عما يكون لعظماء الرجال من تأثير فردى . وعلى الرغم مما كان العبريون القدماء قد أحرزوه من رقى فكرى وتطور دينى ، فليس هناك ما يدعو لافتراض أنهم قد شذوا عن هذا القانون العام ، اذ المحتمل أنهم أيضا قد مروا بمرحلة بربرية بل همجية . وهذا الاحتمال ، الذى يركز على ما بينهم وبين الأجناس البشرية الأخرى من تشابه ، تؤيده النظرة الفاحصة لأدبهم ، ذلك الأدب الذى يتضمن كثيرا من الاشارات الى معتقداتهم

وعاداتهم التي لا يمكن أن تفسر إلا من خلال افتراض أنها مخلفات
باقية من مستوى حضارى أشد انخفاضا بكثير . ومن ثم كان موضوع
دراستي هذه هو أن أوضح وأفسر قدرا محدودا من تلك المعتقدات البالية
التي تنتمي إلى عصور بدائية ، والتي يحتفظ بها العهد القديم كأنها
حفريات . ولقد أتيت لى الفرصة من قبل فى غير هذا الكتاب لأن
أضع يدي على آثار بدائية أخرى يتضمنها العهد القديم ، لها نظائرها
عند القبائل الهمجية ، مثل التضحية بالابن الأول ، وقانون دنس
النساء ، ثم عادة تقديم ذبيحة الخطيئة ^(١) Scapegoat ولكن حيث
اننى لا أود أن أكرر ما سبق أن ذكرته حول هذه الموضوعات ،
فاننى أكتفى بإحالة القارئ الذى يرغب فى البحث فيها ، إلى كتاباتى
الأخرى . .

ووسيلتنا فى الكشف عما يتغلغل فى الحضارة من آثار بدائية
هو المنهج المقارن ، فهو يمكننا ، فيما يتصل بالعقل الانسانى ،
من أن نقتفى أثر تطور الانسان فكريا وأخلاقيا ، بنفس الدرجة
التي يمكننا بها ، فيما يتصل بجسم الانسان من أن نقتفى أثر تطوره
جسديا من الأشكال الدنيا للحياة الحيوانية . وباختصار فإن هناك
تشريحا مقارنا للعقل ، كما أن هناك تشريحا مقارنا للجسم . وتشريح
العقل تبشر بنتائج البعيدة المدى بأنها لن تكون ، بالنسبة لمستقبل

(١) راجع سفر اللاويين اصحاح ١٦ .

« يسميها بعضهم كبش الفداء وآخرون « تيس عزازيل » وهى تعنى فى
علم الانثروبولوجيا أن شخصا أو شيئا أو حيوانا يحمل خطايا الفرد أو المجتمع
أو يحمل ما يبتلى به الفرد أو المجتمع من أمراض وكوارث ، ومن ثم فإن هذا
الشخص أو الشيء أو الحيوان يقدم ضحية الاله . ويرجع هذا الاصطلاح إلى
عادة عبرية قديمة ، إذ كان العبريون يقدمون كبشين ضحية للاله تكفيرا عن
ذنوب الشعب أو الفرد . ثم دخل هذا الاصطلاح فيما بعد مجال علم النفس
ومعناه أن يلوم شخص غيره عما يصاب به من خيبة فى أمر ما . فهو ينسب
إليه التقصير لا إلى نفسه . ومن ثم فهو يعد شكلا من أشكال الاسقاط .
(المترجمة)

الانسانية ، أقل قيمة من نتائج تشريح الجسم ، لا من الناحية النظرية
فحسب ، بل من الناحية العملية كذلك . وليس بدعا أن نطبق المنهج
المقارن على دراسة التراث العبرى القديم ، فقد استخدم العالم
لفرنسى صموئيل بوشار المقس هذا المنهج فى القرن السابع عشر فى
فرنسا استخدما ناجحا ، كما استخدمه فى انجلترا رجل الدين
العالم « جون اسبنسر » رئيس كلية « جسد المسيح »
Corpus Christi بجامعة كمبودج . وقد قيل عن كتابه الذى ألفه
حول قوانين الطقوس لدى العبريين القدماء أنه أرسى دعائم الأديان
المقارن . أما فى عصرنا ، وبعد قرن من الزمان ، فقد استأنف
أستاذى المبجل وصديقى « وليم روبرتسون سميث » فى كمبودج
العمل الذى اضطلع به هذان العالمان الجليلان . ويرجع التقديم الذى
أحرزته هذه الدراسة فى حياته وبعد وفاته المبكرة جدا الى حد
بعيد ، الى أثره القوى الذى ظفرت به هذه الدراسة بفضل
عبقريته الخارقة وعلمه . وقد كان الأمل يحدونى أن أقتفى أثر هؤلاء
المتقدمين المرموقين فى هذا المجال من العلم ، وأن أسير به قدما بما
يمكننى من أن أسمح لنفسى بأن أسميه تراث كمبودج فى الأديان
المقارنة .

ومن المسلمات الشائعة أن الوصول الى حل كامل لمشكلة
ما يتضمن حلا لمشكلات أخرى كثيرة . ولكن لا ، فالقليل من العلم
بكل شيء لن يكون كافيا لأن يجيب ضمنا عن الأسئلة التى تثيرها أبسط
أشكال البحث . وبناء على ذلك ، فإن فحص مسألة فولكلورية ،
بخاصة فى المرحلة الأولية الراهنة لهذه الدراسة ، من الطبيعى
أن يفتح مجالات للتساؤل تتشعب فى اتجاهات عدة . واننا لننساق
بطريقة عفوية - فى أثناء تتبعنا لمجالات هذا التساؤل - الى آفاق
من البحث تزداد اتساعا على الدوام حتى لتختفى عن أنظارنا النقطة
التي بدأنا منها . أو - بتعبير أدق - حتى لتبدو النقطة التى بدأنا
منها فى بعدها الحقيقى مجرد ظاهرة ضمن عدد كبير من الظواهر

المماثلة • وأن ما صادفته منذ سنين طويلة عندما أخذت على عاتقي أن أبحث مسألة فولكلور ايطاليا القديمة ، يصادفنى الآن وأنا أتهيا لمناقشة مسائل بعينها في فولكلور العبريين القدماء • فقد حدث أن البحث في أسطورة معينة أو عادة أو قانون قد تشعب بى في بعض الأحيان ، حتى أوشك أن يصبح بحثا بل رسالة • ولكننى آمل — بعيدا عما تضمنته أبحاثى من رأى متعجل في تراث الاسرائيليين وعاداتهم — أن تكون هذه الأبحاث بمثابة اسهام في دراسة الفولكلور بصفة عامة • ان هذه الدراسة لا تزال في مرحلة البداية والأرجح أن تظل نظرياتنا ، التى تتعلق بهذه الموضوعات ، تجريبية ومؤقتة على مدى فترة متطاولة من الزمن ، وأن تكون مجرد أدراج تصنف فيها الحقائق الكثيرة الى حين ، لا قوالب حديدية تستقر فيها تلك الحقائق الى الأبد • وفى هذه الأحوال يقدم الباحث المخلص في مجال الفولكلور في الوقت الحاضر نتائج بحثه في قدر من التهييب والتحفظ اللذين يتلاءمان مع ما تتسم به المادة التى في متناول يده من صعوبة وحاجة الى التمهيص ••

وعلى هدى من هذا كنت أسير دائما • واذا كنت في أى مكان من هذا البحث قد نسيت هذا التحذير الذى أتجه به الى الآخرين ، وعبرت عن نفسى في صورة تقريرية لا تؤيدها الأدلة ، فاننى أطلب من القارئ أن يصحح مثل هذه العبارات التقريرية جميعا ، عن طريق اعلان هذا النوع من التشكك العام المخلص ••

وقد حاولت في هذا لبحث أن أضح في الاعتبار النتائج التى توصل اليها أشهر النقاد المحدثين فيما يختص بتأليف أسفار العهد القديم المختلفة وتاريخها • ذلك أننى أعتقد أن كثيرا من المتناقضات الجلية في الكتاب المقدس ، لا يمكن أن تقبل تفسيراً منطقياً وتاريخياً معقولا الا في ضوء هذه النتائج • أما النصوص التى اقتبستها فقد دونتها عادة بالفاظ « الترجمة الانجليزية المعتمدة للعهد القديم » •

ومع اننى خاطرت بين الحين والآخر بأن أخالف الترجمة الانجليزية وأن أفضل عليها ترجمة أخرى ، أو أفضل عليها - في مواضع قليلة للغاية - قراءة خاصة من قراءات العهد القديم ، فاننى أود أن أقول أننى اذا كنت قد قرأت العهد القديم كنه باللغة العبرية قراءة فاحصة ، وبجانبى « الترجمة الانجليزية المنقحة » على الدوام ، فاننى شديد الاعجاب بنباقة المترجمين والنقحين على السواء ، تلك اللياقة الفائقة في اختيارهم لعباراتهم مع اخلاصهم البالغ لحرفية النص والتزامهم بروح النص الأصلي . ان « الترجمة الانجليزية المنقحة للعهد القديم » في جمعها بين الدقة البالغة ووقار اللغة وجمالها ، لا يميزها بدون شك ، بوصفها نصا مترجما ، أى عمل أدبى آخر ، بل المحتمل أنه ليس هناك عمل أدبى آخر يقف معها على قدم المساواة ..

لقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم النظر بصفة أساسية في الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل في العهد القديم ، وأن أتتبع الآثار الهمجية والخرافية ، تلك الآثار التى تنتشر في صفحاته . واذا كنت قد صنعت هذا فليس معناه أننى أجهل الجانب الأعلى من العبرية العبرية التى كشفت عن نفسها في ديانة روحية وآثار خلقية سجلها العهد القديم الخالد ، أو أن أحط من قدرها . . .

الباب الأول

عمر الحياة الأولى

الفصل الأول

خلق الإنسان

الذين يقرءون الكتاب المقدس قراءة فاحصة لا يمكن أن يغيب عنهم المتناقض الصارخ بين قصتي خلق الانسان ، اللتين تقعان في كل من الاصحاحين : الأول والثاني من سفر التكوين . ففي الاصحاح الأول نقرأ كيف أن الله خلق في اليوم الخامس من بدء الخليقة السمك والطيور ، بل كل الكائنات التي تعيش في الماء أو الهواء ، وكيف أنه خلق في اليوم السادس كل صنف الحيوان التي تعيش على وجه الأرض ، وأخيراً خلق الانسان ، الذكر والأنثى كليهما ، على صورته . ومن هذه القصة نستنتج أن الانسان قد خلق بعد أن خلقت كائنات الأرض جميعها ، كما نتبين أن تقسيم الانسان الى ذكر وأنثى — وهو التقسيم الذي تختص به الانسانية ، قد تم على يدى الخالق نفسه ، وان لم يقدم الينا الكاتب أية معلومات تمكنا من التوفيق بين الخلق الثنائي للانسان ووحدة الخالق . فاذا تجاوزنا تلك المشكلة الدينية ، التي ربما شقت على الفهم الانساني ، فاننا نتجه الى مسألة أخرى أبسط منها ، تتصل بالسق التاريخي للخلق ، ونتدبر العبارات التي تقول : ان الله خلق صنف الحيوان الدنيا أول الأمر ، ثم أعقبها بخلق الانسان ، وأن الانسان قد انقسم الى ذكر وأنثى تم خلقهما في آن واحد معا ، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة أصلهما الالهي . هذا ما نقرؤه في الاصحاح الأول من سفر التكوين . فاذا نحن انتقلنا الى الاصحاح الثاني ، انتابتنا الحيرة على نحو ما ، عندما نفاجأ برواية تختلف تماماً عن هذه الرواية

الخطيرة ، بل انها لتتناقض معها كل التناقض ، اذ نفاجأ فيها بما يثير فينا الدهشة ، وهو أن الله خلق الانسان أولا ، ثم خلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده . أما المرأة فقد خلقها بعد فراغه من كل هذا ، وشكلها من ضلع انتزعه من الرجل في أثناء نومه ، كما لو كانت مجرد فكرة خطرت له فيما بعد ..

وواضح أن نظام خلق الكائنات من حيث قيمتها معكوس في كلتا الحكايتين .

ففى الحكاية الأولى يبدأ الاله بعملية خلق السمك ، ثم يمضى بعد ذلك فى خلق الطيور والوحوش حتى ينتهى الى خلق الرجل والمرأة . .

أما فى الحكاية الثانية فهو يبدأ بخلق الرجل ، ويمضى بعد هذا الى خلق الحيوانات الدنيا ، ثم يخلق فى النهاية المرأة ، التى تشير بوضوح الى أدنى أعمال الصنعة الالهية . وليس هناك فى الحكاية الثانية أدنى اشارة الى أن كلا من الرجل والمرأة قد خلق على صورة الاله ، وانما تحكى لنا الحكاية ببساطة فتقول : « وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية » (١) . .

وبعد ذلك أراد الله أن يخفف على الرجل وحشته ، اذ كان يتجول دون رفيق فى الجنة الجميلة التى كانت قد صنعت من أجله ، فخلق له الطيور والوحوش ، وقدمها اليه فيما يبدو لتسليته ، ولسكى تؤنس وحشته . وعند ذاك نظر الرجل انيها وسماها بأسمائها ، ولكنه كان لايزال غير راض عن رفقتها ، فخلق الله له فى النهاية — وكأنه كان قد يئس من أمره — المرأة من جزء من جسمه لا أهمية له ، وقدمها اليه لكى تكون زوجا له .

(١) سفر التكوين ٢ : ٧ .

هذا التناقض البين بين القصتين يفسره ببساطة أن القصتين قد استمدها الكاتب من مصدرين مختلفين ومستقلين أصلاً ، ثم جمع بينهما في كتاب واحد ونقلهما معا ، دون أن يجهد نفسه في أن يخفف من حدة التناقض فيهما أو يوائم بينهما • فقصة الخلق في الاصحاح الأول مستمدة مما يسمونه بالمصدر الكهنوتي الذي ألفه كتاب كهنوتيون في أثناء السبي البابلي أو بعده • •

وأما قصة الخلق في الاصحاح الثاني فمستمدة مما يسمى بالمصدر اليهودي الذي ألف قبل المصدر الكهنوتي بمئات السنين ، أي أنه ألف — فيما يبدو — في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد • والاختلاف بين اثنين وجهات النظر الدينية لدى كل من الكاتبين ، فالكاتب المتأخر أو الكهنوتي يصور الاله في صورة مجردة على نحو ما قد يتصوره الانسان ، وأنه قد خلق الكائنات جميعا بأن أمرها في بساطة أن تكون فكانت • أما الكاتب المتقدم ، أو اليهودي ، فقد صور الاله في صورة حسية فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما فعل الانسان ، وهو يشكل الانسان من الطين وفقا لنموذج معين ، ويزرع جنة ويسير فيها عندما يميل الجو الى البرودة ، ويطلب من الرجل والمرأة أن يظهرأ من بين الأشجار التي كانا يختفيان وراءها ، ويصنع لهما أردية من الجلد ليرتدياها بدلا من الغلالات الهزيلة المصنوعة من أوراق التين التي اتهدى اليها أول أبوين لكى يخفيا بها عورتهما خجلا منها • فالبساطة الجميلة بل المرح ، في القصة المتقدمة تتعارض مع الجدية البالغة في القصة المتأخرة ، وان كنا لا نملك الا أن ندهش لذلك الطابع الحزين المتشائم الذي يستخفى وراء صور الحياة البهيجة في عصر البراءة ، تلك الصورة التي رسمها لنا الفنان اليهودي الكبير • ولم يستطع هذا الفنان بعد كل هذا أن يخفى احتقاره الشديد للمرأة ، فتأخر خلقها ، فضلا على الطريقة الشاذة غير المشرفة التي خلقت بها — اذ شكلها الاله من جزء من جسم سيدها آدم ، بعد أن خلقت صنوف الحيوان بطريقة طبيعية لائقة — كل هذا يشير

اشارة كافية الى رأيه في حقارة شأن المرأة • وترقييا على هذا فان كرهه للمرأة — كما يمكن أن نسميه بحق — يضى على القصة لونا قاتما ، وذلك حين يعزو الكاتب محنة الجنس البشرى وأحزانه الى سلوك الأم الأولى الذى يتسم بالحماسة الساذجة ، والى شهوتها التى أطلقت لها العنان • •

ولا تتميز القصة المتقدمة عن أختها المتأخرة بأنها أكثر زخرفة منها فحسب ، بل تتميز عنها . فضلا على هذا ، بغنى عناصرها الفولكلورية ، فلقد أبقت على ملامح واضحة من البساطة البدائية ، طمسها الكاتب الثانى فى حرص • وبناء على هذا قد تقدم من العناصر — فى مجال المقارنة بالحكايات البدائية الساذجة ، التى حاول الناس عن طريقها فى العصور والبلاد المختلفة أن يشرحوا اللغز الكبير لبداية الحياة على وجه الأرض أكثر مما تقدمه الحكاية الكهونية • وسوف أورد فى الصفحات التالية بعض هذه الحكايات البسيطة • •

ويبدو أن المؤلف اليهودى قد تصور أن الاله قد شكل الرجل الأول من الطين على نحو ما يفعل صانع الفخار تماما ، أو كما يفعل الطفل حين يشكل دمية من الطين • فبعد أن عجن الاله الطين وسواه على الصورة المعلومة ، بث فيه الروح بأن نفخ فى فم التمثال ومنخره ، بنفس الطريقة التى يروى عن النبی المسيح أنه أعاد بها الحياة الى جسد الطفل الميت ابن النشونامية ^(١) ، وذلك بأن استلقى فوق الطفل ، ووضع عينيه على عيني الطفل ، وفمه على مه ، وذلك لكي يمنح الجسد بطبيعة الحال بعض أنفاسه • وبعد ذلك عطس الطفل سبع مرات وفتح عينيه • على أن فكرة العبريين فى أن الجنس البشرى يرجع فى أصله الى التراب — تتضح لنا على نحو طبيعى للغاية ، إذ أننا نجد أن كلمة « آدم » فى لغتهم ، ومعناها الأرض ، هى الصيغة المؤنثة

(١) الملوك الثانى اصحاح ٤ آية ٨ — ٣٧ •

الكلمة آدم ، ومعناها الرجل • ويبدو من نصوص مختلفة في الأدب البابلي أن البابليين كذلك كانوا يرون أن الانسان قد خلق من طين • فهناك رواية اغريقية احتفظت بحكاية عن أصل الخليقة « لبيروسوس » الكاهن البابلي تقول : ان الاله « بل » ^(١) قطع رأسه ، وأن سائر الآلهة جمعوا الدم المتدفق منه وعجنوا به التراب ، وخلقوا البشر من هذه لعجينة المخلوطة بالدم • ولهذا السبب ، كما يقول البابليون ، كان الرجال حكماء كل الحكمة ، لأن الطين الذي خلقوا منه كان مخلوطا بدم الاله • ويروى في الأساطير الفرعونية أن « خنم » ^(٢) أبا الآلهة قد خلق الانسان من الطين على دولابه الذي كان يشكل عليه الفخار • وبالمثل يحكى في الأسطورة الاغريقية أن بروميثوس ^(٣) • الحكيم قد خلق الانسان الأول من الطين عند بانوبيوس التي تقع في فوكيس ^(٤) • وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا بزمن طويل على شكل صخرتين كبيرتين تشرفان على واد ضيق ••

وقد تراءى لمسافر يوناني كان يزور هذا المكان في القرن الثاني الميلادي أن الصخرتين كانتا بلون الطين ، وأن رائحة اللحم البشري كانت تفوح منهما قوية •

وقد قمت أنا كذلك بزيارة هذا المكان بعد ذلك بما يقرب من سبعة عشر قرنا ونصف قرن ، فوجدته واديا مهجورا ، أو بالأحرى تجويفا يقع على الجانب الجنوبي من تل بانوبيوس ، في أسفل صف من الآثار المتهدمة وان كانت لاتزال تبدو في شكل حوائط متماسكة وقلاع تتوَجَّح

(١) بل هو الاسم البابلي للاله « بعل »

(٢) الاله المصري القديم خنم الذي تصوره المصريون برأس كبش واسمه مرنط من حيث الاشتقاق اللغوي بالكلمة العربية « غنم »

(٣) هو خالق الجنس البشري ويادى الحضارة الانسانية وفقا للأسطورة لاغريقية وقد حكم عليه الاله زيوس بالنفى الى جبال القوقاز ، حيث أخذ نسر ينهش لحمه ، لأنه كان قد سرق النار وأحضرها للبشر • ثم أطلق هرقل سراحه فيما بعد • (المترجمة)

(٤) اقليم كان يتوسط بلاد الاغريق في الزمن القديم • (المترجمة)

صخور القمة الرمادية • لقد كان قائظا في أواخر أيام الخريف ،
هو اليوم الأول من شهر نوفمبر . وقد بدا الوادي جافا كل الجفاف
بعد صيف طويل لم تسقط فيه الأمطار في بلاد اليونان • ولذلك
لم تكن قطرات المياه تتساقط على جانبيه المليئين بالأدغال ، ولكني
أبصرت في قاع الوادي تربة مفتتة مائلة الى الاحمرار ، ربما كانت
مخلفات أثرية من الطين الذي خلق منه بروميثيوس أول أبوين على
وجه الأرض • وقد كان المكان موحشا مهجورا ، اذ لم يكن هناك أثر
لإنسان أو لمسكن سوى صف من القلاع العفنة ، وشرفات تطل من
فوق التل تحكى عن الحياة المصطخبة التي ولت منذ زمن طويل • فالمنظر
كله — شأن كثير من مناظر اليونان — كان ملائما لأن يثير في النفس
احساسا بحياة الإنسان القصيرة الصاخبة اذا هي قيسست بدوام الطبيعة
وهدوئها وأمنها الظاهري على الأقل • وقد ازداد هذا الاحساس
عمقا في نفسي حينما خلدت الى الراحة في قيظ ذلك اليوم على قمة التل
في ظل بعض أشجار البلوط الجميلة الدائمة الخضرة ، ونفذت ببصري
في المنظر البعيد الغنى بذكريات الماضي ، في حين كانت رائحة الزعتر
البرى تفوح في الأرجاء • وفي الجنوب كانت ذروة جبل هيليكون
المنحوتة نحتا دقيقا تشرف على سلسلة التلال المنخفضة التي يتداخل
بعضها في بعض • أما في الغرب فقد برزت كتلة جبل بارناسيوس الصخرية
الهائلة ، وقد غطت أشجار الصنوبر منحدراته الوسطى ، كما لو كانت
ظلالا من السحب تكسوها النباتات المتسلقة ، وقد أشرقت على الوادي
العميق الذي يتلائم جماله الرومانسي كل التلاؤم مع أفراح بروكني
وفيلوميل^(١) وأحزانهما ، وهما الشخصيتان اللتان ربطت بينهما
الأسطورة الاغريقية وبين هذا المكان ••

(١) « فيلوميل » هي ابنة الملك الاثيني « باندويون » وفقا للأسطورة
الاغريقية . وقد سلبها « بيروس » زوج اختها « بروكني » شرفها ثم انتزع
لسانها حتى يظل حبه لها سرا خافيا . ولكن « بروكني » انتقمت من « بيروس »
بأن قتلت ابنه . وأخذ « بيروس » بعد هذا يتعقب الأختين ، ولكن الآلهة حولت
بروكني الى بلبل كما حولت فيلوميل الى طائر السنوتو وبذلك استطاعتا أن
تهربا منه .
(المترجمة)

أما في الشمال عبر السهل الفسيح الذي ينحدر إليه نل بانوبيوس العارى ، فإن العين تستقر على فجوة في التلال يشق فيها نهر سيفيسيس طريقه المتعرج وهو يتدفق أسفل أشجار الصفصاف الرمادية التى تقع في سفح التلال الصخرية العارية ، حتى تختفى مياهه العكرة لا في مستنقعات بحيرة كوبيك الممتدة النحيلة التى اختفت الآن ، ولكن في كهف مظلم يقع داخل صخرة من الحجر الجيرى . وفى الشرق يتصل حطام شايرونيا ، حيث ولد بلوتارك ، بمنحدرات سلسلة الجبال العارية التى يكون نل بانوبيوس جزءا منها . هناك في هذا السهل قامت المعركة الفاصلة التى انتهت بخضوع الاغريق لمقدونيا ، وهناك أيضا اشتبك الشرق والغرب في الأزمنة الغابرة في معارك دامية ، انتهت بهزيمة جيوش ميثريداتس ^(١) الآسيوية على يد جيوش روما بقيادة سولا . لقد كان هذا المنظر الذى بدا أمام عني في أحد أيام الخريف الأول التى تثير روعتها النفس ، عندما كان الصيف المدبر ما زال ينسحب في ادلال ، كما لو كان يشق عليه أن يترك للشقاء جبال اليونان الساحرة . وفى اليوم الثانى تغير المنظر ، اذ كان الصيف قد ولى . وأطل ضباب شهر نوفمبر الرمادى على التلال التى كانت حتى الأمس تتألق في ضوء الشمس . وتحت ستائره الحزينة اكتسى سهل شايرونيا المنبسط اللهامد ، الذى يخو من الأشجار ، وتحيط به المنحدرات الموحشة من جانب — اكتسى بحزن رهيب يتفق مع المعركة التى فقدت فيها أمة حريتها .

اننا لا نستطيع أن نشك في أن مثل هذه الأفكار الساذجة عن أصل الإنسان التى كانت مألوفة لدى الاغريق والعبريين والبابليين والمصريين القدماء ، قد انتقلت الى الشعوب المتحضرة القديمة عن طريق

(١) « ميثريداتس » أو « ميثراداتس » ملك بونطوس . حكم فيما بين ١٣٢ الى ٦٣ ق.م . وقد سولت له أطماعه أن يستولى على آسيا الصغرى . ناشتبك مع الجيوش الرومية بقيادة « سولا » من سنة ٨٨ الى ٨٥ ق.م . وهزم « سولا » « ميثريداتس » واضطره الى اللجوء الى زوج ابنته في أرمينيا . وظل الرومانيون يتعقبونه حتى قتل في مملكته . (المترجمة)

أجدادهم الهمجيين أو المتبربرين • فمن المؤكد أن مثل هذه الحكايات رواها الهمجيون الذين يعيشون اليوم أو كانوا يعيشون بالأمس ، فقد حكى سكان استراليا السود انذين يقطنون ضواحي ملبورن ، أن بند - جل الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينه الكبير ، ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح ، وأخذ يسويه بسكينه حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان ، فصنع الأقدام في أول الأمر ، ثم الارجل فالجذع فالأذرع فالتراأس • وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر ، وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا • وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر النديكالبيتوس وصنع منها شعرا لاصقه في رأسه ورجليه المصنوعين من الطين • ثم نظر اليهما مرة أخرى وأعجب بعمله ، ورقص من حولهما مرة أخرى تعبيرا عن سعادته • وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة في فم كل منهما وفي أنفه وسرته • وفي الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو •

ويحكى الماوريون ، سان نيوزيلندة ، أن آلهما معينا يسمى بأسماء مختلفة هي تو ، وتيكي ، وتانى ، أخذ طينا أحمر من جانب النهر وعجنه بدمه ، وشكله على صورته ، معينين ورجلين وذراعين وغير ذلك من الأعضاء • بحيث أصبحت الصورة مطابقة للاله • وبعد أن أتقن صنع نموذجيه ، بعث فيه الحياة بأن نفخ في فمه ومنخره • وفي الحال اكتسبت الدمية الطينية الحياة وعطست • ولقد كان الرجل الذى صنعه « تيكي » آله الماء وريين شديد الشبه به الى درجة أن سماه « تيكي أهوا » أى شبيه تيكي ••

ومن الروايات الشعبية المألوفة في تاهيتى أن الاله « تاروا » ، الاله الأكبر ، خلق أول زوجين • فهو بعد أن خلق العالم ، كما يقولون ، خلق الانسان من الطين الأحمر الذى كثر الانسان يستخدمه كذلك فيما بعد طعاما له ، وذلك قبل أن يزرع الثمار التى صنع منها الخبز • ويحكى بعض سكان تاهيتى أن « تاروا » نادى الرجل باسمه ، فلما جاء اليه سلط عليه النوم • فلما استغرق في نومه انتزع منه عظمة من عظامه

(وتسمى العظمة في لغتهم « ايفى ») ، وصنع منها امرأة قدمها الى الرجل ليتخذ منها زوجة له . ومن هذين الزوجين تناسلت البشرية فيما بعد . وقد دونت هذه الرواية من أفواه أهالي تاهيتى فى السنين الأولى من وفود المبشرين اليهم . ويعلق المبشر « وليم النيس » على هذه القصة التى دونها بنفسه قائلاً : « ان القصة تبدو لى مجرد سرد للحكاية الموسوية عن الخليقة ، تلك الحكاية التى سمعها الأهالى من الأوربيين . ولكننى لم أعول على هذه الرواية ، على الرغم من أن الأهالى ذكروا لى مراراً أنها حكاية مأثورة عرفوها قبل أن تطأ قدم أى أجنبى أرض بلادهم . كما قرر بعضهم أن المرأة كان اسمها ايفى Ivi . وهم ينطقون هذه الكلمة حسبما تكتب كلمة Eve أى « ايف » . وايفى Ivi كلمة أصلية فى لغتهم ، وهى لا تعنى العظمة فحسب ، بل تعنى كذلك الأرملة ، كما أنها تعنى ضحية الحرب . وعلى الرغم من تأكيد الأهالى لهذه المعانى ، فإننى أميل لأن أعتقد أن كلمة Evi أو Eve ، هى الجزء الأصلى الوحيد فى القصة ، وذلك فى نطاق علاقتها بالأم الأولى للجنس البشرى » . ومهما يكن من شئ فإن هذه الحكاية المأثورة بعينها قد دونت فى مناطق أخرى من بولينيزيا الى جانب تدوينها فى تاهيتى . فأهالى فاكائمو أو جزيرة بادويش يقولون : ان الرجل الأول خلق من حجر ، وأنه قرر بعد مرور فترة من الزمن أن يخلق امرأة ، فجمع تراباً وشكله فى صورة امرأة ، ثم انتزع ضلعاً من جنبه الأيسر وزج به فى تمثال المرأة ، فدبت فيها الحياة توا ، وأطلق عليها اسم « ايفى » أى الضلع ، واتخذ منها زوجة له ومنهما معا تناسل الجنس البشرى فيما بعد . وقد روى كذلك أن الماوريين يعتقدون أن المرأة الأولى قد خلقت من ضلوع الرجل الأول . وانتشار هذه الحكاية على هذا النحو فى بولينيزيا يثير الشك فيما اذا كانت ، كما اعتقد « النيس » ، مجرد تكرار لحكاية الكتاب المقدس كما سمعها الأهالى عن الأوربيين أم لا .

وعلى كل فإن قصة خلق أول امرأة من ضلع أول رجل تصادفنا فى

أما نحن أخرى في شكل روايات شديدة الشبه بحكاية الكتاب المقدس ،
الى درجة أننا لا يمكن أن نعدّها مستقلة عنها • فالكارينيون سكان بورما
يقولون : « أن الله خلق الرجل ، ولكن من أى شيء خلقه ؟ لقد بدأ بخلق
الرجل من التراب ، ثم أتم من بعده عملية خلق المرأة ، ولكن من أى
شيء خلقها ؟ لقد أخذ ضلعا من أضلاع الرجل وخلق المرأة » • ومرة
أخرى نجد التتار البيدليين سكان سيبيريا يروون حكاية مأثورة ،
مؤداها أن الله في بادئ الأمر خلق الرجل الذي عاش وحده على وجه
الأرض • وأنه بينما كان الرجل ينام وحده ذات مرة ، لمس الشيطان
صدره ، فبرزت عظمة من بين ضلوعه ، وحينما سقطت على الأرض
أخذت تنمو ، وصارت المرأة الأولى •

وهنا نلاحظ أن التتار قد عمقوا نعمة السخرية عند كاتب سفر
التكوين حينما جعلوا للشيطان يدا في خلق أمنا الأولى • ولنعد مرة
أخرى الى أقاليم المحيط الهادى

ويروى سكان « جزر بيليو » (١) أن أبا وأخته صنعا رجالا من
طين عجن بدماء صنوف من الحيوان ، وأن شخصيات هؤلاء الرجال
الأولين ونسلهم تحدت وفقا لخصائص صنوف الحيوان التي مزجت
دماءها بالطين الأصلي ، فالرجال الذين امتزج طينهم بدم الفيران
أصبحوا لصوصا ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الثعابين اتصفوا
بالعذر ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الديوك اتصفوا بالشجاعة •
ووفقا لأسطورة مالينيزية تروى في جزيرة « موتا » إحدى « جزر
المبانك » (٢) أن البطل « كات » خلق الرجال من الطين ، وعلى وجه

(١) جزر « بالاو » أو « بيليو » وهى مجموعة جزر في المحيط الباسفيكى
وتبعد عن الفيليبين بحوالى ٥٥٠ ميلا .

(المترجمة)

(٢) « جزر المبانك » وهى مجموعة من الجزر الصغيرة ويبلغ عددها
خمسا وتقع في الجنوب الغربى من المحيط الباسفيكى • وأهم هذه الجزر
فانوا ولانغا وموتا وجاوة .
(المترجمة)

التحديد من الطين الأحمر ،الذى أخذه من شواطئ النهر التى تكثر فيها المستنقعات عند « فانوا لافا » • وقد صنع « كات » فى بادىء الأمر الرجال والخنازير متشابهين ، ولكن اخوته ثاروا ضده لهذا السبب، فضرب الخنازير وجعلها تسير على أربع ، فى حين جعل الرجل يسير على قدميه فحسب • أما المرأة الأولى فقد صنعها « كات » من غصن لدن ، فلما ابتسمت عرف أن الحياة قد دبّت فيها • وقد أطلق أهالى « مالىكولا » احدى جزر الهبريد الجديدة ^(١) ، اسم « بوكور » على الخالق الكبير الذى خلق أول رجل وامرأة من الطين ••

ويروى سكان اقنيم نو — هو — روا ، الذى يقع فى جزر « كاي » ^(٢) أن الاله الأعلى « دوادليرا » خلق أجدادهم من الطين ، بعد أن نفخ فى أجسادهم الطينية أنفاس الحياة • ووفقا للتورادجيين ، سكان « سيلبس الوسطى » ^(٣) ، الذين يتحدثون اللغة البارثية ، أنه لم يكن هناك فى البداية أى كائن حى على وجه الأرض ، ثم قرر « اى لاي » ، اله العالم العلوى ، و « اى ندارا » الهة العائم السفلى ، أن يخلقا البشر ، فأسندا هذا العمل الى « اى كومبينجى » الذى صنع نموذجين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة من الحجر وفقا لأحد الآراء ، أو من الخشب وفقا لرأى آخر • بعد أن أتم « اى كومبينجى » عمله ، أوقف النموذجين على جانب الطريق الذى يوصل العالم العلوى بالعالم السفلى ، حتى يتسنى للأرواح العابرة أن ترى صفعه وتحكم عليه • وفى المساء اجتمعت الآلهة لتتداول الرأى حول خلق النموذجين ، واتفقوا على أن سمانة ساق كل من الرجل والمرأة ليست مستديرة استدارة كافية • وعندئذ صنع « اى كومبينجى » نموذجين آخرين وعرضهما

(١) مجموعة جزر تقع فى المحيط الهادى وسكانها الأصليون من الميلانيزيين •
(المترجمة)

(٢) مجموعة جزر اندونيسية واكبرها جزيرة « توهو — شوت » •
(المترجمة)

(٣) احدى الجزر الاندونيسية الكبرى •
(المترجمة)

على الآلهة لتبدى رأيها فيهما ، فلاحظت الآلهة هذه المرة أن البطن في كلا النموذجين منتفخة الى حد كبير . ولهذا صنع « اى كومبينجى » للمرة الثالثة نموذجين رضيت عنهما الآلهة بعد أن أحدثت تعديلات طفيفة من الناحية التشريحية ، وذلك بأن قام بنقل جزء من جسم الذكر الى المرأة . ولم يبق بعد ذلك سوى أن تدب الحياة في النموذجين . وعندئذ صعد الاله « لاي » الى مسكنه في المساء لكي يحضر النفس الأبدى لكل من الرجل والمرأة . ولكنه — فى أثناء هذا — ترك الريح ، اما نتيجة غفلة منه ، أو لأنه كان فى عجلة من أمره ، تهب على النموذجين ، حاملة معها الأنفاس والحياة اليهما ، فاستنشقتهما النموذجان بدورهما . وهذا هو السبب فى أن نفس الانسان يعود الى الريح عندما يموت . ويروى « الدياكيون » ^(١) ، الذين يسكنون « ساكاران » فى جزيرة بورنيو التابعة للاحتلال البريطانى ، ان أول رجل على وجه الأرض خلقه طائران كبيران . وقد حاول هذان الطائران أن يخلقا البشر من الشجر فى بادية الأمر ، ولكن دون جدوى ، فنحتوا أشكالهم من الصخور ولكنها كانت خرساء . عندئذ شكلا رجلا من الطين ، ودفعا فى عروقه صمغ شجرة الكومبانج الأحمر ، ونادياه فرد عليهما ، فلما جرحاه تدفق الدم من جروحه . عندئذ أطلقا عليه اسم « تانا كومبوك » أى « الطين المشكل » . على أن بعض « الدياكيين » يرون حكاية أخرى مخالفة لهذه الحكاية ، فهم يعتقدون أن الها بعينه اسمه « سالا مبانديا » هو الذى قام بخلق البشر ، اذ أخذ يشكل الطين بمطرقة حتى سوى أجساد الأطفال الذين كان مقدر لهم أن يولدوا فى الحياة . وعندما يسمع الدياكيون صوت حشرة عندهم تحدث صلصلة غريبة فى الليل فانهم يقولون : انه صوت مطرقة « سلامبانديا » وهو يقوم بعمله . ثم تستمر القصة فتحكى أن الآلهة أمرت « سلامبانديا » أن يصنع رجلا ، فصنعه من الحجر . ولكن التمثال

(١) هم سكان جزر الملايو الأصليون . وتعد « بورنيو » من أكبر جزر الملايو .
(المترجمة)

كان أخرس ، ولذلك فقد رغبته الآلهة كما رغبتم التمثال الأول .
وفي المرة الثالثة صنع سلامبانديا رجلا من الطين كانت له القدرة على
الكلام ، فسرت به الآلهة وقالت له : « ان الرجل الذي صنعتة يبشر
بالخير ، فلتجعل منه جدا للجنس البشرى ، وعليك أن تصنع أشكالا
مثله » . عندئذ بدأ « سلامبانديا » في صنع النماذج البشرية — وهو
ما زال يقوم بصنعها مستعينا بسندانة وآلاته — في مناطق مجهولة .
فهو هناك يشكل الطين في شكل أطفال ، وكلما فرغ من صنع أحدهم
أحضره الى الآلهة ، فتوجه اليه الآلهة هذا السؤال : « ما الشيء الذي
تود أن تمسك به وتستعمله ؟ » فاذا هو أجاب بقوله : « السيف »
نادت به الآلهة ذكرا ، أما اذا أجاب بقوله : « القطن ودولاب الغزل » ،
نادت به أنثى . ومعنى هذا أن الأطفال قد ولدوا ذكورا أو اناثا وفقا
لرغبتهم ..

ويحفظ أهائى « نياس » ، وهى جزيرة تقع فى الجنوب الغربى
من سومطرة ، قصيدة طويلة تصف قصة الخلق ، وينشدونها عندما
يرقصون فى أثناء الاحتفال الجنائزى لوفاة أحد زعمائهم . وفى
هذه القصيدة — المؤلفة على نظام المزدوجات مثل نظام الشعر
العبرى ، حيث يعيد جزؤها الثانى فكرة الجزء الأول بعبارات أخرى
مختلفة بعض الشيء — نقرأ أن الاله الأعلى « ليوزاهو » عندما كان
يستحم فى نبع سماوى ، انعكست صورته فى مياهه الصافية كالمرآة ،
فلما أبصر صورته فى الماء ، أخذ حفنة من التراب فى حجم البيضة
وشكنها فى صورة تشبه صور الأجداد ، تلك التى كان أهائى « نياس »
يصنعونها . وحين فرغ من ذلك وضع هذا التمثال فى كفة ميزان
ووزنه ، ثم وزن الريح كذلك ، ووضعها بعد وزنها على شففى التمثال
الذى صنعه . عند ذلك تحدث التمثال على نحو ما يتحدث الرجل
أو على نحو ما يتحدث الطفل ، وأطلق عليه الاله اسم « سيهاى » .
وعلى الرغم من أن « سيهاى » كان يشبه الاله فى شكله فانه لم يعقب
ذرية . وقد كانت الدنيا آنذاك مظلمة ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر

قد خلقا بعد ، فتدبر الاله الأمر وأرسل « سيهاى » الى الأرض ،
ليعيش فى بيت شيد من أشجار السرخس • ولكن « سيهاى » توفى
ظهر يوم ، قبل أن يرزقه الله بزوجة أو ولد ، ولكن شجرتين نبتتا
من فمه ، وأينعتا وأزهرتا ، وهز الريح الزهر فتساقط على الأرض ،
ومن هذا الزهر نشأت الأمراض • ثم نبتت من حنجرة « سيهاى »
شجرة كان يستخلص منها الذهب ، كما نبتت من قلبه شجرة أخرى
ينتسب اليها الرجال • وفضلا على ذلك فقد بزغت الشمس من عينيه
اليمنى وبزغ القمر من عينه اليسرى • وفى هذه الأسطورة نلاحظ أن
فكرة خلق الانسان فى صورة الاله تراعت للمخالق بعد أن رأى صورته
منعكسة على صفحة النبع الصافى •

وتحكى قبيلة « بيلا - آن » البدائية ، وهى قبيلة من قبائل
« منداناو » ، احدى جزر الفيلبين ، قصة خلق الانسان الأول كما يلى :
كان هناك فى بداية الحياة كائن بعينه يدعى « ميلو » ، وكان ضخما
للمغاية ، الى درجة لا يمكن مقارنته بشيء معلوم لدينا • وكان هذا
الكائن أبيض اللون ، ذا أسنان ذهبية ، وكان يجلس فوق السحب
فيشغل كل أجواز السماء • وحيث انه كان بطبعه نظيفا للمغاية فقد
كان دائم التدليل لنفسه حتى يحتفظ ببياض جلده نقيًا • وكان يلقي
بجانبيه القشور التى يزيلها من جسمه ، حتى تجمعت منها كومة أزعه
منظرها ، فخلق منها الأرض لكي يتخلص منها • ولما سر بعمله هذا
قرر أن يصنع شكلين يشبهانه ولكن دونه حجما • وقد شكلهما مطابقين
له كل المطابقة ، وذلك من القشور التى سبق له أن خلق منها الأرض •
وقد كان هذان الشكلان أول مخلوقين بشريين • وبينما كان هذا
الخالق يقوم بعمله ، فأتم صنع أحد النموذجين فيما عدا أنفه ، كما
أتم صنع النموذج الثانى فيما عدا أنفه وجزءا آخر منه ، جاءه
« تاو دالوم تانا » وطلب منه أن يسمح له بأن يصنع أنفى الشكلين •
وبعد جدل عنيف بينه وبين الخالق حول هذا الموضوع انتهى
« تاو دالوم تانا » الى صنع الأنفين • ولكنه حينما شاء أن يركبهما

على وجهى أول أبوين فانه وضعهما على نحو معكوس • ومرة أخرى دب الخلاف العنيف بين الخالق ومساعدته حول تركيب الأنف إلى درجة أن الخالق نفسه نسي كلية أن يكمل الجزء الباقي من الشكل الثانى ، وصعد إلى مكانه فوق السحاب ، تاركا نموذج الرجل الأول أو المرأة الأولى (فالقصة ثم تحدد النوع) ناقصا ، كما هبط « تاو دالوم تانا » إلى عالمه السفلى • ثم أخذت أمطار غريزة تهطل بعد ذلك ، إلى درجة أن كاد يهلك أول مخلوقين بشريين ، لأن المياه أخذت تتدفق على قمة رأسيهما متخللة أنفيهما المعكوسين • ولحسن الحظ أبصر الخالق النموذجين في هذا الموقف الحرج ، فخف لنجدتهما وخلع أنفيهما وأعادهما إلى وضعها الطبيعى ••

وتحكى قبيلة « الباجوبوس » ، وهى قبيلة وثنية تقطن جنوب شرق « مينداناو » أن خالقا بعينه يدعى « ديواتا » قد خلق في بداية الحياة البحر والأرض وغرس أشجارا مختلفة الأنواع ، ثم أخذ حفنتين من تراب وشكلهما في هيئة شكلين آدميين ، ثم بصق عليهما فتحولا إلى رجل وامرأة • أما الرجل الشيخ فسمى « توجلاى » ، وأما المرأة العجوز فسميت « توجلينج » • ثم تزوجا ، وابتنى الرجل بيتا عظيما وزرع أنواعا أنواعا متعددة من الحبوب التى كانت المرأة قد قدمتها إليه •

وقد حكى « الكوميون » الذى يسكنون بقاعا من « أراكان » وتلال « وتشيتاجونج » فى الهند الشرقية ، حكوا للكابتن « لوين » الحكاية التالية عن خلق الانسان ، التى تقول : ان الله خلق العالم والأشجار والحيوانات الزاحفة فى بادئ الأمر ، وبعد ذلك شكل رجلا واحدا وامرأة واحدة من الطين • على أن حية كانت تتسلل فى كل ليلة ، بعد أن يفرغ الاله من عمله ويخلد للنوم ، وتبتلع النموذجين اللذين صنعهما الاله • وتكرر حدوث هذا مرتين أو ثلاثا ، حتى كاد الاله أن يفقد صوابه ، لاذ كان عليه أن يعمل طوال اليوم ، ولم يكن فى وسعه

أن يتم صنع النموذجين في أقل من أنثى عشرة ساعة • وإذا هو لم يسترح بعد تعب النهار « فإن حالته تسوء » — على حد تعبير القصاص الكومي — ولهذا فقد كاد الإله أن يفقد صوابه كما ذكرت ، ولكنه في نهاية الأمر استيقظ مبكرا ذات فصبح ، وشكل نموذجا لكلب وبث فيه الحياة ، وعينه حارسا على النموذجين الآدميين • فلما تسلمت الحية اليهما نباح الكلب فهربت الحية فزعا • وهذا هو السبب في أن الكلاب تأخذ في النباح عندما يحتضر الإنسان • على أن « الكوميين » يعتقدون أن الإله في هذه الأيام يغط في نوم عميق ، أو أن الحية صارت أشجع مما مضى ، وذلك لأن الناس يموتون على الرغم من نباح الكلاب • ولو لم ينم الإله لما كان هناك مرض أو موت ، فالحية لا تأتي وتنتزعنا إلا في أثناء الفتوة التي ينام فيها الإله • وشبيه بهذه الحكاية يرويها الخاسيون « سكان أسام » • فهم يقولون : إن الله خلق الرجل في بادئ الأمر ووضعه على الأرض ، وعندما عاد ليعيد النظر فيما صنعه يده وجد أن الروح الشريرة قد حطمت الرجل ، فلما حدث هذا مرة أخرى خلق الإله الكلب أولا والرجل ثانيا ، فسهر الكلب على حراسة الرجل ، ومنح الروح الشريرة من أن تصيبه بأذى • وبهذا أبقي على عمل الإله •

وقد برزت هذه الحكاية نفسها ملونة بمسحة طفيفة من الميثولوجيا الهندوكية عند قبيلة « كوركوس » ، وهي قبيلة عريقة تقطن الأقاليم الوسطى في الهند • وخلاصة هذه الحكاية أن « راوان » ، ملك « سيلان » الشيطان ، لاحظ أن سلسلة جبال « غندهيان » و « ساتبورا » غير مأهولة ، فتضرع إلى الإله الكبير « ماهاديو » أن يعمرها بالسكان • عندئذ أرسل « ماهاديو » ، الذي يعنون به « سيفا » ، غرابا لكي يبحث له عن كتيب الرمال ذي القربة الحمراء ، فعثر الطائر على هذا الكتيب بين جبال « بيتول » • عندئذ رحل الإله إلى هذا المكان ، وأخذ حفنة من القربة الحمراء وصنع منها تمثالين لرجل ومراة • ولم يكد الإله يفعل هذا حتى بزغ حصانان

ناريان من الأرض ، أرسلهما « اندرا » ، فأحالا التمثالين الى تراب •
وعاود الاله المحاولة في يومين متتاليين ، ولكن تماثيله كانت تتحطم
بمجرد فراغه من عملها • وأخيرا صنع الاله تماثلا لكلب ونفث فيه
أنفاس الحياة ، فاستطاع الكلب أن يبعد حصاني « اندرا » الناريين
عن التمثالين • ومن ثم تمكن الاله من أن يصنع تماثلي الرجل والمرأة
دون ازعاج ، ومنحهما الحياة وسماهما « مولا » و « مولاي » •
وقد أصبح هذا الرجل وهذه المرأة الأبوين الأولين لقبيلة «كروكوس» •

ويروى عن قبيلة « موندا » ، وهي قبيلة بدائية قديمة في
« شوتانجبور » ، حكاية شبيهة بالحكاية السابقة مع بعض الاختلاف
المثير ، تقول : ان اله الشمس الذى يدعى « سنجبونجا » قد شكل
تماثيلين من الطين : أحدهما في صورة رجل ، والآخر في صورة امرأة ،
ولكنه قبل أن يمنحهما الحياة داسهما الحصان بحوافره ، ناظرا
بعين المستقبل الى ما يمكن أن يلقاه منهما من متاعب • وقد كان للحصان
في تلك الأيام أجنحة ، وكان فى وسعه أن يركض أسرع منه فى هذه
الأيام • ولما رأى اله الشمس أن الحصان قد حطم تماثليه خلق
حشرة العنكبوت أولا ، ثم عاد فشكل تماثيلين آخرين شبيهين بالتماثيلين
اللذين داسهما الحصان بحوافره ، وأمر العنكبوت بأن يحرسهما ،
فنسج العنكبوت خيوطه حول التماثيل بطريقة لم تمكن الحصان من
أن يدوس التماثيل مرة أخرى بحوافره • وبعد ذلك تمكن اله الشمس
من أن ينفث الحياة فى التماثيل اللذين أصبحا أول بشرين على وجه
الأرض ••

ويحكى « الشيريميون » فى روسيا ، وهم قوم من أصل فنلندى ،
حكاية عن خلق الانسان تذكرنا بحوادث فى أساطير الهنود و «التورادجيين»
عن الخلق • فهم يرون أن الاله شكل جسم الانسان من الطين ، ثم
صعد الى السماء ليحضر الروح الذى يحيى به الانسان ، بعد أن
ترك الكلب يحرس التمثال فى غيابه • ولكنه ما أن تجاوز مكان التمثال ،

حتى تقترب الشيطان من التمثال وأثار ريحا باردا على الكلب ، واستطاع أن يرشوه برداء من الفرو كي يتنحى عن حراسة التمثال • وبعد ذلك بصق الشيطان على التمثال فلوثه بطريقة غاية في القذارة ، الى درجة أن الاله عندما أبصر ذلك ، لم يتمكن من تنظيفه ، ووجد نفسه مضطرا لأن يقلب التمثال ظهرا لبطن • وهذا هو السبب في أن باطن الانسان قد أصبح قذرا كل القذارة • وفي ذات اليوم نفسه صب الاله اللعنة على الكلب جزاء اهماله الذي استحق عليه العقاب •

فاذا انتقلنا الى أفريقيا فنانا نجد أن أسطورة خلق الانسان من الطين تنتشر بين قبائل الشلووك التي تسكن اقليم النيل الأبيض • وتفسر أساطيرهم بطريقة بارعة اختلاف ألوان بشرة الأجناس البشرية المختلفة باختلاف ألوان الطين الذي خلقت منه • فيروى في حكاياتهم أن الخالق « جوك » شكل الناس جميعا من التراب • وأنه كان يتجول في أنحاء العالم ، في أثناء قيامه بعمله • ففى بلاد الأجناس البيضاء عثر على تراب أو رمل أبيض نقي ، فشكل منه الناس ذوى البشرة البيضاء • ثم وفد على أرض مصر ، فشكل من طمي النيل أناسا ذوى بشرة حمراء أو بنية • وأخيرا وصل الى أرض الشلووك ، ووجد بها تربة سوداء ، فشكل منها الناس ذوى البشرة السوداء •

وقد اتبع الاله « جوك » الطريقة الآتية في تشكيل النموذج الانسانى : كان يأخذ حفنة من التراب ويقول لنفسه : سأشكل نموذجا للانسان بشرط أن يكون قادرا على السير والجري والخروج الى الحقول ، ولهذا سأمنحه رجلين طويلتين كرجلى طائر « البشروش » فلما فرغ من صنع الرجلين قال لنفسه مرة أخرى : « ولا بد أن يكون هذا الانسان قادرا على أن يزرع الذرة ، ولهذا فسأمنحه ذراعين : ذراعا تحمل الفأس ، وأخرى تنتزع العشب الضار بالزرع » • ومن ثم صنع له ذراعين • ثم تدبر الأمر مرة ثالثة وقال : « ولا بد لهذا

الانسان أن يرى النبات ، ولهذا فسأمنحه عينين » • وركب له عينين في وجهه • ثم قال بعد ذلك : « ولا بد أن يكون قادرا على أكل مالديه من ذرة ، ولهذا فسأمنحه فمًا » • ومنحه الفم • ثم تدبر الأمر وقال : « ولا بد أن يكون الرجل قادرا على انكلام والرقص والغناء والصراخ ولكي يستطيع أن يفعل كل هذا فهو في حاجة الى لسان » • ثم ركب له لسانا • وأخيرا قال لنفسه : « ثم لابد أن يكون الانسان قادرا على سماع ضجيج الرقص ، وحديث العظماء من الرجال ، ولهذا فهو في حاجة الى أذنين » • ثم ركب له أذنين وبعث به على هذا النحو انسانا كاملا الى الحياة • ويحكى « الفانيون » الذين يسكنون في غرب أفريقيا ، أن الله خلق الانسان في بادئ الأمر على شكل سحلية من الطين ، ثم وضعه في حوض به ماء مدة سبعة أيام • وفي نهاية اليوم السابع صاح به وقال له : « اصعد من الماء » • فبرز من الماء شكل في هيئة رجل لا في هيئة سحلية • وتعتقد القبائل التي تسكن « توجولاند » في غرب أفريقيا ، وتتحدث لغة قبائل « ايوى » (١) ، ان الله مازال حتى اليوم يشكل الناس من الطين ، فاذا تبقى قليل من الماء الذي ييلل به القراب ، سكبته على الأرض ، وخلق منه الأشرار والعصاة من الناس • فهو حينما يود أن يخلق انسانا صالحا ، فانه يشكله من طين جيد ، أما عندما يود أن يخلق انسانا شريرا ، فانه يشكله من الطين الرديء • وقد شكل إله الرجل في بداية الأمر ، وأوقفه على الأرض ، ثم شكل المرأة من بعده • فنظر الرجل والمرأة أحدهما الى الآخر ، وشرعا يضحكان ، فبعث الاله بهما أثر ذلك الى الحياة •

وكذلك يروى « الاسكيمو » والهنود الذين يسكنون فيما بين

(١) « ايوى » مجموعة من القبائل التي تنتمي الى الزنوج السودانيين وتقتن في جنوب « تونجو » و « داهومى » • وهى تكون منذ عام ١٩٥٧ العنصر السائد في جمهورية « تنجو » . (المترجمة)

الآيسكا وبراجواي في أمريكا أسطورة خلق الانسان من الطين .
فالآيسكيمو الذين يسكنون في « بوينت بارو » في آلاسكا يقولون انه
مضى زمن على انوجود لم يكن فيه رجل على وجه الأرض ، واستمر
الأمر كذلك الى أن جاء روح بعينه اسمه « آسى لو » فأقام في « بوينت
بارو » ، وشكل رجلا من الطين ، ثم وضعه على الشاطئ ليجف
ثم نفخ فيه أنفاسه ومنحه الحياة . ويحكى قوم آخرون من آسكيمو
الآسكا أن الغراب شكل أول امرأة من الطين لكى تكون رفيقا لأول
رجل ، ثم ألصق في مؤخر رأسها عشباً مائياً لكى يكون لها شعرا ،
ثم نشر جناحيه على التمثال الطينى فانتصب امرأة شابة جميلة . وقد
حكى الهنود « الأكاجشميم » في كاليفورنيا ان كائنا مهولا كان
يدعى « شينجشنيش » خلق الانسان من الطين الذى وجده
على شواطئ إحدى البحيرات . وقد قام بخلق الرجل والمرأة من
الطين ، وعنهما تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم في تلك البقاع .

وقد قامت شخصية غامضة تدعى « العارف بالأرض » بخلق أول
رجل وامرأة وذلك رفقا لرواية الهنود « المايدو » الذين يسكنون
كاليفورنيا وقد هبطت هذه الشخصية من السماء عن طريق جبل
مصنوع من الريش ، وكان جسمه يشرق كالشمس وان كان قد أخفى
وجهه فلم يره أحد قط . وفي عصر أحد الأيام أخذت هذه
الشخصية كمية من التراب الأحمر الداكن ومزجتها بالماء ، وصنعت
منها شكلين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة . وعندما عادت هذه
الشخصية الى مسكنها العلوى وضعت الرجل عند جانبها الأيمن ،
والمرأة عند جانبها الأيسر ، وورقت بينهما ، وأخذ العرق يتسبب
منها طوال عصر هذا اليوم وفي أثناء الليل . وفي الصباح الباكر
أخذت المرأة تدغدغ جنبها ، ولكنها ظلت ساكنة ولم تستسلم للضحك .
ثم نهضت بعد قليل وغرست قطعة من الخشب مطلية بالقار في الأرض ،
فاندلعت النار في الحال . وقد كان الزوجان المخلوقان ناصعي البياض ،
وليس في الناس اليوم من يماثلهما في نصاعتهما . وكذلك كانت عيونهما

وردية وشعرهما أسود وأسنانهما براءة ، كما كانا غاية في الوسامة .
وقد قيل : ان « العارف بالأرض » لم يصنع لشكله أياد ، لأنه لم يهتد
الى الطريقة المثلى في تشكيلهما .

ثم أبصر « الكويوت » ، أو ذئب انبرارى الذى يقوم بدور كبير
فى أساطير الهنود الغربيين ، أبصر التمثالين فيما بعد ، ورأى ضرورة
خلق أياد نهما مثل يديه . ولكن « العارف بالأرض » رد عليه قائلاً :
« لا ، بل ان أيديهما ستكون مثل يدي » . ومن ثم أكمل صنع الزوجين .
فلما سأله « الكويوت » عن سبب صنعه الأيادى على هذا النحو
أجاب : « حتى اذا طاردتهما الدببة استطاعا أن يتسلقا الأشجار » .
وقد سمى أول رجل « كوكسو » ، كما سميت أول امرأة « المرأة نجمة
الصباح » .

ويروى الهنود « الديجونيو » أو — كما يسمون أنفسهم —
« الكواكيبايس » وهم الهنود الذين يسكنون الركن الجنوبى الغربى
الأقصى من ولاية كاليفورنيا ، يرون أسطورة يفسرون بها كيف خلق
العالم وانجنس البشرى على نحو ما هما عليه الآن . فهم يقولون انه
لم يكن هناك فى بادىء الأمر تراب أو أرض صلبة ، أو أى شىء آخر
سوى المياه الملحة التى كانت تملأ محيطاً واحداً قديماً العهد شاسعاً .
وقد كان يسكن تحت سطح الماء أخوان يدعى أكبرهما « تشايباكومات » ،
وكان كلاهما يعيش بعينين مغمضتين ، لأنهما ان لم يفعلا ذلك أصابتهم
المياه الملحة بالعمى . وبعد مرور وقت خرج الأخ الأكبر الى سطح
المحيط فلم يستطع أن يبصر شيئاً سوى الماء . ثم اتخذ الأخ الأصغر
طريقه الى السطح كذلك ، ولكنه فتح عينيه فى غير حذر فى أثناء
صعوده ، فأصيب بالعمى ، فلما وصل الى السطح لم يبصر شيئاً .
ومن ثم فقد هبط ثانياً الى قاع المحيط . ولما وجد الأخ الأكبر
نفسه وحيداً على سطح الماء وشرع فى خلق تراب صالح للسكنى
عليه من مهملات المحيط ، فخلق فى أول الأمر نملاً أحمر صغيراً غطى

المياه بأجسامه الدقيقة حتى تحول سطح المياه الى جسم صلب •
وقد كان الكون حتى ذلك الوقت مظلمًا ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر
قد خلقا بعد ، فلما خلق « تشايباكومات » بعد ذلك طيورًا معينة
سوداء مفلطحة المناقير حدث أنها ضلت طريقها في الظلام ولم تجد
لها مستقرا • وبعد ذلك أخذ « تشايباكومات » ثلاثة أنواع من
الطين : أحمر وأصفر وأسود ، وصنع منها شيئًا مستديرًا مسطحًا
أمسكه في يده وقذف به نحو السماء فالتصق بها ، وأخذ ينبعث منه
ضوء خافت تكون منه القمر بعد ذلك • ولكن « تشايباكومات » لم يقنع
بهذا الضوء الخافت الذى ينبعث من هذا النجم الشاحب ، فأخذ
مزيدًا من الطين وشكله على هيئة قرص آخر مستدير ومسطح ،
وقذف به نحو السماء ، فى الجانب الآخر منها ، فالتصق بها ، وأصبح
هو الشمس التى تضىء الكون بأشعتها • وبعد ذلك أخذ « تشايباكومات »
قطعة من الطين ذات لون فاتح وشطرها شطرين ، وشكل منها الرجل •
ثم أخذ ضلعًا من الرجل وشكل منه المرأة التى أطلق عليها اسم
« سيني أكساو » ، ومعناه المرأة الأولى • وكلمة « سيني » تعنى
المرأة ، وكلمة « أكساو » تعنى الأولى • وقد تناسلت البشرية من
هذين الشكلين اللذين شكلهما هذا المخلوق من الطين ••

وعلى هذا النحو يعتقد الهنود « الهوبى » أو « الموكو » الذين
يسكنون أريزونا أنه لم يكن فى بداية الحياة سوى الماء يعم كل
البقاع ، وأن الهسين - وربما كانتا الهتين - كلتاهما كانت تدعى
« هوروينج وهتى » كانتا تعيشان فى بيتين يقعان فى المحيط ، أحدهما
يقع فى الشرق والآخر فى الغرب • وقد استطاعت هاتان الالهتان
بجهودهما أن تجعلا الأرض الصلبة تظهر وسط المياه • على أن
الشمس لاحظت ، فى أثناء مرورها يوميا فوق الأرض الجديدة ، أنه
ليس هناك كائن حى من أى نوع يعيش على هذه الأرض ، فلفتت
نظر الالهتين الى هذا العيب الجوهري • وبناء على ذلك اجتمعت
الالهتان للتشاور فى هذا الأمر ، واتخذت الالهة التى تسكن شرقا من

قوس قزح جسرا عبرت عليه الى اختها التي تسكن غربا • وبعد أن تشاورتا معا قررتا أن تخلقنا طائرا صغيرا ، فشكلت الهة الشرق طائرا صغيرا نلغاية ثم أخذتا معا تتلوان عليه التعاويذ ، فدبت الحياة في الطائر على الأثر • وعند ذاك أطلقت الالهتان الطائر ليطوف في أرجاء العالم ليرى ما اذا كان هناك على وجه الأرض أى كائن حى ، ففما عاد الطائر أخبرهما بأنه لم ير أثرا لأى كائن حى • وعند ذاك خلقت الالهتان بنفس الطريقة أنواعا مختلفة من الطيور ، وبعثتا بها الى الأرض لكي تعمرها • وفي نهاية الأمر استقر رأى الالهتين على أن تخلقنا الانسان ، فأخذت الهة الشرق قطعة من الطين وشكلت المرأة أولا ثم الرجل بعد ذلك ، وبعثت الالهتان الحياة في الرجل والمرأة على نحو ما فعلتا مع الطيور والوحوش •

ويزعم الهنود « البيما » الذين يسكنون في أريزونا أن الخالق أخذ قطعة من الطين في يده ثم مزجها بعرق جسده وصنع من هذا المزيج كتلة من العجين ، ثم راح ينفخ فيها حتى دبت فيها الحياة ، وأخذت تتحرك ، وتحولت الى رجل وامرأة • وقد قال أحد كهنة الهنود « الناكشيز » الذين يسكنون « لويزيانا » — قال لـ « دوبراتز » « ان الاله عجن قطعة من انطين الذى يشبه ما يستعمله صانع الخزف في صنع الأواني الخزفية ، وشكل منه تمثالا صغيرا لرجل • وبعد أن تفحصه ووجد شكله لائقا نفخ فيه فدبت الحياة في التمثال ، وأخذ الرجل يكبر ، كما أخذ يسير ويسلك مسلك البشر • ثم نظر هذا الرجل الى نفسه فوجد نفسه مصورا أحسن تصوير • أما بالنسبة للطريقة التي خلقت بها المرأة فقد أقر الكاهن لـ « دوبراتز » صراحة بأنه لا يعرف شيئا عن هذا الموضوع ، فتراث قبيلته القديم لم يذكر شيئا عن الفرق بين الجنسين في طريقة خلقهما • وهو يعتقد كذلك أن الرجل والمرأة قد خلقا بطريقة واحدة •

وقد روى « المتشواكان » وهم من سكان المكسيك أن الاله الكبير

« توكاباشا » شكل الرجل والمرأة في بادىء الأمر من الطين ، ولكن عندما نزل الزوجان الى النهر ليستحما امتص الطين الماء وتفتت • ولكي يتفادى الاله هذا العيب فقد شكل التمثالين مرة أخرى من الرماد ، ولكن النتيجة لم تكن سارة في هذه المرة كذلك • وأخيرا فقد قام بتشكيلهما من المعدن حتى يتجنب الاخفاق للمرة الثالثة • وقد كان عمله محمودا هذه المرة ، اذ أنه أحكم صنعهما بحيث لم تعد المياه تتسرب اليهما ، فلما نزلا الى الماء لكي يستحما لم يتعرض جسماهما للتفتت • ومن هذين الزوجين تناسلت السلالات البشرية • وقد حكى هنود « بيرو » لقس أسباني من « كوزكو » أسطورة ، مؤداها أن الجنس البشرى عاد الى الظهور مرة أخرى في « تياهوانكو » بعد أن قضى الطوفان عليه جميعا ، فيما عدا رجل وامرأة • فهناك في « تياهوانكو » انتهى تبعد حوالى سبعين فرسخا عن « كوزكو » بعث الخالق الناس والشعوب التى هلكت فى تلك البقاع بأن شكل أفراد كل أمة من الطين ، ولون رداء كل فرد باللون الذى يميزه عن أودية الأمم الأخرى • واذا كان انفراد ينتمى الى أمة كان أفرادها يسدلون شعورهم ، خلق له شعرا مسدلا ، وأما اذا كانت أمته تحلق شعورها ، فانه كان يخلقه بشعر قصير • كما أنه جعل كل أمة تتحدث اللغة التى كانت تتحدث بها ، وتغنى الأغاني التى كانت تتغنى بها ، ومنح كلا منها الحبوب والأطعمة الخاصة بها • ولما فرغ الخالق من تشكيل شخص كل أمة ، وتلوين ملابسها ، بث الحياة فى هذه الأشكال ، الذكور منها والانات ، وأمرهم أن يسيروا تحت الأرض ، ثم صعدت كل أمة من المكان الذى أمرها الله أن تصعد منه • ويعتقد الهنود « اللينجوا » الذين يسكنون « براجواي » أن الخالق كان فى شكل خنفساء يسكن جحرا فى الأرض ، وأنه شكل الرجل والمرأة من الطين الذى كان يطوح من مسكنه تحت الأرض •

وقد كان الزوجان ملتصقين فى بادىء الأمر « مثل التوأم السيامي » • وفى هذه الصورة الشاذة بعث بهما الخالق الى العالم الأرضى ، حيث تنازعا — وهما على هذه الصورة غير الملائمة — مع جنس من الكائنات

القوية التي كان الخالق قد خلقها من قبل • وعند ذاك توصل الزوجان الى الخالق الخنفساء أن يفصل أحدهما عن الآخر ، فاستجاب لمطلبهما ، ومنحهما القدرة على التكاثر ، ومن ثم أصبحا الأبوين الأولين للجنس البشرى • أما الخالق الخنفساء فقد كف ، بعد أن خلق الكون ، عن أن يقوم بعد ذلك بأي عمل ايجابي فيه ، كما لم يعد يهتم لشيء فيه • وتذكرنا هذه الرواية بحكاية أرسطوفان انخيالية في « محاورات أفلاطون » تلك الحكاية التي يحكى فيها أرسطوفان عن الشكل الأصلي للجنس البشرى ، وكيف أن المرأة والرجل قد خنقا في بداية الأمر ملتحمين في شكل واحد مركب له رأسان وأربع أذرع وأربع أرجل ، حتى جاء زيوس فشققهما من النصف ، وفصل الجنسين أحدهما عن الآخر •

ومن الجدير بالملاحظة أن عددا من الحكايات انسلفة الذكر تتفق جميعا في أن الطين الذي شكل منه أول أبوين كان أحمر اللون ومن المحتمل أن اللون الأحمر يقصد به تفسير لون الدم • وعلى الرغم من أن الكاتب اليهودي قد أغفل ، في حكايته في سفر التكوين ، ذكر لون الطين الذي استخدمه الله في خلق آدم ، فاننا نحدس ، ولعلنا لا نكون متعجلين في حدسنا ، أن الطين الذي استخدم في هذه المناسبة كذلك كان لونه أحمر • فالكلمة العبرية انتى تطلق على الرجل في العموم هي « آدم » ، والكلمة التي تطلق على الأرض هي « أدمة » ، كما أن الكلمة التي تطلق على اللون الأحمر هي « أدوم » • وبذلك نصل عن طريق التسلسل الطبيعي ، بل الضروري ، للعنل ، الى أن الأبوين الأولين قد خلقا من التراب الأحمر • فاذا ساورنا شك في هذا فربما كانت ملاحظة أن تربة فلسطين تميل حتى انيوم الى الحمرة الداكنة تبدد هذا الشك • « وهذا يشير — وفقا لرأى الكتاب الذى لاحظ هذه الملاحظة وعلق عليها في انصاف — الى العلاقة بين آدم والتربة التي خلق منها • وهذا اللون يبدو بشكل واضح عندما تغلب التربة ، اما عن طريق المحراث أو عن طريق الحفر » • فانضىء الملائكة أن الطبيعة نفسها تحمل شواهد على الدقة الأدبية في الكتاب المقدس •

الفصل الثانى

سقوط آدم

١ - القصة فى سفر التكوين :

يصور الكاتب اليهودى عن طريق القاء قليل من الضوء ، ولكن بريشة فنان ماهر ، الحياة السعيدة التى عاشها الأبنوان الأولان فى جنة السعادة التى خلقها الرب لهما ليسكنا فيها • هناك نمت فى وفرة كل الأشجار التى تعطى الثمار الطيبة وتسعد العين بمرآها ، وهناك عاشت صنوف الحيوان فى وئام مع الانسان ومع بعضها بعضا ، وهناك لم يكن الرجل والمرأة يعرفان الخجل ، لأنهما لم يكونا يعرفان العيب ، فقد كان هذا عصر البراءة •

ولكن هذه الحياة السعيدة لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما غشى الغمام ضوء الشمس • وينتقل الكاتب فجأة من قصة خلق حواء ، وتقديمها لآدم ، ليحكى لنا قصة سقوطهما الحزينة ، وفقدانهما للبراءة ، وطردهما من جنة عدن ، وما قدر لهما هما ونسلهما من بعد من العمل والحزن والموت • وفى وسط الجنة نمت شجرة المعرفة ، معرفة الخير والشر ، التى حرم الرب على آدم أن يأكل من فاكهتها قائلا : « وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » (١) ، ولكن الحية كانت ماهرة ، كما كانت المرأة ضعيفة ومن السهل أن يغرر بها • فذهبت الحية الى حواء وأغررتها أن تأكل من الثمار المشئومة ، وقدمت حواء بدورها الثمار لزوجها ، فأكلها كذلك •

(١) سفر التكوين ٢ : ١٧ •

وما كادا يتذوقان الثمار حتى تفتحت عيونهما على الحقيقة وأدركا
أنهما عاريان ، فسترا عورتيهما ، وقد ملأهما الخزي والارتباك ، بغطاء
من أوراق التين : وفي هذه اللحظة ولى عصر البراءة الى غير رجعة .
وبعد أن خفت وقدة حر انظهيره ، وانتشرت الظلال في ربوع الجنة ،
أخذ الرب يتمشى ، كما كانت عادته ، في ساعة العصر الرطبة . وسمع
الرجل والمرأة وقع خطواته ، وربما سمعا كذلك حفيف الأوراق وهي
تتساقط تحت قدميه (اذا كان يمكن لأوراق الشجر في الجنة أن
تتساقط) . فاختبأ بين الأشجار ، وقد ملأهما الخجل من أن يراهما
عاريين . فصاح بهما الرب أن يخرجيا من خلف الأشجار . ولما علم من
الزوجين الخجولين أنهما قد عصيا أمره وأكلا من شجرة المعرفة ثارت
سورة غضبه ، ولعن الحية ، وحكم عليهما بأن ترحف على بطنها ،
وأن تأكل التراب ، وأن تكون عدو الانسان الى الأبد ، ولعن الأرض
وقضى عليها أن تنبت الشوك والحسك ، ولعن المرأة وحكم عليها أن تلد
أولادها في ألم ، وأن تكون خاضعة لزوجها ، ولعن الرجل وقضى عليه ،
أن يستخرج خبز يومه من الأرض بعرق جبينه ، وأن يعود في نهاية
حياته الى التراب ، كما خلق من التراب . وخفت سورة غضب الرب
بعد أن نطق بهذه اللعنات المتعددة . ومع ذلك فان الرب الغاضب ،
بل الرعوف بحق ، أشفق على المذنبين الى حد ما ، وصنع لها رداً من
من الجلد ، ليرتدياها بدلا من الغلالات المصنوعة من ورق التين .
أما آدم وحواء فقد انسحبا الى الوراء من خلال الأشجار في رداءيهما
الجديدين والخزي يشيع في وجهيهما ، في حين كانت الشمس تختفي
شيئا فشيئا جهة الغرب ، وانظلال تتراكم في الجنة المفقودة .

ان كل حدث في هذه القصة يرتبط بشجرة معرفة الخير والشر ،
فهي تقف مع الرجل والمرأة والحية الناطقة ، في بؤرة المأساة الكبيرة ،
اذا أمكن لنا أن نقول هذا . على أننا أمعنا في النظر ، فأننا نجد
شجرة أخرى تقف مع شجرة المعرفة جنبا الى جنب وسط الجنة ،
وهذه الشجرة تلفت النظر للغاية ، لأنها ليست سوى شجرة الحياة

التي تكسب كل من يأكل من فاكهتها الخلود • ومع ذلك فان هذه الشجرة الرائعة لا تلعب أى دور فى قصة السقوط الحقيقية ، فعلى الرغم من أن ثمارها كانت تتدلى منها يانعة القطوف ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحول بين الانسان وبين هذه الثمار أى تحريم الهى ، على عكس ما حدث مع شجرة المعرفة ، فان أحدا من الأبوين لم يفكر فى قيمة تناول شئ من فاكهتها اللذيذة ، فيعيش الى الأبد • ولكن يبدو أن شخوص المأساة الكبيرة وقد تركزت أبصارهم حول شجرة المعرفة ، لم يبصروا شجرة الحياة ، بل ان الرب نفسه لم يتذكر هذه الشجرة العجيبة التي تقف بإمكانيتها غير المحدودة مهمة وسط الجنة ، الا بعد أن قضى الأمر وانتهى كل شئ • وقد خشى الرب بعد أن أصبح الانسان صنوه فى المعرفة عندما أكل من ثمار شجرة المعرفة ، أن يصبح كذلك خالدا مثله اذا ما أكل من شجرة الحياة ، ولذلك فقد أسرع بطرده من الجنة ، وعين فريقا من الملائكة الذين يحملون سيوفا لامعة لحرس الشجرة من كل من يقترب منها ، حتى لا يتسنى لأحد أن يأكل من فاكهتها السحرية ، فيعيش الى الأبد ، ومن ثم فانه على حين تتركز أبصارنا ، طوال حركة المسرحية فى الجنة ، حول شجرة المعرفة كل التركيز ، فان النظرة الأخيرة الى الجنة السعيدة تطلعننا عندما يتغير المشهد فى النهاية ويخبو بهاء جنة عدن الى الأبد ، ويتحول نهارها الى نهار عادى — تطلعننا على شجرة الحياة وهى تقف بمفردها وقد أضاءها بصيص الضوء المنبعث من سيوف الملائكة المشرعة •

ومن المسلم به بوجه عام ، فيما يبدو ، أن حكاية الشجرتين قد اعتراها بعض الخلط ، وأن شجرة الحياة لم تلعب فى الحكاية الأصلية هذا الدور المثير السلبي الصرف الذى لعبته فى هذه الحكاية • ومن ثم فقد اعتقد البعض أنه كان هناك فى الأصل حكايتان مختلفتان عن السقوط ، صورت فى احديهما شجرة المعرفة على حدة ، كما صورت فى الأخرى شجرة الحياة منفردة ، وان كاتبها مزج بين الحكائيتين فى غير حذق ، وجعل منهما حكاية واحدة • وعلى

حين احتفظ باحدهما في شكلها الأصلي على وجه التقريب ، اختصر الحكاية الثانية وشذبتها حتى كادت تفقد معالمها • وربما كان الأمر كذلك كما يعتقد هؤلاء ، ولكن ربما استطعنا أن نجد حلا لهذه المشكلة بطريقة أخرى •

فالهدف من حكاية السقوط ، فيما يبدو ، هو محاولة لتفسير فناء الانسان ولتقديم السبب انذى من أجله أصبح الموت جزءا من خيانتنا الدنيوى • حقا ان القصة لم تذكر أن الانسان قد خلق خالدا ، وأنه فقد هذا الخلود عن طريق عصيانه ، ولكن الحكاية لم تذكر كذلك أنه خلق فانيا • بل انه حرى بنا أن نفهم من سياق الحكاية ، أن امكانية الخلود والفناء كانت متروكة له ، وكان عليه أن يختار أحد الأمرين ، ذلك أن شجرة الحياة كانت فى متناول يده ، ولم تكن فاكهتها محرمة عليه ، وما كان عليه سوى أن يمد يده ويقطف ثمارها ، ويأكلها فيكتسب الخلود الى الأبد • بل انه من المفهوم ضمنا ، بعيدا عن أن الانسان قد حرم عليه أكل ثمار هذه الشجرة ، أن الخالق قد سمح له أن يأكل منها ، ان لم يكن قد شجعه على ذلك ، فلقد قال له صراحة : انه فى وسعه أن يأكل فى حرية من ثمار أية شجرة من أشجار الجنة فيما عدا شجرة معرفة الخير والشر • فمن الواضح اذن أن الرب ، بغرسه شجرة الخلود فى الجنة ، وعدم منعه آدم من يأكل من ثمارها ، كان يهدف الى أن يجعل للانسان الخيار أو على الأقل يتيح له الفرصة ، لأن يكون خالدا ، ولكن الانسان ضيع على نفسه هذه الفرصة حينما اختار أن يأكل من الشجرة الثانية التى حذره الله من أن يمسخها ، والا استعجل فناءه • وهذا يؤكد أن الشجرة المحرمة كانت فى الحقيقة شجرة فناء لا شجرة معرفة ، وأن مجرد تناول فاكهتها المهلكة ، بغض النظر عن موضوع طاعة الأمر الالهى أو عصيانه ، كان كفيلا بأن يفضى بالانسان الى الموت • ويتمثل هذا الاستدلال كل التمثل فى تحذير الرب لآدم عندما قال له أنك لن تأكل منها ، واليوم الذى تأكل فيه من ثمارها شيئا ، سيكون مصيرك الموت المحتوم • وبناء

على ذلك ، يمكننا أن نفترض أن انقصة الأصلية أشارت الى شجرتين : شجرة الحياة وشجرة الفناء ، وأنه كان للانسان الخيار فى أن يأكل من الشجرة الأولى وأن يعيش خالدا الى الأبد ، أو أن يأكل من الشجرة الثانية ويصبح انسانا فانيا • وأن الرب ، رحمة بمخلوقه ، نصحه أن يأكل من شجرة الحياة وحذره من أن يأكل من شجرة الفناء ، ولكن الانسان ، عندما أضلته الحية ، أكل من الشجرة المحرمة ، وبذلك حرم عليه الخلود الذى كان ربه الرحيم قد رسمه •

ومن شأن هذا الافتراض أنه يوجد — على الأقل — نوعاً من التوازن بين دور الشجرتين فى القصة ، وأن يكسب القصة بوصفها كلا الوضوح والبساطة والتماسك • كما أنه يقدم حلاً لضرورة افتراض وجود قصتين أصليتين منميزتين مزج بينهما كاتب سقيم التفكير فأفسدهما • بل ان هذا الافتراض يرجحه أكثر من ذلك اعتبار آخر عمقا ، يصور السلوك الالهى فى صورة مقبولة ، فهو ينزله كل التنزيه عما أثير عن حقه وحسده ، فضلا على انجبن وتعمد الأذى ، تلك الصفات الشائنة التى ظلت ، بتأثير قصة سفر التكوين — بقعة سوداء فى حق الصفات الالهية • ذلك أن الاله ، وفقا لهذه القصة ، قد نفس على الانسان امتلاكه للمعرفة والخلود معا ، ورغب فى أن يستبقى هذه الصفات الطيبة لنفسه وخشى أن يصبح الانسان مناوئا لمخلقه ، اذا ما استحوذ على أحدهما أو كليهما ، الأمر الذى لم يكن من الممكن للرب أن يتقبله بحال من الأحوال • ومن ثم فقد حذر الانسان ، وفقا لهذه القصة ، أن يأكل من شجرة المعرفة ، ولما لم يكثر الانسان لهذا التحذير ، طرده الرب من الجنة وأوصد بابها دونه ، حتى يحول بينه وبين الشجرة الأخرى التى ان هو أكل من ثمارها أصبح خالدا • ان الدافع الذى تقدمه القصة دنىء ، كما أن السلوك الذى تنسبه للرب يستحق الازدراء • وفضلا على هذا فان كلا من هذا الدافع وذلك السلوك يتناقض مع سلوك الرب ازاء الانسان فى بداية الأمر كما صورته القصة ، قد كان الرب بعيدا كل البعد عن

أن ينفس على الانسان شيئاً ، بل انه بذل كل ما في وسعه لكي يجعله سعيداً هائئاً ، فخلق له جنة رائعة الجمال لينعم بها وخلق له الطيور وصنوف الحيوان ليأتنس بها ، كما خلق نه المرأة لتكون زوجاً له .

حقاً ان التلاؤم بين عناصر مغزى القصة من ناحية ، وبينها وبين الصفات الالهية من ناحية أخرى ، يكون أبعد مدى اذا افترضنا أن الرب شاء أن يتوج عطفه على الانسان بمنحه الخلود ، وأن قصده النبيل لم يحبطه سوى مكيدة الحية .

على أنه مازال علينا أن نواجه هذا السؤال : لماذا دبرت الحية تلك المكيدة للانسان ؟ وماذا كان هدفها من وراء حرمان الجنس البشرى من المميزات الكبيرة التى كان الرب يعترزم أن يخلعها عليه ؟ فهل كان تدخلها فى هذا الأمر مجرد فضول ؟ أم أنها كانت تكن هدفاً أبعد من هذا ؟ كل هذه الأسئلة لا يجيب عنها سفر التكوين أدنى اجابة . فالحية لم تغنم شيئاً من وراء تلك المكيدة ، بل انها كانت على عكس هذا ، من الخاسرين ، اذ حلت عليها اللعنة الالهية ، وقضى عليها أن ترحف على بطنها وأن تعلق التراب . وربما لم تكن نياتها سيئة للغاية ، بل ربما كانت تقوم بعمل لاهداف وراءه كما يبدو من ظاهر القصة . ولكن اذا كانت القصة تخبرنا بأنها كانت أشد ميلاً للخديعة من أى حيوان آخر ، فهل شاعت حقاً أن تدل على حكمتها بأن تطيح بآمال الانسان دون تحقق لنفسها شيئاً منها ؟ وربما ساورنا الشك فى أن الحية فى القصة الأصلية قد أثبتت لنفسها مكاناً مرموقاً بأن استولت على البركة التى حرمت منها الجنس البشرى ، اذ أنها فى الواقع أكلت هى نفسها من شجرة الحياة فاككتستبت الخلود ، فى الوقت الذى أغرت فيه الأبوين الأولين أن يأكلا من شجرة الفناء . ويبدو أننا لسنا مغالين فى هذا الفرض ، فنحن نقرأ فى حكايات بدائية ليست بالقليلة ، تحكى عن أصل الموت ، وسأعرضها على القارىء وشيكاً ، أن الحيات سعت فى تدبير حيلة لتسخر من الانسان أو لتلقى الروح فى قلبه ، حتى تحتفظ

لنفسها بالخلود الذى كان الانسان معنيا به • فكثير من البدائيين يعتقدون أن الحيات وبعض أنواع من الحيوان تجدد شبابها وتحيا الى الأبد ، وذلك عن طريق تغييرها نجلدها مرة فى كل عام • ويبدو أن الشعوب السامية قد عرفت هذه العقيدة كذلك ، فالحيّة — وفقا لرأى الكاتب الفينيقي القديم « سانشونياثون » ، كانت أطول الحيوانات عمرا ، لأنها كانت تجدد شبابها على الدوام عندما تغير جلدها • وإذا كان الفينيقيون قد اعتقدوا أن الحية معمرة ، وأن سبب هذا يرجع الى تغييرها جندها ، فليس بعيد أن جيرانهم وأقربهم العبريين كانوا يعتقدون الاعتقاد نفسه • والشئ الذى لا جدال فيه ، هو أن العبريين كانوا يعتقدون أن النسر تجدد شبابها عندما تغير ريشها • وإذا كان الأمر كذلك ، فماذا لا يعتقدون بالمثل أن الحية كذلك يتجدد شبابها بتغير جلدها ؟ على أن فكرة خداع الحية للانسان ، وسلبها منه الخلود ، عن طريق استيلائها على عشب الخلود ، الذى كانت الآلهة تقصد الاحتفاظ به للجنس البشرى — تتمثل فى الواقع فى ملحمة جلجامش التى تعد معلما من المعالم الأدبية القديمة لدى الجنس السامى ، أكثر قدما من سفر التكوين •

ففى هذه الملحمة نقرأ كيف أن أوتنابيشتم الانسان المؤله ، أفشى للبطل جلجامش سر وجود نبات له مقدرة سحرية على إعادة الشباب الى الانسان ، يطلق عليه اسم « الرجل الكهل يعود شابا » ، وكيف أن جلجامش اهتدى الى هذا النبات ، وأصابه الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذى ولى ، ثم كيف أن حية تسلمت ، قبل أن يأكل جلجامش من هذا العشب ، وسرقت النبات السحري ، بينما كان جلجامش يستحم فى المياه الباردة فى أحد الينابيع أو الغدران ، ثم كيف أن جلجامش ، بعد أن فقد الأمل فى اكتساب الخلود ، جلس وبكى • حقا ان الملحمة لا تذكر صراحة أن الحية اكتسبت الخلود عندما التهمت ذلك النبات ، ولكن ربما كان حذف هذا مرده الى غموض النص وما فيه من عيب • وإذا كان شاعر الملحمة قد سكت

عن هذا الموضوع ، فإن الروايات الأخرى التى سأذكرها وشيكا مطابقة لهذه القصة ، تمكنا من أن تسد هذه الثغرة على أساس احتمال معقول • وأكثر من هذا فإن هذه الروايات تشير دون دليل الى أن الحياة فى الحكاية الأصلية التى أفسدها الكاتب اليهودى وشوها ، كانت رسولا من الله للانسان يحمل اليه نبأ الخلود السار ، ولكن هذا المخلوق الماكر استغل ابرسالة لصالح نوعه ولدمار البشر • أما منحة الكلام التى استغلتها الحياة من أجل تحقيق غرضها الخبيث فقد زودها الاله بها لتكون قادرة على تبليغ رسالته الى الانسان •

وباختصار فإننا يمكننا أن ننتهى ، من خلال الموازنة بين روايات هذه الحكاية المختلفة ، المنتشرة بين الشعوب المختلفة ، الى أن حكاية سقوط الانسان الأصلية الحقيقية كانت تجرى على النحو التالى على وجه التقريب : ان الخالق الكريم ، بعد أن شكل الرجل الأول والمرأة الأولى ، وأحياهما عن طريق عملية بسيطة بأن نفخ فى غميهما وأنفيهما — أسكن الزوجين السعيدين فى جنة أرضية ، حيث عاشا متحررين من كل عناء ومشقة ، يأكلان من ثمار هذه الجنة السعيدة اليانعة ، ويستأنسان بالطيور والحيوانات وهى تفرح من حولهما فى اطمئنان لا يتسرب اليه الخوف • ثم فكر الرب فى أن يتوج سعادة الزوجين بأن يمنحهما نعمة الخلود الكبيرة • ولكنه قرر ، فى الوقت نفسه ، أن يكونا هما نفساهما حكما على مصيرهما ، وذلك بأن ترك لهما حرية قبول أو رفض المنحة المقدمة اليهما • ولهذا الغرض أنبت فى وسط الجنة شجرتين عجيبتين تحمل كل منهما فاكهة من كل نوع ، وتجلب فاكهة احديهما الفناء لآكلها ، بينما تكسب ثمار الشجرة الثانية الخلود لمن يأكل منها • وبعد ذلك أرسل الحياة برسالة لكل من الرجل والمرأة لتقول لهما : لا تأكلا من شجرة الفناء ، ففى اليوم الذى تأكلان فيه من فاكهتها يكون مصيركما الموت المحتوم • على أن الحياة التى كانت أكثر الحيوانات مكرًا ، فكرت ، وهى فى طريقها الى الرجل والمرأة ، فى أن تغير فحوى الرسالة • فلما وصلت الى الجنة السعيدة ، حيث

وجدت حواء بمفردها ، قالت لها : « ان الله يقول : لا تأكلا من شجرة الحياة ، لأنه سيقضى عليكما بالموت المحتم في اليوم الذي تأكلان فيه منها ، ولكن كلا من شجرة الفناء لتعيشا الى الأبد . وصدقتهما المرأة الحمقاء وأكلت من الفاكهة المهيكة ، وأعطت منها لزوجها فأكل منها كذلك . أما الحية الماكرة فقد أكلت من ثمار شجرة الخلود . ولهذا السبب أصبح الانسان فانيا والحية خالدة الى الأبد ، اذ ان الحية تغير جلدها كل عام ، وبذلك يتجدد شبابها . ولو أن الحية لم تشوه رسالة الخالق ، ولم تخدع أمنا الأولى ، لمنحنا الخلود بدلا منها ، ذلك أننا كنا سنغير جلودنا في كل عام كما تفعل الحية ، ومع تغيرها يتجدد شبابا على الدوام .

ومما يزيد من احتمال أن هذه الرواية ، أو ما يشبهها ، كانت هي الصيغة الأصلية للحكاية ، مقارنتها بالحكايات التالية التي يمكننا أن نصنفها في يسر تحت عنوانين رئيسيين هما « حكاية الرسالة المحرفة » وحكاية « تغير الجلد » .

٢ - حكاية الرسالة المحرفة :

تربط قبائل « الناماكوا » أو « الهوتنتوت » كما يصنع غيرهم من الشعوب البدائية ، أطوار نمو القمر ونقصانه بفكرة الخلود . فما يبدو لهم من زيادة ونقصان في شكل القمر ، يفسر على أنه عملية حقيقية من التفكك وإعادة التكامل ، ومن الاضمحلال والنمو ، تحدث بصفة مستمرة . بل انهم يفسرون بزوغ القمر ومحاقه بميلاده وموته . فهم يقولون ان القمر شاء ذات يوم أن يبلغ الانسان نبأ خلوده ، وأخذ الأرنب البري على عاتقه أن يقوم بتبليغ هذه الرسالة ، فوافق القمر وطلب اليه أن يقول للناس : « كما أنني أموت ثم أعود الى الحياة ، فانكم ستموتون وتعودون الى الحياة مرة أخرى كذلك » . وبناء عليه ذهب الأرنب الى الناس وحرف الرسالة ،

اما نتيجة نسيانه أو اضماره الشر للانسان ، وأبلغها اياهم على النحو التالي : « كما أننى أموت ولا أعود الى الحياة مرة أخرى ، فانكم كذلك ستموتون ولا تعودون الى الحياة مرة أخرى » . ثم عاد الى القمر الذى طلب منه أن يعيد عليه ما قاله للناس . فأخبره الأرنب بما أبلغه الناس . فلما سمع القمر منه الرسالة المحرفة غضب كل الغضب الى درجة أنه رماه بعصا شقت شفته . وهذا هو السبب فى أن شفة الأرنب لا تزال مشقوقة حتى اليوم . ثم ولى الأرنب مسرعا عندما رماه القمر بالعصا ، وهو ما زال يجرى بسرعة حتى هذا اليوم . على أن بعض الناس يقولون : ان الأرنب خدش وجه القمر قبل أن يهرب ، ولهذا فان القمر مازال يحمل فى وجهه آثار هذا الخدش الذى يمكن أن يراه كل فرد عندما يكون القمر بدرا فى ليلة صافية . ولا تزال قبائل « الناماكوا » غاضبة على الأرنب حتى اليوم ، لأنه سلبهم الخلود . وقد تعود الرجال المسنون فى هذه القبيلة أن يقولوا : « اننا ما زلنا غاضبين من الأرنب ، لأنه حمل لنا هذه الرسالة المشئومة ، ومن ثم فنحن لا نأكل لحمه » . ولهذا فان الصبى اذا بلغ سن النضج ، واتخذ مكانه بين الرجال ، فانه يمنع من أكل لحم الأرنب ، بل يمنع من استخدام نار سبق أن طهى عليها أرنب . فاذا خالف رجل هذا المحذور فانه يبعد عن القرية ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان ، اللهم الا اذا دفع دية ، وعند ذاك تقبله جماعته مرة أخرى .

وتحكى قبائل « البوشمان » حكاية شبيهة بهذه الحكاية مع اختلاف طفيف . ففى سالف الأزمان ، وذلك وفقا لروايتهم ، قال القمر للناس : « كما أننى أموت ثم أعود الى الحياة مرة أخرى ، فانه سيصحبكم ما يصيبنى . فاذا متم ، فانكم لن تموتوا كلية ، بل سرعان ما تعودون للحياة مرة أخرى » . وسعد الجميع بهذا النبأ السعيد ، سوى رجل واحد لم يستطع أن يسكت عن الجهر بعدم تصديقه لهذا النبأ . فقد حدث أن توفيت أم هذا الرجل فبكاه

بعويل وصراخ ، وما من شيء استناع ان يقنعه بأن الحياة ستعود اليها مرة أخرى ، عند ذاك دبت مشجرة حامية بينه وبين القمر حول هذا الموضوع المؤلم ، فقد قال انقمر له : « ان أمك نائمة ولم تمت » • فأجابه الرجل : « لا بل انها قد ماتت » • عند ذاك احتد بينهما الشجار حتى نفذ صبر القمر وضرب الرجل بقبضة يده ضربة شجت فمه ، وصب عليه اللعنة قائلا : ان فمه سيظل مشجوجا على هذا النحو وان تحول الى أرنب • ذلك لأنه سيتمسخ حتما في صورة أرنب • ولسوف يقفز بعيدا عنا ثم يرتد الينا ، ولسوف تعدو الكلاب في أثره ، حتى اذا أمسكت به مزقته شر ممزق ، ولسوف يقنى الى الأبد ، وكذلك سائر البشر • ذلك أنه أبى أن يصدقنى عندما ظنبت منه ألا ييكى أمه لأن الحياة ستعود اليها مرة أخرى ، ورد على قائلا : « لا ان أمى لن تحيا مرة أخرى » • من أجل هذا السبب فانه سوف يتحول كلية الى أرنب ، كما أن الناس سيفنون جميعا بسبب أنه عارضنى بتبجح عندما أخبرته أن الناس سيصيبهم ما يصيبنى ، فيعودون للحياة بعد الموت » • وهكذا عوقب هذا الرجل عقابا عادلا جزاء شكه ، فلقد مسخ في صورة أرنب ، وما زال ممسوخا في شكل أرنب حتى اليوم ، وان كان لا يزال محتفظا في فخذة بلحم انسانى • وهذا هو السبب فى أن « البوشمان » ، عندما يذبحون أرنباً ، لا يأكلون هذا الجزء ويرمونه جانبا ، لأنه لحم آدمى • ومازلوا يقولون : « لقد لعننا القمر بسبب الأرنب ، من ثم قضى علينا بالموت الذى لا رجعة فيه • ولولا ذلك لعدنا للحياة بعد الموت • ولكن ما حيلتنا فى هذا ، وقد أنكر الرجل ما أخبره به القمر وعارضه معارضة صريحة » • فالأرنب فى رواية البوشمان لم يكن رسولا من الخالق الانسان ، ولكنه انسان شاك مسخ فى صورة أرنب ، وقد حكم على الجنس البشرى كله بالفناء ، لأنه شك فيما بشره القمر به من خلود الانسان •

وتحكى قبيلة « ناندى » التو تسكن « أفريقيا الشرقية البريطانية »،

حكاية تعزو فيها ابتلاء الجنس البشرى بالموت الى افتقار كلب ما لروح الفكاهة : فقد كُف كلب بأن يحمل رسالة الخلود لبني الانسان ، ولكنه لما لم يستقبل بالحفاوة التى تتلاءم مع مهابة الرسالة ، انتابته نوبة من الغضب وحكم على الانسان بهذا المصير الحزين الذى قدر له منذ ذلك اليوم •

وتجرى الحكاية على النحو التالى : ذات يوم جاء كلب الى القوم الأولين الذين كانوا يعيشون على وجه الأرض وقال لهم : « انكم سوف تموتون كما يموت القمر ، ولكنكم لن تعودوا الى الحياة كما يفعل القمر • اللهم الا اذا قدمتم لى قليلا من اللبن أشربه من وعاءكم ، وقليلا من الجعة أرتشفها عن طريق عود من قشكم ، فان فعلتم هذا فسوف أساعدكم على أن تحملوا الى النهر يوم تموتون ، ثم تعودون الى الحياة فى اليوم الثالث من وفاتكم » • ولكن الناس سخروا من الكلب ، وقدموا اليه قدرا من اللبن ليشر به من وعاء يتبولون فيه ، فغضب الكلب لأنه ، لم يشرب من الوعاء الذى يشرب منه الانسان • وعلى الرغم من أنه شرب اللبن والجعة بأشمزاز من الوعاء الذى قدم اليه ، فإنه رحل والمغيظ يملأ صدره وهو يقول : « سوف يموت الناس جميعا الى الأبد ، ولن يعود الى الحياة على الدوام سوى القمر • وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون موة واحدة لا يعودون بعدها الى الحياة ، فى حين أن القمر يختفى ويعود الى الظهور بعد اختفائه بثلاثة أيام • ولو كان الناس قد قدموا وعاءهم للكلب ليشر به منه اللبن • وعودا من القش ليرتشف منه الجعة ، لعادنا الى الحياة بعد الموت بثلاثة أيام كما يفعل القمر • ولا تذكر هذه الحكاية شيئا عن حمل الكلب رسالة الخلود لبني الانسان ، ولكننا نستدل استدلالاتنا منطقيا من خلال اشارة الكلب الى القمر ، ومن خلال مقارنة هذه الرواية برواية « الهوتنتوت » الشبيهة بها ، على أن القمر هو الذى كلف الكلب بالقيام بهذه المهمة • ولكن هذا الحيوان الغافل لم يستغل هذه الفرصة فى أن يحتفظ لنفسه بمنحة لم يؤهل لها بحق ••

في هذه الحكايات كلف رسول واحد بحمل الرسالة ذات الشأن الخطير الى النبشبر . وقد أخفق الرسول في تأدية رسالته ، اما بسبب إهماله أو بدافع مكره . على أن هناك بعض الحكايات الأخرى التى تحكى عن سبب ابتلاء الانسان بالموت ، كلف فيها رسولان بحمل الرسالة . وسبب ابتلاء الانسان بالموت في هذه الحكايات هو تأخر الرسول في تبليغ رسالة الخلود الى الانسان ، أو سوء تصرفه . ومن بين هذه الحكايات حكاية تروى كذلك عن قبائل « الهوتنتوت » وهى تجرى على النحو الآتى : أرسل القمر ذات مرة حشرة الى بنى الانسان وقال لها : « اذهبي الى الناس وقولى لهم : كما أننى أموت ثم أحيا بعد الموت ، فإنكم كذلك ستموتون وتحيون بعد الموت » . فذهبت الحشرة لتبلغ الرسالة . وبينما كانت ترحف في الطريق ، اعترضها أرنب برى ووقف بجانبها وسألها : « الى أين تسيرين ؟ » . فردت عليه قائلة : « لقد أرسلنى القمر الى الناس لكي أبلغهم أنه ، كما يموت القمر ويحيا بعد الموت ، كذلك هم سيموتون ويحيون بعد الموت » . عندئذ قال لها الأرنب : « حيث انك تعوزك الرشاقة في الحركة ، دعيني أنا أذهب اليهم وأبلغهم الرسالة » . ثم جرى الأرنب وسارت الحشرة ترحف وراءه : ولما وصل الى الناس غير من فحوى الرسالة التى أخذ على عاتقه أن يبلغها الى الناس بطريق غير رسمى . فلقد قال لهم : « ان القمر أرسلنى اليكم لأبلغكم رسالته التى قال فيها : « كما أننى حينما أموت أفنى الى الأبد ، فأنتم كذلك ستموتون وتفنون الى الأبد » . ثم رجع الأرنب الى القمر وأعاد عليه ما قاله للناس . فغضب عليه القمر أشد الغضب وعنفه وقال له : « كيف تجرؤ على أن تقول للناس كلاما لم أنطق به ؟ » ثم أمسك بعصا وهوى بها على أنف الأرنب فشجه . وهذا هو السبب في أن أنف الأرنب ما زال مشقوقا حتى اليوم .

وتحكى قبائل « تاتى بوشمان » أو « ماساروا » التى تسكن « محمية بتشوانالاند » وصحارى « كالاهاى » وبقاعا في جنوب

روديسيا ، هذه الحكاية نفسها مع تغيير طفيف • فهم يقولون : ان
أجدادهم في قديم الزمان حكوا الحكاية التالية : لقد شاء القمر أن
أرسل رسالة الى الرعيل الأول من الناس يقول لهم فيها : انه كما مات
وعاد الى الحياة مرة أخرى ، فهم كذلك سيموتون ثم يعودون الى الحياة
مرة أخرى • عند ذاك صاح القمر بالسلحفاة وقال لها : « اذهبي الى
هؤلاء الناس وبلغيهم رسالتي • قولي لهم أنى أعيش بعد موتى فانهم
كذلك سيعيشون بعد موتهم » • على أن السلحفاة كانت تسير سيرا بطيئا
للغاية ، كما ظلت تردد رسالة القمر في أثناء الطريق حتى لا تنساها •
ولكن القمر أقلقه ببطء السلحفاة وضعف ذاكرتها فصاح بالأرنب وقال له :
انك تستطيع أن تجرى في سرعة فاذهب الى الناس الذين يسكنون بعيدا
هناك وقل لهم : « كما أننى أحيا بعد موتى ، فهم كذلك سيحيون بعد
موتهم » وأسرع الأرنب ليبلغ الرسالة ، ولكنه سرعان ما نسى مضمونها •
ومن ثم فقد بلغ الناس الرسالة على النحو التالى ، فقال لهم على لسان
القمر : « كما أننى أموت ثم أحيا بعد ذلك ، فانكم حين تموتون فستموتون
الى الأبد » • وفى أثناء هذا تذكرت السلحفاة الرسالة واستأنفت
سيرها وهى تقول لنفسها : « لن أنسى مضمون الرسالة بعد ذلك » •
وفى النهاية وصلت الى مكان تجمع الناس وأبلغتهم الرسالة الصحيحة •
فلما سمع الناس قولها غضبوا كل الغضب من الأرنب الذى كان يجلس
على بعد منهم يقرض الحشيش • فجرى أحد الرجال ورفع حجرا
ورماه به • فأصاب الحجر الأرنب إصابة مباشرة ، وشج شفته العليا •
ولا تزال شفة الأرنب العليا مشجوبة حتى اليوم • وبهذا تنتهى الحكاية •

وكذلك يروى زنوج ساحل الذهب حكاية الرسولين هذه •
والرسولان في روايتهم هما شاة وعنزة • وفيما يلى صيغة الحكاية كما
رواها مواطن زنجى لمبشر سويسرى فى « أكروبنج » : عندما خلقت
السماء والأرض في بداية الحياة ، لم يكن على وجه الأرض بعد أثر
لإنسان • ثم هطلت أمطار غزيرة ، تدلت فى أعقابها سلسلة كبيرة من
السماء وقد علق بها سبعة من الرجال • لقد كان الاله قد خلق هؤلاء

الرجال ، وجعلهم يهبطون الى الأرض عن طريق هذه السلسلة • وكانوا قد أحضروا معهم نارا طهوا عليها طعامهم • ولم يكد يمضى بعض الوقت على استقرار هؤلاء الرجال على وجه الأرض ، حتى أرسل الاله اليهم من السماء عنزة لتحمل اليهم الرسالة التالية : « ان هناك شيئا يسمى الموت ، وسوف يصاب به بعضكم يوما ما ، ولكن على الرغم من أنكم ستموتون ، فإنكم لن تقتنوا فناء كلياً ، فليسوف ترجعون الى هنا في السماء » • وذهبت العنزة تحمل الرسالة • وعندما اقتربت من بلاد هؤلاء الرجال ، تريثت عند أيكة حسبتها صالحة للأكل • فتلكت عندها وأخذت تقرض الأشجار • ولما استبطأها الاله ، أرسل في أثرها شاة لتبلغ الرسالة • فذهبت الشاة ولكنها لم تبلغ الرجال ما أمرها الاله به ، إذ أنها غيرت ارسالة وقالت لهم : « انكم اذا متم مرة ، فإنكم ستفنون الى الأبد ، ولن تبعثوا في أى مكان » ولم تكد تمضى الشاة حتى وصلت العنزة وقالت للرجال : « ان الاله يقول لكم انكم حقا ستموتون ولكن هذه الميتة لن تكون هي نهايتكم ، لأنكم سوف ترجعون الى » • عندئذ رد عليها الرجال قائلين : لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل هذا ، فما أخبرتنا به الشاة من قبل ، سوف نلترم به ••

والرسولان في رواية أخرى لهذه الحكاية التى تروى عن قبيلة « أشانتي » ، هما أيضا شاة وعنزة • ويعزى تحريف رسالة الخلود الى هذه أو الى تلك • ويقول « الأشانتيون » : ان الناس عاشوا في سعادة زمنا طويلا ، لأن الاله كان يقيم بينهم ويتحدث معهم وجها لوجه • ولكن هذه الأيام المباركة لم تدم طويلا • فقد حدث في يوم مشئوم أن كان بعض النسوة يسحقن الحنطة بالمدق في الهاون ، بينما كان الاله واقفا ينظر اليهن • ولسبب ما تضايقت النساء من وقوف الاله بجوارهن وطلبن منه أن يرحل بعيدا عنهن • ولما رفض ، ضربنه بالمدق ، فانتابت الاله نوبة من الغضب الشديد واعتزل العالم الانسانى كلية ، ورحل الى عالم الآلهة • ومازال الناس يقولون حتى اليوم : « كم كنا نكون سعداء ولا هؤلاء النساء العجائز » •

وعلى الرغم مما حدث فقد كان الاله رحيمًا طيبًا ، اذ أرسل من
مكونته البعيد رسالة الى الناس في الأرض عن طريق عنزة يقول لهم
فيها : « ان هناك شيئًا يسمى الموت الذى يقضى على عدد منكم • ولكنكم
إن تفنوا فناء كليًا حتى عندما تموتون ، اذ أنكم تعودون الى فى السماء
بعد ذلك » • وبهذا النبأ السعيد رحلت العنزة الى الناس • ولكنها
قبل أن تصل الى بلدتهم ، أبصرت أكمة على قارعة الطريق أعجبها
منظرها فتوقفت لتأكل من ورقها • ولما نظر الاله من السماء ، وأبصر أن
العنزة تتكأ فى السير ، أرسل شاة لتبلغ الناس الرسالة نفسها على
التو • ولكن انشاة لم تبلغ الرسالة على نحو صحيح ، بل حرفت
تحريفًا كليًا وقالت لهم : ان الاله يبلغكم كلمته ، وهى أنكم ستموتون ،
وفى هذا تكون نهايتكم » • أما العنزة فانها بعد أن انتهت من وجبتها ،
أسرعت الى البلدة وأبلغت الناس الرسالة وقالت لهم : « ان الاله يرسل
اليكم كلمته ويقول : حقا انكم ستموتون ، ولكن هذا لا يشكل نهايتكم ،
لأنكم سترجعون اليه بعد الموت » • ولما سمع الناس كلام العنزة
أجابوها قائلين : « لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل لك هذا ، ونحن
نعقد أن الرسالة التى حملتها الشاة اليها هى الرسالة الصحيحة » •
وقد ابتلى الانسان بالموت منذ أن حدث سوء التفاهم المشؤم هذا •
ويختلف الدور الذى لعبته كل من الشاة والعنزة فى رواية أخرى لهذه
الحكاية تروى عن « الأثنانيتين » • فالشاة هى التى حملت أولا رسالة
الخلود من الاله الى الانسان • ولكن العنزة سبقتها وأبلغته نبأ
موته بدلا من أن تبلغه نبأ خلوده • وقد استقبل الناس ببراءتهم ،
نبأ الموت بحماسه ، لأنهم ما كانوا يعرفون ما الموت ، وطبعى أن الموت
أخذ يفنيهم منذ ذلك الحين ••

واذا كانت الرسالة فى كل الحكايات السابقة ، قد أرسلها الاله
للناس ، فان هناك حكايات أخرى رويت فى « توجولاند » فى غرب
أفريقيا ، تحكى أن الرسالة أرسلت من قبل الناس الى الاله • ففند
أرسل الناس الى الاله ذات يوم كلبا ليخبره بأن الناس يودون أن

يعودوا الى الحياة بعد الموت • ومضى الكلب يحمل رسالة الناس الى
 الاله • ولكنه شعر بالجوع في أثناء الطريق فدخل بيتا كان صاحبه
 يغلى أعشابا سحرية ، فجلس الكلب وقال لنفسه : « ان الرجل
 يطهو طعاما وأود أن آكل منه » • وفي أثناء ذلك كانت الضفدعة قد
 رحلت الى الاله لتخبره بأن الناس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة
 أخرى بعد موتهم • ولم يكن هذا السلوك من قبل الضفدعة سوى
 مجرد فضول ووقاحة ، اذ لم يكن أحد قد طلب منها أن تبلغ الاله
 هذه الرسالة ، ولكنها ذهبت على كل حال • أما الكلب الذي كان يراقب
 في أمل الحساء وهو يغلى ، فقد أبصر الضفدعة تجرى مسرعة أمام
 باب البيت • ولكنه قال لنفسه ، سوف ألحق بها بعد ما أتناول شيئا من
 الطعام • ولكن الضفدعة سبقته وقالت للاله : « ان الناس يفضلون
 ألا يعودوا الى الحياة مرة أخرى بعد ما يموتون » • ووصل الكلب من
 بعدها مباشرة وقال للاله : « ان الناس يودون أن يعودوا الى الحياة
 مرة أخرى بعد ما يموتون » وكان من الطبيعي أن يشعر الاله بالحيرة ،
 فورد على الكلب قائلا : « اننى لا أفهم حقيقة هاتين الرسالتين ، فسأمتثل
 لما طلبها لا لمطلبك » • وهذا هو السبب في أن الناس لا يعودون الى
 الحياة مرة أخرى بعد الموت • ولو أن الضفدعة اهتمت بشئونها
 الخاصة ، ولم تتدخل في شئون الناس لكان الأحياء يعودون بعد
 الموت الى الحياة حتى يومنا هذا • على أن الضفادع تحيا مرة أخرى
 عندما ترعد السماء في بداية الفصل المطر بعد أن تظل ميتة طوال
 فصل الجفاف الذى تهب فيه الرياح « الهارماتانية » (١) • ومن
 ثم ، فانك قد تسمع نقيق الضفدع في المروج ، بينما تسقط الأمطار
 ويدوى الرعد • وبناء على ذلك فنحن نرى أن الضفدعة قد أحرفت
 الرسالة لصالحها • ولهذا اكتسبت الضفادع الخلود الذى حرم
 منه الانسان ••

(١) رياح قوية متربة تهب من الشمال الى الشرق على ساحل شمال
 غينيا • (المترجمة)

ونلاحظ أن سبب ابتلاء الانسان بالموت في هذه الحكايات يرجع الى خطأ فاضح أو الى خدعة مكررة دبرها أحد الرسولين • على أن الموت لم يتسبب ، وفقا لرواية أخرى للقصة تنتشر انتشارا واسعا بين قبائل « البانتو » في أفريقيا ، عن خطأ ارتكبه الرسول ، بل عن تردد الاله نفسه ، الذي انتهى الى أن يكون الانسان خالدا ، ثم عدل عن رأيه وقرر أن يفنيه أو أن يتركه يفنى • ولسوء حظ الانسان أن الرسول الذي كان يحمل رسالة الموت اليه وصل قبل الرسول الذي كان يحمل اليه رسالة الخلود • وقد قامت الحرباء في هذا النوع من الحكايات ، بدور الرسول الذي حمل نبأ الخلود ، كما قامت الساحلية بدور الرسول الذي حمل رسالة الفناء • فتحكي قبائل « الزولو » أن « أنكولونكولو » « الاله القديم » ، كلف الحرباء أول الأمر بأن تحمل رسالة للناس وقال لها : « اذهبي الى الناس وأخبريهم بأنهم لن يقضى عليهم بالموت » • فمضت الحرباء ، ولكنها كانت ترحف في بطنها كما أنها تلتأت في الطريق لتأكل ثمار التوت ذات اللون الأرجواني من شجيرة « أوبو كوييزافي » أو من شجرة التوت • ويقول بعض الناس أنها تسلقت شجرة لتستلقي في دفء الشمس وابتلعت الذباب حتى ملأت جوفها به ثم استغرقت في نوم عميق • وفي أثناء ذلك راجع « الاله القديم القديم » نفسه في هذا الأمر وأرسل بسرعة البرق ساحلية من بعد الحرباء لتبلغ الناس رسالة تختلف كل الاختلاف عن الرسالة الأولى • فلقد قال لها : « عندما تصلين الى الناس قولي لهم : « أنه قد قضى عليكم بالموت » • فرحلت الساحلية وسبقت الحرباء ، وأبلغت الناس هذه الرسالة وكرت راجعة الى « الاله القديم القديم » • ثم وصلت الحرباء بعد ذلك الى الناس تحمل اليهم النبأ السار بخلودهم وقالت بصوت عال : « قد طلب مني أن أبلغكم أنكم لن تموتوا » • فرد عليها الناس قائلين : « لقد بلغتنا من قبلك رسالة الساحلية ، اذ قالت لنا : « انه قد قضى عليكم بالموت الساحلية » • ومنذ ذلك اليوم دارت على الناس دائرة الموت • ولهذا فان « الزولو »

يمقتون السحلية ويقتلونها حيثما يتيسر لهم ذلك • فهم يقولون :
« انها الشئ المقيت نفسه الذى أسرع الى الناس أول الأمر وأخبرهم
أنهم سيموتون » • وبعضهم يمقتون الحرياء ويعدونها عنهم
أو يقتلونهم ويقولون : « انها الشئ الحقير انذى تلكاً فى حمل نبأ
الخلود الى الانسان • ولو أنها أبلغت النبأ فى حينه لخلدنا وخلد
أجدادنا ولما كان للمرض وجود على وجه الأرض • ولكن تلكؤ الحرياء
تسبب فى حرماننا من هذا كله » •

وتحكى قبائل أخرى من قبائل « البانتو » هذه الحكاية على هذا
النحو نفسه على وجه التقريب • وهذه القبائل هى : البيتشوانا
والباسوتو والبارونجا والنجونى كما يبدو أن قبيلة « واسانا » التى
تسكن « افريقيا الشرقية البريطانية » تحكىها كذلك • ويحكىها بتغيير
طفيف شعب « انهاوسا » الذى لا ينتمى الى قبائل البانتو • ولا تزال
قبيلتا « بارونجا » و « نجونى » تكان الضغينة للحرياء حتى اليوم ،
وهكذا نرى أن الاعتقاد فى أن الاله قد فكر ذات مرة فى أن يمنح
الإنسان الخلود دون أن تتحقق هذه الفكرة الطيبة نتيجة خطأ اتركبه
الرسول الذى عهد اليه الاله بتبنيخ البشارة للإنسان — قد انتشر فى
أفريقيا انتشاراً واسعاً •

٣ — حكاية تغير الجلد :

يعتقد كثير من البدائيين أن بعض الحيوانات وبصفة خاصة
الثعابين ، يتجدد شبابها ولا تموت أبداً ، بفضل مقدراتها على
تغير جلدها فى مواسم معينة • وهؤلاء يحكون بسبب تصورهم هذا ،
حكايات تبين كيف اكتسبت هذه الحيوانات ، بناء على ذلك ، منحة
الخلود ، وكيف حرم الانسان منها •

مثال ذلك ما تحكىه قبيلتنا « واغيا » و « وابندى » اللتان تسكنان
فى « أفريقيا الشرقية » ، من أن الاله الذى يسمونه « ليزا » هبط ذات
يوم الى الأرض وسأل الكائنات الحية جميعها قائلاً : « من منكم يود

« ألا يموت ؟ » ولسوء الحظ كان الناس نائمين ، وكذلك كل صنوف
الحيوان ، فيما عدا الحية انتى كانت مستيقظة آنذاك فردت هذه
على سؤال الاله قائلة « أنا أرغب فى هذا » • ولهذا فان الانسان
وكل صنوف الحيوان فيما عدا الحيات ، يموتون • أما الحية
فلا تموت الا اذا قتلت ، فاذا لم تقتل فانها تغير جلدها ، وبذلك يتجدد
شبابها كما تتجدد قوتها • وشبيه بهذه الرواية ما يحكيه «الدوسون»
سكان « شمال يورينيو البريطانىة » ، فهم يقولون : ان الخالق —
حينما فرغ من خلق كل شىء — سأل الكائنات الحية : « من منكم
يستطيع أن يغير جلده ؟ • ان من يفعل هذا لن يموت أبدا » • ولم
يطرق هذا السؤال سمع أحد من الكائنات الحية سوى الثعبان الذى
أجاب على الفور : « أنا أستطيع أن أفعل هذا » • ولهذا السبب فان
الثعابين حتى يومنا هذا ، لا تموت الا اذا قتلها الانسان • أما
« الدوسون » فلم يسمعوا سؤال الاله ، ولو أنهم سمعوه لغيروا
جلودهم كذلك ، ولأصبحوا خالدين •

وكذلك يحكى « التودجو تورادجا » سكان «سيليبس الوسطى»
أن الاله استدعى الناس وصنوف الحيوان ذات يوم لكى يقرر
معهم مصيرهم • ومن بين المصائر المختلفة الى قدمها الاله ما قاله
لهم : « انكم ستغيرون جلدكم القديم » • ولسوء الحظ أن الجنس
البشرى كانت تمثله فى هذه المناسبة المصيرية امرأة عجوز لم يمكنها
تدهور قواها العقلية من الاستماع الى هذا الاقتراح المغرى ، فى حين
سمعتة الحيوانات التى تغير جلدها مثل الثعابين ، وحيوان الجمبرى
الذى يعيش فى البحر • وطبيعى ان هؤلاء وافقوا على هذا الاقتراح •
ومرة أخرى نجد أن أهالى جزيرة « فواتوم » ، وهى جزيرة تقع فى
« أرخبيل بسمارك » يقولون : ان كائنا بعينه يدعى « كونوكونو ميانجى »
طلب من غلامين أن يحضرا نارا ، ووعدهما أنهما لن يذوقا طعم الموت ،
ان هما لبيا رغبته ، أما اذا لم يلبيا رغبته ، فان جسديهما سيفنيان ،
ولن يبقى خالدا سوى ظليهما أو روحيهما • ولكن الغلامين لم يوليا

أذنا صاغية ، فصب عليهما اللعنة قائلاً : « لقد كنت أعمل على أن يخلد الجنس البشرى بأسره ، أما الآن فسوف يفنى الى الأبد ، وان ظلت أرواحه خائدة • أما الضب « المونيكيغالوس » والسحلية « غارانوس انديكوس » ، والحية « اينجروس » فسوف تعيش الى الأبد ، لانها ستغير جلدها القديم على الدوام • « ولما سمع الغلامان هذا بكيا وندما أشد الندم على سلوكهما الأحمق في عدم تلبية رغبة « كونوكونو ميانجى » واحضار النار له •

ويحكى « الأرواك » سكان غانا البريطانية أن الخالق هبط ذات يوم الى الأرض ليستطعن أحوال مخلوقه الانسان • ولكن الناس كانوا غاية في الحمق ، الى درجة أنهم حاولوا أن يقتلوا الخالق • ولهذا فقد حرّمهم الخالق الخلود ، ومنحه صنوف الحيوان التى تغير جلدها مثل الثعابين والسحالي والخنافس • وتحكى قبيلة « تاماناشير » ، وهى قبيلة هندية تسكن « أورينوكو » ، رواية مختلفة بعض الشيء عن الرواية السابقة • فهى تروى أن الخالق بعد أن مكث بعض الوقت بين الناس ، استقل قارباً ليعبر به الى الشاطئ الآخر من البحر المالح الشاسع الذى كان قد ركب به اليهم • ولم يكذ يتجاوز الشاطئ حتى صاح بهم فى نعمة مختلفة وقال لهم : « انكم ستغيرون جلودكم » • وكان يعنى بهذا أن يقول لهم : « انكم ستجدون شبابكم كما تفعل الحيات والخنافس » • ولسوء الحظ أن كانت امرأة عجوز تستمع الى هذه الكلمات ، فصرخت فى نعمة ، ملؤها الشك ، ان لم تكن ملؤها السخرية ، وقالت « آه » • فتضايق الخالق كل الضيق ، وتغيرت نعمة صوته فى الحال وقال غاضباً : « انكم ستموتون » • وهذا هو سبب ابتلاء الناس بالموت •

ويحكى أهالى « نياس » ، وهى جزيرة تقع فى غرب « سومطرة » ، أن كائناً بعينه أرسل من السماء الى الأرض التى كان قد تم خلقها ليضع عليها اللمسات الفنية الأخيرة • وقد كان ينبغى على هذا الكائن أن يكون سائماً فى هذه الحالة • ولكنه لما لم يستطع أن يتحمل وخر الجوع ، فقد

أكل بعض الموز • وقد كان اختياره لهذا النوع من الطعام غير موفق ،
اذ لو كان قد أكل من سرطان النهر ، لغير الناس جلودهم كما يفعل
هذا الحيوان ، ولعاشوا الى الأبد نتيجة تجدد شبابهم على الدوام •
ولكن حيث ان الكائن المعنى قد أكل ثمار الموز ، فقد ابتلى الانسان
بالموت نتيجة ذلك ^(١) • وتضيف رواية أخرى تروى عن أهالى جزيرة
« نياس » كذلك ، أن « الحيات ، على العكس ، أكلت السرطان النهري
الذى يغير جلده ولا يموت وفقا لاعتقاد سكان « نياس » • ولهذا
فان الحيات لا تموت كذلك ، بل تغير جلدها فحسب » ••

ويلاحظ أن خلود انحياء في هذه الرواية الأخيرة يعزى الى
أكلها سرطان النهر الذى يجدد شبابه كلما غير جلده ، وبذلك تعيش
الى الأبد • وكذلك يعزى خلود السمك الصدفي الى السبب نفسه ،
وذلك في رواية « ساموائية » تحكى عن أصل الموت • ففيها يروى أن
الآلهة عقدت مجلسا لتقرر مصير الانسان • وأبدى أحدهم اقتراحا
هو أن يغير انناس جلودهم كما يفعل السمك الصدفي وبذلك يتجدد
شبابهم • ولكن الآله « بالسى » رأى ، على العكس ، أن يغير السمك
الصدفي جلده فيتجدد شبابه على ابدوام ، في حين يحتفظ لانسان
بجلده حتى يهرم ويموت ، وبينما كانت المداولة تدور ، قبل أن ينعقد
المجلس رسميا ، هطلت الأمطار لسوء الحظ وعطنت مناقشة هذا
الموضوع • وفي الوقت الذى أخذت الآلهة تجرى فيه لتبحث لها عن
مأوى من لطر ، ووفق على رأى « بالسى » بالاجماع • ولهذا السبب
فان السمك الصدفي ما زال يغير جلده حتى اليوم ، في حين يعجز
الانسان عن فعل ذلك •

وهكذا يبدو لنا أن عددا غير قليل من الشعوب ، يعتقد أن هبة
الخلود السعيدة التى تتحقق من خلال عملية بسيطة تتمثل في تغيير

(١) من المعروف أن شجرة الموز الأم تنبت الى جانبها شجيرة قبل ان
تموت • وقد أصبح الانسان مثل شجرة الموز بعد أن أكل منها هذا الكائن •
فهو يترك أولادا من بعده وأما هو فيموت • (المترجمة)

الجلد بانتظام في فترات ثابتة ، كانت يوما ما في متناول الجنس البشري ، ولكنها تحولت عنه الى الكائنات الدنيئة ، نتيجة حدث غير سعيد ، فاكتملتها نتيجة ذلك الحيات وسرطان النهر والسحالي والخنفس . على أن هناك شعوبا أخرى تعتقد أن الجنس البشري كان يستحوذ بحق في وقت ما على تلك الهبة التي لا تقدر بثمن ، ولكنه ضيعها بسبب حماقة امرأة عجوز . « فالميلانيزيون » سكان « جزر المبانك » ومثلهم سكان جزر « الهبريد الجديدة » يقولون : ان الجنس البشري لم يكن يموت في بادئ الأمر على الاطلاق ، بل كان الناس يغيرون جلودهم حينما يهرمون ، كما تفعل الحيات وسرطان الماء ، وبذلك كانوا يستعيدون شبابهم . ثم حدث بعد مرور الوقت أن ذهبت امرأة عجوز الى النهر لتغير جلدها في الماء . وهذه المرأة ، وفقا لما يقوله بعض هؤلاء السكان ، هي أم البطل الأسطوري « كات » ، فلما وصلت هذه المرأة الى النهر ، انتزعت جلدها القديم وألقت به في الماء . ولكنها لاحظت ، أن جلدها اصطدم ، وهو يهبط الى قاع النهر ، بعصا . على أنها عادت بعد ذلك الى بيتها حيث كانت قد تركت ابنها . ولما أبصرها الابن رفض أن يعترف بها بوصفها أمه ، وصرخ في وجهها قائلا : ان أمه كانت عجوزا ولا تمت لهذه المرأة الشابة الغريبة بصلة . فرجعت الأم الى النهر ، واستردت جلدها القديم ، لكي تطيب خاطر ابنها ، ولبسته . ومنذ ذلك اليوم كف الجنس البشري عن أن يغير جلده ومن ثم أخذ يتعرض للموت .

ويحكى سكان « جزر شورتلاند » وبالمثل قبيلة « كاي » وهي قبيلة من « البابو » تسكن شمال شرق « غينيا الجديدة » ، حكاية شبيهة بهذه الحكاية عن أصل الموت . فقبيلة « كاي » تحكى أن الجنس البشري لم يكن يموت في بادئ الأمر ، ولكن الناس كانوا يغيرون جلودهم . فعندما كانت جلودهم القديمة ذات اللون المبنى تتجعد وتصبح قبيحة الشكل ، كانوا ينزلون الى النهر ، ويخلعونها ، ويرتدون بدلا منها جلودا جديدة بيضاء تنطق بالشباب . وفي هذه

الأيام كانت هناك جدة عجوز تعيش مع حفيدها • وفى يوم من الأيام ضاقت الجدة ذرعا بهرمها وذهبت لتستحم فى النهر ، وخلعت عنها جلدها الذابل ، وعادت الى القرية جديدة كل الجدة فى جلدها القشيب وبهذه الصورة المتغيرة صعدت السلم ودخلت البيت • وعندما أبصرها حفيدها على هذا النحو بكى وصرخ • وأبى أن يصدق أنها هى بعينها جدته • وفشلت كل محاولاتها معه فى تهدئته واقناعه بأنها جدته • وأخيرا عادت فى غضب الى النهر واصطادت جلدها القديم المجمعد ولبسته ، ورجعت الى بيتها عجوزا شمطاء قبيحة الشكل • وسعد الوند برؤية جدته مرة أخرى ، ولكنها قالت له : « ان الجراد يغير جلده ، أما نحن البشر فسوف نموت من الآن فصاعدا » • وقد ابتلى البشر بالموت حقا منذئذ • ويحكى سكان « جزر أدميرالتي » هذه الحكاية بعينها مع تغيير طفيف • فهم يقولون انه كان فى سالف الزمان امرأة عجوز ضعيفة ، وكان لها ولدان خرجا ليصطادا ، بينما ذهبت هى لتستحم • وهناك فى الماء خلعت جلدها القديم وارتدت جلدا جديدا ، ورجعت الى بيتها شابة كما كانت منذ زمن طويل • فلما عاد ولداها من الصيد وأبصراها دهشا لمنظرها ، فقال أحدهما للآخر : « انها أمنا » فرد عليه الآخر قائلا : « ربما كانت أمنا ، ولكننى سأخذها زوجة لى » • وسمعت الأم هذا الحديث مصادفة ، فسألتهاما قائلة : « ماذا كنتما تقولان الآن ؟ » • فرد عليهما الولدان قائلين : « اننا لم نقل شيئا سوى أنك أمنا » • فقالت الأم : « انكما تكذبان ، فلقد سمعت حديثكما • ولو أننى ملكت من الأمر شيئا لكنا نكبر فى السن — رجالا ونساء — ثم نغير جلودنا فنعود فتيانا وصبايا • ولكنكما شئتما أن تتبعا أهواءكما ، ولذلك فسوف نكبر ونهرم ثم نموت » • وعند ذاك عادت الأم الى الماء وأحضرت جلدها القديم وارتدته فارتدت امرأة عجوزا • ولذا فنحن سلالتها نكبر ونهرم • ولولا هذان الولدان المتهوران لما كانت هناك نهاية لأيامنا ، ولعشنا الى الأبد •

فاذا ابتعدنا عن « جزر البانك » • فاننا نجد أن قبيلة « توكولاوى »

وهى قبيلة جبلية تسكن « سينيبس الوسطى » تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة الى حد كبير • وتروى هذه الحكاية — وفقا لما ذكره المبشرون الهولنديون الذين اكتشفوها منتشرة على نطاق واسع — على النحو التالى : كانت للناس فى قديم الزمان المقدرة على تغيير جلودهم على نحو ما تفعل الحيات وبراغيث البحر (الجمبرى) ، ومن ثم كانوا يستعيدون شبابهم دائما أبدا • وكانت بينهم امرأة عجوز تعيش مع حفيدها • وذهبت الجدة لتستحم ذات مرة ، وخلعت جلدها القديم ، وعلقتة على شجرة ، وارتدت جلدا جديدا • ثم عادت الى بيتها وقد استعادت شبابها • ولكن حفيدها لم يستطع أن يتعرف عليها ، ومن ثم لم يكثر بمقدمها ، وأخذ يقول لها : « انك لست جدتى ، لأن جدتى كانت عجوز ' وأنت امرأة شابة » • فعادت المرأة توا الى الماء واستعادت جلدها القديم وارتدته • ومنذ ذلك اليوم لم تعد للناس المقدرة على استعادة شبابهم ، ومن ثم صاروا يموتون •

وبينما يعتقد بعض الناس أن الجنس البشرى كان خالدا فى الأزمنة الأولى بفضل المقدرة التى اكتسبها على تغيير جلده بانتظام ، فإن هناك آخرين يعزون هذه الخاصية الى تعاطف بين الانسان والقمر • فالانسان يمر بأحوال متعاقبة من النمو والفناء والحياة والموت الى غير نهاية ، مطابقا بذلك أطوار نمو القمر وزواله •

فالانسان وفقا لوجهة النظر هذه ، يموت بحق ، ولكنه سرعان ما يبعث فيما يبدو بوجه عام بعد موته بثلاثة أيام ، وهى المدة التى تفصل بين اختفاء القمر القديم وظهور القمر الجديد ، فقبيلة « منتراس » أو « مانتراس » الهمجية التى تعيش منعزلة فى أحراش شبه جزيرة الملايو ، تزعم أن الناس فى العصور الأولى لخلق العالم لم يذوقوا طعم الموت • بل كانوا يتضاؤلون مع تضاؤل القمر ، ثم تعود أجسامهم الى وضعها الطبيعى مع اكتمال نموه • ولم يكن السكان يتحققون من تعدادهم الذى كان يتزايد تزايدا مخيفا • ولكن ابن

الرجل الأول لفت نظر أبيه الى هذا الأمر ، وسأله عما يجب فعله ازاء هذا التزايد المطرد • ورد الرجل ذو الروح البسيطة الطيبة قائلاً : « دع الأمور تسير على ما هي عليه » • ولكن الابن الثانى الذى كان ينظر الى هذا الأمر نظرة أكثر « مالثوسيانية »^(١) من ذلك قال لأبيه : « بل لنترك الناس يموتون كما تموت شجرة الموز ، تاركة ذريتها تعيش من بعدها » • وعند ذاك طرح الأمر على اله العالم السفلى الذى تبنى رأى الابن الثانى • ومنذئذ لم يعد الناس يستعيدون شبابهم من جديد كما يفعل القمر ، بل أصبحوا يموتون كما تموت شجرة الموز •

ويرى أهالى « جزر كارولين » أن الناس لم يكونوا يعرفون الموت فى الأزمنة القديمة ، أو هم بالأحرى كانوا ينظرون اليه بوصفه فترة نوم وجيزة • فالناس يموتون فى اليوم الذى يصبح فيه القمر محاقاً ، ثم يعودون الى الحياة مرة أخرى مع ظهور القمر الجديد ، وكأنهم يستيقظون بعد غفوة يستعيدون بعدها نشاطهم • على أن روحاً شريراً دبر بعد ذلك مؤامرة نكى لا يستطيع الناس قط عندما يغفون اغفاءة الموت • وقد حكى قبيلة «بوتجوبالوك» وهى قبيلة تسكن جنوب شرق استراليا ، أنه عندما كانت الحيوانات جميعاً فى هيئة رجال ونساء ، وكان بعضها يموت كان القمر يصيح بها قائلاً : « هيا استيقظوا » • وعند ذاك يعود الناس الى الحياة مرة أخرى • على أنه حدث ذات مرة أن قاتل رجل هرم : « بل ليتمت الناس الى الابد » • ومنذ ذلك الوقت لم يعد أحد الى الحياة بعد الموت ، فيما عدا القمر الذى يموت ويحيا حتى يومنا هذا • ويروى عن قبيلتى « أونتما تجيرا » : و « كاييتش » وهما قبيلتان تسكنان وسط استراليا ، أنهم تعودوا أن يدفنوا موتاهم اما فى الأشجار أو تحت الأرض ، وبعد ثلاثة أيام يعود هؤلاء الموتى بانتظام الى الحياة • كما تحكى قبيلة «كاييتش» عن

(١) نسبة الى « مالثوس » الذى عاش فيما بين (١٧٦٦ — ١٨٣٤م) • وهو صاحب النظرية القائلة بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد الموارد الغذائية وبأن النسل يجب أن يحدد • (المترجمة)

انقضاء هذه الأيام السعيدة ، فتقول : ان هذا حدث نتيجة خطأ ارتكبه
جل ينتسب الى « الكروان » الطوطم ، قد فقد أبصر هذا الرجل
مض الرجال الذين ينتسبون الى « الكنغر الصغير » الطوطم ، وهم
يسرعون في دفن رجل من جماعتهم • ولأمر ما استشاط الرجل الأول
غضباً ، وركل الجسد فدفعه الى البحر • وكان من الطبيعي ألا يعود
هذا الرجل الى الحياة بعد ذلك • وهذا هو السبب في أن موتاهم
لا يعودون الى الحياة بعد موتهم بثلاثة أيام كما تعودوا أن يفعلوا هذا
من قبل •

وعلى الرغم من أن هذه الحكاية التي تحكى عن أصل الموت ،
لا تذكر شيئاً عن القمر ، فإنه من المحتمل ، اذا ما قارنا هذه الحكاية بما
سبق من حكايات، أن تكون الأيام الثلاثة التي تعود الميت أن يرقد خلالها
في القبر قبل أن يعود الى الحياة ، هي بعينها الأيام الثلاثة التي
« يختفى فيها القمر في كهفه الشاغر عندها يصبح محاقاً » • وبالمثل
ربط « انفيجيون »^(١) بين احتمال خلود الانسان وأطوار نمو القمر ،
وان لم يذكروا أن الانسان ظل يتمتع بالخلود بحق حقبة من الزمن •
فهم يذكرون أن الهين من الآلهة القديمة ، وهما الاله « الفأر » والاله
« القمر » تناقشا في أمر نهاية الانسان على وجه التحديد • فقال الاله
« القمر » : لنذع مصير الانسان يكون مثل مصيرى ، فيختفى فترة ثم
يعود الى الحياة مرة أخرى • فرد عليه الاله « الفأر » قائلاً : « بل ندعه
بموت كما تموت الفئران » • وقد كان رأى الاله « الفأر » هو الفائز •

ويحكى « الأوبوتيون » سكان الكنفو كيف أن الانسان فاقته
هبة الخلود ، في حين حصل عليها القمر ، فيقولون : ان الاله الذى
يطلثون عليه اسم « لبيانزا » أرسل ذات يوم في طلب سكان القمر
وسكان الأرض • فخفف سكان القمر انى الاله ، ومن ثم فقد كافأهم الاله

(١) هم سكان جزر « فيجى » وهى مجموعة جزر في المحيط الهادى .
(المترجمة)

جزاء امتثانهم السريع لأمره ، فلقد قال للقمر : « انك لن تموت أبدا ، لأنك جئت الى توا عندما ناديتك . ولن تموت في كل شهر سوى يومين ، ام أقصد بهما الا راحتك ، ثم تعود بعدهما الى الحياة أكثر بهاء » . فلما مثل أهل الارض بعد ذلك أمام الاله « لبيانزا » تحدث اليهم في غضب وقال : « أما أهل الأرض ، ملائكم لم تثبوا ندائي توا . فانكم ستموتون حتما ، ولن تعودوا الى الحياة مرة أخرى ، الا عندما تدعون الى » .

ولا يربط « البانهاريون » سكان شرق « كوشنصين »^(١) بين خلود الانسان البدائي وأطوار نمو القمر ، كما أنهم لا يعزونه الى تغير الانسان لجلده ، بل يعزونه الى قدرة شجرة معينة على الشفاء . فهم يقولون : انه حينما كان الناس في بداية الحياة يموتون ، كانوا يدفنون عند جذع شجرة تسمى « لونج بلو » ، ثم يعيشون في العادة بعد مضي وقت ، لا في صورة أطفال بل في صورة رجال ونساء مكتملي انمو . وبذلك عمرت الأرض بالناس في مدة وجيزة ، وكانوا جميعا يسكنون بلدة واحدة يشرف عليها الأبوان الأولان .

وقد أخذ عدد الناس يتزايد تزايداً بالغاً الى درجة أن سحلية بعينها لم تكن ترحف على وجه الأرض دون أن تطأ قدم أى فرد ذي لها . فتضايقت وقدمت لحفارى القبور نصيحة غادرة وقالت لهم : « لماذا تدفنوا الموتى عند شجرة « لونج بلو » ؟ ادفنوهم عند شجرة « لونج خونج » فلا يعودون الى الحياة مرة أخرى . أتركوهم يموتون ميتة واحدة وكفى » وعمل حفارو القبور بهذه النصيحة ومنذ ذلك الوقت لم يعد الأموات الى الحياة مرة أخرى .

ونلاحظ في هذه الحكاية الأخيرة ، كما هو الحال في كثير من

(١) هو اقليم دلتا نهر ميكونج الذى يقع في جنوب فيتنام وينتمى هذا الاقليم اليوم الى كمبوديا . (المترجمة)

الحكايات الأفريقية ، أن سبب ابتلاء الانسان بالموت يرجع الى السحلية • ويمكننا أن نحدد أن السبب في نسبة هذا العمل الذي يتسم بالغدر الى السحلية ، هو أن السحلية شأنها شأن الثعبان ، تغير جلدها في أوقات معينة من السنة ، الأمر الذي دعا الانسان البدائي الى أن يعتقد أن السحلية ، مثل الثعبان ، يتجدد شبابها بتغير جلدها ، ومن ثم فهي تعيش الى الأبد • وعلى ذلك ، فربما كان الدافع وراء نشأة الأساطير التي تحكى كيف أصبحت الحية أو السحلية

الرسول الشرير الذي حمل رسالة الفناء للانسان ، يرجع الى فكرة قديمة عن غيرة بعينها وتنافس بين الناس والمخلوقات التي تغير جلدها، وبصفة خاصة الحيات والسحالي، بل ربما افترضنا أن أى حكاية نشأت حول هذا الموضوع ، كانت تصور الصراع بين الانسان والحيوان الذي ينازعه الحصول على الخلود ، وهو صراع تم النصر فيه ، سواء كان ذلك نتيجة خطأ أو بسبب تدبير مكيدة ، للحيوانات التي أصبحت من بعده خالدة • أما الانسان فقد صبت عليه لعنة الابتلاء بالموت •

٤ - الحكاية التي جمعت بين الرسالة المحرسة وتغيير الجلد :

تجمع بعض الحكايات التي تحكى عن أصل الموت ، بين موضوع الرسالة المحرقة وموضوع تغيير الجلد • فان «الجالا» الذين يسكنون في شرق أفريقيا يعززون فناء الانسان وخلود الحيات الى خطأ ارتكبه طائر معين ، أو نتيجة مكيدة منه ، فحرف لذلك رسالة الخلود التي عهد اليه بها الاله لكى يبلغها للانسان • والطائر الذي أخطأ هذا الخطأ الذريع في حق الانسان ، ذو لون أسود أو أزرق داكن ، وله بقعة بيضاء على كل من جناحيه ، كما أن له قاجا على رأسه • وهو يحط على رأس قمم الأشجار ويعول عويلا شبيها بثغاء الشاة ، ومن ثم فان «الجالا» سموه « هولواكا » أى « شاة الاله » وهم يفسرون ما يبدو على هذا الطائر من حزن من خلال الحكاية التالية • فقد أرسل الاله هذا

الطائر ذات مرة للناس ليخبرهم أنه لا ينبغي لهم أن يموتوا ، وانما ينبغي أن يغيروا جلودهم عندما يبلغ بهم الكبر والوهن مبلغهما ، وبذلك بتجدد شبابهم . ولكي يضمى الاله على هذه الرسالة صفة الشرعية ، وضع فوق رأس هذا الطائر تاجا ليكون علامة على المهمة السامية التي كلفه الاله بها . وطار الطائر على الفور ليبلغ الانسان نبأ الخلود السعيد . على أنه لم يكن قد طار الى مسافة بعيدة عندما صادف حية تأكل جيفة . فنظر الطائر الى الجيفة بشهية بالغة وقال للحية : « اعطينى شيئا من لحم الجيفة ودمها وأنا أفشى لك برسالة الاله الى البشر » . فردت الحية عليه بجفاء وقالت له : « اننى لا أرغب فى سماع فحوى هذه الرسالة » . ثم استأذنت أكلها ، ولئن الطائر أخذ يلح عليها أن تستمع الى الرسالة حتى وافقت فى كل شيء من التردد . عند ذلك قال الطائر : « ان الرسالة كالاتى : اذا تقدم السن بالانسان فانه سيموت ، فى حين أنك عندما تهرمين فستغيرين جلدك وتجددين شبابك » . وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون بعد أن يبلغ بهم العمر مبلغه ، فى حين أن الحيات بتجدد شبابها على الدوام بتغيير جلودها . وقد عاقب الاله هذا الطائر المهمل أو الأحمق بسبب تحريفه المبالغ للرسالة ، وذلك بأن ابتلاه بداء أبدي وبيل ما زال يعانى منه حتى الآن . وهذا هو السبب فى أن الطائر يقف فوق قمم الأشجار ويعول هذا العويل . وبالمثل يحكى «الميلانيزيون» الذين يسكنون ساحل «شبه جزيرة الغزال» فى نوبريتين « أن «توكامبينا» الروح الطيب كان يحب الناس ويود أن يجعلهم خالدين . فاستدعى أخاه «توكورغوفو» وقال له : « اذهب الى الناس وافش لهم سر خلودهم . قل لهم أن يغيروا جلودهم مرة فى كل عام ، وبذلك يتحصنون ضد الموت ، لأن حياتهم ستجدد بذلك على الدوام وعليك أن تخبر الحيات أنها ستموت حتما من الآن فصاعدا » . على أن كورغوفو « لم يحسن أداء الرسالة ، فقد أمر الناس أن يموتوا ، وأفشى فى الوقت نفسه سر الخلود للحيات . ومنذ ذلك الوقت أصبح الجنس البشر فانيا ، فى حين أصبحت الحيات تغير

جلدها مرة في كل عام ، ولهذا فانها تعيش الى الأبد . وتروى في « أنام » (١) حكايات عن أصل الموت شبيهة بالحكايات السابقة . فهناك يقول الأهالي : ان « نحبك هوانج » أرسل رسالة من السماء الى الناس يقول لهم فيها : انه يتحتم عليهم أن يغيروا جلودهم عندما يهرمون ، وأن يعيشوا بهذه الوسيلة الى الأبد ، أما الحيات فيتحتم عليها أن تفنى عندما تهرم . فلما هبط الرسول الى الأرض أبغ الناس الرسالة صحيحة بحق . فلقد قال لهم : « ان الانسان سوف يغير جلده عندما يهرم ، أما الحيات فسوف تموت عندما تكبر ، وتوضع في اللحد » والى هذا الحد سارت الأمور على خير ما رام . ولكن لسوء الحظ ، أنه كان هناك عدد من الثعابين الصغيرة يستمع لهذا القول . فلما علمت الثعابين أن اللعنة قد حلت ببني جنسها تملكها الغضب وقالت للرسول : « أعد كلامك واعكس العبارة والا لدغناك » . فخاف الرسول وأعاد العبارة وغيرها على النحو التالي : « اذا كبرت الحيات فانها ستغير جلدها ، أما الانسان فسوف يموت عندما يكبر ويوضع في اللحد » . وهذا هو السبب في أن كل المخلوقات تفنى فيما عدا الحيات ، فانها تغير جلدها عندما تكبر ، ولهذا فهي تعيش الى الأبد .

خاتمة :

وهكذا نرى أن الفيلسوف البدائي - قياسا على حكايات القمر أو حكايات الحيوان الذي يغير جلده - أشار الى أن كائنا طيبا قد وعد أبناء الجنس البشرى في بداية الحياة بهبة القدرة على تجديد شبابهم على الدوام ، أو أنهم كانوا يتمتعون بهذه النعمة حقا . ولولا حدوث جريمة أو حادثة أو خيانة لظلوا يتمتعون بهذه النعمة حتى اليوم . أما الشعوب التي تربط فكرة خلود الجنس البشرى بتغيير الحيات أو السحالي أو الخنافس أو ما أشبه ذلك لجلودها فهي تنظر بطبيعة الحال الى هذه الحيوانات بوصفها منافسا بغضا سلبهم الارث

(المترجمة)

(١) يعد هذا الاقليم أصل فيتنام .

الذى شاء الاله ، أو شاءت الطبيعة أن تمنحنا اياه حقا • ومن ثم فان هذه الشعوب تحكى حكايات تذكر فيها كيف أن هذه الكائنات الدنيئة قد دبّرت مكيده لكى تحرم الانسان من هذا الحق الذى لا يقدر بثمن • وهذا النوع من الحكايات ينتشر انتشارا كبيرا فى أنحاء العالم، وليس غريبا أن نجدها منتشرة بين الشعوب السامية • ويبدو أن قصة سقوط الانسان التى تروى فى الفصل الثالث من سفر التكوين ، تعد رواية مختصرة لهذه الأسطورة البدائية ، فهى فى حاجة الى قليل من الاضافة حتى يكتمل تشابهها بمثيلاتها التى لا تزال القبائل البدائية تحكيها فى بقاع كثيرة من العالم • فالجزء المحذوف فى الحكاية العبرية ، وربما كان الجزء الوحيد ، هو الذى يتمثل فى سكوت القاص عن ذكر أكل الحية من فاكهة شجرة الحياة ، وما نتج عن ذلك من حصول هذا الحيوان الدنيء على الخلود • على أنه ليس من العسير علينا أن نفسر سبب وجود هذه الفجوة فى الحكاية العبرية ، فالاتجاه العقلانى الذى يبدو فى ثنايا قصة الخلق العبرية ، ذلك الاتجاه الذى سلبها كثيرا من الملامح التى تزين الرواية البابلية المطابقة لها ، أو تشوها ، قد شكل عقبة فى سبيل نسبة فكرة الخلود المزعومة الى الحية • وقد استبعد مؤلف القصة فى صيغتها الأخيرة عاقبة الاساءة هذه من طريق المؤمنين عن طريق عملية بسيطة ، هى حذف هذه الحادثة كلية من القصة العبرية • ومع ذلك فان هذه الفجوة الواسعة التى أحدثها الكاتب فى القصة العبرية نتيجة تطفله ، لم تغب عن الدارسين الذين أخذوا يجيلون النظر ، فى غير جدوى ، فى الدور الذى كان يجب أن تلعبه الحية فى القصة العبرية • وإذا كان تفسيري للقصة العبرية صحيحا فاننى أدعه للمنهج المقارن لكى ييسد الفجوات فى التراث الفنى القديم ، بعد أن مرت عليه آلاف السنين ولكى يحتفظ له ، على ما فيه من سذاجة بدائية ، بالألوان البربرية المرححة التى خفت من حدتها أو محتها يد الفنان العبرى الماهرة •

الفصل الثالث

علامة قابيل

قرأ في سفر التكوين أن « قابيل » لفظه مجتمعه عندما قتل أخاه هابيل وأصبح بعد ذلك هائما شريدا على وجه الأرض • ولما كان يخشى من أن يقتله أى فرد يقابله ، احتج على الرب لما آل اليه حظه العثر • وأشفق عليه الرب كل الاشفاق ، إلى درجة أن « جعل الرب لقابيل علامة لكي لا يقتله كل من وجده » (١) •

فما العلاقة التي ميز بها الرب أول قاتل على وجه الأرض ؟
أو ما الإشارة التي حددها له ؟

من المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة تحتوى على بقايا عادات كان يتبعها القتل • وعلى الرغم من أنه ليس في وسعنا أن نأمل في أن نحدد الشكل الحقيقي لهذه العلامة أو الإشارة ، فإن الموازنة بين العادات التي يتبعها القتل في بقاع أخرى من العالم ، ربما أعانتنا على تفهم ملامحها العامة على الأقل •

لقد رأى « روبرتسون سميث » أن تلك العلامة التي نتساءل عنها ، كانت علامة القبيلة ، وهي شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، وذلك عن طريق الإشارة إلى أنه ينتمى إلى جماعة يمكن أن تتأثر لقتله • ومن المؤكد أن مثل هذه العلامة مأثوفة بين الشعوب التي احتفظت بالنظام القبلي • ومثال ذلك ، هناك شعار رئيسي تعرفه القبائل البدوية التي تعيش في العصر الحاضر يتمثل في

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ •

طريقة معينة في تصنيف شعورهم • وفي كثير من أنحاء العالم ، وبصفة خاصة في افريقيا ، يكون شعار القبيلة وشما أو « شلخا » يحفر في عضو من أعضاء الانسان • ومن المحتمل أن تكون وظيفة هذه الشعارات هي حماية الفرد الذي ينتمي الى قبيلة ما على نحو ما افترض « روبرتسون سميث » • على أنه ينبغي لنا أن نتذكر ، من ناحية أخرى ، أن هذه الشعارات ، على العكس ، ربما زادت من خطورة موقف الفرد اذا ما كان في بلد معاد لقبيلته ، ذلك لأنها تبرزه بوصفه شخصا معاديا لهم • على أننا اذا سلمنا بأن مهمة هذه الشعارات هي حماية حاملها ، فما زال هذا التفسير ، اذا ارتضيناه بالنسبة لعلامة « قابيل » لا يتلاءم مع موقف « قابيل تماما ، ذلك لأنه تفسير يتسم بالعمومية التامة • فاذا كانت العلامة من شأنها أن تحمي كل فرد من أفراد القبيلة ، سواء أكان قاتلا أم غير قاتل ، فان حوادث قصة قابيل في مجموعها ، تنحو الى أن تبرز لنا أن علامة قابيل لم يكن يحملها كل فرد من أفراد جماعة « قابيل ، وانما كانت خاصة بقابيل وحده • ومن ثم فنحن مضطرون لأن نبحث عن تفسير آخر من زاوية أخرى •

فنحن نخلص من حكاية « قابيل » نفسها الى أن قابيل كان معرضا لأخطار أخرى خلاف كونه معرضا لأن يقتله أي فرد يقابله لكونه طريد مجتمعه • فلقد قال الرب : « ماذا فعلت • صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها • تائها وهاربا تكون في الأرض » (١) ••

ومن هنا يتضح أن دم الأخ المقتول يشكل خطرا طبيعيا على القاتل ، فقد لوث دم القاتل الأرض ، ومنعها من أن تفيض بخيراتها • ومن ثم كان الاعتقاد في أن القاتل قد بث السم في منابع الحياة ، ونتيجة لذلك فقد عرض مصدر طعامه ، وربما طعام غيره ، للخطر •

(١) سفر التكوين ٤ : ١٠ الى ١٢ •

ومن المسلم به ، بناء على وجهة النظر هذه ، أنه يتحتم معاقبة القاتل وطرده من البلد الذي يشكل وجوده فيه خطرا على الدوام . انه أصبح أشبه بالمبتلى بالطاعون ، ومحاطا بجو من السموم ، ومصابا بعدوى الموت ، وربما تلوثت الأرض بلمسة من يده . وفي هذه الحال يمكننا أن نفهم نظاما ما بعينه فرضه قانون « أتیکا » ، فالقاتل الذي نفى من « أتیکا » ، واتهم في أثناء غيابه بتهمة أخرى ، كان يسمح له بالعودة الى بلده لكي يدافع عن نفسه . ولكنه لا يسمح له بأن تطأ قدمه الأرض ، وانما عليه أن يدافع عن نفسه وهو على ظهر السفينة . وحتى هذه السفينة لا يسمح لها بأن تلتقى مرساها أو تنزل سلمها ، كما لا يسمح للقضاة بأن يتصلوا بالمدّنب ، وانما عليهم أن يصدروا حكمهم جالسين عند الشاطئ أو واقفين عليه . ومن الواضح أن الغرض من هذا النظام هو وضع القاتل في الحجر الصحي . حتى لا يصيب « أتیکا » بآفة ، اذا ما مست قدماه ترابها ، أو حتى اذا اتصل بها بطريق غير مباشر عن طريق مرساة السفينة أو سلمها . ومن أجل هذا السبب نفسه ، فان مثل هذا الرجل اذا ما كان عثر الحظ ، وقذف به البحر ، في أثناء ابصاره على شاطئ البلد الذي ارتكب فيه جريمة ، فانه ، وان كان يسمح له حقا أن ينصب خيمته على الشاطئ حتى تغد سفينة وتقله معها ، الا أنه كان يتحتم عليه أن يجلس على الشاطئ ويدلى قدميه في الماء طوال الوقت . حتى يبطل مفعول السم الذي يظن أنه غرسه بقدميه في التربة اذا ما مستها قدماه ، أو هو على الأقل يخفي بذلك من تأثيره .

ونظام الحجر الصحي الذي فرضه قانون « اتیکا » على القاتل ، له ما يناظره عند أهالي جزيرة « دوبيو » البدائيين ، وهي جزيرة تقع في أقصى جنوب شرق « غينيا الجديدة » ، فهؤلاء مازالوا يفرضون العزل على المقتلة حتى اليوم . وقد كتب حول هذا الموضوع مبشر أقام في هذه الجزيرة سبعة عشر عاما ، فقال : « ان الحرب يمكن أن تقوم ضد أقرباء الزوجة . فاذا قتل شخص في هذه الحرب ، فانه لا يجوز

أكل لحمه • فإذا قتل شخص أحد أقرباء زوجته ، يحرم عليه بعد ذلك أن يتناول طعاما أيا كان نوعه أو أية فاكهة من قرية زوجته • ولا يجوز لأحو أن يعد له الطعام سوى زوجته • فإذا خبت النار عندها وهي تطهو لزوجها الطعام ، لا يجوز لها أن تحضر شعلة من النار من أى بيت من بيوت قريتها • وعقوبة مخالفة هذا التحريم هو موت الزوج عن طريق تسميم دمه • ويكون التحريم أشد قسوة من ذلك ، إذا ما قتل الرجل أحد أقربائه •

فعندما قتل الزعيم « جاجانومور » أخاه (وسر وهما لأصنامهم ابن خاله) لم يسمح له بالعودة الى قريته ، وكان عليه أن يشيد قرية يسكن فيها ، وأن يكون له وعاء خاص به من نبات القرع مطلق الجير ، كما يكون له سكين فيها ، وأن يكون له سكين وزجاجة ماء وفنجان ، ومجموعة من أوعية الطبخ • كما عليه أن يحصل على شراب جوز الهند وعلى الفاكهة من مكان آخر غير قريته • وكان عليه أن يظل موقدا ناره أطول وقت ممكن ، فإذا ما انطفأت لا يمكنه أن يعيد إيقادها من نار أخرى ، بل عليه أن يحصل على شعلة النار عن طريق قدح الزند • فإذا خالف الزعيم هذه المحرمات ، فمن الممكن أن يبيث دم أخيه القتل السم في دمه ، فيتورم جسمه ويموت ميتة رهيبة •

من خلال هذه الأمثلة نرى أن أهالى جزيرة « دوبو » يعتقدون أن دم القتل يفعل السم في جسم القاتل ، وذلك إذا ما جرؤ القاتل على أن تطأ قدمه قرية القتل ، أوحى أن اتصل بها بطريق غير مباشر • فعزله عن جماعته وقاية يحرص عليها لصالحه أكثر من حرصه عليهم لصالح الجماعة التى ينعزل عنها • ومن المحتمل أن النظام الذى يفرضه قانون « اتىكا » على القاتل ، يمكن أن يفسر على هذا النحو • ومن المحتمل على أى حال أن الناس كانوا يعتقدون فى وجود الخطر المتبادل ، وبتعبير آخر ، أنهم كانوا يعتقدون أن كلا من القاتل ومن

تصل به معرض لأن يصاب بتسمم دمه الذى يحدث عن طريق العدوى •
ومن المؤكد أن «الايكويو» الذين يسكنون «أفريقيا الشرقية البريطانية»
يعتقدون فى أن القاتل يمكن أن يصيب غيره بعدوى ميكروب كرية •
فهم يظنون أن القاتل اذا نام فى قرية وتناول الطعام مع عائلة من
العائلات فى كوخها ، فانه يصيب الشخص الذى تناول الطعام معه
بدنس (ثاهو) الأمر الذى يهدد العائلة بحدوث كارثة ، ما لم يتمكن
الطبيب من ازالة الدنس فى حينه • فالجلد الذى ينام عليه القاتل
يمتص ما ابتلى به من دنس ، ومن ثم فهو يعرض من ينام عليه بعد
ذلك للاصابة بهذا الدنس ولهذا فان العائلة تستدعى الطبيب لكى يظهر
الكوخ وسكانه •

وكذلك « يعد القاتل » عند المغاربة سكان مراكش « شخصا نجسا
على نحو ما ، وهو يظل هكذا سائر سنى حياته • فالسم ينضج من
تحت أظافره ، ومن يشرب من الماء الذى غسل فيه يده ، يصاب بداء
وبيل ، كما أن لحم الحيوان الذى يقوم بذبحه لا يعد صالحا للأكل ،
وبالمثل يشارك فى أكله • فاذا وفد على مكان تحفر فيه بئر ، فان المياه
تتسرب فى باطن الأرض فى الحال • وقد أخبرنى أهالى منطقة
« الحياينة » فى بلاد المغرب ، أن القاتل لم يكن يسمح له أن يسير فى
حقول الخضر ، أو يدخل حدائق الفاكهة ، أو أن تظأ قدمه مكان درس
الحنطة أو يدخل مخزن الغلال أو أن يسير بين الخراف • والقاعدة
المألوفة ، وان كانت لا تتبع بشكل عام ، الا يقوم القاتل بذبح ضحية
عيد الأضحى بنفسه • وهناك تحريم مشابه بهذا تلتزم به بعض
القبائل التى يتحدث أغلبها اللغة البربرية ، وهو تحريم يفرض على من
يقتل كلبا ، اذ أن الكلب من وجهة نظرهم حيوانا نجسا ، وكل نقطة من
الدم تخرج من جسم الكلب تعد نجسة ومأوى للجن •

على أن دم هابيل فى القصة التورانية ليس هو الشئ الوحيد الذى
شخصه القاص • فاذا كان قد صور الدم يصرخ صراخا عاليا ، فقد
صور الأرض فاعرة فاها لتستقبل دم الضحية • وفى ملحمة الإلياذة

شخص أخيل الأرض على نحو مماثل ، اذ صور الأرض تشرب من دم
أغامنون القاتل . ولكن خلع الصفات الانسانية على الأرض يمتد خطوة
أبعد من ذلك فى قصة سفر التكوين ، ذلك أن « الأرض أحلت اللعنة
بالمقاتل » كما تقول القصة ، وعندما حاول أن يفلحها لم تنبت له خيراتها،
لأنه قدر له أن يصبح هائما شريدا على وجه الأرض . والمقصود بذلك
فيما يبدو هو أن ارض ، وقد تلوثت بدم القاتل واستاءت لجريمة
الدم ، أبت أن تتيح للحب الذى بذره المجرم أن ينمو ويحمل ثمارا ،
بل انها طردت القاتل من الارض الخصبة التى شب عليها من قبل ،
وأخرجته الى المتاهات القاحلة حيث يهيم فيها بلا مأوى ولا طعام .
وليست ذكرة أن الأرض كائن حى يصارع ضد ما يرتكبه سكانها
من اثم ويطردهم بازدراء من أحضانها ، غريبة فى العهد القديم .
فنحن نقرأ فى سفر الأحبار « أن الأرض تقذف سكانها » اذا هم
دنسوها كما أن الاسرائيليين قد حذروا تحذيرا رهيبا من ألا يحافظوا
على شريعة الرب وأحكامه : « فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم اياها كما
قذفت الشعوب التى قبلكم » (١) .

ويبدو أن الاغريق كانوا يصطنعون مثل هذه الأفكار عن تلوث
الأرض بدم القتل المسفوح ، أو بدم الأقرباء بصفة عامة ، فقد حكى
فى تراثهم كيف أن « الخاميون » كان يطارده شبح أمه « ايريفلى »
التي قتلها ، فهام على وجهه فى الأرض فى غير راحة ، حتى لاذ فى
النهاية بنبوءة معبد « دلفى » . وهناك أخبرته الكاهنة أن « المكان
الوحيد الذى لن يطارده فيه شبح أمه « ايريفلى » ، هو أكثر الأماكن
حداثة ، وهو المكان الذى عراه البحر من بعد أن سفك دم أمه » .
أو أن الكاهنة أخبرته وفقا لما ذكره « توسيديد » : « أنه لن يتخلص
من فزعه الا اذا عثر على البلد الذى لم تكن قد أشرقت عليه الشمس
عندما قتل أمه ، وكان مغمورا بالمياه حتى ذلك الحين ، فيسكنه ، لأن
سائر بقاع الأرض قد تلوثت بجريمته » . فرحل « الخاميون » مقتفيا
أثر الطريق الذى أخبرته به النبوءة حتى اكتشف عند منبع نهر

(١) انظر سفر الأحبار (اللاويين) ١٨ : ٢٨ .

« أشيلوس » جزر « ايخيناديان » الصغيرة العارية التي قيل : ان النهر قد صنعها من الطين الذي جرفه من شواطئه بعد أن اقترب الآثم جريمته ، فاتخذ القاتل هذه الجزر مأوى له • ووفقا لرواية أخرى للأسطورة ، استقر القاتل بعض الوقت في وادي « بسوفيس » المرتفع الأجرد الذي يقع بين جبال أركاديا المهيبة • ولكن حتى هذه الجزر رفضت أن تقدم خيراتها للقاتل ، ومن ثم اضطر أن يستأنف تجواله المضنى كما فعل قابيل •

والاعتقاد في أن الأرض ذات الوهية قوية ، يدنسها ويسىء اليها دم الانسان المسفوح ، ومن ثم يتحتم أن تقدم لها التضحيات حتى تهدأ ، عقيدة تنتشر ، أو كأنه تنتشر حتى زمن قريب بين بعض قبائل « السنغال الأعلى » ، التي تكفر حتى عن الجراح التي انسكب الدم منها ، دون أن يفضى هذا الانسكاب الى الموت • ففي اقليم « البوبو » يقدم القاتل شاتين وكلبا وديكا لزعيم القرية الذي يقدمها بدوره ضحية للأرض ، بأن يذبحها ويربطها في خشبة يثبتها في الأرض • أما أسرة القتل ، فلا يقدم لها شيء • وبعد هذا يأخذ أهالى القرية ومعهم الزعيم ، نصيبهم من الضحية ، ويستثنى من ذلك أسرة القاتل وأسرة المقتول • أما اذا حدث شجار بين بعض أفراد « لبوبو » ، وجرح بعضهم جراحا ثم ينسكب منها الدم ، فانهم لا يقدمون ضحية عند ذاك • أما اذا انسكب الدم ، واستاءت الأرض لمراة ، لزم تقديم الضحية لها حتى يهدأ غضبها ، فيقدم المذنب لزعيم القرية نعجة وألف محارة (١) • أما النعجة فيقدمها الزعيم ضحية للأرض ، وأما المحار فيوزعه على أكبر رجال القرية سدا ، كما يوزع عليهم لحم النعجة بعد أن يقدم للأرض • وأما أهل القتل فيهملون كلية في هذا الاحتفال ، ولا يقدم اليهم شيء ، وهو تصرف منطقي لأبعد حد ، فليس الغرض من هذه الطقوس تعويض أهل القتل على حساب القاتل ، بل الغرض منه تهدئة سورة غضب

(١) صدفه صفراء كانت تستخدم كعملة وبخاصة في افريقيا وآسيا .
(الترجمة)

الأرض ، تلك القوة الالهية الجبارة التى استعانت لمنظر الدم المسفوك •
ومن ثم فان الطرف الذى لحقت به الاساءة ، لا يمنح شيئاً فى هذه
الظروف ، وانما يكفى أن تبتلع الأرض روح النعجة حتى يهدأ غضبها •
فالأرض عند « البوبو » وغيرهم من الشعوب السوداء ينظر اليها
بوصفها الهة عظيمة •

وتتشابه معتقدات قبيلة « ناونوما » وعاداتها ، وهى قبيلة أخرى
تسكن « السنغال الأعلى » ، مع معتقدات البوبو وذلك فما يختص بدم
القتيل المسفوح • فقد نفت القبيلة قاتلا لمدة ثلاث سنوات وألزمته
بدفع دية كبيرة من القطيع والمحار ، لا لتقدم الى عائلة القتيل ، بل الى
الأرض والالهة المحليين الذين استاءوا لمراى الدم المسفوك • ويقوم
الكاهن الذى يحمل لقب « سيد الأرض » بتقديم الثور أو الثيران ضحية
للأرض الغضبية ، كما يقسم لحم الضحية والمحار معا على أكبر رجال
القرية سنا ، ولا تنال أسرة القتيل من ذلك شيئاً ، أو هى على أحسن
تقدير تأخذ نصيباً مناسباً من اللحم والنقود • أما فى حالة المشاجرات
التى لا يقتل فيها أحد ، بل بسيل فيها الدم فحسب ، فان المعتدى يدفع
دية تتكون من ثور وشاة وعنزة وأربع دجاجات لتقدم ضحية للاله
المحليين الذين غضبوا لرؤية الدم • ويقدم « سيد الأرض » الثور
ضحية للأرض فى حضرة كبار رجال القرية كما تقدم الشاة ضحية
للنهر ، والدجاج للصخور والغابة • وأما العنزة فيقدمها زعيم القرية
ضحية لحيوانه المبارك (الفتيش) الذى ينتسب هو اليه • واذا لم
تقدم كل هذه الدية ، فان الأهالى يعتقدون أن الآلهة ربما قتلت المذنب
وجميع أفراد أسرته وهى فى سورة غضبها •

كل هذه الحقائق السابقة تشير الى احتمال أن العلاقة التى يميز
بها القاتل لا يقصد بها أولاً حماية القاتل نفسه ، بل يقصد بها حماية

الآخرين الذين يصادفهم والا انتقلت اليهم عدوى الدنس اذا ما اتصلوا به ، فيحل بهم غضب الاله الذى استاء لفعلته ، أو يحل بهم غضب شبح القتيل الذى يطارده • أى أن العلامة ، باختصار ، ربما كانت إشارة خطر تحذر الناس من خطر القاتل ، شأنها شأن الرداء الخاص الذى كان يتحتم على المجذوم فى بنى اسرائيل أن يرتديه ليحذر الأصحاء من خطره •

ومع ذلك ، فان هناك حقائق أخرى تنحو الى أن تبين أن العلامة التى يميز بها القاتل ، وكما يفهم هذا ضمنا من قصة هابيل ، كما يعنى بها صالح القاتل وحده • وأكثر من هذا فانها تشير الى أن الخطر الحقيقى الذى تحميه العلامة منه ليس هو غضب أقرباء ضحيته ، بل غضب شبح القتيل • وهنا يتراءى لنا أنه يجب علينا أن نفحص فى أعماق خرافات « أتیکا » كما سبق لنا أن تعرضنا لعادات « أثينا » • فأفلاطون يخبرنا أن شبح الرجل الذى قتل حديثا يغضب من قاتله ، ويسبب له المضايقات • فالشبح عندما يثور لمقتل صاحبه ، يطوف فى الأماكن التى أُلِف أن يأوى اليها • ومن ثم كان من الضرورى للقاتل ، أن يغادر بلده طيلة عام ، حتى يهدأ غضب الشبح • ولا ينبغى له أن يعود اليه الا بعد أن تكون الضحايا قد قدمت ، وأقيمت احتفالات شعائر التطهير • فإذا صادف أن كان القتيل غريبا عن البلد الذى قتل فيه ، فعلى القاتل أن ينأى بنفسه عن بلد القتيل وبلده معا ، كما أن عليه أن يسير فى الطريق الذى يوصف له ، وهو فى طريقه الى منفاه ، اذ من الواضح أنه لا يسمح له أن يتجول فى البلد وشبح القتيل الغاضب فى أعقابه •

لقد سبق أن رأينا أن قبيلة « أكيكويو » تعتقد أن القاتل مصاب بدنس (ثاهو) يمكن أن يصيب الآخرين عن طريق العدوى • ويتضح من خلال بعض الاحتفالات التى تقيمها هذه القبيلة بقصد التكفير عن

خطيئة القاتل ، أن هذا الدنس يرتبط بشبح القاتل • فشيوخ القرية يذبحون خنزيرا عند احدى أشجار التين المقدسة التى تلعب دورا كبيرا فى الطقوس الدينية عند هذه القبيلة • وهناك يقيمون وليمة من أجزاء الحيوان الكثيرة اللحم ، ويتركون الأجزاء الدسمة والأمعاء وبعض العظام لشبح القتيل الذى يعتقدهون أنه يأتى الى هذا المكان فى تلك الليلة بعينها فى صورة قط متوحش ويفترس هذه الأجزاء • فإذا سد رمقه ، فإنه يحجم عن أن يعود الى القرية ليضايق أهلها • وجدير بالذكر أن قبيلة « كيكويو » لا تحتفل بشعائر تطهير دنس القاتل ، إلا اذا قتل أحد أفراد عشيرته • ومن ثم فهي لا تقيم هذه الشعائر اذا هو قتل رجلا من عشيرة غير عشيرته أو قبيلة غير قبيلته •

ومن عادة قبيلة « باجيسو » التى تسكن جبل « الجون » الذى يقع فى « أفريقيا الشرقية البريطانية » ، أنه يتحتم على الرجل أن يغادر قريته ، اذا ما اتهم بالقتل وكان القتيل من نفس عشيرته ومن قريته ، وأن يبحث له عن مأوى فى مكان آخر • وهو مطالب بأن يصنع هذا كذلك وان استطاع أن يصلح أقرباء القتل • وعليه بعد ذلك أن يذبح نعجة ، ويلطخ صدره بمحتوى أمعائها ، ويرمى ما تبقى من ذلك على سطح بيت القتيل « لكى يهدىء من غضب الشبح » • ويؤدى المحارب فى قبيلته « باجيسو » هذه الشعائر اذا كان قد قتل رجلا فى احدى المعارك • ويحق لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون ، أن الغرض من اقامة هذه الشعائر ، هو العمل على تهدئة غضب شبح المقتيل • ويمكن للمحارب بعد ذلك أن يعود الى قريته ، ولكن بشرط ألا يقضى الليلة الأولى فى بيته ، بل يقضيها فى بيت أحد أصدقائه • وفى مساء تلك الليلة يذبح شاة أو نعجة ، ويضع محتويات أحشائها فى اناء ، بعد أن يلطخ بها رأسه وصدره وذراعيه • فإذا كان له أولاد ، فإنهم يلطخون أنفسهم على نحو ذلك • حتى اذا ما حصن المحارب نفسه وأولاده على هذا النحو ، مضى الى بيته فى جرأة ، ولطخ جوانب بابه

بأمعاء الحيوان ، ورمى ما تبقى منها على السطح لكي يأكلها الشبح ،
فيما يبدو ، لأنه يمر فوق هذا السطح ، أن لم يكن قد استقر فوقه .
ولا يجوز للقاتل أن يلمس بيده الملوثة بدم القتل الطعام مدة يوم كامل ،
بل يوصل الطعام الى فمه عن طريق زوج من العصي أعد لهذا الغرض .
وفي اليوم التالي تترك له الحرية في أن يعود الى بيته وأن يستأنف حياته
العادية . ولا تلزم زوجة القاتل بهذه القيود ، بل إنه يمكنها أن تشارك
أسرة القتل في حدادها ، وأن تشترك في مأتمه . فربما هذا الحزن
المصطنع مشاعر شبح القتل ، وأغراه بأن يترك زوجها وشأنه .

ويعزل القاتل في قبيلة « نيلوتيك كافيروند » ، وهي قبيلة أخرى
تسكن في « أفريقيا الشرقية البريطانية » ، عن أفراد قريته ، ويسكن
في كوخ مع امرأة عجوز تقوم على شئونه ، وتطهو له الطعام ،
وتطعمه كذلك ، لأنه لا يجوز له أن يلمس الطعام بيده . وتستمر هذه
العزلة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع يأتي اليه رجل يكون هو نفسه
متهما بالقتل ، أو سبق له أن قتل رجلا ، معركة حربية ، ويصطحبه الى
نبع ويغسل له جسمه . ثم يذبح هذا الرجل نعجة : ويطهو لحمها
ويضع أربع قطع من اللحم على أربع عصي ، ثم يقدم قطع اللحم الأربع
الى القاتل ليأكلها واحدة تلو الأخرى ، ثم يضع الرجل بعد ذلك أربع
كرات معجونة من الثريد على العصي الأربع ، ويقدمها للقاتل لكي يأكلها
كذلك . وفي النهاية يقطع جلد النعجة الى أشربة ، ويلف شريطا منها
حول رقبة القاتل وشريطا حول كل من معصميه ، وكل هذه الشعائر يؤديها
الرجلان منفردين عند النهر . وبعد ذلك يكون القاتل حرا في أن يعود
الى بيته . وتقول القبيلة : ان شبح القتل لا يذهب الى المكان الذي يرقد
فيه الميت ، بل يظل يحلق فوق القاتل ، حتى ينتهي من تأدية هذه
الشعائر .

ولا يخاف القاتل في قبيلة « بولوكي » التي تعيش في « أعالي
الكنغو » ، من شبح من قتله ، اذا كان هذا القتل ينتمي الى البلاد
المجاورة لبلده ، وذلك لأن المساحة التي يستطيع أن يتجول فيها الشبح

« البولوكى » ، محدودة للغاية • على أن جريمة القتل التى يمكن أن ترتكب فى هذه الحالة دون أدنى خوف انما تخلق موقفا أشد خطورة اذا ارتكبت مع رجل من بلد القاتل نفسه ، فالقاتل يعلم عند ذاك ان الشبح يتجول على مقربة منه ، ومن ثم فان الخوف من انتقامه يؤرقه • وليس هناك لسوء حظه طقوس تذهب عنه الفزع • ولكنه ، رغم غياب هذه الطقوس ، يعلن الحداد على ضحيته ، كما كان القتل أخاه ، فهو يهمل زينته ، ويحلق رأسه ويصوم عن الطعام ، ويبيكه بدموع منسكبة كدموع التماسيح ، ومن ثم فان علامات الحزن التى ينظر اليها الأوربى المخلص على أنها دليل على صدق الندم وتأنيب الضمير ، ليست سوى امارات حزن مزيفة يقصد بها خداع الشبح •

ومرة أخرى نجد أن القاتل عند « الهنود الأوماها » الذين يسكنون أمريكا الشمالية ، مطالب بأن يخضع لنظام صارم محدد لمدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات ، وذلك بعد أن يصفح عنه أهل القتل وييقوا على روحه • فعليه أن يسير حافى القدمين وألا يأكل طعاما ساخنا ، ولا يرفع صوته عند الكلام ، ولا ينظر حوله • وعليه أن يلف ثوبه حول جسمه وجعله ملتصقا برقبتة ، ولا ينبغي له أن يتركه يتدلى أو يفتحه وان كان الجو حارا • ولا يجوز له أن يحرك ذراعيه جانبا ، بل يحتفظ بهما ملتصقين الى جانبه • كما لا يجوز له أن يمشط شعره ، ولا أن يتركه يتطاير فى الهواء • ولا يسمح لأحد أن يأكل معه ، ولا يبقى معه فى الخيمة سوى واحد من أقربائه • فاذا خرجت قبيلته للصيد ، تحتم عليه أن يضرب خيمته فى مكان سائر القوم بحوالى ربع ميل ، « لئلا يثير شبح الميت ريحا تحدث اضرارا وتعطل الصيد » • وربما قدم اذا هذا السبب الذى يفسر ابعاد القاتل عن مخيم الجماعة التى تقوم بالصيد ، المفتاح لفهم ما يفرض على القتلة عند الشعوب البدائية من تعليمات محددة • فابعد هؤلاء الناس عن المجتمع ليس بدافع النفور الأخلاقى من جرائمهم ، بل تفرضه الدوافع التحفظية التى تتلخص

ببساطة في الخوف من الشبح الخطير الذي يعتقد في أنه يقتفى أثر القاتل ويطارده .

ومن عادة « الياييم » الذين يسكنون الساحل الشمالي الشرقي من « نيو غينيا » أن يضع أقرباء القاتل علامة بالطباشير على جباه أقرباء القتيل ، وذلك اذا قبل أقرباء القتيل دية الدم بدلا من الأخذ بالثأر . والغرض من هذه العلامة هو « تجنب مضايقات شبح القتيل الذي قد يخطف خنازيرهم أو يخلع أسنانهم ، لأنهم فشلوا في الأخذ بثأرهم » . فأقرباء القتيل هم الذين يعملون وفقا لهذه العادة ، وليس القاتل نفسه ولكن الهدف واحد على أية حال ، اذ من الطبيعي أن يحيل شبح القاتل غضبه الى أقربائه القساة الذين لم يثأروا للدم بالدم . ولكنه في اللحظة التي ينقض عليهم فيها ليخلع أسنانهم أو ليخطف خنازيرهم أو يقوم بأي عمل آخر يضايقهم ، يفاجأ برؤية العلامات البيضاء مرسومة على جباههم السوداء أو البنية اللون . فهذه العلامة اذن هي بمثابة الايصال الذي يثبت أن الدية قد دفعت كاملة ، وهي دليل على أن أقارب القتيل قد قبلوا تعويضا ماليا عن القتيل وان لم يطلبوا تعويضا دمويا . وبهذا القدر اليسير من العزاء يجب على الشبح أن يكون قانعا ، وأن يكفى أسرته أية مضايقات في المستقبل . وربما رسمت العلامة نفسها بوضوح على جبهة القاتل لتثبت أنه دفع المبلغ المطلوب من النقود فورا أو دفع ما يساوي هذا المبلغ فوريا وفقا لما يصطلح عليه محليا ، جزاء فعلته . ومن ثم فان الشبح لا يطالبه بشيء بعد ذلك . فهل كانت علامة قابيل من هذا القبيل ؟ وهل كانت اثباتا على أنه دفع دية الدم ؟ وأنها بمثابة الايصال على أنه قد دفع الدية فورا ؟ ربما كان الأمر كذلك ، ولكنه لا يزال هناك احتمال آخر ينبغي أن يوضع موضع الاعتبار . من الواضح — بناء على النظرية التي أشرت اليها من قبل — أن قابيل لم يكن ليميز بعلامة الا اذا كان قد قتل رجلا من قبيلته أو عشيرته ،حيث ان التعويض لم يكن يدفع لأهل القتيل الا اذا كانوا من قبيلته أو عشيرته . على أن خوف الناس

من شبح القتيل العدو ليس أقل من خوفهم من شبح القتيل الصديق .
وما الوسيلة اذن لتهدئة غضب الشبح العدو ان لم يكن ذلك عن طريق
دفع الدية لأقربائه ؟ . لقد كانت الشعوب تصطنع كثيرا من الوسائل
لحماية المحاربين من أشباح الرجال الذين عجلوا بهم الى الموت .
ويبدو أنه كان من بين وسائل الحيلة أن يتنكر القاتل حتى لا يتعرف
عليه الشبح . ووسيلة أخرى هي أن يحيل شكله الى صورة مفزعة
أو كريهة تنفر الشبح فلا تجعله يتحرش به . وربما فسرت هذه
الوسيلة أو تلك العادات الآتية التي اخترتها من بين عدد هائل من
الأحوال المشابهة لما أشرت اليه .

فقبلة « با — ياك » ، وهي إحدى قبائل « البانتو » التي تسكن في
« ولاية الكونغو الحرة » ، تعتقد أن الرجل الذي قتل في إحدى
المعارك ، يرسل روحه لكي تأخذ بثأره من الرجل الذي قتله . غير أن
القاتل قد يهرب من هذا الانتقام بأن يضع على رأسه ريشا أحمر من
ريش ذيل الببغاء ، وأن يصبغ جبهته باللون الأحمر . ويعتقد
« الثونجاويون » الذين يسكنون جنوب شرق إفريقيا ، أن الرجل الذي
قتل عدو له في معركة معرض لخطر جسيم من قبل شبح ضحيته الذي
يطارده ، وربما أصابه مس من الجنون . ولكي يقي القاتل نفسه شر
شبح القتيل ، يتحتم عليه أن يعيش في عزلة في عاصمة بلاده عدة أيام
لا يذهب في أثناءها الى زوجته ، ويرتدى الملابس القديمة ، ويستعمل
ملاعق وأطباقا خاصة به . وقد كانت من عادة « الثونجاويين » في
الازمنة السالفة ، أن يصنع القاتل فيما بين حاجبيه وشما وأن يضع
دواء في مكان حفر الوشم ، فتبرز أثر ذلك نتوءات تجعله يبدو
كالجاموسة العابسة . « وإذا قتل المحاربون « الباسوتو » (١) أعداء
لهم ، وجب تطهير هؤلاء المحاربين . فيقوم زعيم القبيلة بغسلهم ويقدم

(١) قبيلة من أكبر قبائل « البانتو » في جنوب إفريقيا .
(الترجمة)

ثوراً ضحية في حضرة الجيش كله . كما أن المحاربين يدهنون أجسامهم
بمرارة النور ، الأمر الذي يمنع شبح العدو من تعقبهم بعد ذلك » .
ومن عادة قبائل « البانتو » التي تسكن في إقليم « كافيراندو »
الذي يقع في أفريقيا الشرقية البريطانية ، أن الرجل إذا قتل عدوا له
في معركة ، فإنه يحلق شعره عند عودته الى بيته كما يدلك له أصدقاؤه
جسمه بدواء يتكون من روث البقر ، وذلك لكي يمنعوا روح الميت من
مضايقتة . أما عند قبائل « نيلوتيك » التي تسكن في إقليم « كافيراندو »
كذلك ، « فان المحارب يعزل عن قريته اذا هو قتل شخصا آخر في إحدى
المعارك ، حيث يقيم في كوخ حوالى أربعة أيام . وهناك تطهو له امرأة
عجوز طعامه ، وتطعمه كما يطعم الطفل ، اذ أنه لا يسمح له بأن يلمس
بيده أى نوع من الطعام . وفي اليوم الخامس ، يرافقه رجل ويذهب
معه الى النهر ، فيغسل له جسمه ، ويذبح له نعجة بيضاء ويطهوها
ويطعمه لحمها . أما جلد النعجة فيقطعه الى شرائح تلف حول معصمه
وحول رأسه . ثم يعود القاتل الى منزله المؤقت ، ويبقى فيه تلك الليلة .
وفي اليوم التالى يأخذه الرفيق الى النهر مرة أخرى ، ويغسل له جسمه
ويقدم له دجاجة بيضاء يذبحها القاتل بنفسه ، ويقوم الرفيق بطهيها
له واطعامه لحمها . وعندئذ يعلن طهره ويسمح له أن يعود الى بيته .
وقد يحدث في بعض الأحيان أن يصيب المحارب رجلاً بسهامه في
أحدى المعارك ، فيموت بعد وقت متأثراً بجراحه ، وعند ذاك ، يذهب
أقرباء المصاب بعد أن توافيه منيته ، الى المحارب ويحملون اليه نبأ
وفاة المصاب ، وعندئذ يعزل المحارب في الحال عن مجتمعه حتى يتم
اجراء الطقوس السالف ذكرها . ويقول الناس : ان هذه الطقوس
من الضرورة بمكان ، لأنها تحرر المحارب من شبح قتيله الذي يظل
ملازماً له ، ولا يفارقه الا بعد تأدية هذه الطقوس . فاذا رفض
المحارب أن يؤديها فان الشبح يسأله : « لماذا لم تؤد الطقوس وتتركنى
وشأنى ؟ » فاذا أصر المحارب على عدم الأذعان لمطلب الشبح ، أمسك
الشبح برقبتة وخنقه .

لقد سبق أن رأينا أن القاتل عند قبائل « نيوليتيك » التي تسكن إقليم « كافيريندو » عليه أن يؤدي طقوسا مشابهة لهذه الطقوس من أجل الغرض نفسه ، وهو أن يخلص نفسه من شبح القتل ، فان هو لم يفعل هذا ، ظل شبح القتل يطارده .

وهذا التشابه التام بين الطقوس في هاتين الحالتين ، بالاضافة الى دوافعها التي عبرت عنها القبائل صراحة ، يلقي الضوء على الهدف من طقوس التطهير التي يتحتم على القاتل أن يؤديها ، محاربا كان أم غير محارب مع ويتلخص هذا الهدف ببساطة في تخليص القاتل من شبح قتله حتى يتجنب ما يمكن أن يصيبه الشبح به من أذى . وربما كان الغرض من لف شرائح جلد النعجة حول معصم القاتل ورأسه ، هو اخفاء القاتل عن الشبح . وعلى الرغم من أن النصوص التي نستشهد بها لا تذكر شيئا عن شبح القتل ، يمكننا أن ندعى ، ونحن مطمئنون لسلامة ادعائنا ، أن الغرض من طقوس التطهير التي يؤديها المحاربون ، أو تؤدي لهم ، هو تهدئة الأرواح الغاضبة أو إبعادها عن قتلة أصحابها ، أو خداعها . فمن عادة « النجونيين » الذين يسكنون « افريقيا الوسطى البريطانية » أنه عندما يقترب الجيش المنتصر من القرية الملكية ، يقف عند شاطئ مجرى مائى ، ويطلق المحاربون الذين قتلوا أعداء لهم في المعركة أجسامهم وأذرعهم بالجص . أما المحاربون الذين لم يكونوا هم البادئين بالقتل ، بل كانوا عوناً لآخوانهم في الاجهاز على أعدائهم فيطلقون أذرعهم اليسرى فقط بالجص . وفي هذه الليلة ينام المقاتلون في حظيرة مكشوفة مع القطيع ، ولا يجرعون على الاقتراب من بيوتهم . وفي الصباح الباكر ينزلون النهر ليزيلوا عن أجسامهم الجص . ثم يحضر الطبيب الساحر ويقدم لهم جرعة من الدواء السحري ، ويطلق أجسامهم مرة أخرى بطبقة من الجص . وتتكرر هذه العملية ستة أيام على التوالي حتى يتم تطهيرهم . وعند ذاك تحلق رعوسهم ويسمح لهم بالعودة الى بيوتهم ، بعد التأكد من طهرهم من كل دنس . ومن عادة « الجالا » من سكان « بورانا » أنهم عندما

يعود المحاربون الى القرية ، تقوم النساء بغسل أجسام المنتصرين الذين قتلوا بعض أعدائهم بمزيج من الدهن والزبد ، كما تطلين وجوههم بطلاء أحمر وأبيض • أما المحاربون من « الماساي » فانهم عندما يقتلون بعض الهمجيين في معركة ، يطلون النصف الأيمن من أجسامهم باللون الأحمر والنصف الأيسر باللون الأبيض • وبالمثل يفعل الرجل من قبيلة « ناندي » اذا قتل رجلا من قبيلة أخرى ، فهو يطلى أحد جانبي جسمه باللون الأحمر والجانب الآخر باللون الأبيض ، وهو يعد نجسا مدة أربعة أيام بعد قتله القتل ، لا يسمح له في أثنائها بالعودة الى بيته ، بل يتحتم عليه أن يشيد لنفسه مأوى بجانب النهر ، ويعيش فيه ، ولا يسمح له أن يختلط بزوجه أو بعشيقته ، ولا يأكل الا الثريد ولحم البقر والماعز • وفي مساء اليوم الرابع يتحتم عليه أن يزيل عن نفسه الدنس بتناول شراب قوى مسهل مستخرج من شجرة « السيجيتيت » وبن الماعز المزوج بدم ثور مخصى • واذا قتل رجل من قبيلة « واجوجو » التي تسكن « افريقيا الشرقية » عدوا له في معركة ، فانه يرسم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ، ودائرة سوداء حول عينه اليسرى •

ومن المألوف عند الهنود « الطومسونيين » ان الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن يطلى الرجال الذين يقتلون أعداءهم وجوههم باللون الأسود • فاذا أهملوا هذا الاجراء الاحتياطي ، أصابتهم أرواح القتلى ، ووفقا لاعتقاد هؤلاء الهنود ، بالعمى • وكان الفرد من الهنود « البيماويين » اذا قتل رجلا من أعدائه القدامى وهم « الاباتشيون » ، اتبع على نحو منتظم أسلوبا صارما في العزلة والتطهير يدوم ستة عشر يوما • ولا يسمح له طيلة هذه الفترة أن يمس لحما أو ملحا ، أو أن ينظر الى نار متوهجة ، أو يتحدث مع أى كائن حي • كما كان يقيم وحده في غابة ، حيث تقوم على رعايته امرأة عجوز ، فتحضر له حصته الزهيدة من الطعام • كذلك كان يغطي رأسه معظم الوقت بطبقة من الطين ، ولا يجوز له أن يلمسها بأصابعه •

وقد حدث أن قتلت عصابة من « الهنود التينيبيين » جماعة مستضعفة من الاسكيمو عند نهر « كوبر » ، وعند ذاك عدت نفسها مصابة بالدنس ، وكان على أفرادها بناء على ذلك ، أن يقوموا على أثر ذلك ببعض الالتزامات الغريبة لفترة ليست بالقصيرة ، فهؤلاء الذين قتلوا أعدائهم بأيديهم ، يمنعون كلية من أن يطهوا لأنفسهم أو لغيرهم الطعام . وكذلك لم يكن يسمح لهم أن يشربوا أو يدخلوا الا من وعاء أو غليون يمتلكونه . وكذلك كان يحرم عليهم أكل اللحم المسلوق ، على حين كان يسمح لهم بأكل اللحم النيء أو المشوى على النار أو المجفف في الشمس . وكان عليهم في كل وجبة قبل أن يأكلوا أول لقمة ، أن يطلوا وجوههم باللون الأحمر الوردي فيما بين الأنف والذقن ، وبين الأذنين عبر الخدين .

وكان من عادة « الهنود التشينوكيين » الذين كانوا يسكنون « أوريجون » و « واشنطن » أن يسود القاتل وجهه بالفحم المعجون في الشحم ، ويضع حول رأسه ورسغيه وركبتيه ومعصميه حلقات من لحاء شجر السدر ، وبعد خمسة أيام ، يغسل وجهه ليزيل الطلاء الأسود ويطله مرة أخرى بطلاء أحمر . وفي أثناء هذه الأيام الخمسة لا يسمح له بأن يستغرق في النوم ، بل له أن يرقد للراحة ، كما لا يسمح له بأن ينظر الى طفل أو الى أناس وهم يأكلون . وبعد أن تنتهى طقوس التطهير ، يعلق الحلقات التي كان يضعها حول رأسه على شجرة من المفروض أن تجف نتيجة لذلك فيما بعد .

ويعد قتل الهندي وقتل الحوت عملا رائعا عند الاسكيمو الذين يسكنون « خليج لانجتون » ، فمن يقتل منهم أحد الهنود يوشم من الأنف حتى الأذن ، وأما من يقتل حوتا فيوشم من الفم حتى الأذنين . وكلا البطلين يمسك عن عمل مدة خمسة أيام كما يمتنع لمدة عام عن تناول أطعمة بعينها وبخاصة رأس الحيوان وأمعائه . وعندما تعود جماعة من قبيلة « أرونوتا » التي تسكن وسط استراليا من بعثة انتقامية

يكونون قد أجهزوا فيها على عدو لهم ، فانهم يخشون شبح القتل ،
لأنهم يعتقدون أنه يتعقبهم في هيئة طائر صغير يصيح صياحا حزينا •
ولهذا فانهم يسكتون بضعة أيام بعد عودتهم عن الحديث عن فعلتهم ،
ويطلون كل جزء من جسمهم بمسحوق الفحم ، ويزينون أنوفهم وجباههم
بفروع الشجر الخضراء • وفي نهاية الأمر يطلون أجسامهم ووجوههم
بألوان براقية ، ويحل لهم بعد ذلك أن يتحدثوا في حرية عن فعلتهم •
وع ذلك فهم يستيقظون في هدوء الليل ويصفون الى شكوى الطائر
الذى يتوهونه صوت ضحيتهم •

واذا قتل المحارب عند « الفيجين » عدوا له في المعركة ، تخلع
عليه صفة القدسية ، أى يصبح محرما ، وعند ذاك يطلى الملك جسمه ،
بالكرم من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ثم يبنى له كوخ ليضى فيه
الليالى الثلاث التالية لذلك • ولا يسمح له في هذه الليالى أن ينام
مستلقيا بل ينام جالسا • كما لا يسمح له أن يغير رداءه أو يزيل الكرم
عن جسمه ، أو يدخل بيتا فيه امرأة ، حتى تنتضى الليالى الثلاث •

وهناك عادة « فيجيانية » أخرى تشعر بأن هذه النظم التى
تتبعها قبيلة « فيجى » كان يقصد بها حماية المحارب الفيجيانى من
شبح قتيله ، وان لم تؤكد ذلك • فعندما كان هؤلاء الهمجيون يقومون
بدفن رجل حيا ، كما كانوا يفعلون هذا كثيرا ، كانوا يحدثون ضجيجا
في هدوء الليل ، مستخدمين في ذلك مزامير القصب والطبول المصنوعة
من الأصداغ البحرية ، الى غير ذلك من الوسائل التى تحدث
ضججا ، وذلك بقصد افزع الشبح حتى لا يحاول العودة الى مسكنه
القديم • كما أنهم يجردون هذا المسكن من معاله ويغطونه بكل
ما يمكن تغطيته به ، فيبدو على هذا النحو منفرا للغاية ، فلا يجتذب
شبح صاحبه اليه • وقد تعود هنود أمريكا الشمالية كذلك أن يتجولوا
في القرية وهم يصرخون صرخات مزعجة ويضربون على الأثاث وحيطان
الأكواخ وأسطحها لكي يتردوا شبح العدو الغاضب الذى عذبه حتى

الموت • ولا تزال مثل هذه العادة تتبع في بقاع كثيرة من « غينيا الجديدة » و « الأرخبيل البسماركى » •

وبناء على ذلك فربما كان المقصد من تعليم قابيل بعلامة هو اظهاره للشبح بمظهر كاذب • أو ربما كان الغرض منها اظهاره في صورة منفرة أو مفزعة حتى لا يتعرف عليه شبح القاتل ، أو على الأقل يتجنبه • وقد سبق أن افترضت في مكان آخر ، أن عادات الحداد في العموم ، كانت في الأصل وسيلة للتنكر تصطنع بقصد حماية أقرباء الميت الأحياء من شبحه الذى انفصل عنه حديثا بموته • وسواء كان هذا الافتراض صحيحا أم غير صحيح ، فمن المؤكد أن الأحياء يظهرون في بعض الأحيان بمظهر مخادع حتى يهربوا من مراقبة شبح الميت اياهم • وفى الأحياء الغربية من « تيمور » ، وهى جزيرة كبيرة تقع في « الأرخبيل الهندى » ، تقف زوجات الميت ، قبل أن يوضع زوجهن في اللحد ، وتبكيه ، كما يتحتم أن تقف بجانبهن رفيقاتهن في القرية » وقد أسدل الجميع شعورهن على وجوههن حتى لا يتعرف عليهن « نيتو » الميت ، أى شبحه • وعندما يكون المريض عند « الهيريرو » الذين يسكنون « أفريقيا الجنوبية الغربية » فى ساعة الاحتضار ، فانه فى بعض الأحيان يسأل أحد الذين لا يحبهم ويقول لهم : « متى جئت الى هنا ؟ اننى لا أرغب فى رؤيتك فى هذا المكان ؟ » • وعند ذاك يضغط على أصابع يد الرجل اليسرى بطريقة معينة بحيث يبرز طرف أصبع الابهام من بين أصابعه • وعند ذاك يعرف هذا الرجل أن المحتضر قد قرر أن يأخذه معه بعيدا (أو كوتوايريرا) ، بعد موته ، أى أنه سوف يموت كذلك • على أن مثل هذا الرجل يمكنه ، فى كثير من الأحيان أن يتجنب خطر الموت الذى يهدده به الشخص المحتضر ، وذلك بأن يترك المكان الذى يرقد فيه المريض المحتضر فى سرعة ، ويبحث عن « أو نجانجا » ومعناه « الطبيب الساحر » ، لكى يخلع عنه ملابسـه ويغسل له جسمه ويدهنه ويلبسه ملابس أخرى • وعند ذاك يهدأ خوفه من تهديد الشخص المحتضر اياه بالموت ، ويقول : « الآن لم يعد

شيخنا يعرفنى « (نامبانو تاتى كى ندىى اى) ومن ثم فليس هناك أدنى سبب يجعله يخاف الموت بعد ذلك •

ويمكننا أن نفترض على نحو هذا أن قابيل قد هدا روعه بعد أن علمه الرب بعلامة ، معتقداً بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بها على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض ، ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضاً عفويا حول هذا الموضوع • فإذا كان من حقنا أن نحكم على هذه العلامة مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فإن الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضاء أو سوداء ، وربما مزج بين هذه الألوان ليكون منها لونا مناسباً فعلمه به • وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفييجيانيون » على سبيل المثال ، وربما لونه بلون أبيض كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل « الارونتانيون » ، وربما لون نصف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « الساي » و « النانديون » • وإذا كان الرب قد قصر جهده الفنى على وجه قابيل ، فربما رسم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ودائرة سوداء حول عينه اليسرى على نحو ما يفعل « الواجوجيون » • أو أنه زين وجهه فيما بين الأنف والذقن ، وما بين الفم والأذنين ، بظل خفيف من اللون القرمزى كما يفعل « الهنود التينيهيون » أو ربما غطى رأسه بطبقة من الطين كما يفعل « البيمايون » • أو أنه غطى جسمه كله بروت البقر كما يفعل « الكافرينديون » • أو ربما وشمه فيما بين الأنف والأذنين كما يفعل « الاسكيمو » • أو أنه فعل كما يفعل « الثنجاويون » ، فوشمه فيما بين الحاجبين ، بحيث يبدو كالجاموسة العابسة • وربما استطاع هذا الحداد الأول (كلمة قابيل «قايين» Cain معناها الحداد Smith) أن يتجول فى بقاع الأرض القاحلة ، مزيّنا بهذه الألوان ، دون أن ينتابه أدنى خوف من أن يتعرف عليه شبح أخيه ويتعقبه •

ان تفسير علامة قابيل على هذا النحو من شأنه أن يخلص
القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ، فان تفسير العلامة بأن
الرب علم قابيل بها لكي يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان
آخر ، فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن على وجه الأرض من يقتله ، حيث
ان الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل ووالديه • أما اذا تبينا
التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه المقاتل هو شبح القتل
وليس انسانا حيا ، فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح المائل فى اتهام
الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم كلية مع صفات الرب العالم
بكل شئ • ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى
فى حق الرب •

الفصل الرابع

الطوفان الكبير

١ - مقدمة :

عندما دعاني « مجلس المعهد الملكي للأنثروبولوجيا » لكي ألقى محاضرة « هكسلي » السنوية ، قبلت الدعوة شاكرا • وقد رأيت في ذلك شرفا كبيرا لي ، أن أتصل بشخص أكن له تقديرا عميقا بوصفه مفكرا وإنسانا معا ، كما أتعاطف معه قلبيا في موقفه ازاء مشكلات الحياة الكبرى • ان أعمال هذا الرجل ستظل تحتفظ له بذكرى نضرة • ومن الملائم أن يكون علمنا بمثابة أكليل من الزهر يوضع سنة بعد أخرى على قبر أحد الذين يحظون بأبلغ تقدير لنصرتهم هذا العلم •

وبينما كنت أجيل الفكر في موضوع مناسب للمحاضرة ، تذكرت أن هكسلي في أيامه الأخيرة ، كان قد كرس جزءا كبيرا من وقت فراغه الثمين في فحص التراث الذي يتصل بعصور الحياة الأولى كما هو مدون في سفر التكوين • ومن ثم فقد فكرت في أن أتخذ من هذا التراث موضوعا ملائما لمحاضرتي • وهذا الموضوع هو القصة المألوفة عن الطوفان الكبير • وكان هكسلي نفسه قد ناقش هذه القصة في مقال تثقيفي عام كتبه بكل ما عرف عن أسلوبه من سحر في سلاسته ووضوحه ، وقد كان هدفه أن يبين أن هذه الحكاية التي ينظر إليها بوصفها سجلا لحادثة الطوفان الذي أغرق العالم كله ، وكل ما كان يعمره على وجه التقريب من انسان وحيوان ، تتعارض مع مبادئ الجيولوجيا البسيطة ، ومن ثم ينبغي رفضها ، على أساس أنها أسطورة • على أنني لن أحاول أن أدعم رأيه والنتيجة التي انتهى

اليها ، أو أن أرفضها ، لسبب بسيط هو أنني لست جيولوجيا • كما أنني أرى أن ابداء الرأي حول هذا الموضوع يعد خارجا عن نطاق البحث • ومن ثم فقد تناولت هذه القصة من زاوية أخرى ، أي بوصفها تراثا شعبيا • ومن المعروف منذ زمن طويل أن أساطير الطوفان الكبير الذى هلك فيه كل الناس على وجه التقريب ، تنتشر انتشارا كبيرا فى جميع أنحاء العالم • وبناء على ذلك فقد حاولت أن أجمع الروايات المختلفة لهذه القصة ، وأن أقارن بينها ، لكى أرى ما تسفر عنه هذه المقارنة من نتائج • أى أن دراستى لهذه الروايات ، باختصار ، هى دراسة فى علم الفولكلور المقارن • وهدفى من ذلك هو أن أستكشف نشأة هذه الحكايات ، وأن أثبتن كيفية انتشارها فى جميع أنحاء العالم ، ولم يعنى فى المقام الأول أن أتساءل عن صدقها أو كذبها ، وإن كان لا ينبغى إهمال هذا السؤال عند البحث عن موضوع نشأتها • على أن تحديدنا لهذا الموضوع على هذا النحو ليس بجديد ، فكثيرا ما حاول الباحثون بحث هذا الموضوع من زاوية التراث الشعبى بخاصة فى السنين الأخيرة • وقد استفدت أيضا استفادة • باقتفائى أثر هذه الأبحاث ، من أعمال الذين سبقونى فى هذا المجال ، بخاصة هؤلاء الذين ناقشوا هذا الموضوع بعلم واسع وكفاية ممتازة • وإنى مدين بصفة خاصة للعالم الألمانى الجغرافى والأنثروبولوجى المرموق الدكتور الراحل « ريتشارد أندرى » الذى يعد بحثه فى التراث الشعبى حول قصة الطوفان ، شأنه شأن سائر كتاباته ، نموذجا للدرس الرصين والادراك الحصيف ، بالاضافة الى وضوح وإيجاز بالغين •

وإذا صرفنا النظر عن أهمية هذه الأساطير فى حد ذاتها ، بوصفها سجلا للكارثة التى قضت دفعة واحدة على الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فإنها لا تزال تستحق الدراسة لاحتوائها على سؤال عام يناقشه الأنثروبولوجيون اليوم مناقشة جادة • وهذا السؤال هو : كيف يمكننا أن نفسر وجوه التشابه الكثيرة القوية بين

معتقدات الأجناس المختلفة وعاداتها ، تلك الأجناس التي تسكن في بقاع متفرقة متباعدة من أنحاء العالم ؟ فهل يرجع هذا التشابه الى انتقال المعتقدات والعادات من جنس بشري الى جنس آخر ، اما عن طريق الاتصال المباشر فيما بينهم أو عن طريق الاتصال غير المباشر ؟ أم أن هذه المأثورات والمعتقدات المتشابهة نشأت مستقلة عند كثير من الأجناس ، نتيجة تماثل الفكر البشري في ظروف فكرية مقماثلة ؟ وإذا كان لى أن أبدى رأيا في هذا الموضوع الذى طال الجدل حوله ، فأننى أقول توا ، ان هذا السؤال يبدو لى نوعا من العبث ، اذا ما وضع موضع الجدل بين وجهات النظر الخاصة المتبادلة • فكل التجارب وكل الاحتمالات ، بالمقدر الذى أستطيع أن أحكم به في هذا الموضوع ، تخدم النتيجة التى توصلنا اليها ، وهى أن كلتا الوجهتين قد عملت في قوة وعلى نطاق واسع لايجاد هذا التشابه الملحوظ بين عادات الأجناس البشرية المختلفة وتقاليدها • وبتعبير آخر نقول : ان كثيرا من وجوه التشابه يمكن أن تفسر من خلال عملية الانتقال البسيطة من شعب لآخر ، وما يعترى هذه المأثورات والمعتقدات من تغيير قليل أو كثير في أثناء عملية الانتقال • وكذلك فان كثيرا من وجوه التشابه هذه يمكن أن تفسر بأنها قد نشأت مستقلة نتيجة لتماثل حركة التفكير في العقل البشري ، الذى يعد استجابة لظروف التطور المتماثلة • فاذا كان هذا قد حدث حقا ، وأنا أميل لأن أرى فيه الرأى الوحيد المعقول والمحتمل ، فانه يتبع هذا ، أنه عندما نتعرض لحالة خاصة من التشابه يمكن أن نقف أثرها في عادات الأجناس المختلفة ومعتقداتها ، يكون من العبث أن نلجأ الى المبدأ العام ، سواء في انتشارها أو في نشوئها مستقلة ، اذ أن كل حالة ينبغي أن يحكم عليها في حدودها الخاصة بعد أن تفحص الحقائق فحفا منصفاف ، وبعد أن نرجعها الى هذا الأساس أو الى ذاك ، وربما الى الأساسين معا ، حسبما يميل ميزان الشواهد الى هذا الجانب أو ذاك ، أو يقف فيما بينهما عندما نتوازن كفتاه •

ويؤكد الفحص الدقيق للروايات الخاصة بحكاية الطوفان هذه

النتيجة العامة التى تسلم بمبدأى الانتشار والنشوء المستقل ، بوصفهما مبدأين صحيحين وسليمين ، وذلك فى نطاق حدود معينة • ذلك أنه من المؤكد أن أساطير الطوفان الكبير قد عثر عليها منتشرة بين شعوب مختلفة تعيش فى بقاع نائية على وجه الأرض • ويمكننا أن نستدل — وذلك فى حدود الاستدلال الممكن فى مثل هذه الأمور — على أن التشابه الذى لا يخطئه الباحث بين هذه الروايات ، يرجع من ناحية الى انتقالها المباشر من شعب الى آخر ، ومن ناحية أخرى الى تجارب مشابهة ، وأن تكن مستقلة تماما ، ونعنى بها تجارب الشعوب مع حوادث الفيضانات الكبيرة التى حدثت فى بقاع مختلفة من العالم • ومن ثم فإن دراسة هذه الروايات الشعبية ، بصرف النظر عن النتائج التى تنتهى إليها فيما يتعلق بصدقها التاريخى ، ربما حققت غرضا نافعا ، اذا ما استطاعت أن تخفف من حدة النقاش الذى كان يحتدم حولها فى بعض الأحيان ، وذلك باقناع الجانبين المتطرفين المتعصبين لكلا الأساسين بأن الحقيقة لا تقع كلية فى هذا الجانب أو ذاك ، بل تقع فى مكان ما بينهما •

٢ — حكاية الطوفان الكبير البابلية :

تعد أسطورة الطوفان البابلية ، أو بالأحرى السومرية ، أقدم أساطير الطوفان المدونة فى الأدب • ذلك أننا نعلم أنه على الرغم من قدم الرواية البابلية ، فإنها لا تزال مستمدة من أسلافهم السومريين الذين استمد منهم سكان بابل الساميون ، فيما يبدو ، العناصر الأساسية لحضارتهم •

وقد تعرف الدارسون الغربيون على حكاية الطوفان الكبير البابلية التى عرفتھا العصور القديمة ، حيث ان المؤرخ البابلى الأصل « بيروسوس » الذى كتب عن تاريخ بلاده فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد كان قد دون هذه الحكاية • وقد كان « بيروسوس »

يكتب مؤلفاته باللغة اليونانية • على أن هذه المؤلفات لم تصلنا كاملة ، بل وصلتنا مقتطفات منها حفظها لنا المؤرخون الاغريق المتأخرون • ولحسن الحظ أن هذه المقتطفات تحتوى على حكاية الطوفان البابلية التى تجرى على النحو التالى :

لقد حدث الطوفان فى عهد الملك « اكسيسوثروس » ، الملك العاشر الذى حكم بابل • وقد ظهر الاله « كرونوس » لهذا الملك فى رؤياه ، وحذره من أن طوفانا سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعا ، وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر « دايسيوس » ، وهو الشهر الثامن من السنة المقدونية • ولهذا حثه الاله على أن يكتب تاريخ العالم منذ بداية الخلق ، وأن يدفن ما يكتبه فى « سيار » ، بلد الشمس ، حتى يظل فى مأمن من الطوفان ، كما طلب منه أن يبنى فلكا يأوى اليه هو وأقرباؤه وأصحابه وأن يختزن فيه زادًا من اللحم والشراب ، كما يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع • فاذا ما فرغ من اعداد كل شيء ، كان عليه أن يبحر بفلكه • عند ذاك سأل الملك « اكسيسوثروس » الاله قائلا : « ولكن الى أين أبصر بالفلك ؟ » فأجابه الاله : « الى الآلهة ، ولكن بعد أن تصلى من أجل خير الناس » • فأتاع الملك أمر الاله ، وابتنى فلكا طوله مائة وألف ياردة ، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة • وبعد أن جمع كل ما يحتاج اليه ، اختزنه فى الفلك ، ثم جعل أولاده وأصدقاءه يركبون فيه • وبعد أن أغرق الطوفان الأرض ثم انحسر عنها فور ذلك ، أطلق « اكسيسوثروس » سراح بعض الطيور • ولكن الطيور لم تجد طعاما تأكله أو مكانا تستقر فوقه ، فعادت الى الفلك • وبعد بضعة أيام ، أطلق سراحها مرة أخرى ، فعادت هذه المرة الى الفلك وأرجلها ملوثة بالطين • فلما أطلقها للمرة الثالثة طارت بعيدا ولم تعد الى الفلك • عند ذاك عرف الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض ، فرفع من الفلك بعض ألواح الخشبية ، ونظر من الفتحة فأبصر الشاطئ • عند ذاك سار بالفلك حتى استقر عند جبل ، فنزل منه هو وزوجته وابنته وقائد الدفة ، وسجد للأرض

وابتنى مذبحا • وبعد أن فرغ من تقديم الضحية للآلهة ، اختفى هو ومن معه • فلما رأى الذين كانوا لا يزالون داخل الفلك أن الملك ومن كانوا في رفقته لم يرجعوا اليهم ، نزلوا من الفلك كذلك وأخذوا يبحثون عنهم وينادون الملك باسمه ، ولكنه لم يكن ليرى في أى مكان • غير أنهم سمعوا صوتا يدوى في الهواء ويطلب منهم أن يخشوا الآلهة ، ويكفوا عن البحث عن الملك لأن الآلهة قد اختارته لكي يسكن الى جوارها ، كما شاركته زوجته وابنته وقائد الدفة هذا الشرف • ثم أمرهم الصوت أن يعودوا الى بابل ويستخرجوا الكتابات التى كانوا قد دفنوها هناك ويوزعوها فيما بينهم • وكذلك أخبرهم الصوت أن الأرض التى يقفون عليها هى أرمينيا • وبعد أن سمع ركاب الفلك كل هذا الحديث قدموا الضحية للآلهة ، ورجعوا راجلين الى بابل • أما الفلك الذى استقر عند جبال أرمينيا فلا يزال جزء منه مطروحا على هذه الجبال حتى اليوم ، وما زال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه فى تعاويذهم • أما ركاب الفلك فقد عادوا الى بابل واستخرجوا الكتابات المدفونة فى « سيار » ، وشيدوا مدنا كثيرة ، وأعادوا بناء الأماكن المقدسة وعمروا بابل بنسلهم •

ووفقا لما رواه «نيقولاوس الدمشقى» الذى كان معاصرا وصديقا « لأغسطس » و « وبيروُدس العظيم » ، أن هناك فى « منياس » التى تقع فى أرمينيا جبلا ضخما يسمى جبل « باريِس » ، وهو الجبل الذى أوى اليه كثير من الناس ، كما تذكر حكاية الطوفان البابلية ، هربا من الطوفان ، وبذلك نجوا بحياتهم • وقد قيل كذلك : ان رجلا بعينه كان يبحر فى الفلك حتى رسا عند قمة هذا الجبل • وقد ظل حطام الفلك مطروحا على الجبل زمنا طويلا • وربما كان هذا الرجل هو ذلك الذى ذكره موسى واضع شريعة اليهود • على أن الشك يساورنا فيما اذا كان « نيقولاوس الدمشقى » قد استقى هذه الأخبار من التراث البابلى أو العبرى ، ولكن ذكر نيقولاوس لموسى على كل حال يشير الى أن نيقولاوس كان يعرف حكاية سفر التكوين التى ربما تعلمها فى يسر من رفيقه « هيرودس » •

وقد ظل الباحثون الأوروبيون قرونا طويلة لا يعرفون رواية أخرى للحكاية البابلية عن الطوفان الكبير الا تلك التي احتفظت بها مقتطعات « بيروسوس » التي كتبت باللغة اليونانية . وقد ظلت الحكاية البابلية معروفة على هذا النحو لدى العلماء حتى العصر الحديث ، الى أن اكتشفت طويلة ، فقد حالف انحض المستكشفين الانجليز ، الذين قاموا بعمليات طويلة فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قاموا بعمليات الحفائر في « نينوى » ، تلك الحفائر التي كانت من المعالم الرائعة في القرن التاسع عشر ، والتي بدأت عصرا جديدا لدراسة التاريخ القديم ، في استكشاف بقايا هائلة من مكتبة الملك العظيم « آشوربانيبال » ، الذي حكم من عام ٦٦٨ ق . م . حتى عام ٦٢٦ ق . م . في آخر عصر الامبراطورية الآشورية الزاهر .

وفي خلال تلك الفترة بسط « آشوربانيبال » نفوذه حتى شواطئ النيل ، وزين عاصمته بأبهى العمارات ، وجمع فيها من البلاد النائية والقريبة مجموعة كبيرة من الكتب في التاريخ والعلم واللغة والدين لكي تستنير عقول شعبه . أما كتب الآداب التي استمدت جزءا من مادتها من أصول بابلية ، فقد دونت بنقوش الكتابة المسمارية على ألواح من الطين الطرى ، وكانت تحرق في الافران بعد تدوين الكتابة عليها ثم تودع في مكتبة العاصمة . ويبدو أن المكتبة كانت مرتبة في طبق علوى من القصر الذى حطمه الحريق في حوادث النهب الأخيرة التي تعرضت لها المدينة في آخر أيامها . وكان نتيجة هذا أن تهشمت الألواح . ولا يزال كثير منها مشدوخا قد لفحته حرارة الخرائب المحترقة . وفي العصور المتأخرة نهب جامعو الآثار القديمة الذين كانوا معاصرين لـ « ووسترز ويفل » ، والذين كانوا يبحثون ، لا عن العلم المدفونة ، بل عن كنوز الذهب ، نهبوا ما تبقى من آثار ثمينة في حطام المدينة ، كما نهبها عمالهم الذين اشتركوا معهم في تحطيم السجلات الثمينة وتخسيرها . ثم هطلت الأمطار بعد ذلك فأكملت تحطيم هذه السجلات ، فقد كانت الأرض تمتص أمطار كل ربيع ، فتمتصها السجلات بدورها بما كانت تحتوى عليه من المواد الكيماوية التي كانت تتبلور في شدوخ

الألواح وشقوقها • ومع تراكم هذه المواد المتبلورة تهشمت الألواح التي كانت محطمة من قبل وأصبحت قطعاً متناثرة • ومع ذلك فقد استطاع « جورج سميث » الذي كان يعمل بالمتحف البريطاني ، استطاع بالعمل المضمنى أن يجمع القطع المتناثرة الكثيرة بعضها الى بعض ، ويستعيد شكل ملحمة جلجامش التي ذاع صيتها حتى اليوم ، مكتوبة في اثني عشر نشيدا أو بالأحرى لوحا ، ومحتوية على حكاية الطوفان الكبير في لوحها الحادى عشر • وقد أعلن مستر « سميث » هذا الاكتشاف الهائل في اجتماع « جمعية الآثار الانجيلية » الذي عقد في الثالث من ديسمبر عام ١٨٧٢ م •

لقد كان « سير هنرى رولينسون » بارعا في فرضه أن الأناشيد الاثني عشر في ملحمة جلجامش تشير الى الاثني عشرة علامة التي تميز الدائرة الفلكية ، بحيث أن مجرى الملحمة يسير وفق دورة الشمس في أثناء شهور السنة • وتتأكد هذه النظرية الى حد ما بالمكان الذي يشار اليه في أسطورة الطوفان في النشيد الحادى عشر • وهذا النشيد مخصص للاله « رومان » اله العواصف ، واسمه يعنى فيما يقال « شهر المطر الملعون »^(١) ، لأن الشهر الحادى عشر من السنة البابلية يتفق مع دورة موسم الأمطار • وكيفما كاه هذا الرأى ، فان حكاية الطوفان على ما هي عليه : تعد حادثة فرعية أو استطرادا يفتقر الى الرابط العضوى بسائر أجزاء الملحمة • وتجري هذه الحكاية على النحو التالي •••••

نقد جلجامش ، بطل الملحمة المسماة باسمه ، صديقه أنجيدو عندما توفى وحزن لفقده حتى أسلمه الحزن الى المرض • ثم قرر أسفا لما حدث لصديقه وشغوبا بمعرفة ما سيحدث له في المستقبل ، أن يبحث عن جده « أوتنابشتيم » ابن « أوبارا — توتو » الذي يسكن في مكان

(١) رمان : معناه في اللغتين البابلية والآشورية اله الرعد ، والكلمة هي التي تقابلها في العربية « رنان » وفي ديانات الساميين الغربيين ، الكنعانيين خاصة صار اسمه رمون أو بعل رمون • (وهذا المعنى يبدو واضحا في تلخيص المؤلف للمحمة جلجامش هذه ، ص ٥٢) •

بعيد ، ليسأله كيف يمكن للانسان الفانى أن يكون خالدا ، اذ كان يعرف
يقينا أن « أوتنابشتيم » على علم بهذا السر ، حيث أن الآلهة قد رفعتة
الى مصافها وجعلته يسكن بعيدا فى مكان ما متمتعا بنعمة الخلود . وكان
على جلجامش أن يتجشم التيام برحلة مضية خطيرة حتى يصل اليه ،
فمر بالجبل الذى يحرسه رجل وامرأة ، فى شكل ثعبان ، كما اخترق
طريقا مظلما مفرعا لم تطأه قدم انسان فان من قبل . ثم عبر بحرا
متراعى الأطراة ، كما عبر بحر الموت عن طريق جسر ضيق . وفى النهاية
وجد نفسه فى حضرة « أوتنابشتيم » . ولكنه عندما طرح عليه سؤاله
عن كيفية حصول الانسان على الخلود ، كانت اجابة جده الكبير
عن سؤاله غير مرضية ، فلقد أخبره هذا الانسان الحكيم أن الانسان
لم يقدر له الخلود . ولما تعجب جلجامش من هذه الاجابة التى صدرت
عن شخص كان هو نفسه انسانا فانيا ثم أصبح خالدا فيما بعد ، كان من
الطبيعى لجلجامش أن يطلب من جده الجليل أن يشرح له كيف استطاع
هو نفسه أن يهرب من النهاية المحتمة لكل انسان . ولكى يجيب
« أوتنابشتيم » عن ذلك ، أخذ يقص على جلجامش قصة الطوفان
الكبير التى تجرى على النحو التالى :

تحدث « أوتنابشتيم » الى جلجامش وقال : « سأكشف لك
ياجلجامش عن كل كلمة خبيثة ، وسأفشى لك غرض الآلهة من وراء
منحها اياى الخلود : فأنت تعرف مدينة « شوريياك » ، تلك المدينة
القديمة التى تقع على شاطئ الفرات . لقد حثت الآلهة التى كانت
تسكن تلك المدينة ، كبار الآلهة على أن يرسلوا طوفانا الى الأرض .
وقد كان مجمع الآلهة يضم « آنو » أبا الآلهة ، « وانليل » مستشارهم
الحربى ، « ونينيب » رسولهم ، « وأنوجى » أميرهم ، كما كان يجلس
معهم كذلك رب الحكمة « ايا » الذى ردد نداءهم الى كوخ البوص
قائلا : « أيها الكوخ المصنوع من البوص . . أيها الكوخ المصنوع من
البوص . . ويا أيها الحائط . يا أيها الحائط استمع الى واصغ الى أيها
الحائط . ويا رجل «شوريياك» ، ابن « أوبارا - توتو » . أهدم بيتك

وابتن سفينة ، واهجر ممتلكاتك ، واستمع لندائى انقاذا لحياتك • • فقد
استقر رأى الآلهة على أن تنقذ حياتك • فانج بنفسك وخذمك في
السفينة كل نوع من أنواع الحبوب • أما عن السفينة التى
ستبنيها ، فينبغى أن تبنى بدققة محكمة ، بحيث يكون
طولها وعرضها متناسقين ، لأنك ستبحر بها في عرض المحيط • عند ذاك
انتبهت الى الهى « ايا » وفقت له : ان الأمر يا الهى الذى أمرتنى به
سأحترمه وأنقذه ، ولكن ماذا أقول للناس ولشيوخ قومي؟ ففتح « ايا »
فاه وتحدث الى أنا العبد وقال : « اذا سالك قومك عن هذا الأمر فقل
لهم : ان « انليل » يكرهنى ، ولذلك لن أبقي بينكم بعد اليوم ، ولن
أدع رأسى يستقر على أرض « انليل » ، بل يتحتم على بعد اليوم أن
أغوص في قاع البحر وأسكن هناك مع الهى « ايا » • وأطاع
« أوتياشتيم » أوامر الإله « ايا » وأخذ يجمع الأخشاب وكل ما يحتاج اليه
لبناء السفينة • وفي اليوم الخامس صنع هيكل السفينة في شكل سفينة
بضائع وبنى في وسطها مسكنا بلغ ارتفاعه مائة وعشرين ذراعا ، وقسمه
الى ستة طوابق ، في كل طابق تسع حجرات ، ثم ربط بالسفينة مصارف
للمياه وطلاها من الخارج بالقطران ومن الداخل بالقار • ثم أمر باحضار
الزيت وذبح الثيران والخراف وملاؤ الدنان بنبيد السمسم وزيته ونبيد
العنب • ثم أخذ الناس يشربون النبيذ كما لو كانوا يشربون من نهر •
وأقام وليمة شبيهة بوليمة العام الجديد • وبعد أن جهز السفينة بكل
شئ ، ملأها بكل ما لديه من ذهب وفضة ، وكل ما لديه من حبوب • ثم
أدخل فيها أفراد أسرته وخدمه وكل ما معه من قطعان الماشية والوحوش
وأصحاب الحرف • وأخذ « أوتياشتيم » ينتظر الوقت المحدد الذى عينه اله
الشمس « شمس » عندما قال لأوتياشتيم : ان اله الظلام سيرسل الى
الأرض مطرا غزيرا ، فاذا جان هذا الوقت ، فأدخل سفينتك وأوصد
بابها • وأخذ الوقت المحدد يقترب ، وفي المساء أرسل اله الظلام
المطر الغزير • ولما هبت العاصفة عرفت أن البداية قد حانت ،
ولكننى كنت خائفا من أن أنظر الى العاصفة • وعند ذاك دخلت
الى السفينة وأوصدت بابها ، وسلمت القصر (العائم) بكل ما فيه الى

ربان لسفينة وبحارها « بوزور أمورى » • وعندما بزغ الفجر ظهرت في الأفق سحابة سوداء يدوى في وسطها صوت الاله « رمان » وأمامه يسير الالهان « موجاتى » و « لוחال » • وكان الثلاثة يمشون كالملائكة فوق الجبال والأرض • ومزق « اراجال » سارية السفينة • ثم جاء « نينيب » وفجر العاصفة كما حمل « أنوناكى » • شعلات النار الملتهبة ، فأضاء الأرض ببريقها • ثم صعدت زوبعة « رمان » الى السماء وتحولت الأنواء جميعا الى ظلام • • لقد ظلت العاصفة تهب نهارا كاملا ، وارتفعت المياه حتى وصلت الى قمم الجبال ، « ولم يعد الرجل يبصر أهله » ولم يعد الرجال يعرف بعضهم بعضا • وانتساب الفزع الآلهة وهى تقابعة فى سمائها ، فتراجعت وصعدت الى السماء « آنو » ، وربضت كما تربض الكلاب ، وجثمت الى جانب الحيطان . وصرخت « عشتروت » صراخ المرأة التى جاءها المخاض ، وأخذت ملكة الآلهة تعمل بصوتها الجميل وتقول : اللعنة على ذلك اليوم الذى أمرت فيه مجتمع الآلهة أن يحل الشر بالشر • • ولكنى حين أمرت بدمارهم ، أردت أن يتم هذا عن طريق القتال • فأين هذا الذى قد أمرت به ؟ انهم يملأون البحر ببيض السمك » • وبكى آلهة « أنوناكى » معها ، وخرجوا ساجدين وهم يكون وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض وأخذت الريح تهب ستة أيام وست ليال ، وأغرق الطوفان الأرض وشملتها العاصفة • وعند اقتراب اليوم السابع ، أخذت تهدأ العاصفة والزوبعة والطوفان . بعد أن كانت تحارب جميعا محاربة الجيش لأعدائه • ثم سكن البحر وهبطت مياهه كما خمدت الزوبعة والفيضان تماما • ونظرت الى البحر : فاذا هو ساكن واذا بالناس قد تحولوا الى كتل من الطين • وأبصرت المستنقعات أمامى وقد استقرت مكان الحقول • فلما فتحت نافذة السفينة ، سقط النور على وجنتى ، فخررت ساجدا وبكيت حتى انساب الدموع على خدى ، ونظرت الى العالم فاذا كل شئ قد تحول الى بحر • وبعد مرور اثنى عشر يوما برزت جزيرة وسط المياه ، فأبحرت بالسفينة فى اتجاه أرض « نيسير » ، والتصقت السفينة بجبل « نيسير » ولم تنزلق • ومضى اليوم الأول والثانى والسفينة ملتصقة بالجبل • ومضى

اليوم الثالث والرابع والسفينة لا تزال ملتصقة بالجبل ، ثم مر اليوم الخامس والسادس وكان الجبل لا يزال ممسكا بالسفينة • وفي اليوم السابع أطلقت حمامة من السفينة • وأخذت الحمامة تطير هنا وهناك • ولما لم تجد مكانا تستقر عليه عادت الى السفينة • فأطلقت من بعدها طائر السنونو فطار هنا وهناك ولم يجد كذلك مكانا يستقر عليه وعاد الى السفينة • ثم أطلقت غرابا في المرة الثالثة • وأبصر الغراب أن المياه قد انحسرت عن الأرض ، فغاص في الطين وأخذ ينبش بمنقاره ويأكل ، ونفق ولم يعد • عند ذاك أطلقت الطيور جميعا لتطير في الجهات الأربع ، وقدمت الضحية للآلة على قمة الجبل وسكنت عليها الخمر •

وفي اليوم السابع أعددت أوعية الطهى وأشعلت تحتها الغاب وخشب السدر والرند • واشتتمت الآلهة الرائحة الطيبة ، فاجتمعت حولها كالذباب واشتركت في تقديم الضحية • واقتربت ملكة الآلهة ، ورفعت الجواهر العظيمة التي كان « آنو » قد صنعها لها وفقا لرغبتها ، وقالت : « أيتها الآلهة ، كما أننى لن أنسى حلى اللازورد التي ارتديها حول عنقى ، فأننى سوف أذكر هذه الأيام بحق ولن أنساها أبدا • فدعوا الآلهة تحضر لتقدم الضحية ، ولكن « انليل » لن يشترك معها ، لأنه لم يشارك الآلهة الرأى في أمر الطوفان وأرسله الى الأرض فتسبب في دمار شعبى » • فلما اقترب انليل من الآلهة وقال : « من ذا الذى نجا بحياته ؟ اننى لن أسمح لانسان أن يعيش بعد هذا الدمار » • عند ذاك فتح « نينيب » فمه وقال للمحارب « انليل » : ومن ذا الذى يمكنه أن يفعل هذا خلاف الاله « ايا » ؟ ان « ايا » هو الذى له علم بكل الأمور » • ففتح « ايا » فمه وقال للمحارب « انليل » : انك أيها المحارب رئيس الآلهة ، ولذكك لم تستشر الآلهة في موضوع الطوفان • وأرسلته الى الأرض من تلقاء نفسك • وكان ينبغى أن يلقي الآثم جزاء إثمه والمذنب جزاء ذنبه • فلتعمل الآن ما يحول دون القضاء على الجنس لبشرى بأجمعه ، ولتكف عن احلال اللعنة بكل شئ • لقد كان في وسعك أن ترسل الى الأرض أسدا بدلا من الطوفان فيلتهم الناس •

وكان من الممكن أن ترسل اليهم نمرا أرقط فيفترسهم جميعا . وكان من الممكن أن ترسل إلى الأرض مجاعة فلا تتركها إلا خرابا ، أو ترسل إليها اله الوباء فيقضى على الجنس البشرى . على اننى بعد كل هذا لم أكتشف بنفسى ما تنوى فعله ، بل جعلت « أتراكهاسيس » « أترخاسيس » يرى رؤيا ، فاستمع فى رؤياه الى ما تنوى الآلهة فعله . واستقر رأى « انليل » إثر هذا الحديث على قرار ، فصعد الى ظهر السفينة وأخذ بيدي ، وأحضرنى أنا وزوجتى وجعلها تركد الى جانبى . .

ثم اتجه الينا ووقف بيننا وباركنا (قائلا) : « ان أوتنابشتيم » كان يعد أنساك حتى هذه اللحظة ، أما الآن فقد أصبح « أوتنابشتيم » وزوجته شبيهين بالآلهة ، حتى بنا نحن . والآن دعوه يسكن هو وزوجته بعيدا عند منبع الأنهار » . وعند ذاك أخذت الآلهة بيدي وسارت بى بعيدا عند منبع الأنهار ، وتركتنى أعيش هنا فى هذا المكان .

هذه هى قصة الطوفان التى تدخل فى نسيج ملحمة جلجامش . ولعله يتضح لكل دارس ، أن هذه القصة لم تكن لها فى الأصل صلة بالملحمة . وقد احتفظ نوح مكسور بجزء من رواية أخرى لهذه القصة . وقد عثر على هذا اللوح مع سائر ألواح ملحمة جلجامش بين أنقاض مكتبة « آشوربانيبال » فى « نينوى » . وهذا اللوح يحتوى على جزء من الحديث الذى قيل انه دار بين الاله « أيا » ونوح البابلى قبل أن يحدث الطوفان . ونوح البابلى هنا يدعى « أترخاسيس » وهو اسم أطلق عليه فى الملحمة ، لأنه فى غير هذا المكان من الملحمة لا يسمى « أترخاسيس » ، بل « أوتنابشتيم » . ويقال : ان « أترخاسيس » هو الاسم البابلى الأصلى .

وقد ورد نص « بيروسوس » عن أسطورة الطوفان تحت اسم « اكسيسوثروس » . وقد أمر الاله « ايا » فى الرواية الثانية التى احتفظ بها كذاك لوح مكسور تلك التى أشرنا إليها وشيكا ، أمر

« أتراكها سيس » قائلا : أدخل السفينة وأغلق بابها دونك ، وخذ معك غذاءك وبضاعتك وممتلكاتك (وزوجتك) وأسرتك وعمالك وقطيعك ووحوش حقلك ، بقدر ما تأخذ من صنوف الحيوان آكلة العشب » . وعند ذاك رد البطل على الاله بأنه لم يسبق له أن ابنتى سفينة ، وتوسل اليه أن يرسم له على الأرض خطة السفينة لكي يستعين بها عند بنائها .

وبناء على ذلك فان الروايات البابلية لأسطورة الطوفان ترجع فقط الى عصر « آشور بانيبال » أى أنها ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد . ويمكننا أن نتصور أن هذه الروايات ترجع الى رواية أصلية أكثر قدما من الرواية العبرية ومنقولة عنها . وعلى كل فان الشواهد القاطعة للأثار القديمة الهائلة لأسطورة الطوفان البابلية تؤيدها الكتابات المدونة على لوح مهشم اكتشف في مدينة « أبو حبة » التي تقع الآن مكان مدينة « سيبار » القديمة ، وذلك في أثناء عمليات الحفر التي قامت بها الحكومة التركية . ويحتوى هذا اللوح على رواية مشوهة كل التشويه ، ومدون عليها تاريخ كتابتها على وجه التحديد . فهناك في نهاية الخطوط كامات أو حاشية تذكر أن اللوح قد كتب في الثامن من شهر « شباطو » (وهو الشهر الحادى عشر من السنة البابلية) في السنة الحادية عشرة من حكم الملك « عمى صادوقا » أى حوالى عام ١٩٦٦ ق . م . ولسوء الحظ أن هذا اللوح عبارة عن كسر كثيرة متفرقة لا يستطيع الباحث أن يستخلص منها سوى مادة ضئيلة . ولكن اسم « أترخاسيس » يرد في ثناياها ، بالإضافة الى اشارات الى المطر الغزير وكذلك الى السفينة فيما يبدو ، ودخول الأفراد الذين أنقذوا فيها .

بل هناك رواية أخرى لأسطورة الطوفان قديمة كل القدم ، اكتشفت في « نيبور » في أثناء عمليات الحفر التي قامت بها جامعة بنسلفانيا . وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق . وقو رأى الأستاذ ه . و . « هيلبرخت » . مرتكزا على أسلوب كتابة

هذه الرواية ، وعلى المكان الذى عثر عليها فيه ، أن هذه الرواية لم تدون بعد سنة ٢١٠٠ ق . م . وقد ورد فى هذه الرواية أن الآله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشرى فى الحال ، وحذر من هذا الطوفان شخصا بعينه ، فطلب منه أن يبتنى سفينة كبيرة ذات سقف قوى لينجو فيها بحبائه ، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء .

هذه الروايات المختلفة عن قصة الطوفان قد دونت باللغة السامية، البابلية والآشورية . لكن هناك رواية أخرى مكتوبة باللغة السومرية . وهذه الرواية مكونة من مقتطعات متفرقة عثر عليها علماء الآثار الأمريكيون فى « نيبور » ، وقد فكت رموزها أخيرا . ومعنى هذا أن هذه الرواية قد دونت بلغة غير سامية كان يتكلم بها الشعب الذى يبدو أنه كان يعيش فى بابل قبل الساميين ، وأسس فى وادى الفرات الأدنى ذاك النظام الحضارى المرموق الذى نسميه عادة بالحضارة البابلية . وقد كانت مدينة « نيبور » التى عثر فيها على هذه الرواية أكبر مدينة مقدسة ، وربما أكبر مركز دينى فى بابل . كما كان « انليل » اله المدينة ، رئيس مجمع الآلهة « البانشيون » البابلى . ويبدو من طابع الكتابة التى كتبت بها الأسطورة المدونة على هذا اللوح أنها كتبت فيما يقرب من عصر الملك الشهير « حمورابى » ملك بابل ، أى أنها دونت فى حوالى سنة ٢١٠٠ ق . م . على أنه من المؤكد أن الحكاية نفسها ترجع الى عصر أقدم من ذلك . ذلك أنه فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى كتب فيه هذا اللوح ، لم يكن هناك وجود للسومريين بوصفهم عنصرا مستقلا ، اذ كانوا قد ذابوا فى الشعب السامى . كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغة ميتة ، وذلك على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة المحفوظة فى ثنايا الآداب . ويعيدون كتابتها . من ثم فإن اكتشاف رواية قصة الطوفان السومرية يدعو الى افتراض أن الأسطورة نفسها يرجع تاريخها الى زمن سابق

على احتلال الساميين لوادي الفرات ، هؤلاء الساميون الذين أخذوا هذه الأسطورة فيما يبدو ، بعد هجرتهم الى وادي الفرات ، عن السومريين الذين سكنوا بابل قبلهم • ومن الطريف أن نلاحظ أن الرواية السومرية لقصة لطوفان تكون تكملة لحكاية عن خلق الانسان عثر عليها ، لسوء الحظ ، في شكل مقتطعات متفرقة • ووفقا لهذه الحكاية خلقت الآلهة الانسان قبل الحيوان • ومن ثم فان الحكاية السومرية تتفق مع الحكاية العبرية في سفر التكوين ، من حيث أن كليهما تعالج موضوع خلق الانسان وحادثة الطوفان بوصفهما حادثتين حدثتا في فجر تاريخ الحياة ، وترتبط احدهما بالآخرى كل الارتباط وأكثر من هذا فان القصة السومرية تتفق مع المصدر اليهودي • وتعارض المصدر الكهنوتي في الوقت نفسه ، من ناحية أن الاله خلق الانسان أولا قبل خلقه صنوف الحيوان •

وعلى الرغم من أن الباحثين لم يعثروا الا على النصف السفلى من اللوح الذي نقشت عليه قصة الخلق السومرية ، فان هذا القدر يكفي مع ذلك لأن يمدنا بالخطوط الأساسية لقصة الطوفان • ففي هذا الجزء نقرأ أن « زيو جيدو » أو بالأحرى « زيود سودو » كان ذات يوم ملكا كاهنا لاله « انكى » ، وهو الاله السومري الذي يوازي الاله « ايا » السامي • وقد كان هذا الملك الكاهن ينشغل كل يوم بخدمة الاله ، ويكب على خدمته في خشوع ، ويطيل النظر الى المكان المقدس • ولكي يكافئه الاله « انكى » على ورعه ، فقد أخبره بأنه قد تقرر في مجمع الآلهة ، بناء على طلب الاله « انليل » ، أن ترسل الآلهة الى الأرض عاصفة ممطرة تقضى على أصل الجنس البشري • وقبل أن يتلقى الكاهن هذا التحذير في حينه ، طلب منه صديقه الاله أن يقف بجانب حائط وقال له : « قف عند الحائط الذي يقع على جانبي الأيسر وعند هذا الحائط سأسر اليك بكلماتي » • ومن الواضح أن هذه الكلمات تتصل بالعبارة الغربية في الرواية السامية ، وهي تلك العبارة التي بدأ بها الاله « ايا » تحذيره الى « أوتنابشتيم » وقال له : « أيها الكوخ

المصنوع من البوص ، أيها الكوخ المصنوع من البوص ، ويا أيها الحائط • استمع الى أيها الكوخ وأنصت الى أيها الحائط » •

وكلتا العبارتين تشير الى أن الاله الطيب الذى لم يشأ أن يفشى قرار الآلهة للانسان الفانى بطريق مباشر اصطنع حيلة افشاء السر الى حائط البوص الذى كان على « زيود سودو » أن يقف بادية الأمر عند جانبه الآخر • وبذلك علم الانسان الطيب بالسر الخطير عن طريق استراق السمع . فى حين استطاع الاله أن يدعى فيما بعد أنه لم يفش القرار الذى اتخذته الآلهة فى مجتمعها • وتذكرنا هذه الحيلة بالحكاية المشهورة التى تحكى أن خادم الملك « ميداش » اكتشف أن لسيده أذنين كأذنى الدمار • ولما لم يستطع أن يكتم هذا السر فى نفسه ، فقد أسر به الى جحر فى الأرض ، ثم غطى الجحر بالتراب • وفى الحال نما حوض من نبات البوص فوق الجحر ثم هبت الرياح فأذاع حفيف البوص عيب الملك على الملأ • وقد فقد شطر اللوح الذى كان من المحتمل أنه يصف بناء السفينة ولجوء « زيود سودو » اليها • ومن ثم فنحن نتتبع فجأة من موضوع تحذير الاله للانسان الى موضوع الطوفان ويصف المخطوط العاصفة والأمطار وقد ثارت جميعا • ثم تستمر الرواية بعد ذلك فتقول : « وبعد أن هبت العاصفة الممطرة على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ، وبعد أن حمل الريح العاصف السفينة على المياه المضطربة ، ظهر اله الشمس وهو يسكب الضوء على السماء والأرض » • وعندما اخترقت أشعة الشمس وقدم ثورا وشاة ضحية له • ثم يلى ذلك فجوة فى المخطوط ، وبعدها نقراً أن الملك « زيود سدو » خسر ساجدا للالهين « آنو » و « انليل » • ويبدو أن غضب الاله انليل من الجنس البشرى قد هدأ بعد ذلك ، لأنه يقول موجهاً حديثه الى « زيودسودو » « لقد سنحتة حياة كحياة الآلهة ، و خلقت له روحاً خالداً كروح الآلهة • وهذا يعنى أن بطل أسطورة الطوفان ، أى نوحا السومرى قد وهب الخلود ، ان لم يكن قد اكتسب هبة الألوهية • ثم خلعت عليه الآلهة بعد ذلك لقب « الشخص الذى حافظ على سلالة

الجنس البشرى » ، كما جعلته يسكن جبلا يبدو أنه جبل « ديلمون »
ذلك أن اسم الجبل غير واضح على وجه التأكيد • أما نهاية الأسطورة
فمفقودة •

وهكذا نرى أن قصة الطوفان السومرية تتفق في ملامحها
الأساسية مع قصة الطوفان التي تحتوى عليها ملحمة جلجامش ، تلك
القصة التي تتميز عن أختها السومرية بطولها البالغ وكثرة حوادثها •
ففى كلتا القصتين قرر اله كبير (« انليل » أو « بل ») أن يهلك الجنس
البشرى عن طريق اغراق الأرض بالأمطار • وفى كليهما حذر اله آخر
(هو « انكى » أو « ايا ») رجلا من حدوث الكارثة ، وقد أنقذ هذا
الرجل الذى قبل النصيح بأن لجأ الى السفينة التي أمره الاله ببنائها •
وفى كلتا الحكايتين بلغ الفيضان ذروته فى اليوم السابع • وفى كليهما
قدم الانسان ضحية للالهة بعد أن انتهى الطوفان • ثم رفعت الهة الآلهة
بعد ذلك الى مصافها •

أما الاختلاف الجوهرى الوحيد بين الروايتين فيتمثل فى اسم
البطل فيهما • فهو فى الرواية السومرية يدعى « زيود سودو » • وفى
الرواية السامية يدعى « أوتابشتيم » أو « أثر خاسيس » • والاسم
السومرى « زيود سودو » يشبه اسم « اكسوثروس » وهم الاسم
الذى أطلقه « بيروسوس » على البطل الذى أنقذ فى حادثة الطوفان •
فاذا كان الاسمان متشابهين حقا ، فإن هذا يجعلنا نعجب لاختلاف
المؤرخين البابليين فى اقتناء أقدم الآثار المدونة •

ان اكتشاف هذا اللوح ذى الأهمية البالغة بما يحتوى عليه من
قصتين مترابطتين هما قصة الطوفان وقصة الخلق ، يجعل الاحتمال
كبيرا فى أن القصص الذى يحتوى عليه سفر التكوين عن فجر تاريخ
الحياة ، لم ينشأ أصلا عند الساميين ، بل استمدت الساميون من الذين
سبقوهم فى الحضارة ، هؤلاء الذين وجدتهم الجماعات السامية النازحة
من الجزيرة العربية مستحوذين على أرض الفرات الأدنى الغنية والذين

تعلمت منهم — سلالة هؤلاء البدو البدائيين — تدريجيا طرز الحضارة وتقاليدها على النحو الذي اكتسب به برابرة الشمال مظاهر الحضارة بعدما استقروا في الامبراطورية الرومانية .

٣ — قصة الطوفان الكبير العبرية .

يجمع نقاد العهد القديم على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هي مدونة في سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين في أصلهما ومتناقضتين تناقضا جزئيا . وقد مزج المؤلف بين القصتين لكي يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل . ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينها بطريقة فجأة للغاية ، بحيث لا يفوت القارئ ما فيهما من تكرار وتناقض ، حتى وإن كان القارئ غير مدقق في قراءته . . .

واحدى روايتي الأسطورة اللتين جمع بينهما المؤلف بطريقة مصطنعة هي مستقاة مما يطلق عليه نقاد العهد القديم المصدر الكهنوتي Priestly Document أو القانون ، (ويشار اليه عادة بالحرف P أما الرواية الثانية فمستقاة مما يطلقون عليه المصدر اليهودي Iohovistic Document) (ويشار اليه في العادة بالحرف J) نسبة للاسم المقدس «يهوه» وكلا المصدرين يختلفان عن الآخر اختلافا بينا في أسلوبه وطبيعته كما أنهما ينتميان الى عصور مختلفة ، فبينما يعد المصدر اليهودي هو الأقدم ، كما يرجح ذلك النقاد ، فإن المصدر الكهنوتي يؤخذ على أنه أحدث المصادر الأربعة الرئيسية التي جمع بينها لتكون أسفار العهد القديم الستة الأولى . ويعتقد الباحثون أن المصدر اليهودي قد كتب في أرض الميعاد في العصور الأولى من الحكم العبري : أي أنه كتب في القرن الثامن أو التاسع على وجه الاحتمال .

أما المصدر الكهنوتي ، فيرجع تاريخه الى ما بعد عام ٥٨٦ ق.م عندما استولى « يختصر » ملك بابل على اورشليم وأخذ اليهود أسرى معه الى بابل . فكلا المصدرين تاريخي في شكله ، ولكن بينما نجد

مؤلف المصدر اليهودي يهتم اهتماما حقيقيا بشخصية الرجال والنساء الذين يصفهم ، كما يهتم بمغامراتهم ، فان كاتب المصدر الكهنوتي يهتم بهم في حدود استخدامهم وسيلة لخدمة فكرة « العناية الالهية » التي يقصد بها تزويد بنى اسرائيل بمعرفة الهية ، وبنظم اجتماعية ودينية ، شاء بها الرب أن ينظم شعبه المختار حياته عن طريقها . فالتاريخ الذي كتبه مؤلف هذا المصدر تاريخ مقدس وكهنوتي أكثر منه دنيوى ومونى ، ذلك أنه يهتم بإسرائيل بوصفها أمة دينية لا بوصفها دولة . ومن ثم فإنه بينما يسهب الى حد كبير في وصف حياة شيوخ بنى اسرائيل وأنبيائهم الذين اختارهم الرب ليظهر لهم ، نجده يمر مر الكرام على أجيال كاملة من البشر العاديين الذين لا يذكر أسماءهم الا عابرا ، كما كانوا مجرد حلقات تربط عصرا دينيا بعصر دينى آخر ، أو مجرد خيط تنظم فيه على مسافات متباعدة ، جواهر الوحي الرائعة . وموقفه من الماضى تفسره كل التفسير أحداث العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان عصر بنى اسرائيل الذهبى قد ولى كما انتهى عصر استقلالها وانتهت مع ذلك آمالها في البهاء والرخاء الدنيوى . أما أحلام الامبراطور المزدهرة ، تلك التى علقت بقلوب الناس بتأثير ذكرى حكمى داود وسليمان ، التى ربما عاشت مع الناس فترة من الزمن حتى بعد اضمحلال حكم الملوك كأنها سحب الصباح ، فسرعان ما تلاشت مع سحب المساء في حياة أمة ، بتأثير واقع الحكم الأجنبى الكئيب . ولما كانت كل الطرق التى تؤدى الى الطموح الدنيوى الخالص قد سدت دون الشعب الاسرائيلى ، فقد وجدت مثالية المزاج الوطنى التى لا تخمد متفحشا لها في اتجاه آخر ، كما اتخذت أحلامها شكلا آخر . فإذا كانت أبواب الأرض قد أغلقت دون آمال هذا الشعب ، فان أبواب السماء كانت لا تزال مفتوحة . ومن ثم فقد نصب الاسرائيلى الحالم سلما وراء السحب لكى يهبط عليه حشد من الملائكة يرعون روحه الهائم ويواسونه ، على نحو ما فعل يعقوب عند « بيت ايل » ، والأعداء من قدامه ومن ورائه . باختصار فإن قادة بنى اسرائيل كانوا يبحثون عن سلوى وتعويض لأمنهم في مقابل المذلة التى كانت تعانيها في حياتها

الدنيوية ، وذلك عن طريق رفعها الى درجة عالية من الروحانية . ولكي يحقق القادة هذا الغرض فانهم وضعوا ، أو بالأحرى — أحكموا وضع نظام من الطقوس الدينية يستهدف احتكار الرحمة الالهية الاستثنائية بها ، وبذلك تصبح « صهيون »^(١) المدينة المقدسة — مركزا لمملكة الرب في الأرض وموئل بهجتها .

وبهذا الطموح وتلك الأهداف أخذ نفوذ رجال الدين يتزايد في الحياة اليومية كما أصبحت اهتمامات الحياة تتجه نحو بيوت العبادة . وأصبح تأثيرها السائد روحانيا ، فقد حل الكاهن الأكبر محل الملك ، بل أن هذا الكاهن كان يرث من سالفه الأردية الأرجوانية والتاج الذهبي . وأصبحت الثورة ، التي استبدلت بعدد من الحكام المدنيين في أورشليم عدد من الأحرار ، شبيهة بثورة روما في العصور الوسطى التي حولتها من نظام القياصرة الى نظام حكم البابوات .

هذه الحركة الفكرية ، وهذا التيار من الطموح الديني ، اللذان انتجها بعنف وجهة كهنوتية ، انعكسا ، أو بالأحرى تبلورا ، في المصدر الكهنوتي ، فقد انعكست الأبعاد الأخلاقية والفكرية لهذه الحركة فيما ماثل هذا من أبعاد أخلاقية وفكرية لدى الكاتب . فهو لم يهتم الا بالجانب الشكلي للدين . وهو لا يستشعر المتعة الحقيقية، الا عندما يتعرض لتفاصيل الطقوس والاحتفالات وتفصيل الأثاث والملابس الدينية . أما الجانب العميق من الدين ، فهو بالنسبة اليه كتاب مغلق ، اذ قلما ينظر الى الجوانب الأخلاقية والروحية لهذا الدين ، كما أنه لا يسبر على الاطلاق أغوار مشكلات الخلود وأصل الشر . تلك المشكلات التي أثارت النفوس المتسائلة عنها في جميع القصور . فقد كان الكهنوتي — باستغراقه في تفاصيل الطقوس التافهة ، وعدم اكتراثه بانشئون الدنيوية الخالصة ، وولعه بالتقويم والأنساب والتواريخ والأرقام ، أو اهتمامه على الجملة بالهيكل العظمى للتاريخ أكثر من

(١) بيت المقدس .

(المترجمة)

اهتمامه بدم هذا التاريخ ولحمه - كان أشبه بأحد الرهبان المؤرخين في العصور الوسطى ، الذين كانوا ينظرون الى الحياة العريضة من خلال كوة صومعة الدير ، أو من خلال زجاج نافذة الكاتدرائية ذي الألوان المتعددة . ولقوا ضاق أفق تفكير المؤرخ الكهنوتى ، كما تلونت نظيرته للأحداث وفقا للوسيلة التى كان ينظر من خلالها إليها . فقد صور مباهج المعبد المتنقلة فى القفار ، تلك المباهج التى كانت تغيب عن كل العيون سوى عينه هو ، صورها كما لو كانت تلوح لخياله الدافئ من خلال الأضواء الأرجوانية التى يعكسها شبك ذو زجاج وردى ، أو من خلال الألواح الزجاجية الرائعة لمشربية تتماوج منها الأضواء . بل انه لم يكن يرى العمليات الطبيعية البطيئة أو الكوارث المفاجئة ، تلك التى شكلت مادة الكون أو غيرتها ، لم يكن يرى فيها أكثر من كونها امارات ومعجزات من الرب يعلن بها عن ظهور حقبة جديدة من حياة الشرائع الدينية . وكذلك لم تكن عملية الخلق بالنسبة اليه سوى تمهيد كبير ليوم الراحة والعبادة عند اليهود وهو يوم السبت ، كما أن قبو السماء المتلألئ بالأضواء الساطعة لم يكن سوى طبق مستدير رائع مقسم الى درجات ، تتحرك عليه أصابع الرب الى الأبد لتشير الى مواسم الأعياد الصحيحة المثبتة فى التقويم الدينى . وأما الطوفان الذى قضى على الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلم يكن سوى مناسبة خلقها الرب النادم ليقيم عهدا بينه وبين الأحياء البؤساء الذين نجو من الطوفان . كما لم يكن قوس قزح الذى يستطيع باشعاعاته المتلونة بين السحب المعتمة سوى الخاتم الالهى المذيل لهذا العهد ضمانا لأصالته وصفته الملزمة .

ولأن المؤرخ الكهنوتى كان محاميا بقدر ما كان كاهنا ، فقد بذل جهدا مضنيا لاثبات أن علاقات المحبة بين الرب وشعبه ترتكز على أسس شرعية صارمة ، حيث انها قد وثقت بمجموعة من العهود التى قبلها الطرفان بكل ما تتطلبه من التزامات . وهو لا يكون فى أحسن حالاته الا عندما يعرض لهذه العهود ، وهو كذلك لا يكل على الإطلاق

من ذكر مجموعات صكوك التملك الاسرائيلية الطويلة • ولا يجد هذا الرجل الاثرى الجاف ، والطقوسى الجامد مجالا يسترخى فيه استرخاء معقول من صرامته المألوفة ، ولا يجد مجالا يسلك فيه مسلكا خاليا من التوتر والتحفظ ، الا عندما يسهب في موضوعات العهود ووثائق التملك الملائمة لمزاجه • ومن المسلم به أن تحفة قصصه التاريخى هى حكاية مفاوضة ابراهيم الأرملة مع أبناء الحيثيين لكى يحصل على قبو عائلى يدفن فيه زوجته • ولم تخفف الطبيعة المحزنة لهذا العمل من حيوية القاص الحرفية ، كما أن الصورة التى صور فيها هذه القصة تجمع بين لمسات لا تنقصه البراعة ، والدقة البالغة لكاتب حجج متمرن • ولا يزال المنظر الكلى لتلك الحقبة البعيدة من الزمن يمر بحذافيره أمام أعيننا ، وكما يمكن أن تشاهد اليوم فى الشرق عندما يتطاحن شيخان عربيان من أصل طيب فى براعة حول عمل من الأعمال ، وهما يراعيان مراعاة دقيقة الشكليات الرسمية ، وآداب الدبلوماسية الشرقية •

ولكن مثل هذه الصور نادرة بحق فى معرض صور هذا الفنان ، فهو قلما يحاول وصف المناظر الطبيعية ، كما أن صور أشخاصه غير متقنة وتنقصها مشخصاتها الفردية والحياة والألوان • وفيما يتصل بصويره لموسى الذى خصه بأكبر قدر من عناية ، فإن صورة هذا القائد الكبير لا تفوق صورة التمثال الأصم الا فى قليل ، كما أن وظيفته تقتصر على توزيع اللباس وغطاء الرأس الكهنوتين •

على أن الصور التى وصلتنا من زمن حكم الشيوخ عن طريق مؤلف المصدر اليهودى تختلف عن تلك التى وصلتنا عن مؤلف المصدر الكهنوتى كل الاختلاف ، فليس هناك ما يميزها فى الأدب ، أو يقف معها على قدم المساواة ، فى صفاء شكلها واشراق لمساتها ورققتها ودفع ألوانها • وإن أقل لمسات من ريشة فنانها ، لتحدث أجمل تأثير • ذلك أن كل لمسة منها انما تصدر عن أستاذ فى فنه يعرف بالغريزة على وجه التحديد ما يدعه وما يبقيه ، فبينما يبدو لنا أنه يركز كل التركيز فى مقدم الصورة حول الشخص الانسانية التى تبرز من الصورة وهى

تنبض بالصدق : اذا به في الوقت نفسه يحتال على الأمر ليبرز الطبيعة من خلف هذه الشخصيات بقليل من الرشاقة الفنية ولمسات تكاد لاتحس، وذلك لكي ينجز صورة منسجمة تعلق بذاكرتنا الى الأبد . فمنظر يعقوب وراحيل عند البئر ، على سبيل المثال ، وقد استلقى حول البئر قطيع الخراف في حرارة الظهيرة القائظة ، هو منظر ينبض بالحياة من خلال ألفاظ الكاتب كما تنبض صورة رفائيل من خلال ألوانه .

والى جانب اختبار الكاتب بعناية لما يستحق التصوير من صور الحياة الانسانية ، يضيف على أوصافه للرب براءة جذابة وطابع البساطة القديمة . ذلك أنه يحملنا الى الزمن القديم الذي لم يكن يعتقد فيه الانسان بأن هناك هوة شاسعة تفصله عن الرب . ففي صفحاته تقرأ كيف أن الرب شكل الانسان الأول من الطين كما يشكل صبي صورة لطفل من قطعة الطين ، وكيف أنه مشى الى الجنة في المساء الرطب ، وصاح بالأبوين اللذين كانا قد مלאهما الخزي من فعلتيهما ، واختفيا وراء الأشجار ، وكيف صنع لهما ملابس من الجلد لكي يخفيا بها عورتها بدلا من أوراق التين الهزيلة ، وكيف أنه أغلق باب السفينة بعد أن دخلها نوح ، وكيف أنه اشتتم رائحة الضحية المشوية ، وكيف أنه هبط من السماء لينظر الى برج بابل ، لأنه ، فيما يبدو ، لم يكن يتمكن من رؤيته من على . وكيف أنه تحدث الى ابراهيم عند باب خيمته في الحر القائظ وفي ظل شجرة السندباد الهامسة ، وباختصار فان عمل هذا الكاتب الممتع كله يفيض بنفحات شاعرية تمتزج بشيء من عبير الزمن القديم ونضرتة ، مما أكسب عليه سحرا خالدا يفوق كل وصف .

وتتميز العناصر التفصيلية التي تتألف منها قصة الطوفان في سفر التكوين ، والتي أسهم في كتابتها كلا الكاتبين : اليهودي والكنهوتي — يتميز بعضها عن بعض من حيث اللفظ والمادة . فاذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية فان أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب في كلا المصدرين ، فهو في المصدر اليهودي « يهوه » وهو في المصدر الكهنوتي

« الوهيم » ، وكلا الاسمين نقلتها « الترجمة الانجليزية المعتمدة » على التوالي الى كلمتي « السيد » و « الرب » . والمترجمون الانجليز في استبدالهم كلمة « سيد » بكلمة « يهوه » ، انما يفعلون فعل اليهود الذين يستبدلون — عندما يقرعون كتابهم المقدس بصوت عال — بكلمة « يهوه » كلمة « أدوناي » أو « السيد » ، أينما صادفهم اسم « يهوه » مكتوبا في النص . ومن ثم يمكن للقارئ الانجليزى أن يدعى ، كقاعدة عامة ، أنه ما دامت كلمة « السيد » يقصد بها الرب في « الرواية الانجليزية » ، فإن الكلمة البديلة لها في النص العبرى المطبوع هي « يهوه » . أما الكاتب الكهنوتى فانه يتجنب في قصة الطوفان وفي خلال سفر التكوين استخدام اسم « يهوه » ويستبدل به اسم « الوهيم » ، وهو الاسم المألوف للرب عند العبريين . والسبب الذى دفع الكاتب الكهنوتى الى هذا هو أن اسم « يهوه » وفقا لرأيه ، هو الاسم الذى أوحى به الرب لموسى لأول مرة . ومعنى هذا أن الرب لم يكن يسمى في العصور الأولى السابقة على عهد موسى . أما الكاتب اليهودى فلا يتبنى من ناحية أخرى مثل هذا الرأى فيما يتصل بكون الرب قد أوحى الى موسى باسم « يهوه » ، ومن ثم فهو يسمى الرب بهذا الاسم في رواياته ، منذ بدء الخليقة دون أن يساوره شك في هذا الاسم . وإلى جانب هذا الاختلاف اللفظى الجوهري بين المصدرين ، هناك اختلافات لفظية أخرى لا تبدو واضحة في « الترجمة الانجليزية المعتمدة » . فهناك مجموعة من الألفاظ تستخدم في المصدر اليهودى للدلالة على الذكر والأنثى^(١) ، ومجموعة أخرى تخالفها تماما تستخدم في المصدر الكهنوتى في نفس الدلالة . كما أن الكلمات التى تنقلها « الترجمة الانجليزية

(١) في المصدر اليهودى يكثر قوله « الشخص وزوجه » (مثلا : التكوين ٢/٧) وفي المصدر الكهنوتى يقول في مكان ذلك « الذكر والأنثى » (مثلا : التكوين ١٩/٦ ، ٩/٧ ، ١٦) .

المعتمدة» الى كلمة « يخرب » (١) مختلفة في كلا المصدرين ، وبالمثل الألفاظ التي تنقلها الترجمة الانجليزية الى « يموت » (٢) و « جف » .

على أن الاختلافات المادية بين الحكايات اليهودية والكهنوتية لا تزال تلفت النظر الى أكثر من ذلك . وحيث ان هذه الاختلافات تصل في بعض الحالات الى حد التناقض القاطع ، فان اثبات أن هذه الحكايات مستمدة من مصدرين منفصلين يصل الى حد اليقين . فالحكاية اليهودية عن الطوفان تميز بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، وبينما أخذ نوح معه في الفلك سبعا من كل صنف من صنوف الحيوان الطاهر ، لم يأخذ معه سوى زوج من صنف الحيوان النجس . أما الكاتب الكهنوتي فلم يميز ، من الجهة الأخرى بين صنوف الحيوان على هذا النحو ، بل جعلها تدخل الفلك وهي على قدم المساواة مع بعضها البعض . وان كان قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف . والسبب في هذا الاختلاف البين ، هو أن الكاتب الكهنوتي لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان وما هو نجس ، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة ، ومن ثم فان نوحا لم يكن يعرفها . أما الكاتب الذي لم يتعب نفسه بالتفكير في هذا الموضوع ، فقد ادعى أن التفرقة بين صنوف الحيوان على أساس الطهارة والنجاسة كانت معروفة لدى الجنس البشرى منذ العصور الأولى ، كما لو كانت هذه التفرقة ترتكز على أساس طبيعي واضح كل الوضوح بحيث لا يخطئها أحد .

ثم ان هناك اختلافا جوهريا آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة

(١) في المصدر اليهودي « محا » (التكوين ٧/٦ ، ٤/٧ ، ٢٣) وفي المصدر الكهنوتي « دمر » (التكوين ١٣/٦ ، ١٧ ، ١١/٩ ، ١٥) .
(٢) الفعل مات يترجمه العرب عن العبرية بهذا اللفظ وهو من المصدر ليهوى . أما ما يقوله فريزر أن معناه جف فهو من المصدر الكهنوتي ، ويترجمه عادة بالفعل « هلك » .

الفيضان ، فقد ظلت الأمطار تهطل في قصة الكاتب اليهودي مدة أربعين يوما وأربعين ليلة ، ثم ظل نوح في فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته . ووفقا لهذا الحساب فإن الفيضان يكون قد دام واحدا وستين يوما . أما في الحكاية الكهنوتية ، فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة وخمسين يوما ، وبعدها أخذت المياه في الانخفاض . أما مدة الطوفان في العموم فقد استغرقت اثني عشر شهرا وعشرة أيام . وحيث أن الشهور العبرية كانت شهورا قمرية فإن الاثنى عشر شهرا تقدر بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما . وإذا أضفنا إلى هذا الرقم عشرة أيام أخرى فإن المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة ، أي ثلاثمائة وأربعة وستين يوما . وحيث أن الكاتب قد حسب مدة الفيضان بما يساوي سنة شمسية ، فإنه يمكننا أن ندعي ونجن مطمئنون ، أن هذا الكاتب قد عاش في الزمن الذي استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ في التقويم القمري عن طريق مراقبتهم للشمس .

ومرة أخرى يختلف الكاتبان في مصدر الفيضان ، فبينما يعزوه الكاتب اليهودي إلى الأمطار ، يعزوه الكاتب الكهنوتي إلى تدفق المياه الباطنية إلى جانب سقوط الأمطار الغزيرة .

وأخيرا فإن الكاتب اليهودي يحكى عن بناء نوح للهيكل وتقديمه الضحية للرب شكرا له على انقاذه من الطوفان ، في حين أن الكاتب الكهنوتي لا يذكر شيئا عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية . وسبب هذا بدون شك هو أنه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون اللاوي الذي انشغل به الكاتب الكهنوتي . كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادي مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل ، كما يعد تعديا كبيرا على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتي لحظة في أن ينسبه إلى الشيخ المبجل .

وبناء على ذلك فإن الموازنة بين الحكايات اليهودية والكهنوتية تؤكد

بصورة واضحة النتيجة التي توصل اليها النقاد وهي أنهما كانا في الأصل مستقلين، وأن الحكايات اليهودية تعد أقدم بحق من الحكايات الكهنوتية . على أنه من الواضح أن الكاتب اليهودي كان يجهل قانون المكان المقدس الواحد الذي يحرم تقديم الضحية في أى مكان غير أورشليم . ولما كان هذا القانون قد أعلنه الملك « يوشيا » لأول مرة ، ونفذه عام ٦٢١ ق.م . فانه يترتب على هذا أن المصدر اليهودي قد ألف قبل هذا التاريخ بزمان يحتمل أن يكون طويلا . وهذا السبب نفسه يؤكد أن المصدر الكهنوتي قد ألف بعد هذا التاريخ بزمان ليس بالقصير فيما يبدو ، حيث أن الكاتب يعترف ضمنا بقانون المكان المقدس الواحد ، حينما رفض أن ينسب الى نوح عملا يخالفه . ويترتب على هذا أنه بينما يكشف الكاتب اليهودي عن لون بعينه من البساطة القديمة ، حيث أرجع بكل بساطة النظم الدينية في عصره وطبيعة هذا العصر الى عصور الحياة الأولى ، فان الكاتب الكهنوتي يكشف عن انعكاسات عصر متأخر حددت فيه نظرية في التطور الديني طبقها الكاتب الكهنوتي على التاريخ تطبيقا دقيقا .

وربما كانت المقارنة السطحية بين حكايتي الطوفان العبرية والبابلية كافية لأن تؤكد لنا أن كلتا الحكايتين لم تنشأ في أصل مستقلين ، بل من المؤكد أن احدهما اعتمدت على الأخرى ، أو أنهما استمدا معا من أصل واحد . وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتى تشمل التفاصيل الجزئية ، بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا الى محض الصدفة . ففي كلتا الحكايتين قررت القوى الالهية أن تقضى على الجنس البشرى بأن ترسل الى الأرض طوفانا عظيما . وفي كلتيهما أفشى الاله هذا السر الى رجل قبل اغراق الأرض بالطوفان . وقد أرشد الاله هذا الرجل الى بناء فناء كبير لكي يأوى اليه فينقذ نفسه وينقذ معه صنف !!كائنات الحية جميعا . ومن المحتمل أنه ليس من قبيل الصدفة أن يكن البطل الذي أنقذ من الطوفان في الحكاية البابلية — وفقا لرواية « بيروسوس » — هو ملك بابل العاشر ، وأن يكون نوح في

الحكاية العبرية هو الرجل العاشر في نسل آدم • وفي كلتا الحكايتين
ابتنى الرجل المختار ، بعد تحذير الاله اياه ، سفينة ضخمة مكونة من
عدة طوابق ، وطلاها بالقار والقطران حتى لا تتسرب اليها المياه ،
وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف • وفي كليهما هطلت الأمطار
الغزيرة ، فتجمع الطوفان بمقدار كبير ودام أياما يختلف عددها قلة أو
كثرة • وفي كاتيهما غرق الجنس البشرى جميعه فيما عدا البطل
وأسرته • وفي كليتهما أرسل الرجل الذي أنقذ ، طائرين غرابا وحمامة
ليرى عن طريقهما ما اذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت عن الأرض •
وفي كليتهما عادت الحمامة الى السفينة لأنها لم تجد مكانا تستقر
فيه ، أما الغراب فلم يعد في كلتا الحكايتين ، وفي كليهما رست السفينة
على جبل • وفي كليتهما اشتهت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسكن
غضبها •

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية في
مجموعهما • فإذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات ، فإننا نجد أن
الحكاية البابلية أقرب الى الحكاية اليهودية منها الى الحكاية الكهنوتية •
فكل من الرواية اليهودية والبابلية تعطى أهمية للعدد سبعة •

فقد حذر نوح ، في الرواية اليهودية ، من حدوث الطوفان سبعة
أيام على التوالي • كما أخذ معه في السفينة سبعا من كل صنف من
صنوف الحيوانات الطاهرة • ثم ان المسافة الزمنية بين اطلاقه طائرا
وآخر كانت سبعة أيام • وبالمثل دام الطوفان في الرواية البابلية حتى
بلغ قمته سبعة أيام • كما أن البطل فيها وضع مجموعات من أوعية التضحية
فوق الجبل ، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية • وتؤكد كل من
الروايتين البابلية واليهودية أن باب السفينة أوصد بعد أن دخلها الرجل
وأسرته وصنوف الحيوانات التي اختارها •

وفي كليتها صورت الحادثة المثيرة ، حادثة ارسال الحمامة ثم
الغراب من السفينة • كما أن الضحية قدمت في كلتا الحالتين ، وقد اشتهت

الآلهة فيهما رائحة الشواء وسكن غضبها • على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية في سفر التكوين تقترب من الحكاية البابلية في بعض التفاصيل المحددة ، أكثر من اقتراب الرواية اليهودية • ففي كل من الروايتين الكهنوتية والبابلية أصدرت الآلهة تعليمات محددة إلى البطل لبناء السفينة • وبناء على هذه التعليمات ، بنيت السفينتان في كل من الروايتين من عدة طوابق وقسم كل طابق إلى عدة حجرات كما أنها طليت في كل منها بالقار أو القطران ، ورست كل منهما على جبل ، واستقبل البطلان بركة الإله عند خروجهما •

فإذا كانت الحكايتان العبرية والبابلية عن الطوفان تتشابهان إلى هذا الحد ، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه ؟ أن الرواية البابلية لا يمكن تكون مستمدة من الرواية العبرية ، حيث أن الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثني عشر قرناً • وفضلاً على ذلك ، « فإن الحكاية العبرية في جوهرها • كما لاحظ « تسيمرن » ، تقضى بأن يكون البلد المشار إليه قابلاً لحدوث الفيضانات مثل بابل ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن الحكاية « نشأت أصلاً في بابل ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فلسطين » • ولكن إذا كان العبريون قد أخذوا حكاية الطوفان الكبير عن البابليين ، فمتى وكيف تم ذلك ؟ • أننا لا نملك أدنى قدر من المعلومات عن هذا الموضوع ، ومن ثم فإن الإجابة عن هذا السؤال لا يكون إلا عن طريق التخمين • وقد افترض بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية في فترة أسرهم في بابل ، وبناء على ذلك لا يرجع تاريخ الرواية العبرية إلى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد • وقد تكون وجهة النظر هذه سليمة لو أن الرواية العبرية كانت متمثلة في الأثر الكهنوتي المنقح وحده • ذلك أن الاحتمال يؤيد ، كما رأينا ، أن المصدر الكهنوتي قد أُلِفَ في أثناء الأسر أو بعده •

ومن المحتمل كل الاحتمال أن كتاب هذا المصدر قد تعرفوا على التراث البابلي ، إما عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة ، وذلك

في أثناء أسرهم أو ربما بعد عودتهم الى فلسطين . ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التي مهد لها الغزو البابلي لفلسطين ، ربما أدت على نحو ما الى انتشار الأدب البابلي في فلسطين . كما أدى السبب إلى انتشار الأدب اليهودي في بابل . وبناء على وجهة النظر هذه فإن بعض التفاصيل التي تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهودية ، وتتفق فيها مع الرواية البابلية ، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية . وهذه التفاصيل تتعلق ببناء السفينة وطلاتها بالمقار أو القطران الذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل . على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا في الأسر بزمان طويل ، وقرب حكايتهم في شكلها من الحكاية البابلية ، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهودية في سفر التكوين التي يمكن أن ترجع الى القرن التاسع قبل الميلاد والتي لا يمكن أن تتأخر بحال من الاحوال عن القرن الثامن .

فاذا افترضنا أن العبريين في فلسطين كانوا يعرفون أسطورة الطوفان البابلية منذ زمن مبكر ، فانه ما زال علينا أن نتساءل ، كيف ومتى عرف العبريون هذه الأسطورة ؟ لقد سبق للباحثين أن قدموا اجابتين على هذا السؤال : الاجابة الأولى هي أن العبريين ربما نقلوا هذه الحكاية معهم عندما هاجروا من بابل الى فلسطين قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألفي عام . وأما الاجابة الثانية فهي أن العبريين فيما رأى البعض ، ربما أخذوا الحكاية بعد أن استقروا في فلسطين ، عن الكنعانيين ، سكان البلاد الأصليين الذين ربما عرفوها بدورهم عن طريق الأدب البابلي في حوالى الألف الثانى قبل الميلاد . على أننا لا نستطيع أن نقرر في الوقت الراهن أى الرايين هو الصواب ، هذا اذا افترضنا أن أحدهما يحتمل الصحة .

وقت . مع الخيال اليهودي في العصور المتأخرة بحكاية الطوفان فأضاف اليها تفاصيل جديدة تميل في الغالب الى المغالاة ، وذلك فيما يبدو ، بقصد اشباع شغف العبريين في عصر انحطاطهم ، أو مداعبة

مزاجهم في هذا العصر ، ذلك المزاج الذي لم يكن يقتنع ببسطة بحكايات
سفر التكوين النبيلة .

ومن بين هذه الزخارف الرخيصة أو الاضافات الغربية التي
أضيفت الى الأسطورة القديمة ، تصوير الناس وهم يعيشون في دعة
قبل أن يحدث الطوفان ، فقد كانوا يجنون من زراعة واحدة محصولا
يكفى حاجاتهم طيلة أربعين عاما . كما كانوا بفنونهم السحرية ،
يسخرون الشمس والقمر لخدمتهم . ولم تكن الأجنة تمكث في بطون
أمهاتها سوى بضعة أيام بدلا من تسعة شهور . وبمجرد أن يواد
الأطفال يكونون قادرين على الكلام والسير على الأقدام ، بل أنهم
يتحدون الشياطين ويستهزئون بهم .

ولقد كانت هذه الحياة السهلة المرفهة هي السبب فيما وصل اليه
الناس من ضلالة ، كما كانت دافعا لهم الى ارتكاب الآثام ، وبخاصة
المفسق والسلب ، الأمر الذي أثار غضب الرب وجعله يقرر أن يقضى
على العاصين بأن يغرقهم في الطوفان . ومع ذلك فقد أمهلهم الرب عندما
أمر نوحا بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق ، وهددهم بأن الرب
سيغرقهم في الطوفان جزاء جورهم . وقد أخذ نوح يعظهم طيلة مائة
وعشرين عاما ، بل ان الرب منحهم مهلة أسبوع آخر في نهاية هذه
المدة . وفي هذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صباح من
المغرب ، وتغرب في المساء في المشرق . ولكن هذا كله لم يحرك هؤلاء
العاصين للرجوع الى التوبة ، بل انهم على العكس أخذوا يسخرون من
نوح الورع ويستهزئون عندما أبصروه بينى الفلك ، وكان نوح قد تعلم
بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه الملاك «رزائيل» الى آدم ،
وكان يحتوى بين ثناياه على العلم الدينى والدنيوى جميعا . وقد كان
هذا الكتاب من الياقوت الأزرق وقد وضعه نوح في صندوق ذهبى
أحكم اغلاقه وأخذه معه في الفلك ، فقام مقام الساعة في التمييز بين
الليل والنهار في أثناء فترة الفيضان التى لم تكن تسطع فيها الشمس
أو يبرز فيها القمر . أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكورة

التي هطلت من السماء بالمياه الأثوية التي تدفقت من الأرض • قد تدفقت مياه السماء من تجاؤيف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركها مكانهما تجويفا • وعندما شاء الرب بعد ذلك أن يسكت الأمطار الهاطلة من السماء ، عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب • وهذا هو السبب في أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالباً بأولاده ، ولكنه لن يحصل عليهم الى الأبد •

وبعد أن أعد نوح الفلك ، بدأ يجمع اليه صنوف الحيوان • وجاءت الحيوانات جماعات في أعداد كبيرة للغاية ، الى درجة أن نوحا لم يستطيع أن يدخلها جميعا في الفلك ، وكان عليه أن يجلس عند بابه ليختار بعضها ، فأدخل في الفلك الحيوانات التي كانت تجلس عند الباب ، وأبعد تلك التي كانت واقفة • وحتى بعد أن نفذ نوح هذا المبدأ من الاختيار الطبيعي بصرامة ، كان عدد أنواع الزواحف التي دخلت الفلك لا يقل عن ثلاثمائة وخمس وستين صنفا ، كما بلغ عدد أنواع الطيور اثنين وثلاثين نوعا • ولم يحص نوح عدد أنواع الحيوانات الثديية ، أو أن الكاتب على الأقل لم يدون عددها • ولكن الكثير منها كان ينتشر بين ركاب الفلك كما سنرى وشيكا • وقبل أن يحدث الطوفان كان عدد الحيوانات النجسة يفوق عدد الحيوانات الطاهرة ، ولكن هذه النسبة انعكست بعد حدوث الطوفان ، إذ أن نوحا أدخل في الفلك سبعة أزواج من كل نوع من أنواع الحيوانات الطاهرة ، في حين أدخل زوجين اثنين فقط من الحيوانات النجسة • وكان هناك حيوان ضخم هو الريم لم يجد له مكانا في الفلك لضخامته • ولهذا فقد قيده نوح بحبل طويل ربطه في الفلك ، وأخذ الحيوان يخب من ورائها • وبالمثل كان المارد « عوج » ملك « باشان » من الضخامة بحيث لم يجد مكانا في الفلك ، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ • أما عن الناس الذين كانوا مع نوح في الفلك فهم زوجته « نعمة » ابنة « أنوش » وأولاده الثلاثة وزوجاتهم •

وهناك أيضا زوج غريب وجد له مكانا في الفلك وهو النفاق والخيبة • وقد جاء النفاق وحده أول الأمر ووقف عند باب الفلك ، ولكن

نوحا منعه من الدخول لأنه لم يكن يسمح بالدخول سوى للمتزوجين .
فانصرف النفاق وتقابل مع الخيبة فأقنعها أن يكون زوجها لها ويرحل
معهما إلى الفلك ، وبذلك قبلا معا بالسفينة . فلما اجتمع هؤلاء جميعا
داخل السفينة ، وبدأ الطوفان يغمر الأرض ، اجتمع العصاة من حول
الفلك في حشد بلغ عدده ما يقرب من سبعمائة ألف شخص ، وأخذوا
يتضرعون ويتوسلون لكي يقبلوا في الفلك . فلما رفض نوح في صرامة
أن يقبلهم ، اندفعوا نحو باب الفلك كما لو كانوا يريدون تحطيمه .
ولكن الحيوانات المتوحشة التي كانت مكلفة بحماية الفلك هاجمتهم
وابتلعت بعضهم . أما الوحوش التي هربت فقد غرقت في الطوفان
الذي أخذ يعلو تدريجيا . وأخذت السفينة تطفو على الماء طيلة عام
كامل وهي تترنح وتتخبط وسط الأمواج المتراكمة ، وكل ما فيها يتأرجح
بداخلها ، كما يتقلب العدس داخل الوعاء . ثم أخذت الأسود تزار
والثيران تخور والذئاب تعوى وسائر صنفوف الحيوانات تصرخ
بأصواتها ، كل حسب طبيعة صوته . على أن مشكلة المشاكل التي كان
على نوح أن يواجهها في الفلك هي مشكلة توزيع المؤن . وقد حكى
« سام » ولد نوح بعد ذلك بزمن إلى « اليعازر » خادم إبراهيم عن
المشقة التي كان نوح يعانيها في سبيل الطعام لجيش الوحوش داخل
الفلك ، فقد كان المسكين يصعد ويهبط داخل الفلك ، عدة مرات في
الليل والنهار ، إذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهارا ، وحيوان الليل
ليلا . كما كان يقدم الطعام للمارد « عوج » من خلال ثقب في سقف
السفينة . وعلى الرغم من أن الأسد كان هادئا نسبيا ، إذ كان يعاني
طوال الوقت من آلام الحمى ، فإنه كان فظا للغاية ، وعلى استعداد لأن
يزار لأقل إثارة . وذات مرة لم يقسم له نوح الغذاء الكافي ، فضربه
الحيوان النبيل بكفه ضربة عنيفة أصابته بالعرج سائر أيام حياته ،
فأصبح بعد ذلك غير قادر على أن يقوم بعمله بوصفه كاهنا . وفي اليوم
العاشر من شهر تموز أطلق نوح الغراب ليستطلع الأمر ويقدم
له تقريرا عن الطوفان . ولكن الغراب وجد جسما يطفو على الماء فأسرع
وراءه ليلتهمه . ونسى أن يعود إلى نوح ليقدم له التقرير . فأطلق نوح

بعد ذلك بأسبوع الحمامه ثلاث مرات • وفي المرة الثالثة عادت وعلى منقارها ورقة من شجرة الزيتون كانت قد انتزعتها من فوق جبل الزيتون في أورشليم ، ذلك أن الطوفان لم يكن قد أغرق المدينة المقدسة • وبعد أن خرج نوح من الفلك بكى عند رؤية المساحات الشاسعة التي كان الطوفان قد أغرقها • ثم قدم « سام » للرب قربان الشكر لنجاتهم من الطوفان ، ذلك أن نوحا لم يتمكن من القيام بهذا الواجب الديني ، إذ كان لا يزال يعاني من أثر ضربة الأسد •

وقد ذكرت رواية أخرى متأخرة لحكاية الطوفان بعض التفاصيل المثيرة الخاصة بنظام الفلك الداخلي ونظام توزيع الركاب ، فقد سكنت القطعان والوحوش جوف السفينة ، كما سكنت الطيور الدور الأوسط منها ، وخص نوح سطح المنزهة في السفينة له ولأسرته بعد أن عزل الرجال عن النساء، فأقام نوح وأولاده في الجانب الشرقي من هذا السطح ، كما أقامت الزوجات مع أولادهن في الطرف الغربي منه ، وكان الحاجز بين هؤلاء وهؤلاء جثة آدم التي كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه • وهذه الرواية التي تخبرنا بعد ذلك بأبعاد الفلك على وجه التحديد بالذراع ، كما تذكر لنا اليوم والشهر الذي ركب فيه الركاب الفلك — هذه الرواية مستمدة من مخطوط عربي عثر عليه في مكتبة دير سانت كاترين في جبل سيناء • ويبدو أن مؤلف هذا المخطوط كان عربيا مسيحيا عاش في فترة الفتح الاسلامي • هذا وان كان تاريخ المخطوط متأخرا •

٤ — الحكايات الاغريقية القديمة عن الطوفان الكبير :

في أثناء قراءتنا للأدب الاغريقي القديم ، تصادفنا حكايات عن الطوفان الكبير الذي هلك فيه الجنس البشري كله على وجه التقريب • وحكاية الطوفان الاغريقية كما رواها « أبولودوروس » جامع الأساطير تجرى على النحو التالي : كان « دويكاليون » ابنا « لبروميثيوس » ،

وكان يحكم بوصفه ملكا ، على بلد تقع بالقرب من « فيثيا » ، كما كان متزوجا من « بيرها » ابنة « ابيميثيوس » و « باندورا » أول امرأة خلقتها الآلهة . وعنوما شاء « زيوس » أن يهلك أهل العصر البرونزي ، صنع « دويكاليون » بناء على نصيحة « بروميثيوس » ، تابوتا أو ابنتي فلكا . وبعد أن جمع كل ما يلزمه ، دخل الفلك هـ وزوجته . ثم أسقط « زيوس » مطرا غزيرا من السماء أغرق جزءا كبيرا من بلاد الاغريق وغرق مع هذا الجزء كل الناس فيماعدا قليل منهم لجأوا الى الجبال العالية القريبة . ثم انفصلت جبال « ثيسالي » وغمرت المياه البلاد التي كانت تقع وراء « استموس » و « بيلوبونيز » . أما « دويكاليون » فقد سارت سفينته على سطح الماء وهو بداخلها تسعة أيام وتسع ليال الى ان رست على جبل « بارناسيوس » . فلما انقطعت الأمطار ، نزل من السفينة وقدم التضحية للاله « زيوس » ، اله النجاة . ثم أرسل « زيوس » الرسول « هرمس » الى « دويكاليون » وسمح له أن يختار الجنس الذي يعمر الأرض معه ، فاختار « دويكاليون » الذكور . فأمره « زيوس » أن يلتقط أحجارا ويرمى بها وراء ظهره . وفعل « دويكاليون » هذا وتحولت الاحجار الى رجال . أما الاحجار التي رمتها زوجته « بيرها » فقد تحولت الى نساء . وهذا هو السبب في أن الشعب الاغريقي اسمه « لاوي » (Laoi) ، وهو اسم مشتق من لاس (Laas) ومعناه حجر .

ولا ترجع هذه الحكاية الاغريقية من حيث شكلها الى أقدم من منتصف القرن قبل الميلاد ، أما من حيث المادة فهي أقدم من هذا بكثير . ذلك لانها قد رويت عن « هيلانسيوس » وهو مؤرخ اغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد . وقد ذكر هذا المؤرخ أن سفينة « دويكاليون » لم ترس على جبل « بارناسيوس » ، بل رست عند جبل « أوثريس » في « ثيسالي » . وهناك رواية أخرى للحكاية الاغريقية رويت عن الشاعر « بندار » الذي ترجع مؤلفاته الى القرن الخامس قبل الميلاد ، قبل « هيلانسيوس » ، ذلك أن هذا الشاعر حكى

عن « دويكاليون » و « بيرها » ، عندما هبطا من جبال « بارناسيوس »
وأعادا خلق الجنس البشرى من الحجر .

وقد رأى البعض أن المدينة الاولى التى أسسها « دويكاليون »
بعد انتهاء الطوفان هى مدينة « أوبوس » التى كانت تقع فى سهل
« لوكريان » الخصيب بين الجبال وخليج « أويتويك » . على أنه روى
أن « دريكاليون » كان يسكن فى « سينوس » ميناء « أوبوس » ،
بعيدا عن السهل بعدة أميال . وقد كان الأهالى يطلعون المسافرين على
قبر زوجته فى مستهل التاريخ الميلادى ، كما يقال : إن رماد جسد
الزوج يرقد فى اثينا . ووفقا لرأى أرسطو الذى كتب مؤلفاته فى القرن
الرابع ق.م. فان الدمار الذى لحق بالبلاد بسبب الطوفان الذى حدث
فى عصر « دويكاليون » ، شعر به سكان هيلاس القديمة بوضوح ،
تلك المدينة التى كانت تقع على مقربة من «دودونا » ونهر « أشيلوس »
ذلك أن هذا النهر قد غير مجراه فى أماكن عدة . وفى هذه الأيام كان
يسكن هذه المنطقة « السيليون » ، كما كان يسكنها الشعب الذى كان
يسمى « الاغريق » (جرايكوى) ، ويطلق عليه الآن اسم « الهيلينيين »

وقد كان بعض الناس يعتقدون أن ضريح « زيوس » المقدس فى
« دودونا » قد شيده « دويكاليون » و « بيرها » اللذان كانا يعيشان بين
« المولوسيين » سكان هذا البلد . قد ذكر أفلاطون كذلك فى القرن
الرابع ق.م. الطوفان الذى حدث فى زمن « دويكاليون » و « بيرها »
دون أن يصفه . وكذلك حكى عن الكهنة المصريين أنهم كانوا يسخرون
من الاغريق الذين كانوا يعتقدون أنه لم يحدث سوى طوفان واحد فى
حين أن الطوفان قد أغرق الأرض أكثر من مرة . أما المؤرخ
« الباريانى » الذى دون الأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمنى عام
٢٦٥ ق.م. فقد ذكر أن طوفان « دويكاليون » قد حدث قبل عصره
بألف ومائتين وخمسة وستين عاما ، أى أنه حدث وفقا لحسابه عام
١٥٣٩ ق.م .

وهناك أماكن مختلفة في بلاد اليونان تدعى شرف صلتها على نحو ما بدويكاليون والطوفان الكبير . ومن بين سكان هذه الأماكن — كما يمكن أن نتوقع ذلك — سكان أثينا الذين يتباهون بالعصور القديمة التي سكنوا فيها بلاد « أتيكا » . وليس عند الاثينيين مانع أن يزوروا عندما تكون المسألة متعلقة بدويكاليون وطوفانه . وهم عندما يشرحون صلتهم بهذا الحادث يتذرعون بذريعة ، مؤداها أن السحب حينما تجمعت في كثافة حول قمة جبل « بارناسيوس » ، وهطلت الأمطار في شكل سيول جارفة في « ليكوريا » حيث كان « دويكاليون » يحكم بوصفه ملكا ، لاذ « دويكاليون » بأثينا ، وشيد عند وصوله إليها هيكلا لاله المطر « زيوس » ، كما قدم ضحية الشكر على نجاته . وهذه الأسطورة في شكلها الموجز على هذا النحو ليس فيها ذكر للسفينة ، ويبدو أنه قد ترك لنا أن نحدس أن البطل قد هرب من الطوفان سائرا على قدميه . ومهما يكن الأمر ، فإن « دويكاليون » ، كما قيل قد شيد هيكلا « لزيوس الأولي » وأنه دفن في أثينا . وقد ظل المرشدون الاثينيون المحليون ، حتى القرن الثاني الميلادي ، يشيرون بفخر وطني الى ضريح نوح الاغريقى . بجانب هيكل « زيوس الأولي » الأحدث والاكثر فخامة من ضريح « دويكاليون » الذى يتوج حطام أعمدته في بهاء فريد المدينة الحديثة . ومازال هذا المعبد يلفت الانظار من بعد ويحمل شهادة صامته ، وان تكن بالغة الدلالة على عظمة الاغريق القدماء

وليس هذا الضريح وحده هو الذى كان يشير اليه المرشدون الاغريق في ذكرى الطوفان الم هول . بل كانوا كذلك يرشدون المسافرين المحب للاستطلاع داخل أرباض أثينا التى يحجبها هيكل « زيوس » المتراعى الأرجاء الى ربض أصغر من « البقعة الاولبية » ، حيث كانوا يشيرون الى شق فى الارض ، عرضه ذراع واحدة ، ويؤكدون أن مياه الطوفان كانت تجري داخل هذا الشق . ومن ثم فهم يرمون فى هذا الشق كعكا مصنوعا من دقيق القمح والعسل . ويبدو أنه كان ينظر الى هذا الكعك بوصفه كعكا روحيا صنع للأرواح

الفقيرة التي هلك في الطوفان الكبير . ذلك أننا نعلم ان طقوسا تذكارية ، أو صلاة جنازية كانت تقام في أثينا في كل عام تكريما لهؤلاء الشهداء . وكانت هذه الاحتفالات تسمى « بعيد الطفو على الماء » . ولا توحى هذه التسمية بأن ذوى القلوب الرحيمة لم يكونوا يرمون في الشق الأرضي الكعك فحسب ، بل كانوا يصبون فيه المياه كذلك ، وبذلك يسدون جوع أشباح العالم آخر ، بمقدار ما يطفئون ظمأهم

وهناك مكان آخر كان الناس يحتفلون فيه بذكرى الطوفان على نحو ما سلف ، هذا المكان هو « هيرابوليس » الذي كان يقع على نهر الفرات . وهناك في هذا المكان كانت الآلهة السامية تقدر حتى القرن الثاني قبل الميلاد بطريقة فرضتها الحضارة الاغريقية الاسمية التي انتشرت في الشرق بتأثير فتوحات الاسكندر الأكبر . وبمقتضى هذه الطريقة ، كان الناس يخلعون على هذه الآلهة أردية تنكريّة شفافة ، فكانت أشبه بالتماثيل القديمة التي ترتدى أردية فضفاضة . وقد كانت الآلهة « عشتروت » تحتل مكانا بارزا بين هذه الآلهة القديمة وهي تلك الآلهة التي كان يعبدها الاغريق متخفية تحت اسم « هيرا » وقد خلف لنا « لوسيان » وصفا قيما للغاية لمعبود « عشتروت » والطقوس التي كانت تقام فيه . فهو يخبرنا أن المعبود وفقا للرأى السائد ، بناء « دويكاليون » الذي حدث في عهده الطوفان الكبير . وعند ذكر دويكاليون وجد « لوسيان » فرصة لكي يحكى أسطورة الطوفان الاغريقية التي تجرى على النحو التالي : أن جيل الرجال الحالي ، كما يقول « لوسيان » ليس هو جيل الجنس البشرى الأول ، بل سبقه جيل آخر فنى عن آخره . أما نحن البشر الذين نعيش اليوم على وجه البسيطة ، فننتمى الى الجيل الثاني الذي تكاثر بعد عصر « دويكاليون » . وأما الناس الذين كانوا يعيشون قبل الطوفان ، فيقال انهم كانوا قد تجاوزوا الحد في الاستهتار والحماسة ، فلم يكونوا يحفظون ايمانهم أو يكرمون الغرباء ، أو يلقون بالا لطالبي المعونة قد كان جزاؤهم أن أصابتهم هذه الكارثة الكبرى ، فتدفقت المياه من

جوف الارض ، وهطلت الأمطار في شكل سيول جارفة ، وفاضت الأنهار وغمر البحر البلاد بحيث لم تعد العين تبصر سوى المياه في كل مكان . أما الناس فقد غرقوا عن آخرهم ، فيما عدا « دويكاليون » الذي عاش بسبب حكمته وورعه ، وكان الحلقة بين جيله وجيل الناس من بعده .

وقد تم انقاذ « دويكاليون » على النحو التالي : لقد كان « دويكاليون » يملك فلكا كبيرا لجأ اليه هو وزوجته واولاده هربا من الطوفان . وفي الوقت نفسه جاءت الخنازير والخيول والاسود والثعابين وسائر حيوانات الارض أزواجا ، فاستقبلها « دويكاليون » جميعا ، ولم تحدث له أى أذى . أجل ، لقد دبت بينها ، بعون الاله روح الصداقة العميقة ، وأبحرت جميعا في سفينة واحدة حتى انتهى الطوفان . ثم يقول « لوسيان » بعد ذلك : ان هذه هي حكاية طوفان « دويكاليون » الاغريقية . ثم يستأنف حديثه قائلا ان سكان « هيرابوليس » يحكون حادثة غريبة . فهم يقولون : ان خندقا انفتح في بلدهم وتسربت اليه مياه الطوفان عن آخرها . فشيد « دويكاليون » أثر ذلك الهياكل كما شيد معبدا مقدسا للالهة « هيرا » بجوار الخندق وهو عبارة عن خندق صغير يقع أسفل المعبد . ولست أدري أكان هذا الخندق كبيرا في الأزمنة السالفة ثم انكمش على مر الزمن ، فان ما رأيته كان خندقا صغيرا ما في ذلك شك .

وفي ذكرى أسطورة الطوفان يقوم الناس بالاحتفالات الآتية : يحضرون كمية من مياه البحر الى المعبد مرتين في السنة . ولا يقوم الكهنة وحدهم بإحضار المياه ، بل يشاركونهم في ذلك السوريون والعرب ، بل الناس الذين يسكنون فيما وراء نهر الفرات . وتصب كل هذه المياه في الخندق . وعلى الرغم من صغر حجم الخندق ، فانه كان يتسع لهذه الكمية الهائلة من المياه . ويعلق الناس على هذا بقولهم : انهم انما يتبعون نظام الطقوس الذي كان « دويكاليون » يؤديه في المعبد في ذكرى الطوفان وفي ذكرى رحمة الآلهة بالناس . وفضلا على ذلك فقد كان هناك عمودان أو بالأحرى مسلتان عند المدخل الشمالى لهذا المعبد

العظيم ، يبلغ طول كل منها ثلاثمائة وستين قدما • وقد كان من المؤلف أن يصعد رجل احدى هاتين المسلتين مرتين فى كل عام ، ويظل سبعة أيام جالسا فى الهواء على قممتها • وتختلف الآراء فى سبب صعود هذا الرجل وفى هدف هذا العمل ، ولكن أغلب الناس يعتقد أنه عندما يصعد الى هذا الارتفاع الشاهق يكون قريبا من الآلهة فى السماء ، فتستمع بوضوح الى الصلوات التى يؤديها باسم أهل سوريا جميعا • على أن البعض الآخر يرى أنه انما كان يصعد الى قمة المسلة ليبين للناس كيف كان لناس يصعدون الى قمم الجبال وأعلى الاشجار لكى يهربوا من طوفان « دويكاليون » •

هذه الرواية الاغريقية المتأخرة لاسطورة الطوفان تشبه الى حد كبير الرواية البابلية • وقد أضاف « بلوتارك » عنصرا آخر من عناصر التشابك بين الراويتين عندما ذكر أن «دويكاليون» أطلق حمامة من السفينة حتى يستطيع أن يعرف من رجوعها أو عدم رجوعها الى السفينة ما اذا كانت العاصفة الممطرة ما تزال مستمرة أم لا • وبهذا تكون الرواية الاغريقية فى شكلها هذا قد تلونت بدون شك ، أن لم تكن قد امتزجت ، بتأثير سامى ، اسرائيليا كان أو بابليا •

وهناك مدينة أخرى فى آسيا الصغرى ، كانت تزهو ، فيما يبدو ، بارتباطها بحادثة الطوفان الكبير • واسم هذه المدينة هو « أباميا سيبوتس » ، التى كانت تقع فى اقليم « فريجيا » • ولقب « سيبوتس » الذى تحمله هذه المدينة ، هو الكلمة الاغريقية التى تعنى التابوت أو الفلك • وتبدو على عملات هذه المدينة التى سكّت فى عصر « سيفيروس » و « ماكريнос » و « فيليب الأكبر » ، صورة السفينة الطافية على الماء وبداخلها راكبان يبدو الجزء الأعلى من جسميهما • والى جانب السفينة هناك شكلان آخران ، أحدهما لرجل والآخر لامرأة وأخيرا هناك صورة طائرين يجثمان فوق السفينة ، قيل : أن أحدهما صور غراب والآخر حمامة تحمل فرع زيتون • وقد نقش اسم « نوح » كما لو أنه أريد بذلك إزالة كل شك فى سبيل التعريف على الأسطورة

ومما لاشك فيه أن الشكّلين يشيران إلى نوح وزوجته ، مرة وهما بداخل السفينة ، ومرة أخرى وهما خارجها • وهذا النموذج من العملات يثبت بدون شك أن سكان « أباميا » كانوا يعرفون في القرن الثالث الميلادي حكاية طوفان نوح العبرية في الصورة التي حكيت بها في سفر التكوين • وربما عرف السكان هذه الحكاية من المواطنين اليهود الذين كانوا في القرن الأول قبل الميلاد كثيرين للغاية ، أو كانوا أغنياء كل الغنى إلى درجة أنهم تبرعوا لاورشليم في مناسبة واحدة بما لا يقل عن مائة رطل من الذهب • على أن الباحثين لم يتفقوا على ما إذا كانت حكاية « أباميا » عن الطوفان يهودية الأصل أو أنها تعتمد على أسطورة محلية قديمة عن الطوفان •

وعلى الرغم من أن رواية الطوفان الاغريقية التي ترتبط باسم « دويكاليون » هي أكثر الروايات شهرة وذيوعا ، فإنها ليست الرواية الوحيدة المدونة في التراث الاغريقي • فالعلماء يميزون في الواقع بين كوارث ثلاث كبيرة أصابت العالم في أحقاب مختلفة ، الكارثة الأولى حدثت ، فيما يروى ، في عهد « أجيجيس » ، والثانية في عهد « دويكاليون » ، والثالثة في عهد « داردانوس » • وقد قيل : أن « أجيجيس » أو « أجيجوس » ، كما ينطق الاسم كذلك في بعض الأحيان ، نشأ وحكم في طيبة في « بيوتيا » • وتعد طيبة ، وفقا لرأى العلامة « فارو » ، أقدم بلاد الاغريق ، حيث أنها كانت قد بنيت في عصور ما قبل حوادث الطوفان • وصلة « أجيجوس » « بيوتيا » بصفة عامة ، وبطيبة بصفة خاصة ، يؤكدّها اطلاق اسمه على البلد وعلى المدينة وعلى إحدى بوابات هذه المدينة •

ويخبرنا « فارو » أن « طيبة البوتيانية » قد بنيت قبل الزمن الذي كان يكتب فيه كتاباته بما يقرب من ألفين ومائة عام • وقد كتب « فارو » كتاباته عام ٣٦ ق.م • أو ما يقرب من هذا التاريخ • وحيث أن الطوفان ، بناء على رأيه ، حدث في عهد « أجيجوس » بعد أن أسس طيبة ، فإننا نستول من ذلك على أن الطوفان قد حدث وفقا لرأى

« فارو » عام ٢١٣٦ ق.م. أو بعد هذا التاريخ مباشرة . أما وفقا لرأى مؤرخ الكنيسة « أويشيبوس » فقد حدث الطوفان الكبير في عهد « أجيجوس » بعد طوفان نوح بما يقرب من ألفين ومائتى عام ، وقبل طوفان « دويكالين » بمائتين خمسين عاما . ومن الطبيعى حقا ان يكون شرفا للمسيحيين الأولين أن يدعوا أن قدم قصة الطوفان المدونة في كتبهم المقدسة يكسبها من التقدير ما تفوق به تلك الروايات المدونة في الكتابات الدنيوية .

وقد جعل « يوليوس أفريكانوس » ، المؤرخ المسيحي « أجيجوس » يعيش في عصر موسى لا في عصر نوح . وكذلك وضع « أيزيدور » اسقف « أشبيليه » العالم ، طوفان نوح على رأس قائمة حوادث الطوفان المختلفة ويلييه حسب الترتيب الزمنى طوفان « أجيجوس » ثم طوفان « ديوكاليون » وقد كان « أجيجوس » ، من وجهة نظره ، معاصرا ليعقوب ، في حين كان « دويكالين » معاصرا لموسى . وقد كان أسقف « أشبيليه » فيما أعلم ، أول الكتاب الذين لجأوا الى البقايا الحيوانية المدفونة في الجبال النائية بوصفها شاهدا على حقيقة حكاية نوح المروية ..

فاذا كان « أجيجوس » بطلا بيوتانيا ، لا بطلا أتيكيا ، وهذا هو المرجح ، فان قصة الطوفان الذى حدث في عصره ، تتأكد بالتغير الذى طرأ على بحيرة « كوبياك » التى كانت في الازمنة السالفة تشغل مساحة كبيرة في وسط « بيوتيا » . فحيث انه لم يكن للبحيرة منبع خارجى على سطح الارض ، كانت تعتمد في مصدر مياهها كلية على الخنادق والممرات الجوفية التى كانت المياه قد حفرتها في الصخور الجيرية على مر الزمن لتجرى فيها . وقد كان مستوى البحيرة يرتفع وينخفض بناء على انسداد هذه المجارى الجوفية أو خلوها من أى عائق . وربما لم يحدث لبحيرة من البحيرات أن تعرضت للتغيرات السفوية بشكل منتظم واضح كما حدث لبحيرة « كوبياك » . فبينما تطلوؤها عيدان البوص في الشتاء وتكون مأوى لآلاف الطيور البرية ، تصبح في الصيف في كثير أوقليل سهلا

مستتقا ترعى فيه القطعان ، وتزرع فيه المحاصيل وتنمو • ولكن مياهها كانت معرضة لأن ترتفع عن مستواها العادى ، بسبب اختلاف النسبة غير العادية ، قلة أو كثرة ، للأمطار الشتوية ، أو بسبب اختلاف النسبة الجوفية أو خلوها من العوائق • كما أننا نقرأ فى الكتب القديمة عن مدن كانت تقع على مشارف هذه البحيرة ثم غرقت ، فان المسافر فى العصر الحديث يحكى عن مزارعين اضطروا الى أن يهاجروا قبل أن يعم الفيضان قراهم ، وعن مزارع العنب وحقول القمح التى اختفت تحت المياه • وربما كان من بين هذه الفيضانات فيضان أعنف وأكثر دمارا من سائر الفيضانات التى سبقته ، ارتبط « أجيجوس » به ، وظل مرتبطا به دائما بدا •

وهذه النظرية التى يمكن أن تفسر طوفان « أجيجوس » الكبير بفيضان بحيرة « كوبياك » غير العادى ، يدعمها الى حد ما ، ما حدث فى « أركاديا » • فقد راينا فى الاسطورة الاغريقية ، أن الطوفان الثالث الكبير ارتبط باسم « داردانوس » • و « داردانوس » هذا ، وفقا لاحدى الروايات حكم « أركاديا » أول ما حكم ، بوصفه ملكا ، ولكنه ترك هذه البلاد عندما غمر الطوفان الاراضى المنخفضة وجعلها غير صالحة للزراعة لمدة طويلة • أما السكان فقد لجأوا الى الجبال وكافحوا من أجل الحياة بما استطاعوا أن يدبروه من الطعام • ولكنهم عندما أدركوا أن الأرض التى انحسر عنها الطوفان لم تكن كافية لامدادهم بالمحاصيل قرروا تركها • على أن بعضهم بقوا فيها مع « ديماس » ابن « داردانوس » واتخذوه ملكا عليهم ، فى حين هاجر البعض الآخر تحت قيادة « داردانوس » نفسه الى جزيرة « ساموثراسى » • ووفقا لرواية اغريقية قبلها « فادوا » الرومانى أن المكان الذى ولد فيه « داردانوس » هو « فينيوس » الذى كان يقع فى شمال « أركاديا » • وهذا المكان ذو شهرة ذائعة • فباستثناء منطقة « كوبياك » لم يعرف فى بلاد اليونان واد تعرض للفيضانات على نطاق واسع ولأزمنة طويلة ، مثل وادى « فينيوس » • وتتشابه الأحوال الطبيعية فى هذين المكانين تشابها جوهريا ، فكلاهما

أشبه بحوض وسط مناطق جبرية وليس لهما مصدر مائي فوق سطح الأرض . وكلاهما تصب فيه الأمطار المنحدرة من الجبال المحيطة . وكلاهما يعتمد في مياهه على المجارى الجوفية التى تحتها المياه أو فحرتها الزلازل فى الصخور . فاذا ترسب الطمي فى هذه المنافذ ، أو اعترضتها أية عوائق أخرى ، فإن المكان الذى يكون سهلا فى الأحوال العادية يتحول الى بحيرة فى هذه الظروف . ولكن على الرغم من هذا التشابه القوى بين المكانين ، هناك وجوه اختلاف جوهرية بينهما . فعلى حين نجد حوض « كوبياك » أرضا منبسطة شاسعة ترتفع فوق مستوى صخور منخفضة أو منحدرات هينة ، نجد حوض « فينيوس » واديا ضيقا مرتفعا ، تحيط به من كل جانب جبال جهمة منحدره ، تغلف منحدراتها المرتفعة غابات الصنوبر الدكناء ، وتغطي الثلوج قممها الشاهقة معظم شهور السنة . والنهر الذى يمد هذا الحوض بالمياه عن طريق مجرى جوفى هو نهر « لادون » وهو أكثر أنهار بلاد اليونان سحرا جمالا . فلقد عاش « ملتون » بخياله على شواطئ نهر « لادون » الرملية التى تنمو فيها أزهار السوسن » . بل ان الكاتب « باوزانياس » ادعى أن هذا النهر لا يدانيه نهر آخر ساء فى بلاد اليونان أو خارجها وليس هناك ما يثيرنى من بين الذكريات التى تركها فى نفسى بلاد الاغريق ، مثل تلك الايام التى قضيتها وانا أقتفى أثر النهر من منبعه عند البحيرة الجميلة ثم منابعه التى تقع على الجانب البعيد من الجبل ، حتى الأخدود العميق الصخور فى شكل ملاءات من الزبد الأبيض المائل لونه الى الاخضرار ، حتى تلتحم بنهر « ألفيوس » المقدس . على أن الزلازل أخذت تسد من وقت لآخر مجرى نهر « لادون » الذى ينبع من وادى « فينيوس » ، وكانت النتيجة أن كف النهر عن الجريان . وعندما كنت أزور منابع هذا النهر عام ١٨٩٥ ، اخبرنى فلاح لحظة وصولى انه منذ سنتين كفت مياه النهر عن الجريان مدة ثلاث ساعات اثر هزة أرضية عنيفة ، وتعزى الخندق الذهبى يقع فى قاع البحيرة وشوهد السمك وهو يرقد على الأرض الجافة . وبعد ثلاث ساعات أخذ النبع يتدفق بعض الشيء . وبعد ثلاثة أيام سمع انفجار صوت يدوى أعقبه تدفق المياه

بكميات هائلة • وقد رويت في الزمن القديم والحديث معاً حكايات شبيهة بهذه الحكاية التي تحكى عن توقف النهر لبعض الوقت • وحيثما كانت تدوم عوائق المجرى الجوفى ، كانت تحتل وادى « فينيوس » بحيرة تختلف في اتساعها وعمقها باختلاف حجم عوائق المجرى الجوفية • وقد اعترت هذا الوادى ، وفقا لرأى « بلينى » ، حتى يومنا هذا خمسة أحوال من التغير الذى كان يحيله من ألبال الى الجفاف ، ومن الجفاف الى البلب ، وجميع هذه الأحوال المتغيرة تسببت فى حدوثها الزلازل • وفى زمن « بلوتارك » ارتفع الفيضان ارتفاعا كبيرا حتى اغرق الوادى كله • وقد عزا الشعب الورع هذا الحادث الى غضب « أبوللو » من هرقل الذى كان قد سرق من الاله منذ ألف عام رجله من « دلف » وحمّله الى فينيوس • ومعنى هذا أن غضب أبوللو من هرقل قد ظهر متأخرا • على أن المياه انخفضت بعد هذا فى نفس القرن ، لان الرحالة الاغريقى « بوزانياس » أبصر قاع الوادى جافا ، ولم يكن يعلم بوجود البحيرة الا من خلال الروايات •

وليس من اليسير اهمال الروايات التى تتصل بالطوفان الكبير فى واد عاش ظروفها كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبال وبين ظهور بحيرة واسعة ظرفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبال وبين ظهور بحيرة واسعة ذات مياه زرقاء ، وأرض زراعية شاسعة ينبت فيها الذرة الاصفر • بل ان كل شىء فى هذا المكان يؤكد على العكس احتمال روايتها ، ومن ثم فربما كانت الحكاية التى رددت أن « داردانوس » أحد اهالى « فينيوس » ، قد اضطره الطوفان الذى غطى الاراضى المنخفضة وأغرق الحقول ،الى أن يهجر بلاده ، كما اضطر الاهالى الى أن يتركوا بلادهم ويلجأوا الى المنحدرات العليا فى الجبال — ربما كانت هذه الحكاية ترتكز بحق على أساس ثابت من الحقائق • وكذلك تصدق الحكاية التى دونها « باوزانياس » عن الفيضان الذى علا وأغرق مدينة « فينيوس » القديمة التى كانت تقع عند الطرف الشمالى من البحيرة •

وقد قيل : أن « داردانوس » المهاجر قد اتخذ طريقه من مسكنه في الأماكن العالية في « أركاديا » الى جزيرة « ساموثراس » .

ووفقا لاحدى الروايات أنه طفا على لوح من الخشب . ووفقا لرواية لراوية أخرى أن الفيضان لم يياغته في أركاديا بل في جزيرة « ساموثراس » وأنه هرب على جلد منتفخ طافيا على سطح الماء حتى رسا على جبل « ادا » حيث شيد مدينة « داردانيا » أو « طروادة » . ومن المؤكد أن أهل « ساموثراس » الذين كانوا يرتبطون بآثارهم القديمة كل الارتباط قد ادعوا أن طوفانهم حدث قبل أى طوفان آخر على وجه الأرض . فقد روى عنهم أنهم قالوا : أن مياه البحر ارتفعت وغطت مساحة كبيرة من الارض المنبسطة في جزيرتهم ، وأن الاحياء لجأوا الى الجبال الشاهقة التى لا تزال تكسب جزيرة « ساموثراس » أكثر الملامح شهرة في شمال منطقة بحر « أيجه » ، ولا تزال تبدو واضحة للناظر اليها من طروادة في الجو المشرق . ثم أخذ البحر يقتفى أثر الهاربين في أثناء لجوئهم الى الجبال ، فأخذوا يتضرعون للآلهة لكي تنقذهم فلما أنقذوا نصبوا في كل مكان من اجزيرة معالم تشهد على انقاذ الآلهة اياهم ، كما شيدوا المعابد التى ظلوا يقدمون فيها الضحايا حتى زمن متأخر . وقد ظل الصيادون بعد حدوث الطوفان بقرون عدة يجرون في شباكهم بين الحين والآخر أحجار العمود الرئيسية التى تشهد على وجود المدن الغريقة في أعماق البحر . أما الأسباب التى يرجع سكان « ساموثراس » الطوفان اليها ، فهي جديرة بالملاحظة . فقد حدثت الكارثة وفقا لروايتهم ، لا بسبب سقوط الأمطار الغزيرة ، بل بسبب ارتفاع غريب مفاجئ لمياه البحر ، نجم عن تحطم الحواجز التى كانت حتى ذلك الحين تفصل البحر الاسود عن البحر الابيض . في هذا الوقت حطمت كميات المياه الهائلة تلك الحواجز التى كانت مختزنة وراءها ، وشقت طريقا في الأرض المواجهة لها مكونة بذلك المضيقين اللذين يعرفان اليوم باسم البوسفور والدردنيل . ومنذ ذلك الوقت أخذت مياه البحر الأسود تتدفق في البحر الأبيض المتوسط . وبينما كان هذا السيل الجارف يقتحم العيون الجديدة التى فتحت في

السد ، أغرقت المياه جزءا كبيرا من ساحل آسيا كما أغرقت الأراضي المنبسطة في جزيرة « ساموثراس » •

وقد أكد علم طبقات الأرض في العصر الحديث الى حد ما ، صدق هذه الرواية « الساموثراسية » • فقد ذكر « هكسلى » أنه حتى زمن ليس بالبعيد جدا ، كانت آسيا الصغرى مرتبطة بأوروبا عن طريق الموضع الذى يقع فى مكانه اليوم خليج البوسفور • وقد كان هذا الموضع حاجزا يبلغ ارتفاعه عدة مئات من الأقدام ، يحتجز أمامه مياه البحر الأسود • ومعنى هذا أن مساحة كبيرة من « أوروبا الشرقية » و « آسيا الوسطى الغربية » كانت تكون خزاناً ضخماً على طول مجمع المياه العربى الحالى لنهر « أوبى » الذى يصب فى المحيط المتجمد الشمالى • وقد كانت أكثر فتحات هذا الخزان انخفاضا • تعلو ، فيما يبدو ، سطح البحر بحوالى مائتى قدم • وفى هذا الحوض كانت تصب أكبر أنهار أوروبا مثل نهر الدانوب والفلجا ، كما كانت تصب فيه كذلك أنهار آسيا الكبيرة آنذاك مثل « أوكسوس » و « كسارتس » وكل ما كان يتصل بها من روافد • وفضلا عن ذلك فإن هذا الحوض كان يستقبل فائض بحيرة « بالكاش » التى كانت آنذاك أوسع مما هى عليه الآن بكثير ، ومن المحتمل أنه كان يستقبل كذلك مياه البحر الداخلى فى منغوليا • وفى هذا الوقت كان مستوى بحر « أرال » يعلو مستواه الحالى بما لا يقل عن ستين قدما • وقد كان فى مكان البحر الأسود وبحر قزوين وبحر « أرال » ، تلك البحار المنفصلة بعضها عن بعض ، كان هناك بحر واحد هو بحر « بونتو - أرال المتوسط » • ولا بد أن هذا البحر الواحد كان يمتد فى الوقت الحاضر أحضان أودية نهر الدانوب المنخفضة ونهر فلجا الذى عثر فيه فى الوقت الحاضر على القواقع القوقازية ، وبالمثل فى نهر « كاما » ونهر آرال وسائر الأنهار الجارية فى حين كانت هذه الأنهار تصب فائض مياهها شمالا عن طريق حوض « أوبى » الحالى • ويبدو أن هذا الخزان الهائل أو هذا البحر الداخلى الشاسع الذى كان يحجزه ويدعمه خزان طبيعى عال يربط آسيا لصغرى بشسبه جزيرة البلقان ، كان

يوجد منذ عصر البلايستوسين • كما أنه يعتقد أن تآكل ممر الدردنيل الذي وجدت المياه المحتجزة في النهاية من خلاله طريقها الى البحر المتوسط قد حدث في نهاية عصر « البلايستوسين » أو بعد ذلك ولكنه من المؤكد أن الانسان لم يسكن أوروبا في عصر « البلايستوسين » بل يرى البعض أنه سكنها في عصر « البليوسين » أو حتى في عصر « الميوسين » • ومن ثم فإنه يبدو محتملا أن سكان « أوروبا الشرقية كانوا يحتفظون حقا برواية ماثورة تتصل ببحر « بونتو أرال » الداخلي الشاسع ، وعن جفافه الجزئي الذي نجم عن تحطم الخزان الذي كان يفصله عن البحر المتوسط ، أو — بعبارة أخرى — تتصل بانشقاق بوغازي البوسفور الدردنيل • إذا كان هذا الفرض صحيحا ، فإن الرواية « الساموثراسية » تكون قد احتوت على عناصر كثيرة من الحقائق التاريخية فيما يختص بالاسباب التي ذكرتها لحدوث الكارثة • ويبدو أن علم الجيولوجيا من ناحية أخرى ، لم يدعم رواية الكارثة هذه في حد ذاتها • ذلك أن الشواهد تنحو الى اثبات أن بوغاز الدردنيل لم ينشق فجأة كما ينفجر سد بسبب ضغط المياه أو بسبب هزة أرضية ، بل تكون هذا البوغاز ، على عكس ذلك ، عن طريق عملية التحات البطيئة التي لا بد أنها استغرقت قرونا بل آلافا من السنين ، ذلك أن البوغاز تحيط به طبقات أرضية لم تتغير يبلغ سمكها أربعين قدما وترجع الى عصر البلايستوسين • وفي خلال هذه الطبقات أخذ البوغاز ينحت طريقه في هدوء • وبناء على ذلك فإن من العسير تماما أن يكون مستوى بحر « بونتو — أرال » قد هبط الى مستوى البحر البيض المتوسط فجأة وعلى نحو مفاجيء ، محدثا فيضانا هائلا عبر سواحل آسيا وأوروبا • بل الأكثر احتمالا أن يكن هذا البحر قد تغير تدريجيا وفي ببطء ، بحيث أن كمية المياه التي تدفقت منه خلال جيل واحد فقط لا يحسها المراقبون العاديين ، بل لا يحسها المراقبون المدققون غير المزودين بأجهزة دقيقة • ومن ثم فإنه يبدو من الأسلم أن ندعى أن هذه الحكاية « الساموثراسية » قد رواها أحد الفلاسفة المبكرين على سبيل الظن • وقد استطاع هذا الفيلسوف ان يتكهن بحق بما كان عليه

بوغازا الدردنيل والبوسفور دون أن يكون قادرا على أن يتصور البطة
البالغ لعملية النحت الطبيعية ، ذلك بدلا من أن ندعى أن هذه الحكاية
احتفظت بذكرى حقيقية عن الطوفان الذي تدفق نتيجة انشقاق بوغاز
الدردنيل . قد أكد هذا الرأي في الواقع « ستراتو » صاحب الفلسفة
الطبيعية المرموق الذي خلف « ثيوفراست » في زعامة مدرسة المشائين
عام ٢٨٧ ق . م . وقد دعم « ستراتو » هذا الرأي على أساس
نظري بحت ، عندما رفض أن ينظر الى هذه الحادثة بوصفها رواية
شعبية ، واعتمد في مناقشتها على ملاحظاته للملامح الطبيعية للبحر
الأسود (١) . فقد أشار الى كميات الطمي الهائلة التي كانت
تقذفها الأنهار الكبيرة في « أويكسين » ، واستنتج أنه لولا مخرج
بوغاز البوسفور لامتأ البحر بالغرين مع مرور الوقت . وأبعد من
هذا فقد افترض أن هذه الأنهار بعينها قد شقت لنفسها طريقا في
الأزمة السالفة خلال بوغاز البوسفور ، فتسربت مياهها المتجمعة الى
« بروبونتوس » ومنه الى البحر المتوسط عبر بوغاز الدردنيل .
وقد تصور « ستراتو » بنفس الطريقة أن البحر المتوسط كان في
سالف الزمن بحرا داخليا ، وأن اتصاله بالمحيط الأطلنطي قد
نجم عن تدفق المياه المختزنة شقها لمضيق جبل طارق . ويحق لنا أن
ننتهي بناء على ذلك الى أن السبب الذي فسرت به الحكاية
« الساموثراسية » حدوث الطوفان الكبير مستمد من تأمل ذكي أكثر
من كونه مستمدا من رواية شعبية قديمة .

وهناك أسباب تدعونا لأن نعتقد أن حكاية الطوفان الأغريقية
التي ارتبطت بشخصيتي « دويكاليون » و « بيرها » ، لم تكن كذلك
صدى لحادثة حقيقية ، بمقدار ما كانت استدلالا ارتكن على ملاحظة
حقائق طبيعية بعينها . فقد رأينا في إحدى الروايات الاغريقية أن

(١) كان البحر الأسود يعرف في الزمن القديم باسم Pontus
Exinus ، أي البحر الكريم .

جبال « فيسالى » قد انشقت بتأثير طوفان « دويكاليون » كما رأينا في رواية أخرى أن سفينة « دويكاليون » قد جرفها الفيضان وهو بداخلها حتى رست على جبل « أوثريس » في « ثيسالى » • وهذه الاشارات تميل الى أن تبرز « ثيسالى » بوصفه المكان الاصلى في الأسطورة • وهذه الاشارات تدعمها بشكل قاطع وجهة النظر التى تبناها القدماء فى تفسير تشكيل ملامح البلد الطبيعية • فهيرودوت يحكى رواية مؤداها أن « ثيسالى » كانت فى العصور القديمة بحيرة أو بحرا داخليا تحيط به جبال « أوسا » و « بيليون » و « أوليمبوس » و « بنووس » و « أوثريس » الشاهقة • ولم يكن بهذه الجبال فتحة تسمح لمياه الأنهار المخترنة أن تتسرب الى أى مكان • ثم حدث بعد ذلك ، وفقا لما رواه سكان « ثيسالى » أن شق اله البحر « بوزايدون » الذى يتسبب فى حدوث الزلازل ، مخرجا للبحيرة فى الجبال بأن شق خندق « تيمبى » الضيق الذى يروى عن طريقه نهر « بينيوس » سهل « ثيسالى » منذ ذلك الحين • وبهذا يصرح هيرودوت ، المؤرخ الطيب باعتقاده فى واقع الرواية المحلية • فهو يقول : « أن من يعتقد أن « بوزايدون » يهز الأرض ، وأن الاخوار التى تسببها الزلازل من صنع يديه ، فانه يقول عند رؤيته لخندق « بينيوس » أن « بوزايدون » قد صنعه بنفسه ، ذلك أنه لم يساورنى شك فى أن الانفصال الذى حدث فى الجبال انما هو نتيجة زلازل » •

وقد قبل علماء الآثار القديمة الذين جاءوا بعد هيرودوت ، وجهة نظر أبى التاريخ بصورة قاطعة ، وان أرجع أحدهم نشأة الأخدود ، ومصاريف البحيرة الى البطل « هرقل » الذى ألف الناس أن يعدوا من بين أعماله النافعة للجنس البشرى خلقه لمصادر المياه على نطاق واسع للغاية • أما الكتاب الاكثر حذرا أو الأبعد فلسفة فى التعبير عن وجهات نظرهم ، فقد أرجعوا نشأة المضيق الى زلزال أرضى بسيط ، دون أن يعبروا عن أى رأى يشير الى احتمال احداث الله أو بطل لهذا الاضطراب الخطير •

على أنه لا ينبغي لنا أن نعجب من أن الرأي الشعبي يميل في تفسير هذه الظاهرة الطبيعية الى نظرية الوساطة الالهية أو البطولية . ذلك لأن الملامح الطبيعية لمر « تيمبي » في الحقيقة ، كقيلة بأن تثير في النفس رهبة دينية ممتزجة بالاحساس بوجود قوة أولية مهولة أبرزت بعملياتها الخارقة ، التناقض الكبير بين أعمالها وأعمال الانسان الضئيلة . فالمسافر الذى يهبط في الصباح من جهة الغرب في هذا الممر الضيق ، يرى فوق رأسه ثلوج جبل الأولب تتلألأ في بريق ذهبى تحت أشعة الشمس الساطعة . فاذا سار هابطا مع الممر ، تختفى عن عينيه قمم الجبال ، ولا يبصر حوله من كل ناحية سوى حائط جسيم من المنحدرات القوية التى تنطلق الى أعلى في عظمة رائعة وتتقارب من بعضها البعض في بعض الأحيان تقاربا شديدا حتى تكاد تلتقى تاركة فقط مكانا للطريق وللنهر في أسفلها ، وشريطا من زرقة السماء في أعلاها . وتعد الصخور على جانب جبل « الأولب » التى يراها المسافر دائما أمام عينه طالما انحدر في الطريق نحو الشاطئ الجنوبى أو الأيمن من النهر (١) ، تعد بحق أكثر المناظر روعة وتأثيرا في بلاد الاغريق . وتظل أبعد تأثيرا في الجو المطر عندما تتساقط المياه على جوانبها لتصب في تيار النهر الهادى المنتظم . وتصل روعة هذا المنظر الى قممتها عند حوالى منتصف الممر حيث تنتصب صخرة ضخمة في الهواء بجسامتها ، وتتوج قممتها المرتفعة في الجو أطلال القلعة الرومانية . وفى بعض أجزاء هذا المضيق تتراجع الصخور تراجعا كافيا بحيث تترك مسطحات من المراعى عند سفحها ، حيث الأدغال الدائمة الخضرة ، مثل الغار والرند والزيتون البرى والمشمش البرى والفلفل الكذاب تزينها فروع الكرم البرى والعليق ، وتدبجها أزهار المدفلى القرمزية ، وأزهار الياسمين والقصاص الذهبية ، بينما تعطر الجو الرائحة الذكية التى تنبعث من كتل النباتات

(١) يعنى الضفة الغربية لهذا النهر .

والازهار العطرية • وحتى في اكثر الاماكن ضيقا ، تغطي شاطئ النهر
أشجار الدلب المنتشرة التي تمتد جذورها وفروعها المتدلية في النهر ،
وتتراكم أوراقها بحيث تكون أشبه بستار يحجب الشمس • أما واجهات
المنحدرات الصخرية المتشققة فتكسوها أشجار البلوط القصيرة
والشجيرات • وحيثما وجد مكان خال بين الاشجار ، فان اخضرارها
يبرز في حيوية التبايق بينه وبين الصخور الجيرية البيضاء العادية بينما
يبرز هنا وهناك على حائط الجبل مشهد مكشوف لغابات السنديان
الضخم والصنوبر الداكن تكسو المنحدرات الحادة • ويزداد المسافر
تأثرا بهذه الخضرة الوافرة التي تنتشر ظلالتها ، عندما ينتقل الى الوهدة
في حر الصيف القائن بعد مسيرة شاقة في سهول « ثيسالى » المتربة
الخانقة ، دون أن يجد شجرة تحميه من أشعة شمس الجنوب الحامية ،
أو يحس نسима يرطب جبينه ، ودون أن يصادف تنوعا في المناظر
الطبيعية اللهم الا بعض التلال والوديان التي تخفف من رتابة الطبيعة
الكئيبة • ولا عجب بعد هذا في أن ينشغل الانسان المتأمل بأصل هذه
الوهدة الرائعة الجميلة ، ولا عجب في أن يرجع الدين والعلم البدائيان
سبب نشأتها الى طوفان أولى مهول ، أو انفجار مروع مفاجيء لقوة
بركانية ، بدلا من أن يرجعها الى السبب الحقيقي وهو تآكل الصخر
الذي يحدث تدريجيا وفي أزمنة طويلة •

ومن ثم يمكننا أن ننتهي بشيء من الثقة ، الى أن الأخدود
الموجود في جبال « ثيسالى » الذي قيل ان طوفان « دويكاليون » قد
أحدثه ، لم يكن سوى مضيق « تيمبي » • • حقا انه يمكننا أن نذهب
الى أبعد من هذا في غير اسراف ، ونتكهن بأن حكاية الطوفان نشأت
بدافع الرغبة في تفسير أصل هذا الأخدود العميق الضيق • ذلك أن
الناس حينما تصوروا أنه كانت توجد بحيرة كبيرة تختزن فيها المياه
وتحيط بها سلسلة جبال « ثيسالى » ، كان من الطبيعي أن يحدو بهم
التفكير الى ذلك الطوفان المهول الذي لا بد أن يعقب انفجار الخزان
عندما تدفقت المياه في شكل سيل جارف بعد أن أنشق لها الطريق

الجديد ، وأغرقت الأراضي المنخفضة وجرت في اثرها الخراب والدمار •
واذا كان هذا التكهن ينطوى على شيء من الصحة ، فان الحكاية
« الثسالية » عن طوفان « دويكاليون » وبالمثل الحكاية « الساموثراسية »
عن طوفان « داردانس » ، تقوومان على أساس فرض واحد :
فكلتاها لم تكن سوى مجرد استنتاج مستخلص من الحقائق
الجغرافية الطبيعية ، ولم تحتوا احداها على أى ذكر للحوادث
الواقعية • أى أنهما باختصار يندرجان تحت ما سماه « سير ادوارد
تايلور » بأساطير الملاحظة ، أكثر من اندرجهما تحت صنف المآثرات
التاريخية •

٥ - الحكايات الهندية القديمة عن الطوفان الكبير :

ليس هناك ذكر لاسطورة عن الطوفان في أناشيد الفيدا ، وهى
أقدم تراث أدبى هندى ألف فيما يبدو في أزمنة مختلفة تقع بين سنة
١٥٠٠ ، ١٠٠٠ ق.م. في الوقت الذى كان فيه الآريون لا يزالون
مستقرين في البنجاب ، قبل أن ينتشرون شرقا في وادى نهر الكنج ••
ولكن الأدب السانسكريتى المتأخر احتوى على حكاية شهيرة عن
الطوفان ، ترد في صور مختلفة مع احتفاظها بالملامح العامة واختلافها
في بعض التفاصيل • وربما كان كافيا أن نشير الى أقدم رواية معروفة
لهذه الحكاية ، وهى تلك التى نصادفها في « ساتاباثا براهمانا » وهى
رسالة مهمة باللغة النثرية عن الطقوس المقدسة • ويعتقد الباحثون ان
هذا المؤلف قد كتب قبل ظهور البوذية بزمان غير طويل • ومعنى هذا أنه
ليس متأخرا عن القرن السادس قبل الميلاد • ثم احتل الآريون بعد
ذلك الوادى الأعلى من نهر « الكانج » ، كما احتلوا وادى نهر
« الهندوس » ، ولكنهم كانوا فيما يبدو آنذاك قليلى التأثير بحضارة
آسيا الغربية وحضارة بلاد الاغريق • ومن المؤكد أن تيار الأفكار
الاغريقية ، والفن الاغريقى جاء متأخرين بعد ذلك بقرون مع غزو
الاسكندرية عام ٣٢ ق.م. وتروى حكاية الطوفان الكبير كما هى مدونة
في « ساتاباثا براهمانا » كالآتى :

في الصباح أحضروا الماء « لمانو » كي يغتسل ، كما تعود الناس أن يحضروا الماء لغسل الأيدي • وبينما كان « مانو » يغتسل ، أمسكت يده بسمكة قالت له : « استمع الى فسوف أنقذك » • فسألها « مانو » من أى شيء سوف تتقذيني ؟ فأجابته السمكة : « سوف يأتي طوفان يحمل معه كل هذه المخلوقات ، ومن هذا الطوفان سوف أنقذك » • فسألها « مانو » : « ولكن كيف يمكنني أن أنقذك أنت من الطوفان ؟ » فأجابت : « مادمننا نحن على هذا النحو من ضالة الجسم ، فان الهلاك يلحق بنا ، فالسمكة تبتلع أختها السمكة • ولهذا فعليك أن تحفظني داخل وعاء ، فاذا كبرت لم يعد الوعاء يتسع لجسمي ، فاحفر حفرة في الأرض خبئني بداخلها • فاذا كبرت بعد ذلك فخذني واطرحني في البحر وهناك أكون بعيدة عن عوامل الهلاك • وكبرت السمكة وأصبحت « غاشا » (أى سمكة كبيرة) ، لان هذه السمكة تكبر حتى يفوق حجمها أى نوع آخر من السمك • وعند ذاك قالت السمكة « لمانو » : « أن الطوفان سيحدث في سنة كذا وكذا ، وعند ذاك تحضر الى راكبا سفينة تعدها لهذا الغرض • فاذا علا الطوفان فعليك أن تدخل الى السفينة ، وعلى أن أنقذك منه » • وبعد أن أنقذها « مانو » على نحو ماشرحت له ، أخذها وطرحها في الماء ، ثم حدث الطوفان في السنة التي حددتها له • وعند ذاك أعد « مانو » السفينة وفقا لنصيحة السمكة • ولما علا الطوفان دخل في السفينة • وجاءت اليه السمكة سابحة ، فربط حبل السفينة في قرننها وأبحرت به السفينة على هذا النحو في اتجاه الجبال الشمالية • ثم قالت له السمكة « هأنذا قد أنقذتك ، فاربط السفينة في شجرة ولا تدع المياه تجرفها وأنت مستقر فيها على الجبل • وعندما تنحسر المياه ، يمكنك أن تهبط منها على مهل » • فهبط « مانو » من السفينة وهي راسية على الجبل ، ولهذا سمي منحدر الجبل الشمالي « مهبط مانو » • أما سائر المخلوقات فقد أغرقها الطوفان ولم ينج منه سوى « مانو » •

لما كان « مانو » يود أن تكون له ذرية ، فقد عكف على العبادة ،

والزم نفسه بالنقشف • كما كان يقوم في أثناء ذلك بتقديم ضحية « الباك » : فكان يمزج الماء بالزبد الصافي واللبن الرائب والشيراز وماء الجبن • وفي خلال عام تكونت امرأة من هذا المزيج • ولما تماسكت عجينتها هبت واقفة وقد تجمع الزبد النقي في أثر قدميها • ثم قابلتها «مترا» و «فارونا» وسألاها : «من أنت ؟» فردت عليهما قائلة : « اننى ابنة مانو • ففالا لها : « بل قولى انك ابنتنا » فأجابت : « لا ، بل اننى ابنته وهو الذى خلقنى » • فرغبا فى أن يكون لهما نصيب فيها ولكنها لم تعلن موافقتها أو رفضها لذلك وتركتهما ورحلت الى « مانو » فسألاها : « من أنت ؟ » فأجابه : « اننى ابنتك » ؟ فسألاها : « وكيف تكون ابنتى على هذا النحو من الجمال الرائع » ؟ فأجابت : « لقد شكلتنى من الماء الذى مزجت به الزبد النقي واللبن الرائب وماء الجبن والشيراز • اننى أنا البركة عليك أن تتفجع بى فى تقديم الضحية • فان فعلت هذا فستصبح غنيا فى نسلك وحرثك ، فأية بركة تطلبها من الالهة عن طريقى سيتمنح لك • فاستخدمها « مانو » بناء على ذلك كما تستخدم البركة وسط الضحية • ذلك أن ما يتوسط ما قبل الضحية وما بعدها يكون وسط الضحية • ثم أخذ يصطحبها معه فى عبادته ومراسم تصوفه متضرعا الى الالهة أن تمنحه الذرية • وقد منحته الالهة منها الذرية وهى ذرية « مانو » وكان كلما طلب بركة من خلالها ، منحتها اياه الالهة » •

٦ — حكايات هندية حديثه عن الطوفان الكبير :

تحكى قبيلة « بهيل » وهى قبيلة متوحشة تسكن أحراش « الهند الوسطى » ، أنه كان فى سالف الزمن رجل ورع « ذوبى » ، اعتاد أن يغسل ملابسه فى النهر • فحذرتة سمكة من قرب حدوث طوفان كبير ، وأخبرته بأنها جاءت لتحذره من هذا الطوفان وتحثه على أن يصنع تابوتا كبيرا يهرب فيه من الطوفان ، جزاء له على سلوكه الانسانى فى اطعام السمك على الدوام • فصنع الرجل الورع التابوت ، بناء على

ذلك ، ودخل فيه هو وأخته ومعهما ديك • وبعد أن انتهى الطوفان ، أرسل الاله « راما » رسله ليستطلع شئون الناس • وسمع الرسول صياح الديك ، وبذلك اكتشف الصندوق • فأمر باحضاره وسأل الرجل عن هو وعن كيفية هروبه على هذا النحو • فقص عليه الرجل الورع قصته • فأدار « راما » وجهه الى الشمال والى الشرق والى الغرب وأقسم على أن المرأة التى معه هى أخت الرجل بحق • فأجاب بأنها بحق اخته • فأدار « راما » وجهه مرة أخرى الى الجنوب ، فاذا بالرجل يناقض نفسه ويقول ان المرأة زوجته • وعند ذاك سأله راما عن دله على الهروب • ولما علم منه أنها السمكة ، أمر توا بأن يقطع لسانها ايلاما لها ، وبذلك أصبح هذا النوع من السمك بدون لسان حتى اليوم • وبعد أن نفذ راما حكمه على السمكة لافشائها السر ، أمر الرجل بأن يعمر الأرض الخراب • وبناء على ذلك تزوج الرجل أخته وأنجب منها سبعة بنين وسبع بنات • ومنح « راما » الابن الاول حصانا هدية • ولكنه لما لم يستطيع ركوبه ، تركه فى السهول وذهب ليقطع الخشب من الغابة وبذلك أصبح خطابا كما صار نسله « البهيليون » يقطعون الخشب من الغابات حتى اليوم • ويشبه تحذير السمكة لصانع الجميل فى الحكاية البهيلية ، الحادثة المقابلة لها فى الرواية السنسكريتية عن الطوفان شبيها كبيرا ، بحيث يصعب النظر اليها مستقلة عنها • ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كان « البهيليون » قد أخذوا هذه الحكاية عن الغزاة الآريين ، أم أن الآريين عرفوها عن السكان الأصليين الذين اختلطوا بهم فى أثناء غزوهم للبلاد • وهناك ما يؤيد وجهة النظر الثانية ، وهى أن حكاية الطوفان لم ترد فى أقدم الآداب السنسكريتية بل وردت فى كتب دونت بعد أن استقر الآريون فى الهند فى زمن طويل •

ويحكى « الكارميون » ، وهم قبيلة درافيدية صغيرة تسكن مقاطعة « رايبور » والولايات المتجاورة لها فى أقاليم الهند الوسطى ، يحكون الحكاية التالية عن الطوفان الكبير : فهم يقولون أن الاله خلق رجلا وامرأة فى بداية الحياة ، وأنجبا بعد كبرهما ابنا وبناتا • ثم أرسل

الاله الى الارض طوفانا لكى يغرق ابن آوى لانه كان قد أغضبه • فلما علم الزوجان الهرمان بقدوم الطوفان ، وضعا ابنيهما فى جذع شجرة مجوف • ووضعوا معهما مئونة تكفيهما حتى انتهاء الفيضان ، ثم اغلقا عليهما الجذع • وفى الحال فاض الماء ودام فيضانه اثنتى عشرة عاما • وغرق الرجل والمرأة وسائر مخلوقات الأرض جميعا ، فى حين ظل جذع الشجرة طافيا على صفحة المياه • وبعد اثنى عشر عاما خلق الاله طائرين وأطلقهما لييصرا ما اذا كان ابن آوى عدو الاله قد غرق • فانطلق الطائران الى كل ركن من أركان العالم ، ولكنهما لم ييصرا سوى كتلة من الخشب تطفو على سطح الماء • فاستقرا فوقها ، وسرعان ما سمعا أصوتا خافتة رقيقة تنبعث من داخلها ، فقد كان الطفلان يقول أحدهما للآخر ان المئونة لن تكفيهما سوى ثلاثة أيام أخرى • وعند ذلك طارا وأخبرا الاله بما سمعاه ، فجعل الطوفان ينحسر فى الحال ، وأخرج الطفلين وسمع منهما قصتهما • فرباهما الاله حتى تزوجا ، وسمى كل ولد لهما باسم السلالة التى تناسلت عنه • ومن هذه الاولاد جميعا تناسل الجنس البشرى الذى يعيش على وجه الأرض • ونلاحظ ان حادثة الطائرين فى هذه الحكاية تذكر بحادثة الغراب والحمامه فى حكاية الكتاب المقدس التى ربما وصلت الى « الكامارين » بتأثير المبشرين •

وتحكى « حوليات أسام » أن الطوفان فاض على العالم فى سالف الازمان ، وأغرق الناس جميعا عدا رجل وامرأة كانا قد هربا الى قمة تل « لينج » وتسلقا شجرة واختفيا بين فروعها • وكانت الشجرة تنمو بجوار بحيرة كبيرة مياهها زرقاء بلون عين الديك • وقضى الرجل والمرأة الليل جاثمين على الشجرة • وفى الصباح فوجئا لدهشتهم بأنهما قد تحولوا الى نمر ونمرة • ولما أبصر الخالق واسمه « باثيان » ما حل بالأرض من دمار ، أرسل رجلا وامرأة من كهف يقع على تل ليعمرا الأرض الغرقى بالناس وفزع الزوجان عند خروجهما من الكهف لرؤيتهما النمر والنمرة المهولين ، فخاطبا الخالق قائلين « يا أبانا ، لقد أرسلتنا

الى الارض لنعمرها ولكننا نعتقد أننا لى نستطيع أن نحقق مأربك
مادامت الارض غريقة تحت المياه ، وما دام المكان الوحيد الذى يمكننا
أن نستقر عنده يعيش فيه وحشان مفترسان يتأهبان لافتراسنا .
فامنحنا القوة لكى يقضى عليهما » . ثم تمكن الزوجان بعد ذلك من قتل
الوحشين ، وعاشا سعيدين ، وانجبا البنين والبنات الذين عمروا الأرض
الغرقى بنسلهم فيما بعد .

٧ - حكايات الطوفان الكبير فى شرق آسيا :

يحكى « الكارينيون » سكان بورما أن الارض أصابها طوفان فى
قديم الزمان ، وتمكن أخوان من الهروب منه على رمت فوق الماء . ثم
أخذت المياه تعلو حتى وصلت الى السماء . وأبصر الأخ الأصغر شجرة
مانجو تتدلى من قبو السماء ، فتسلقها وهو على وعى كامل بما يفعله ،
وأكل من ثمارها . ولكن الطوفان انحسر فجأة تاركا الأخ الأصغر معلقا
فى الشجرة . والى هنا تنتهى الحكاية فجأة ، وقد تركتنا نحس كيف
تخلص الأخ الأصغر من هذا المأزق الخطير . وبالمثل يروى
« الشينجبوريون » أو « السينجفو » الذين يسكنن شمال بورما حكاية
عن الطوفان الكبير . فهم يقولون : انه عندما أصاب الطوفان الأرض ،
استطاع رجل يدعى « بوبر نان - تشونج » وأخته التى تدعى « تشانج
- هكو » أن يهربا من الطوفان فى مركب كبير ، وأن يأخذا معهما تسع
ديوك وتسع ابر . وبعد سقوط الامطار وهبوب العواصف ببضعة أيام ،
أطلقا من المركب ديكا ، ورميا ابرة . ولكن الديك لم يؤذن ، كما لم
يسمع للابرة صوت وهى تصطدم بقاع الماء . وعند ذاك ترك الأخ
وأخته المركب وأخذ يتجولان فى الارض حتى وصلا الى كهف يسكنه
جنيان أو غولان (نات) أحدهما ذكر والآخر أنثى . فتوسلا اليهما أن
يمكنهما ويستغلا وجودهما فى ازالة الأحراش ، وفلاحة الارض ،
وقطع الأخشاب ، واحضار المياه . ففعل الأخ وأخته ذلك ، ثم لم تلبث
الأخت أن ولدت طفلا . وقد تعودت الجنية أن ترعى المطفل فى أثناء
غياب الوالدين . وعندما كان المطفل يبكى كانت تهدده بأنها ستقرم لحمه

عند مكان تتشعب منه تسعة طرق ، اذا لم يكف عن بكاءه • حتى كان يوم ضاقت الجنية فيه بالطفل ذرعا ، فانتزعته في غضب ، وأسرعت به الى المكان الذى تلتقى عنده الطرق التسعة ، وقطعته اربا ، ونثرت دماءه ، ورمت أشلاءه فى الطرق التسعة وفى البلد التى تحيط بها • ولكنها حملت معها بعض قطع جسده وصنعت منها بهارا هنديا شهيا • ثم وضعت قطعة من الخشب فى سرير الطفل • فلما عادت الأم من عملها وسألت عن طفلها ، قالت لها الجنية : « انه نائم ، وتناولى أنت طعامك من الأرز » فاكلت الأم الارز والبهار ثم عادت الى سرير ابنها • ولكنها لم تجد بالسرير سوى قطعة من الخشب • فلما سألت الأم عن ابنها اجابتها الساحرة فى غلظة وقالت لها : « لقد أكلته أنت » • فهربت الام المسكينة من البيت وأخذت تصرخ وتولول عند مفترق الطرق ، وهى تتوسل للروح الكبير أن يرجع لها ابنها أو ينتقم من قاتله • فظهر لها الروح وقال لها : « ليس فى وسعى أن استجمع أشلاء ابنك المتناثرة وأعيده اليك كما كان • ولكنك ستصبحين أما لرجال العالم ، بعد أن كنت أما لابن واحد » • ثم برز أثر ذلك الشانليون من طريق ، والصينيون من طريق ثان ، والبورميون من طريق ثالث ، والبنغاليون من طسريق رابع ، وسائر أجناس الأرض من بقية الطرق التسعة • وادعت الام بنوتها لهؤلاء جميعا لأنهم نشأوا من أشلاء ابنها المتناثرة فى الطرق التسعة •

ويحكى « الباهناريون » ، وهم قبيلة فى الهند الصينية ، كيف أن حداة تشاجرت ذات يوم مع سرطان البحر ونهشت جمجمته فى عنف الى درجة أنها أحدثت فيها فتحة لا تزال ترى حتى اليوم • ولكى ينتقم سرطان البحر من هذا الحادث • جعل البحار والانهار تفيض ، حتى وصل الماء الى السماء ، وهلكت الكائنات الحية جميعا عدا أخا وأخته استطاعا أن يهربا من الفيضان داخل تابوت كبير بعد أن أخذوا معهما زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان ، ثم أحكما أغلاقه عليهما وعاما به على سطح الماء سبعة أيام وسبع ليال • ثم سمع الأخ ديكاً يصيح خارج الصندوق • وكانت الأرواح قد أرسلت هذا الديك الى جدينا لكى

يعرفا أن الطوفان قد انلحسر حتى يتمكننا من مغادرة التابوت • وعند ذاك أطلق « الاخ الطيور » ومن بعدها الحيوانات الأخرى ، ثم خرجت الأخت وسارت على الأرض • ولم يتمكن الاخ وأخته أن يعيشا على وجه الأرض لان مؤننتهما كانت قد نفذت عن آخرها • ولكن نملة سوداء أحضرت لهما حبتين من الأرز فزرعهما الاخ • وفي الصباح التالي كانت السهول تمتلئ بالارز • وبهذا أنقذ الاخ وأخته من الجوع •

وتحكى قبيلة « بنوا — جاكون » وشى قبيلة بدائية أصلية تسكن ولاية « جوهور » فى شبه جزيرة الملايو — تحكى أن الأرض التى نقف عليها ليست جامدة ، بل هى مجرد غطاء من الجلد يغطى لجة الماء • وقد حدث فى قديم الزمن أن شق الاله « بيرمان » هذا الجلد فتسربت المياه وفاضت على الأرض ودمرتها • على أن « بيرمان » عاد فخلق رجلا وامراة ووضعهما فى سفينة مصنوعة من خشب « البولاي » ثم أحكم اغلاقها بحيث لم يكن فيها منفذ واحد • وظل الزوجان فى داخل السفينة وهى تتخبط بهما على سطح الماء • ثم رست السفينة • فخرج منها الزوجان وسارا على الأرض الصلبة ، وتصورا أن العالم كله هو ما امتد أمام أعينهما الى الأفق • وقد كان الكون مظلمًا فى بادئ الأمر ، اذ لم يكن هناك صباح أو مساء ، لان الشمس لم تكن قد خلقت بعد • فلما أشرقت الشمس أبصرا سبع شجيرات من اشجار الدفلى وسبعة أكوام من الحشائش التى تسمى « السامبو » • ثم قال أحدهما للآخر : « يا له من منفى كئيب ذلك الذى نعيش الآن فيه بلا أبناء ولا احفاد » • ولكن المرأة حملت بعد حين فى بطنى ساقها ، وأنجبت من بطن ساقها اليمنى ذكرا ومن بطن ساقها اليسرى انثى • ولما كبر هذان الوليدان تزوجا ، اذ لو كانا ولدا من بطن واحدة لما صح زواجهما • ومن هذين الزوجين تناسلت الأجناس البشرية جميعا على وجه الأرض •

وتلعب أسطورة الطوفان دورا كبيرا فى أغانى « اللولين » الشعبية ، وهم جنس أصلى يحتل أكثر الجبال رسوخا وشموخا على وجه التقريب فى « يونان » ومناطق أخرى فى جنوب غرب الصين ، حيث

نجحوا في توطيد استقلالهم ضد الزحف الصيني • وهم أبعد ما يكونون عن الهمجية ، اذ انهم اخترعوا طريقة للكتابة هي أصلها كتابة تصويرية دونوا بها أساطيرهم وأغانيهم وأنسابهم وطقوسهم الدينية ، وتوارثوا هذا التراث المدون جيلا بعد جيل بعد نسخه عدة مرات • ويعتقد شعب « لولو » في وجود شيوخ يعيشون في السماء حتى اليوم ، وكانوا من قبل يعيشون في العالم الارضى حيث عمروا تسعمائة وستين عاما ، بل ربما تسعمائة وتسعين عاما ، وبذلك فاقوا في تعميرهم « متوشالغ » (١) نفسه • وكل أسرة في هذا الشعب تضم افرادا يجمعهم اسم واحد تدفع ضريبة الولاء لشيخ بعينه • ومن أشهر هذه الشخصيات الأسطورية شخص يدعى « تسي - جو - وريه » الذى يتمتع بكثير من الصفات الالهية ، فهو الذى أصاب الجنس البشرى بالموت عندما فتح الصندوق الخطير الذى يحتوى حبوب الفناء ، وهو الذى تسبب أيضا في حدوث الطوفان • وقد حدثت كارثة الطوفان على النحو التالى بعد أن أصبح سكان الأرض آثمين ، ارسل « تسي - جو - دزيه » اليهم رسولا يطلب سكان الارض آثمين : ارسل « تسي - جو - دزيه » اليهم رسولا يطلب بعض اللحم والدم من انسان فان ، فلم يكثر أحد لمطلبه عدا رجلا واحدا أسمه « دو - مو » • فأغلق « تسي - جو - دزيه » في غضبه بوابات المطر التى تتدفق اليها المياه • فتسربت المياه الى الارض وأخذت تملأ الى السماء • أما « دو - مو » الذى عمل بنصيحة الاله ، فقد أنقذ هو وأبناءؤه الاربعة بأن لجأوا الى تجويف في كتلة من الخشب من شجرة « البيريس » ، وأخذوا معهم ثعالب البحر والبط البرى وسمك الشلق • وقد تناسل من هؤلاء الأبناء الاربعة فيما بعد الشعوب المتحضرة التى تعرف الكتابه مثل « الصينيين » و « اللولوبين » أما السلالة الامية فتتنسب الى الاشكال الخشبية التى كان قد صنعها « دو - مو » بعد أن انتهى الطوفان لكى يعمر بهم الارض الخراب •

(١) ظهر هذا الاسم في الخطوط العبرية القديمة بوصفه كاهنا عبريا ، وهو أكثر شخصية عمرت في الكتاب المقدس ، اذ يتراوح عمره بين ٥٢٧ ، ٩٢٩ عاما . وفقا للتاريخ العبرى انه توفي عام الطوفان .
(المترجمة)

ولا تزال الواح الاجداد التى يعبدها « اللولوبون » فى أيام معينة من السنة وفى كل مناسبات حياتهم المهمة ، ما تزال تصنع حتى اليوم من نفس نوع الشجرة التى لجأ جدهم الاكبر « دو — مو » الى تجويفها هروبا من الطوفان • وتكان تبدأ كل أسطير « اللولوبين » على وجه التقريب بإشارة الى هذا الجد أو الى الطوفان الكبير • وينبغى لنا أن نذكر فيما يختص بأصل هذا الطوفان أن « اللولوين » عموما يتخذون من اليوم السابع فى الاسبوع يوم راحة لهم ، فيمتنعون عن فلاحه الارض كما لا يسمح للنساء فى بعض الجهات بحياكة الملابس أو غسلها • ويبدو أن هذه العادة ، بالإضافة الى تراثهم عن شيوخهم وعن الطوفان ، تكشف عن تأثير مسيحي • وربما كان « أ • هنرى » على حق فى أن يعزو هذا كله الى تعاليم المبشرين النسطوريين ، فقد كانت الكنائس النسطورية تنتشر فى « يونان » فى القرن الثالث عشر عندما كان « ماركوبولو » يقوم برحلته هناك ، كما قيل ان « ألوبين » النسطرى وصل الى الصين فى زمن مبكر حوالى ٦٣٥ ب.م •

ويروى عن « الكامشاداليين » رواية عن الطوفان الذى أغرق العالم كله فى بداية الحياة • وقد نجت البقية الباقية من الناس بأن طفوا على كتل خشبية من سيقان الاشجار ربط بعضها البعض الآخر ، بعد أن حملوا معهم متاعهم ومثونتهم وكانوا يدلون الاحجار فى الماء بعد أن يربطوها بأحزمة لتقوم مقام المرساة حتى لا يجرفهم الفيضان الى الماء • فلما انحسر الطوفان خلف وراءه الناس وكتلهم الخشبية على قمم الجبال وقد جفت •

وفى دائرة معارف صينية صادفتنا الفقرة التالية : « اقليم التتار الشرقى » (١) اذا اتجه المسافر من شاطئ البحر الشرقى الى « شى — لو » فانه لا يصادف أنهارا أو بحيرات فى هذه المنطقة على الرغم من أن الجبال تخترقها والوديان • ومع ذلك فاننا نجد فى الرمال فى مناطق بعيدة كل البعد عن البحر ، الاصداف البحرية وهياكل السرطان البحرى • ويحكى « المنغولويون » الذين يسكنون هذا المكان أنه قد

(١) وهو المعروف كذلك باسم منغوليا الخارجية (المترجمة)

بلغهم عن سالف الازمنة أن طوفانا أغرق بلادهم في عهد سحيق فلما انحسر الطوفان ترك الاماكن التى كانت تغطيها المياه مكسوة بالرمال •

٨ — حكايت عن الطوفان الكبير فى الارخبيل الهنوى :

يحكى « الباتاكيون » سكان سومطرة أن الخالق الذى يسمونه « ديباتا » أرسل طوفانا الى الارض ليهلك كل ما عليها من كائنات حية ، وذلك بعد أن هرمت الارض وصارت دنسة • وقد تمكن آخر زوجين بشريين فيها أن يهربا الى قمة أكثر الجبال ارتفاعا ، وكانت المياه قد ارتفعت حتى وصلت الى ركبتيهما ، عندما عدل « رب الجميع » عن رأيه فى القضاء على الجنس البشرى عن آخره ، فأخذ حفنة من التراب وعجنها وربط العجينة فى خيط دلاه على صفحة المياه ، فخطا الزوجان على العجينة وبذلك أنقذا • وكان كلما تكاثر نسل هذين الزوجين ، كبرت العجينة الطينية فى حجمها حتى تكونت الارض التى نعيش عليها اليوم •

ويحكى سكان « انجانو » ، وهى جزيرة فى غرب سومطرة ، حكاية عن الطوفان الكبير • فهم يقولون ان موج البحر ارتفع ذات يوم حتى غمر الجزيرة وأغرق كل ما عليها من كائنات حية عدا امرأة واحدة • وقد نجت هذه المرأة اثر حادثة سعيدة وهى أن شعرها أمسك بشجرة شائكة ، بينما كان التيار يجرفها ، وبذلك تمكنت من تسلق الشجرة • فلما انحسر الماء هبطت من أعلى الشجرة • ولكنها رأت لحزنها البالغ أنها قد تركت وحدها فى هذا العالم • ولما بدأت تشعر بالجوع ، أخذت تتجول فى الجزيرة بحثا عن طعام • ولما لم تجد شيئا تأكله ، رجعت الى الشاطئ وقد ملأها النغم آملة أن تصطاد سمكة • ولقد أبصرت بالفعل سمكة حاولت أن تمسك بها ، ولكن السمكة تسربت واختبأت فى أحد الاجساد الطافية على الماء ، أو فى أحد الاجساد التى كانت ترمى على الشاطئ • وحتى لا تضيع المرأة الفرصة منها التقطت حجباً وضربت به الجسد ضربة عنيفة • ولكن السمكة انسلت من مخبئها فى الجسد الملقى على الشاطئ وتسربت الى الجثة الطافية على الماء •

فتبعته المرأة ، ولم تكذ تخطو بضعة خطوات حتى أبصرت لدهشتها رجلا حيا • ولما كانت المرأة تعلم أنها هي البشر الوحيد الذى أنقذ من الطوفان فقد بادرت بالسؤال عما كان يفعله هناك • فأجابها بأن شخصا ركل جسده المتوفى ، فكانت النتيجة أن عادت الحياة اليه • وعند ذاك قصت عليه المرأة قصتها ، وانتهيا الى أن يحاولا إعادة الحياة الى الموتى على هذا النحو بضرب أجسادهم بالحجارة • فلما فعلا هذا عادت الارواح الى الاجساد بتأثير الضرب ، وبذلك عمرت الجزيرة بالناس مرة أخرى •

« والابانيون » أو « دياكيو البحر » (١) الذين يسكنون « ساراواك » فى « بورنيو » مغرمون برواية حكاية تحكى كيف نجا الجنس البشرى من الطوفان الكبير ، وكيف اهتدى أجسادهم الى طريقة لاشعال النار • والحكاية تجرى على النحو التالى فى ذات مرة خرجت بعض النساء الدياكيات ليجمعن براعم الخيزران للأكل • فلما جمعنها سرن خلال الادغال حتى وصلن الى شكل حسبته شجرة هاوية ، فجلسن فوقها ، وأخذن يقشرن براعم البامبو • ولشدة دهشتهم لاحظن أن الشجرة تقطر دما كلما قطعن البراعم بالسكين • وفى تلك اللحظة ظهر بعض الرجال الذين أبصروا فى الحال أن ما يجلس عليه النسوة ليس شجرة بل ثعبان أصلة هائل فى شبه غيبوبه • فقتلوا الأصلة فى الحال وقطعوها اربا وحملوا لحمها معهم الى بيوتهم • وبينما كانوا منشغلين بشواء اللحم ، سمعوا أصواتا غريبة تنبعث من وعاء التحمير ، وأخذ المطر الغزير يهطل ، ولم يكف عن السقوط حتى غطت المياه التلال ماعدا أعلاها ، كما غرقت الأرض جميعا • وقد حدث كل هذا بسبب قتل هؤلاء الأشقياء للأصلة وشوائهم لحما •

(١) هم مجموعة من الشعوب وكانوا يسكنون بين دولة رومانيا الحالية وبامير أى كانوا يسكنون وسط روسيا وبرارى قزوين •
(المترجمة)

وقد أهلك الطوفان جميع الكائنات الحية عدا امرأة واحدة وكلباً وفأراً وبعض الحشرات الصغيرة التي تمكنت من الهروب الى أعلى قمم الجبال • ثم لاحظت هذه المرأة وهي تبحث لنفسها عن مأوى من الأمطار الهائلة ، أن الكلب قد وجد مكاناً دافئاً تحت نبات متسلق كان يتأرجح في الهواء يمينه ويسرة لى يدفع نفسه عن طريق احتكاكه بساق الشجرة • فأدركت في الحال كيف يمكن أن تتولد النار ، فأخذت قطعة من الخشب وحكتها بشدة في النبات المتسلق فتولدت النار لأول مرة • وبهذا اهتدى الناس الى طريقة اشعال النار عن طريق الزناد بعد حدوث الطوفان • ولما لم يكن للزوجة رجل ، فقد اتخذت من الزناد زوجاً لها ، وولدت منه ابناً كان يدعى « شيمبانج – امبانج » ولم يكن هذا الابن ، وفقاً لما يعنيه اسمه ، سوى نصف رجل ، حيث أنه لم يكن له سوى ذراع واحدة ، وساق واحدة ، وعين واحدة ، ووجنة واحدة ، ونصف جسم ونصف أنف • وقد استاء رفاقه من الحيوانات لهذه العيوب الخلقية • ولكنه استطاع في النهاية أن يتخلص من هذه العيوب بأن استغل فرصة أن روح الريح كان قد بعثر أرزاً كان « شيمبانج – امبانج » قد نشره ليحف ، فساومه على تعويضه عن هذا الضرر ولو بشيء زهيد • ولكن بعد أن قهر « شيمبانج – امبانج » روح الريح في عدة مبارزات ، وافق على أن يمنحه الأجزاء الناقصة من جسمه حتى يصبح رجلاً كاملاً ، وذلك بدلاً من تعويضه بالنقود أو بأشياء أخرى ثمينة لم يكن « شيمبانج – امبانج » يملك منها شيئاً بحق • ووافق « شيمبانج – امبانج » في سعادة بالغة على هذا الاقتراح ، ومنذ ذلك الوقت أصبح للانسان أعضاء كاملة مثل أعضاء « شيمتانج – امبانج » •

وهناك رواية « دياكية » أخرى لهذه الحكاية تحكى أن رجلاً بعينه يدعى « ترو » صنع ، عندما بدأ الطوفان ، سفينة من هاون خشبي ضخيم كان يستخدم حتى هذا الوقت في سحق الأرز • ثم ركب

السفينة مع زوجته واصطحب كلبا وخنزيرا ودجاجة وقطة وبعض الكائنات الحية الأخرى ودفعها الى الماء • فأخذت السفينة تجرى في جنون مع التيار حتى انتهى الطوفان • وعند ذاك ترك « ترو » السفينة ومعه زوجته وحيواناته • ثم واجهت « ترو » مشكلة تعمير الأرض بالناس بعد أن أهلك الطوفان الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلجأ الى وسيلة تعدد الزوجات لكي يحل لنفسه هذه المشكلة ، فصنع زوجات من الأحجار والأخشاب ومن سائر المواد التي كانت تقع في يده • وسرعان ما ظفر بعائلة كبيرة تعلمت فلاحه الأرض ، وتناست عنها القبائل الدياكية المختلفة •

وكذلك يحكى « التروودجانيون » الذى يتحدثون اللغة البارية ويسكنون — « سيليبس الوسطى » ، أن الأرض ابتليت ذات مرة بطوفان مهول غطى الجبال العالية عدا قمة جبل « واومتياباتو » • وهم يشيرون الى القواقع البحرية التى توجد على قمم التلال التى تعلو سطح البحر بألفى قدم أو أكثر ، وذلك لى يؤكدوا صحة روايتهم • ولم ينج من هذا الطوفان سوى امرأة حبلى وفأرة حبلى ، بأن جلسا فى مزود خنزير وعاما به على سطح الماء وهما يجدفان بمغرفة بدلا من المجداف ، حتى انحسر الطوفان وأصبحت الأرض صالحة للسكنى • وبينما كانت المرأة تبحث عن حبات من الأرز لتزرعها ، أبصرت حزمة من الأرز تتدلى من شجرة اجتثت من جذرها وجرفها التيار حتى استقرت عند المكان الذى كانت تقف عنده المرأة • فتسلقت الفأرة الشجرة وأحضرت لها حزمة الأرز ، وبذلك تمكنت من أن تزرع الأرز بمعونة الفأرة • وكانت الفأرة قد أخذت عليها عهدا ، قبل أن تسلمها حزمة الأرز ، أن يكون للفئران الحق فى أكل جزء من المحصول وهذا هو السبب فى أن الفئران تحضر كل عام الى الحقول لتأخذ نصيبها فحسب من الأرز الناضج دون أن تترك الحقول جرداء • ثم ولدت المرأة ابنا بعد فترة من الزمن • فلما كبر اتخذته زوجا

لها حتى تنجب أولادا آخرين • وقد أنجبت منه ولدا وبناتا تناسل
عنهما الجنس البشرى كله فيما تعد •

ويحكى سكان « روتى » ، وهى جزيرة صغيرة تقع فى جنوب
غرب « تيمو » أن البحر فاض على الأرض فى قديم الزمان ، فأغرق
الناس جميعا كما أغرق الحيوان وأهلك النبات والأعشاب ولم
يترك بقعة على سطح الأرض الا غطاها بالماء • وحتى الجبال الشامخة
غطاها الطوفان ، عدا قمة جبل « لاكمولا » الذى يقع فى
« بلبا » ، التى برزت وحدها فوق الأمواج • والى هذه القمة لاذ
رجل وزوجته وأولادهما هروبا من الطوفان • وقد ظل الطوفان
يرتفع بعد ذلك شيئا فشيئا لعدة شهور حتى كاد يصل الى
هذه القمة ، مما أفرع هذه الأسرة التى توقعت أن يصل الماء اليها
بعد حين • فأخذت تتوسل الى البحر حتى يعود الى وضعه
الطبيعى ، فرد عليها البحر قائلا : « اننى على استعداد لان ألبى
رغبتكم اذا قدمتم لى حيوانا أعجز عن عد شعره • فطرح الزوج اليه
خنزيرا أعقبه بعنزة وكلب ودجاجة ، ولكن دون جدوى ، اذ استطاع
البحر أن يعد شعر كل منها ، ومن ثم فقد استمر فيضانه •
وفى النهاية طرح الرجل فيه قطعة لم يستطع أن يعد شعرها ،
ولهذا فقد انحسر على الأثر •• وبعد هذا ظهر عقاب البحر ونثر
بعض التراب الجاف على الماء • فهبط الرجل وزوجته وأولادهما
عليه ، وأخذوا يبحثون عن مسكن جديد • عند ذلك أمر الآله عقاب
البحر أن يحضر للرجل كل أنواع الحبوب مثل الذرة والقمح والأرز
والسمسم وبذور البطيخ ، لكى يبذرهما فى الأرض ، ويعيش هو وأسرته
على محصولها • وهذا هو السبب فى أن الناس فى « روتى » يضعون
فى نهاية الحصاد حزمة من سيقان الأرز فى مكان طلق فى القرية ،
على سبيل الضحية لجبل « لاكمولا » • كما أن كلا منهم يطهو
الأرز ويحضره مع ثمار النخيل الهندى وجوز الهند والتبغ والموز
والخبز المصنوع من الفاكهة ويقدم كل هذا قربانا للجبل • وهناك يجتمع

الناس ويقيمون الولائم ويرقصون كل أنواع الرقص تعبيرا عن ولائهم للجبل ، ثم يتوسلون اليه أن يمنحهم محصولا وافرا في العام التالي كذلك ، حتى يجد الناس ما يشبعهم •

ويحكى البدائيون سكان جزر « أندامان » التي تقع في خليج البنغال ، حكاية عن الطوفان يمكننا أن نشير اليها في هذا المجال ، على الرغم من أن هذه لا تنتمي على وجه التحديد الى مجموعة الجزر الهندية • فقد حدث ، وفقا لرواية الأهالي ، أن أصبح الناس ، بعد مضي فترة من خلقهم عاصين وغير مبالين بأوامر الخالق التي حثهم على اتباعها عند خلقهم • فأرسل عليهم وهو في ثورة من الغضب طوفانا كبيرا أغرق الأرض جميعا عدا قمة جبال « ساول » التي يسكن عندها الخالق نفسه • وهلك في الطوفان الكائنات الحية جميعا عدا رجلين وامرأتين كانوا لحسن حظهم راكبين زورقا وقت حدوث الطوفان • فلما انخفضت المياه ، رست الجماعة بقاربها على الشاطئ • لكنهم وجدوا أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه ، اذ كانت كل الكائنات الحية قد غرقت في الطوفان • على أن الخالق الرحيم واسمه « بولوجا » قدم لهم المساعدة بأن أعاد لهم خلق الطيور والحيوانات • ثم بقيت مشكلة اشعال النار ، اذ كان الطوفان قد أطفأ شعلة كل موقد ، وأصبح كل شيء رطبا غير قابل للاشتعال • وهنا ظهر لهم شبح أحد أصدقائهم الغرقى ، لينقذهم في اللحظة المناسبة • فلما أبصر ما هم عليه من غم ، طار الى السماء في صورة طائر القاوند حيث وجد الخالق جالسا وبجانبه النار • فأخذ يحرك النار المشتعلة لكي يحملها بمنقاره الى أصدقائه الذين يعيشون على الأرض بلا نار • ولكنه ، في اضطرابه وسرعته ، أسقط شعلة النار على شخص الخالق المهيب نفسه ، الذي تهيج لحقارة الطائر ولما ألم به من ألم ، وطوح بشعلة النار في سرعة نحو الطائر • ولكن الشعلة أخطأت الهدف وهوت محدثة صفيرا من السماء الى الأرض ، حيث كان الناس يجلسون يئنون ويرتجفون من البرد • وعلى هذا النحو استعاد الانسان النار بعد حدوث الطوفان • وبعد أن

استدفا هؤلاء ، ولم يشغل بالهم شيء محدد ، استعادوا ما حدث لهم من أحداث وبدأوا يتذمرون من قضاء الخالق على الجنس البشرى • وبلغ بهم التذمر مبلغه حتى استقر رأى الأشخاص الأربعة على أن يقتلوا الخالق • ولكن الخالق نفسه نصحهم بأن يعدلوا عن محاولتهم الجاحدة ، وقال لهم فى وضوح بالغ : انه أولى بهم ألا يفكروا فى القيام بهذه المحاولة ، لأنه صلب صلابة الخشب ، ولن تؤثر فيه سهامهم • ولو أنهم جرؤوا بعد ذلك على أن يمسوه بأصابعهم ، فانه سيلوثهم بدماء كل ابن وبنت تولد لهم • وقد كان لهذا التهديد أثره فيهم ، فرضخوا لمصيرهم • وتنازل الخالق الذى هدأت ثورة غضبه بعد ذلك فشرح لهم فى أسلوب هادى أن الناس هم الذين جلبوا الطوفان لأنفسهم بعصيانهم أوامره • واذا هم كرروا هذه الاساءة فى المستقبل ، فانه سيقابلها بعقاب ملائم لها • وقد كانت هذه هى المرة الأخيرة التى ظهر فيها الخالق للبشر وخاطبهم وجها لوجه ، فمنذ ذلك الوقت لم ير سكان جزر « أندمان » الخالق قط ، ولكنهم واطبوا على طاعته منذ ذلك اليوم فى ورع وخوف •

٩ — حكايات استرالية عن الطوفان الكبير :

تحكى قبيلة « كورناى » ، وهى قبيلة استرالية أصلية تسكن فى « جيبيلاند » فى ولاية « فيكتوريا » ، أنه منذ زمن سحيق حدث طوفان أغرق البلاد جميعا ، كما أغرق الشعب الزنجى بأسره عدا رجلا وامرأتين أو ثلاثا • وقد لاذ هؤلاء بجزيرة موحلة تقع بالقرب من ميناء « ألبرت » ، وكانت المياه تحيط بهم من كل مكان • وفى هذا الوقت كان طائر البجع — أو « بونجيل بورون » كما يسميها « الكورنانيون » تسير فى قاربها بالقرب منهم ، عندما أبصرت ما كان عليه هؤلاء من غم ، فأسرعت لتقدم لهم العون • وقد كانت من بين النساء امرأة جميلة للغاية الى درجة أن أغرم بها الطائر ، فأخذ ينقل هؤلاء واحدا تلو الآخر فى قاربه الى بلدهم الأصلى ، عدا المرأة الجميلة التى كانت

كلما خطت الى القارب قال لها : « ابقى أنت ، فان دورك لم يأت بعد » ، وهكذا ظلت وحدها في الجزيرة • ولما خشيت أن يعود اليها الطائر ، فتمكث معه بمفردها ، لم تنتظر رجوعه من رحلته الأخيرة وسبحت الى الشاطئ وبذلك هربت منه • ولكنها قبل أن تترك الجزيرة ، ألبت قطعة من الخشب دثارها المصنوع من جلد الحيوان « الأوبوسوم » ، ووضعتها بجوار النار ، بحيث أصبح هذا الشكل يشبهها تماما • وعندما وصل الطائر لينقلها الى الشاطئ صرخ بها قائلاً : « والآن قد أتى دورك » • ولكن قطعة الخشب لم تعره جواباً • فتملكه الغضب واندفع الى الشكل الذي حسبته امرأة وركله بشدة • وطبعاً أنه لم يؤذ سوى رجله • ويالهما من ألم وغم انتابا الطائر عندما أدرك أن الخدعة قد تمت عليه • عند ذاك أخذ يلون نفسه بلون أبيض حتى يتنكر به ومضى ليحارب زوج تلك المرأة الفاجرة الوقحة التي خدعته • وبينما كان يستعد للمعركة ، ولم يكن قد لون سوى نصف ريشه ، ظهر له طائر بجع آخر • ولما لم يستطع هذا الطائر الجديد أن يتعرف على هذا المخلوق الغريب الذي كان نصفه أبيض ونصفه أسود ، فقد أخذ ينهشه بمنقاره حتى قتله ، وهذا هو السبب في أن طائر البجع يتوزع لونه بين الأبيض والأسود ، في حين أن لونه قبل الطوفان كان أسود فحسب •

أما السكان استراليا الأصليون الذين يسكنون حول بحيرة « تيريس » ، في ولاية « فيكتوريا » فيروون حكاية الطوفان على النحو التالي : حدث ذات مرة أن شربت ضفدعة مهولة مياه العالم جميعها بحيث لم تترك لأحد جرعة من المياه يروى بها ظمأه • وقد شق هذا الأمر على الكائنات الحية بخاصة السمك الذي أخذ يتجول لاهثاً في الأرض الجافة وهو يتوق الى قطرة ماء • وعند ذاك اجتمعت الحيوانات وتدبرت أمرها معا ، واستقرت على أن الطريقة الوحيدة التي تدفع الضفدعة الى أن تمتج الماء ، هي مداعبة خيالها فتضطر الى الضحك • ومن ثم فقد اجتمعت صنف الحيوان أمام الضفدعة

وأخذت تتصرف بحماقة وتمزح بطريقة تجعل الشخص العادى يغرق فى الضحك ، ولكن الضفدعة لم تصطنع حتى الابتسامة ، بل جلست هادئة متجهمة تحملق بعينيها الجاحظتين وخديها المتورمين ، صارمة القاضى . وعند ذاك وقف الثعبان على دنبه ، ليحاول المحاولة الأخيرة ، وأخذ يتلوى ويرقص بطريقة تثير الضحك . وكان هذا المنظر أكثر مما تحتمله الضفدعة فانفجرت أساريرها وضحكت حتى جرت الدموع على خديها ، وتدفقت المياه أثر ذلك من فمها . على أن الحيوانات نالت نصيبا من المياه أكثر مما كانت تنتظر ، حيث أن المياه التى مجتها الضفدعة كانت من الكثرة بحيث تحولت الى طوفان أغرق كثيرا من الناس . وقد كان مصير الناس جميعا الى الهلاك لو لم تكن البجعة قد رحلت فى قاربها والتقطت من كان لا يزال منهم على قيد الحياة .

حكايات عن الطوفان الكبير فى نيوجينيا وميلانيزيا

يحكى أهالى مقاطعة « كبادى » فى « غينيا الجديدة البريطانية » ، أن رجلا بعينه يدعى « لوهيرو » غضب هو وأخوه الأصغر من الناس ، ووضعوا عظمة انسان فى مجرى مائى صغير . فتدفقت المياه فى سرعة ، وأغرقت الأرض ، فاندفع الناس الى الجبال وأخذوا يصعدونها شيئا فشيئا حتى وصلوا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا . وهناك استقروا حتى انحسر الطوفان . وعند ذاك هبط بعضهم الى السهول ، فى حين ظل البعض الآخر يسكن منحدرات الجبال وابتنوا البيوت وفلحوا الأرض . ويحكى « الفالمانيون » سكان « ميناء برلين » الذى يقع على الساحل الشمالى فى « نيو غينيا » ، أن زوجة رجل طيب رأت ذات يوم سمكة كبيرة تسبح فى اتجاه الشاطئ . فصاحت بزوجها الذى لم يتمكن من رؤية السمكة لأول وهلة . فسخرت منه زوجته وأخفته وراء شجرة موز حتى يتمكن من أن يرمى السمكة من وراء الأشجار . فلما أبصرها تملكه الخوف

وارسل الى ابنه وابنته وأطلعهم على السمكة ومنعهم من اصطيادها وأكل لحمها • ولكن أناسا آخرين أخذوا سهما ورمحا وخيطا وأصابوا السمكة وجروها الى الشاطئ • وعلى الرغم من أن الرجل الطيب حذرهم من أكل لحم السمكة ، فإنهم لم يكثرثوا لتحذيره • فلما رأى الرجل ما هم عليه من عناد ، أسرع وجعل زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان يتسلق شجرة ثم تسلق هو وعائلته في النهاية شجرة جوز الهند • أما الناس الأشرار ، فما كادوا يلتهمون لحم السمكة ، حتى تدفقت المياه من باطن الأرض في قوة بالغة الى درجة أن أحدا لم يجد الوقت الذي ينقذ فيه نفسه ، ومن ثم فقد غرق الناس والحيوانات جميعا • وما كاد يصل ارتفاع المياه الى مستوى أعلى شجرة حتى انخفضت في سرعة ، كما كان قد سبق لها أن ارتفعت في سرعة • وعند ذاك هبط الرجل الطيب مع أسرته من أعلى قمم الأشجار وعمر الأرض وفلحها •

وقد قيل أن سكان نهر « ماسبرانو » الذي يقع في « غينيا الجديدة » التابعة لهولندة ، يرون حكاية عن الطوفان الذي تسبب عن فيضان هذا النهر الذي ارتفعت مياهه حتى غطت جبل « فانيسا » ولم ينج منه سوى رجل وزوجته ومعهما خنزير وطائر الشبنم وحيوان الكانجرو وحمامة • وقد تناسل عن الزوجين الجنس البشرى ، كما تناسلت عن هذين الحيوانين والطائرين سائر أنواع الطيور والحيوانات • ولا يزال هناك على جبل « فانيسا » بقايا عظام الحيوانات الغرقى •

ويحتفظ « الفيجانينيون » برواية عن الطوفان الذي يسمونه « فالافو - ليفو » • وبينما يحكى بعضهم أن الطوفان غمر جزءا من الأرض ، فإن البعض الآخر يحكى انه غمر الأرض جميعا • وقد حدثت الكارثة على النهر التالى : كان للاله الكبير « ندينجاي » طائر مهول اسمه « توروكاو » • وقد اعتاد هذا الطائر أن يوقظه في

ميعاد محدد كل صباح • وذات يوم صوب أحد حفيديه ، سواء
 عن طريق الصدفة أم عمدا ، سهامه الى الطائر فأرداه قتيلا ، ثم دفنه
 ليخفى معالم جريمته • وفي اليوم التالي لذلك ، نام الاله طويلا ولم
 يستيقظ في ميعاده المحدد • وغضب الاله كل الغضب لاختفاء طائره
 المحبب اليه ، وأرسل رسوله « أوتو » ل يبحث عنه في كل مكان ، ولكن
 دون جدوى • وأبلغ الرسول الاله بأنه لم يعثر للطائر على أثر • ولكن
 عندما عاود الرسول البحث مرة ثانية ، اكتشفت الجريمة عند عتبة
 باب حفيدي الاله • ولكي يجنب الحفيدان نفسيهما عاقبة غضب الاله
 الثائر ، هربا الى الجبال واحتميا عند قبيلة من النجارين تطوعت
 أن تبني حائزا منيعا تعيش بداخله مع الحفيدين ، لكي يحول بينهم
 جميعا وبين الاله « ندينجاي » وأتباعه ، فلا يجعلهم يتجاوزون
 الخليج • وقد كانت القبيلة عند وعدها حقا ، فشيدت الحاجز الذي
 وقف عنده الاله وأتباعه يحاولون اقتحامه دون جدوى • ولما يئس
 الاله من غزو القبيلة بوسائل الحرب العادية ، سرح جيوشه وفكر
 مليا في اجراء عمل انتقامي حاسم • فأمر السحب الدكناء بأن تتجمع
 وتغجر ما فيها من أمطار غزيرة وتسقطها بغزارة على الأرض الملعونة •
 وأغرقت الأمطار البلاد ومن بعدها التلال ثم الجبال • ومع ذلك فقد
 ظل المتمردون ينظرون الى أسفل من قلعتهم المنيعة غير مكترئين بارتفاع
 المياه • ولكن عندما حطمت الأمواج سورهم الخشبي واقتحمت المياه
 قلعتهم ، صاحوا باله من الآلهة أن يقدم لهم العون • فأرشدتهم
 أحد الآلهة ، وفق إحدى الروايات ، الى أن يصنعوا منصة عائمة من
 ثمار شجر الليمون الهندي ، أو أنه أرسل لهم ، وفقا لرواية أخرى ،
 قاربين لنجاتهم ، أو انه علمهم كيف يبنون مركبا يهربون فيه من
 الطوفان • وقد كان هذا الاله الذي خف لنجدتهم هو « روكورو » ،
 وكان قد جاء في صحبة كبير رجاله « روكولا » • وبعد هذا أبحر
 الحفيدان في قاربين كبيرين ، وأخذا يلتقطان أجساد الغرقى •
 ويحتفظان بها في مركبيهما حتى انحسر الطوفان • على أن هناك رواية
 تذكر أن الأحياء قد أنقذوا بأن وضعوا أنفسهم في أوعية كبيرة طفوا

فيها على سطح الماء • ومهما تعددت روايات الأسطورة « الفيجيانية » ، فانها تتفق جميعا في أن الطوفان أغرق الأرض وأخذ يرتفع حتى غطى أكثر الأماكن ارتفاعا ، وأن من أنقذ من الجنس البشرى هرب في مركب من نوع ما ترك في جزيرة « ميينجها » بعد أن انحسر الطوفان • وقد بلغ عدد الأفراد الذين أنقذوا ثمانية أفراد • وقد فنيت قبيلتان عن آخرهما في الطوفان • وقد كانت إحدى هاتين القبيلتين تتكون من النساء فقط ، في حين كان أفراد القبيلة الثانية لهم أذنان كأذنان الكلاب • وحيث ان الذين أنقذوا كانوا قد استقروا بعد الطوفان على جزيرة « ميينجها » ، فان سكان هذه الجزيرة يدعون أنهم أعلى مرتبة من سائر الفيجيانيين كما يدعون أن زعمائهم كانوا يقومون على الدوام بدور بارز في تاريخ « الفيجيانيين » • وهؤلاء يسمون أنفسهم « رعايا السماء وحدها » • وقد قيل : ان « الفيجيانيين » كانوا في سالف الزمن يحتفظون على الدوام بقوارب كبيرة استعدادا لحدوث أى طوفان آخر ، ولم يكفوا عن اتباع هذه العادة الا في الزمن الحاضر ••

ويحكى « الميلانيزيون » سكان جزر الهيريد الجديدة أن بطلهم الأسطوري الكبير « كات » قد اختفى من الوجود مع الطوفان الذى أغرق العالم • وهم يشيرون على وجه التحديد الى المكان الذى أبحر منه في رحلته الأخيرة ، وهو عبارة عن بحيرة كبيرة تقع في وسط جزيرة جاوة • وقد كانت هذه البحيرة في عهد البطل « كات » سهلا فسيحا تكسوه الغابات • وكان « كات » قد قطع أطول شجرة في الغابة وصنع من جذعها مركبا • واقترب منه أخوته وأخذوا يرقبونه وهو عاكف على بناء المركب والعرق يتصبب منه سواء كان جالسا أو واقفا في ظلال الغابات الاستوائية الكثيفة • ثم سألوه في سخرية « كيف يمكنك أن تجر هذا المركب الكبير الى البحر وسط الغابات الكثيفة ؟ » ولكن « كات » لم يكن يرد عليهم سوى بقوله : « انتظروا حتى تروا ما أفعله » • فلما أتم صنع المركب ، وضع فيه زوجته وأخوته ، وكل الكائنات الحية التى تعيش بالجزيرة حتى أصغر النمل حجما ، وصنع

للمركب غطاء أغلقه دونه ودون أسرته والكائنات التي جمعها • وبعد ذلك أخذت الأمطار تهطل بغزارة ، فامتلاً تجويف الجزيرة بالماء ، وأخذت المياه تتدفق خلال سلسلة التلال في المكان الذي لا تزال شلالات جاوة تتدفق فيه في اتجاه البحر ، محدثة هديراً صاخباً وسط ستار من الرذاذ • وهناك انزلق مركب « كات » على المياه المتدفقة عبر حواجز التلال ومنها إلى البحر حيث اختفى عن الابصار • ويقول الأهالي : أن البطل « كات » قد أخذ معه من كل شيء أجوده عندما اختفى عن الأعين وما زالوا ينتظرون عودته السعيدة حتى اليوم •

١١ — حكايات عن الطوفان في « بولونيزيا » و « ميكرونيزيا » :

وتنتشر أساطير الطوفان الكبير الذي أغرق حشداً هائلاً من الناس بين أهالي مجموعات الجزر التي يجمعها اسماً « بولونيزيا » و « ميكرونيزيا » وتنتشر انتشاراً كبيراً في الباسفيك • وقد قيل لنا : « أن الروايات المختلفة التي تنتشر بين مجموعات السكان المختلفة تتفق في عناصرها الأساسية ، وإن اختلفت في عدد من التفاصيل • فتحكي مجموعة من هذه المجموعات أن الإله « تا أورا » (وهو خالق العالم وفقاً لأساطيرهم) غضب في العصور الأولى على الناس لعصيانهم وأمره ، فحول العالم إلى بحر غرقت الأرض تحته عدا بعض الفتوات البارزة (أوروس) التي ظلت فوق سطح الماء مكونة مجموعات الجزر الأساسية • وأما ما يحتفظ به سكان ولايات « أيماو » من ذكرى هذه الحادثة ، فهو أن رجلاً رسا بقاربه بعد أن انحصر الطوفان بالقرب من بلده « تياتايوا » التي تقع في جزيرتهم ، وشيد معبداً أو (ماراي) تكريماً لآلهه •

وتروى أسطورة الطوفان في تاهيتي ، على النحو التالي : لقد حدث أن أغرق البحر « تاهيتي » عن آخرها ، بحيث لم يعيش فيها رجل أو خنزير أو كلب أو دجاجة • وقد اطلحت الرياح بحدائق الأشجار والاحجار وقلبت باطن الأرض ظاهراً • ولم ينج من هذا الدمار

سوى رجل وامرأة ، فعندما بدأ الطوفان يزحف الى البلاد ، حملت المرأة أفراخها الصغيرة • وكلبها الصغير وقطتها الصغيرة ، في حين حمل الزوج معه خنزيره الصغير (وهذه هي كل انواع الحيوانات التى كان يعرفها الأهالى قديما • وحيث أن كلمة « فاثاوا » أى الصغير تستعمل للمفرد والجمع ، فان عدد الحيوانات هنا قد يكون فردا وقد يكون جمعا •) وقد اقترح الزوج على زوجته أن يأوى الى جبل « أوروفينا » ، وهو جبل عال فى « تاهيتى » ، حيث ان هذا الجبل ، كما قال لها ، شاق لا تصله مياه البحر • فعارضته الزوجة فى ذلك ورأت أنه من الافضل أن يأويا الى جبل « أوبيتوهيتو » حيث يكونان فى مأمن من الطوفان ، لان المياه يمكن أن تصل الى جبال « أوروفينا » • فامتثل الرجل لرأى زوجته التى كانت على حق فى تصورها ، اذ أن المياه غمرت جبل « أوروفينا » بحق ، فى حين وقف جبل « أوبيتوهيتو » شامخا فى عرض المياه ، والصبح ملاذهم • وهناك أخذا يرقبان الفيضان ثمانى ليال حتى بدأ الجزر وبرزت قمم الجبال فوق الأمواج • فلما تراجع البحر الى مكانه الأصلي ، ترك الارض يابا بلا محصول أو اناس ، بل أن السمك كان قد هرب الى الكهوف والجحور التى بالصخور • وقد كانت من الامثلة التأهينية المشهورة : « أحفر جحرا للسمكة فى الماء » • فعندما سكنت الريح وأصبح كل شىء هادئا ، وأخذت الأشجار والأحجار تتساقط من عل حيث كانت الريح قد أطاحت بها هناك • ذلك أن الزوابع كانت قد مزقت الأشجار وحملتها الى أعلى فى شكل دوامة • ونظر الاثنان من حولهما ، وقالت المرأة للرجل : « لقد نجينا من البحر ولكن هاهى ذى الحجارة المتساقطة تحمل الينا الموت ، غالى أين نلجأ الآن ؟ وعند ذاك حفر الاثنان حفرة وفرشاها بالحشائش وغطياها بالأحجار ، ثم زحفا الى داخلها ، وقبعا فيها وهما يستمعان الى صوت الصخور الساقطة من السماء • وهى تهدر وتتصادم • ثم أخذ سقوط الاحجار يقل تدريجيا بعد ذلك ، سوى بعض الصخور التى كانت تسقط بين الحين والآخر ، أعقبها سقوط أحجار متناثرة حتى كفت كلية عن السقوط • وعند ذاك قالت المرأة للرجل : « لا لن أخرج حتى لا تردينى الاحجار قتيلا » • ثم انتظرا يوما وليلة •

وفي الصباح التالي لذلك قال الزوج لزوجته : « لقد سكنت الريح حقا وكفت الأحجار وجذوع الأشجار عن السقوط ، كما أنه لم يعد يسمع للأحجار صوت » فبرحا جحرهما وأبصرا أكوام الأشجار والأحجار المتساقطة وكأنها جبل صغير . أما الأرض فلم يبق منها سوى التراب والصخور ، كما لم يعد هناك أثر للأشجار ان كان البحر قد دمرها ثم هبطا الجبل ونظرا من . ونهيا في دهشة عندما لم يريا أثرا للبيوت أو لأشجار جوز الهند والنخيل أو لثمار الخبز أو لنبات الخبيزة أو للحشائش ، اذ كان البحر قد أتلفها عن آخرها . وعاش الروح مع زوجته وانجبا ابنا وابنة . وانتابهما الحزن اذ لم يجدا طعاما . وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت المرأة تتجب أطفالا . ولكن لم تلبث أشجار جوز الهند وثمار الخبيزة أن أينعت وكذلك سائر الأشجار الأخرى . ولم تمضى ثلاثة أيام حتى كانت الأرض قد غطيت بكافة أنواع الأطعمة ، ثم امتلأت على مر الايام بالناس الذين تناسلوا عن هذا الاب وتلك الام .

وقد حدث الطوفان في رواية سكان جزيرة « راياتيا » وهي أخذى جزر « ليوارد » في مجموعة الجزر التاهيتية ، بعد ان عمست الارض بنسل « تا آتا » بقليل . فقد كان الاله « رواهاتا » يخلد الى الراحة بين شعب المرجان في أعماق المحيط عندما أقض مضجعة صياد كان يجدف في قاربه فوق المكان الذي كان ينام فيه الاله ، ثم أدلى خطاطيفه وهو غافل أوجاهل بوجود الاله وسط الشعب المرجانية التي تقع في قاع المياه الرائعة الشفافة . فاشتبكت الخطاطيف بشعر الاله ، بحيث لم يستطع الصياد أن يخلصها من خصلات شعر الاله المعطرة الا في صعوبة بالغة ، وأخذ يسحبها في رفق شبيها فشيئا . وغضب الاله لانه لم يجد راحته في النوم وصعد الى السطح وهو يرغى ويزبد ، ورفع رأسه فوق سطح الماء وأخذ يعنف الصياد لقلة ورعه، وهدده بأنه سوف يدمر الأرض انتقاما من فعلته . وتملك الصياد الفرع وخر ساجدا أمام الاله واعترف له بجريسته ، وتوسل اليه أن يعفو عنه وان يغير الحكم الذي نطق به أو على الأقل ينقذه هو من هذا الدمار . وحركت توبة الرجل وكثرة

الحاحه مشاعر الاله « رواهاتو » وطلب منه أن يعود الى زوجته وولده ويصطحبهما الى « تواماراما » ، وهى جزيرة صغيرة تقع بين الصخور فى الجانب الشرقى من « را آتيا » ووعده بأن يحميه هناك من الدمار الذى سوف يلحق بالجزر المحيطة به . وأسرع الرجل الى بيته واصطحب زوجته وولده ولجسأوا الى الجزيرة . ويقول البعض أنه اصطحب معه كذلك صديقا له كان يسكن معه تحت سقف احد ، كما أخذ معه كلبا وخنزيرا وزوجا من الطيور ، بالاضافة الى الحيوانات الاليفة التى كان يعرفها أهل هذه الجزر آنذاك . ووصل الجميع الى المرسى وقد أوشك النهار على الانتهاء . وعندما غربت الشمس أخذت مياه المحيط تعلو حتى اضطر السكان المجاورين لشاطئء المحيط ان يتركوا مساكنهم ويلوذوا بالجبال . وظلت مياه المحيط ترتفع طوال الليل ، وفى الصباح لم يكن يبرز من البحر الشاسع سوى قمم الجبال العالية التى اختفت فيما بعد ، وقد هلك سكان الجزر جميعا . ثم أخذت المياه تتراجع بعد ذلك . وعند ذاك ترك الصياد ورفاقه المكان الذى كانوا قد لاذوا به ، ورحلوا الى بلادهم ، وعنهم تناسل سكان الجزر الحاليون .

ولا يبلغ ارتفاع الجزر المرجانية التى لجأ اليها أجداد الجنس البشرى فى كثير اجزائها ارتفاعا أكثر من قدمين فوق سطح البحر ، بحيث يصعب علينا أن نتصور كيف أن الطوفان لم يغرقها ، فى حين أنه غمر الجبال الشاهقة التى ترتفع قممها آلاف الاقدام عن شاطئء هذه الجزر المجاورة . ولكن هذه المشكلة لم تكن تمثل حرجا عثرا فى سبيل ثقة الشعب بتراثه ، فهم لا يميلون الى مناقشة هذه الآراء المتشككة وانما يشيرون ، بقصد تأكيد حكايتهم ، الى الشعب المرجانية والقواقع وغير ذلك من المواد التى يلفظها البحر ، تلك التى عثر عليها بين الفينة والفينة على سطح قمم جبالهم الشاهقة ، ويؤكدون فى اصرار أن هذه الفضلات ، لابد أن يكون البحر قد لفظها عندما أغرق الجزر .

ومن الملاحظ ، كما سنرى فيما بعد ، أن الاساطير التاهيتية عن الطوفان تعزو حدوثه الى فيضان البحر وحده ، ولا تعزوه الى سقوط

الأمطار التي لم يرد ذكرها على الإطلاق في هذه الأساطير • ويعلق « وليم اليس » الذي ندين له بتدوينه لهذه الاساطير ، يعلق على ذلك بقوله « وكثيرا ما تحدثت مع الناس ، سواء كانوا من سكان الشمال أو من سكان الجنوب ، حول هذا الموضوع ، ولكنني لم أسمع منهم رواية قط عن انفتاح نافذة السماء، أو سقوط المطر في أى شكل من الاشكال • وإنما يعزى الطوفان في كل من أسطورة « رواهاتو » و « تواماراما » في تاهيتي ، و « كاي كاهيناري » في « هاواي » الى فيضان البحر • كما أنها جميعا تعزو هذا الفيضان الذي أغرق العالم وأهلك الجنس البشرى ، الى غضب الاله على الناس » •

وعندما كان « اليس » يعظ في سكان « هاوي » عام ١٨٢٢ م ، ويتحدث اليهم عن قصة طوفان نوح ، روى له الاهالى حكاية شبيهة بحكاية نوح قد توارثوها أبا عن جد ، « فقالوا له ان آباءهم حكوا لهم أن البحر غمر الارض جميعا ذات يوم ، سوى جزء من ذروة جبل « أموناكيا » ، حيث كان شخصان يأويان اليها هروبا من الطوفان الذي أغرق من عداهم • ولكنهم قالوا انهم لم يسمعوا من قبل قط عن سفينة أو عن نوح نفسه ، حيث انهم تعودوا ان يطلقوا على الحكاية عنوان « كاي كاهيناري » (أى بحر كاهيناري) » •

ويروى عن « الماوريين » سكان نيوزيلنده أسطورة طويلة عن الطوفان • فهم يقولون انه عندما تكاثرت الناس على وجه الأرض وتعددت القبائل انتشرت الشرور في كل مكان ، فقد تنازعت القبائل فيما بينها واشتعلت بينها الحروب ، وأهمل الناس عبادة الاله الكبير « تاني » الذي خلق أول رجل وامرأة ، وأنكروا تعاليمه جهرا • حقا انه كان هناك نبيان يعظان الناس ويرشدانهم الى العقيدة الصادقة التي تتصل بانفصال السماء عن الأرض ، ولكن الناس سخروا منهما واتهموها بأنهما معلمان مزيفان ، اذ أن السماء والارض متصلتان على نحو ما يرون منذ بداية الخلق • وقد كان اسما هذين النبيين هما « بارا وهنوا » ، و « توبو -

نوى آ - أوتا » • وقد استمر النبيان في وعظهما الى أن لعنتهما القبايل قائلة لهما : « انكما تستطيعان أن تلوکا ألفاظ تاريخكما كما تلوکان طعامكما ، وتأکلان رعوس ألفاظ هذا التاريخ » • واستاء النبيان لسماع هذه العبارة الحمقاء « أنكما تأکلان الرعوس » وأخذ يهويان بفأسيهما الحجريتين على الاشجار وجرا جذوع الاشجار الى منبع نهر « توهينجا » وربطتا بعضهما ببعض عن طريق خيوط النباتات المتسلقة والحبال حتى صنعا منها قاعدة عريضة ، ابتتيا عليها بيتا واختزنا فيه الطعام الكثير ، وجذور نبات السرخس والبطاطا كما أخذتا معهما فيه بعض الكلاب • وبعد ذلك أخذتا يتلوان التعاويذ ويبتهلان الى الاله الكبير « تاني » حتى يسقط الأمطار بكميات هائلة بحيث تقتنع الناس بوجوده وقوته ، وترشداهم الى ضرورة العبادة ان شاءوا أن يعيشوا في سلام • ثم دخلا بيتهما ذاك وأخذتا معهما رجلين أحدهما يدعى « تيوي » والاخر « ريتي » ، وامرأة تدعى « واي - بونا - هاو » بالاضافة الى نساء أخريات • وقام « تيوي » بدور الكاهن وأخذ يصلي وينطق بالتعاويذ حتى يسقط المطر • واستجابة لدعواته ، سقط المطر بكميات غزيرة ، وأخذ يهطل مدة أربعة أو خمسة أيام • ثم تلا الكاهن تعاويذه مرة أخرى ، حتى يكف المطر عن السقوط ، فسكنت الأمطار ، ولكن الفيضان استمر في الزيادة حتى وصل في اليوم التالي الى بيتهما العائم ، فرفعته المياه فوق سطحها ، وأخذ التيار يجرفه حتى وصل به الى نهر « توهينجا » • وحتى هذا الوقت كان الفيضان في انتشاره كبحر كبير يتأرجح فوقه البيت العائم ذات اليمين وذات الشمال • وبعد أن مرت سبعة أشهر قمرية على هذه الحال قال لهم الكاهن ، « اننا لن نهلك وسوف ترسو حتما على الأرض » وبعد أن انقضى الشهر القمري الثامن قال لهم : « لقد انكمش البحر وأخذ الطوفان ينحسر » • فسأله النبيان : « وكيف عرفت ذلك ؟ » فأجاب : « أن مقياسي المدرج قد دلني على هذا » • ذلك أن الكاهن كان قد وضع معبده على جانب من سطح القاعدة العائمة ، وهناك كان يقوم بطقوسه ويكرر تعاويذه ويراقب مقياسه المدرج • ثم قرأ علامات المقياس وقال لرفاقه :

« لقد هدأت الرياح العاتية التي هبت في الشهور الماضية ، كما سكنت الرياح التي هبت هذا الشهر ، ومن ثم فقد سكن البحر » • وفي خلال الشهر الثامن لم يترنح البيت كما كان يفعل من قبل ، وانما أخذ ينزلق الى جانب ترنحه في بعض الاحيان • وعند ذاك عرف الكاهن أن البحر قد انخفض ، وأنهم كانوا يبحرون بالقرب من الارض • فقال لرفاقه : « اننا سنرسو على الارض الجافة في خلال هذا الشهر القمري ، لان مقياسي المدرج اطلعني على أن البحر ينخفض تدريجيا » فأخذت الرفقة تكرر تعاويذها طوال الوقت وتحيي الطقوس تكريما للاله « تاني » • وفي نهاية الامر رسا البيت العائم على أرض جافة في « هاوايكي » • وقد كانوا يحسبون أنهم سيقابلون بعض الاحياء ، وأن الارض ستبدو لهم كما كانت قبل الطوفان ، ولكن كل شيء كان قد تغير فقد تشققت الارض وتصدعت في بعض الاماكن ، وانقلبت ظهرا على عقب في بعض الاماكن الاخرى • أما الكائنات الحية فلم يكن لها أثر على وجه الارض ، وكان هؤلاء الاحياء الذين نجوا هم الذين انقذوا من بين القبائل التي كانت تعيش على وجه الارض • فلما رسا البيت بهؤلاء ، كان أول ما فعلوه أن قاموا بتأدية الشعائر واعادة التعاويذ : وعبدوا الاله « تاني » والسماء (رانجي) والاله « راهو » ، وسائر الآلهة الاخرى • وقدموا لكل اله في اثناء العبادة قدر ابهامين طولا من حشيش البحر • وقد كان كل اله يعبد على حدة في مكان مختلف ، كما كان لكل اله معبد تتلى فيه التعاويذ ، عبارة عن جذر من الحشائش أو جذر شجيرة أو شجرة أو خصلة من خيوط الكتان ، فقد كانت معابد الآلهة على نحو هذا في ذلك العصر • واذا سارت مجموعة من أفراد قبيلة من القبائل بجوار هذه المعابد في العصر الحاضر ، فان الطعام الذي بداخل معدتهم يتضخم ويقتلهم ، ولا يسمح لاحد أن يذهب الى هذه الامكنة المقدسة سوى الكاهن • أما اذا زارها عامة الناس ثم ظهروا الطعام بعد ذلك في قراهم ، فان الشخص الذي يتناول هذا الطعام يموت ، ذلك أن اللعنة تحل بالطعام من جراء ارتكاب الناس الاثم في تدنيسهم

قدسية هذه المعابد ، ويكون عقاب آكلى الطعام بسبب اثمهم هو الموت وبعد أن قام الناس الذين نجوا بكل الشعائر اللازمة لازالة الدنس الذى أثقلوا به ، أشعلوا النار عن طريق الاحتكاك باحدى الاماكن المقدسة ، ثم أشعل الكاهن قطعة من الحشائش ، ووضع كل حزمة مشتعلة عند كل معبد بجوار قطعة النبات المخصصة للاله . وبعد ذلك قدم الكهنة للالهة أعشاب البحر شكرا لها على انقاذهم من الطوفان وعلى حفظ حياتهم فى البيت الذى طافوا فيه ..

وكما دونت حكاية الطوفان فى « بولونيزيا » ، فقد دونت كذلك فى « ميكرونيزيا » . فيحكى « البيلووريون الايسلنديون » ، أن رجلا صعد ذات يوم الى السماء ، حيث تنظر الآلهة بعينونها البراقة — وهى النجوم — كل ليلة الى الارض ، وسرق أحد هذه النجوم وحمله معه الى الارض . ومن هذه العين البراقة صنع « البيلووريون الايسلنديون » نقودهم منذ ذلك الحين . ولكن الآلهة غضبت لهذه السرقة ، ونزلت الى الارض لتسترد ممتلكاتها المسروقة وتعاقب السارق . ولكى تفعل هذا تنكرت فى شكل عامة الناس ، وأخذت تنتقل من بيت الى بيت تسأل الناس طعاما ومأوى ولكن الناس كانوا افظاظا فى سلوكهم معها وطردها دون أن يقدموا اليها عشاء أو كسرة خبز . ولكن امرأة عجوزا أحسنت استقبالها ، وقدمت لها أطيب ما عندها من طعام وشراب . وعند خروج الآلهة من كوخ المرأة العجوز ، نصحتها أن تصنع لوحا من خشب المامبو بحيث يكون معدا عند اكتمال القمر التالى وتنام عليه فى الليلة بعينها التى يكتمل فيها القمر . فصنعت المرأة العجوز ما نصحت به . فلما كانت ليلة اكتمال القمر ، هبت عاصفة وهطلت الامطار ، وأخذت مياه البحر ترتفع تدريجيا حتى أغرقت الجزر ، وطوقت الجبال ، وهدمت مساكن الناس الذين لم يعرفوا كيف ينقذون أنفسهم ، فهلكوا عن آخرهم . أما المرأة العجوز الطيبة فقد راحت فى سبات عميق على لوح الخشب وطففت على سطح الماء وجرفها التيار حتى تشابكت خصلات شعرها بفروع شجرة كانت تقع على قمة جبل « أرميليميو » . وهناك استقرت

حتى انحسر الطوفان وانخفضت المياه تدريجيا حتى وصلت الى سفح الجبل . وعند ذاك هبطت الالهة من السماء لتبحث عن المرأة العجوز الطيبة التي تعهدت بحمايتها ، ولكنها وجدت ميتة . فاستدعت الالهة امرأة من بين شعبهم النسائي الذى يسكن السماء ، فتوغلّت هذه المرأة فى جسد العجوز المتوفاة وأحييتها . ثم أنجبت الالهة بعد ذلك خمسة أطفال عن طريق هذه المرأة العجوز التى بعثت الى الحياة ، وبعدها عادت الالهة الى السماء وكذلك المرأة الالهة التى تطوعت وأعادت الحياة الى المرأة العجوز بعد أن توفيت . وقد عمر الاولاد الخمسة الذين ولدوا من آباء الهين وام انسانية جزر « بيلو » ، ومنهم تناسل سكان هذه الجزر الحاليين .

١٢ — حكاية عن الطوفان الكبير فى امريكا الجنوبية :

كان هنود البرازيل ، وقت أن اكتشفوا فى المكان الذى تقع فيه اليوم مدينة « ريو — دى — جانيرو » يروون أسطورة عن طوفان أغرق العالم ولم ينج منه سوى أخوين مع زوجتيهما . وقد أغرق هذا الطرفان وفقا لاحدى روايات هذه الأسطورة جميع بقاع العالم وأهلك الناس جميعا فيما عدا اجداد هؤلاء الهنود الذين تسلقوا شجرة عالية . ووفقا لرواية أخرى ، نجا هؤلاء من الطوفان فى قارب .

أما الحكاية التى رواها « أندريه تيفيه » الفرنسى ، الذى زار البرازيل فى منتصف القرن السادس عشر ، نقلا عن الهنود الذين كانوا يسكنون بالقرب من « كيب فريو » فتجسرى على النحو التالى : كان لطبيب عظيم اسمه « سوماي » ولدان ، أحدهما اسمه « تاميتدونارى » والاخر اسمه « أريكونت » . أما « تاميندونارى » ، فكان يقوم بفلاحة الارض ، وكان أباً وزوجاً صالحاً ، وله زوجة وأولاد . وأما الابن الثانى فلم يكن يهتم بشيء من هذه الامور ، بل كان منصرفا الى الحرب . وقد كان الشيء الذى يجلب السرور الى نفسه ، هو اخضاع القوم المجاورين له لسلطوته ، بل اخضاع أخيه الشقيق . وذات يوم ، أحضر هذا المحارب

الشرس لآخيه المسالم ذراعا مبتورة لاحد قتلاه في معركة من المعارك ، وقال له في الوقت نفسه في كبرياء : « اغرب عن وجهي أيها الجبان ، اننى سأخذ منك زوجك وأولادك ، حيث انك غير قادر عن الدفاع عنهم » . فنظر اليه أخوه الطيب أسفا لعنجهيته ورد عليه في سخرية لاذعه وقال له : « اذا كنت على هذا النحو من الشجاعة ، فلم لم تحضر معك بقية رمم أعدائك » ؟ . وعند ذاك رمى «أريكونت » الذراع المبتورة على عتبة باب أخيه ، وهو ساخط على تعنيفه اياه . وفي هذه اللحظة انتقلت القرية التى يسكنها الأخوان الى السماء ، ولم يبق على الارض سوى الاخوين . فلما أبصر « تاميندونارى » ما حدث ، دق الارض برجله في عنف بدافع الدهشة أو الغضب ، فتدفق نبع من المياه ، وأخذت المياه تعلو حتى غطت قمم التلال وكادت تصل الى سحب السماء . ثم استمرت فى تدفقها حتى غطت الارض جميعا . فلما رأى الاخوان أن الخطر قد أحدق بهما ، أسرعا وصعدا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا ، ثم أخذا يتسلقان الاشجار هروبا من الماء مع زوجتيهما . أما « تاميندونارى » فقد تسلق شجرة تسمى شجرة « بيندونا » وهى تلك التى رأى الرحالة الفرنسى منها نوعين ، أحدهما ثماره أكبر وأوراقه أعرض من النوع الآخر . ولم يأخذ « تاميندونارى » معه سوى زوجة من زوجاته فى أثناء هروبه من الطوفان . أما الاخ الثانى « أريكونت » ، فقد تسلق هو وزوجته شجرة أخرى تسمى شجرة « جينيير » . وهناك على قمة هذه الشجرة قدم « أريكونت » بعض الثمار لزوجته وقال لها : « اكسرى هذه الثمار وارمى بها فى الماء » . فلما فعلت أدركوا من صوت رشاش الماء أن المياه لا تزال عالية ، وأنه لم يحن الوقت بعد لكى يهبطوا الى الوادى . ويعتقد الهنود أن الناس جميعا غرقوا فى هذا الطوفان فيما عدا الاخوين وزوجتيهما . ومنهما تتاسل شعبان مختلفان هما شعب « توناسيرى » وكنيته « توبنامبو » وشعب « تونايتزهويانا » وكنيته « تومينى » . وكلا الشعبين فى حرب على الدوام مع بعضهما البعض . ويميل شعب « توبينامبو » الى أن يعلى من قدره فوق أقرانه وجيرانه فيقول : « اننا

من نسل « تاميندونارى » أما انتم فمن نسل « أريكونت » • وهم يعنون بذلك أن « تاميدونارى » كان أفضل من أخيه « أريكونت » •

وقد روى الاب اليسوعى « سيمون دى فاسكونسلوس » رواية أخرى لهذه الاسطورة تختلف بعض الشيء عن الرواية السالفة • ففى رواية الاب اليسوعى نجت أسرة واحدة من الطوفان • كما أنه ليس بها ذكر لآخ شرير • وتحكى هذه الرواية أنه كان فى سالف الزمن طبيب ماهر أو عراف يدعى « تاماندوار » ، أفشى اليه الاله بسر قدوم طوفان كبير يغرق الارض ، ثم يظل يعلو حتى يغطى الاشجار وقمم الجبال فيما عدا قمة واحدة توجد عليها شجرة نخيل تطرح ثمارا كثمار جوز الهند • وقد نصح الاله الطبيب بأن يلوذ بهذه الشجرة مع أسرته فى ساعة الشدة • ولم يتوان « تاماندوار » لحظة ولجأ الى المكان المذكور مع أسرته • وما كاد يستقر هناك حتى بدأت الامطار تهطل حتى أغرقت الارض ، ومن بعدها وصلت الى قمم الجبال • وعند ذاك تسلق الرجل وأسرته شجرة النخيل وظلوا هناك طوال مدة الطوفان يعيشون على ثمارها • فلما انحسر الطوفان هبطوا الى الارض وأنجبوا أولادا وأحفادا عمروا الارض التى كان الطوفان قد تركها خرابا •

وبالمثل تروى قبيلة « كايנגانج » أو « كورودو » التى تقطن فى اقليم « ريو جرانوى دى سول » ، الذى يقع فى أقصى جنوب البرازيل حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق الارض التى كان يسكنها اجدادهم من قبل • ولم يبرز فوق سطح الماء سوى قمة سلسلة الجبال الساحلية التى تسمى « سيرا دو مار » وقد سبح أفراد القبائل الهندية الثلاث وهى قبيلة « كايנגانج » وقبيلة « كايوروكرى » وقبيلة « كامى » ، فى اتجاه هذه الجبال ، وهم يحملون شعلات من النار بين أسنانهم • وسرعان ما شعر أفراد قبيلتى « كايנגانج » ، و « كامى » بالتعب ، فغاصوا تحت الأمواج وغرقوا وفارقتهم أرواحهم لتسكن الجبال • أما أفراد قبيلة « كايوروكرى » وبعض أفراد قبيلة « كوروتون » فقد شقوا طريقهم بين الامواج الى الجبال ، وهناك اتخذوا

لأنفسهم مأوى ، بعضهم فى الجبال وبعضهم بين فروع الأشجار .
ثم مرت بعد ذلك عدة أيام دون أن تنخفض المياه ، كما لم يجد
هذا الحشد فى أثنائها ما يأكله . وبينما كان الجميع يتمنى الموت ، سمعوا
غناء طيور « ساراكورا » ، وهى نوع من الطيور المائية ، وقد جاءتهم
بسلال مملوءة بالتراب . ثم رمت الطيور بهذه التربة ، فهبطت الى قاع
الماء بطبيعة الحال . وعند ذاك صاح الناس على الطيور أن تسرع ،
كما نادى الطيور بدورها البط ، وأخذ الجميع يعمل معا لتهيئة مكان
يعيش فيه كل الناس غير أولئك الذين كانوا استقروا على الأشجار ،
وقد تحول هؤلاء فيما بعد الى قرودة . وعندما انحسر الطوفان هبطت
قبيلة « كاينجانج » واستقرت عند سفح الجبل . أما أرواح الغرقى من
قبيلتى « كايوروكرى » و « كامى » ، فقد تسربت من أحشاء الجبل الذى
كانت سجينه فيه . فلما خرجت الى الخارج أشعلت النيران ، وصنع أحد
افراد قبيلة « كايوروكرى » من رمادها أشكالا للنمور ، وحيوانات
التابير وآكلى النمل والنحل وغير ذلك من صنواف الحيوان ، ثم بث
فيها الحياة وأرشدتها الى الطعام الذى تأكله . ثم جاء أحد أفراد قبيلة
« كامى » وقلده وصنع أشكالا لسبع الجبل والحيات السامة والذئاب
لكى تتصارع مع الحيوانات التى صنعها أحد أفراد القبيلة الاولى ، على
نحو ما تتصارع معها اليوم .

وبالمثل يروى عن قبيلة « كارايا » وهى قبيلة هندية برازيلية
تسكن وادى نهر « أرجواى » الذى يكون مع نهر « توكانتينز » ، أهم
الانهار الشرقية التى تصب فى الفروع الجنوبية لنهر « الامازون » ،
حكاية عن الطوفان الكبير . ويقال : ان هذه القبيلة تختلف عن جيرانها
فى الاخلاق والعادات ، كما تختلف عنها فى خصائصها الفيزيائية ، بل ان
لغتها ليست لها علاقة — فيما يبدو — باللغات الاخرى المعروفة التى
يتحدث بها الهنود البرازيليون . وتجرى حكاية قبيلة كاديا عن الطوفان
على النحو التالى . خرج « الكارايافيون » ذات يوم
ليصطادوا الخنازير المتوحشة ، فاخترت الخنازير فى مغاراتها
وعند ذاك حاولوا ان يخرجوها من مخابئها ، فكانوا كلما أخرجوا خنزيرا

قتلوه في الحال • وفي اثناء اخراجهم للخنازير ، اعترضهم غزال وحيوان
التابير ، وغزال أبيض • فلما توغلوا داخل الكهف اعترضتهم قدم انسان
وأفزعهم هذا المنظر ، وراحوا يبحثون عن ساحر قدير له علم بصنوف
حيوانات الغابة • وجاء هذا الساحر واجتهد في اخراج صاحب القدم
من التراب • وكان اسم هذا الرجل « أناتيرا » وكان نحيلًا وان كان
ذا بطن ضخمة •

أخذ « أناتيو » يغنى ويقول : « أنا أناتيو ، أحضروا لى دخانا
كى ادخن » ولكن القبيلة لم تفهم لغته واسرع أفرادها الى الغابة
وأحضروا له أنواع الزهور والثمار ولكنه رفضها جميعا وأشار الى
رجل كان يدخن • فعرفوا مطلبه في الحال وأحضروا له الدخان • فتناوله
منهم وأخذ يدخن حتى سقط مغشيا عليه • فحملوه في قاربهم ورجعوا
به الى قريتهم • وهناك أفاق من غفوته وأخذ يرقص ويغنى • ولكن
مسلكه ولغته الغربية أخافت قبيلة « كارايا » ، فحملت امتعتها ورحلت
من القرية ، مما أغضب « أناتيو » ودفعه لان يحول نفسه الى
« بيرانها » ، وأن يلحق بهم على هذا النحو حاملا معه ثمار القرع
المجوفة بعد أن ملأها بالماء • ثم صاح بأفراد القبيلة أن يتوقفوا ،
ولكنهم لم يكثرثوا لندائه • وعند ذاك هشم ثمرة من ثمار القرع التى
كانت معه وفي الحال تدفق الماء وأخذ يعلو في الوقت الذى كانت فيه
القبيلة تواصل هروبها • فهشم « أناتيو » ثمار القرع واحدة تلو
الآخرى • وكان كلما هشم ثمرة ، ازداد ارتفاع الماء حتى أغرق الارض
جميعا ، ولم يعد بارزا منها فوق سطح الماء سوى قمم الجبال التى
تقع عند نهر « تابيرابى » • فلاذت القبيلة بقممتين من قمم هذه السلسلة
الجبلية • وعند ذاك صاح « أناتيو » على كل أنواع السمك أن يجرف
هؤلاء الناس الى الماء • فحاول سمك « الباهو » و « البنتادو » ، و
« الياكو » أن يفعل هذا دون أن ينجح في اغراقهم • وفي النهاية حاولت
سمكة « بيكودو » (وهى سمكة ذات منقار طويل كالخرطوم)
أن تتسلق الجبل من الخلف ، وقذفت بأفراد القبيلة فوق قمة الجبال الى

الماء • وما زال هناك مستتق كبير يشير الى المكان الذى سقط أفراد قبيلة « كارايا » فيه • ولم يبق فوق قمة الجبل سوى بعض الافراد الذين لم يهبطوا منه الا بعد أن انتهى الطوفان • وقد علق الكاتب الذى دون هذه الحكاية عليها بقوله « على الرغم من أن الفيضانات التى تحدث بانتظام ، مثل فيضانات نهر أراجواي ، لا ينشأ عنها فى العموم حكايات عن الطوفان ، كما أشار أندريه الى هذا بحق ، الا أن الظروف المحلية لوادى نهر أراجواي مناسبة لان ينشأ عنها مثل هذه الحكاية • فالمسافر الذى يجد نفسه فجأة ، بعد رحلة طويلة بين شواطئ النهر المنخفضة الممتدة الى غير نهاية ، أمام تلك الجبال الصلبة ذات الشكل المخروطى التى تقع عند نهر « تابيرى » ، والتى تعلو أمامه فجأة بين السهول ، يستطيع أن يفهم فى يسر الظروف التى دفعت قبيلة « كاراياس » ، التى عانت كثيرا من الفيضانات ، لان تحكى مثل هذه الحكاية • وربما كانت هذه الجبال بحق بمثابة ملجأ لسكان الاحياء المجاورة » • ثم يضيف الكاتب الى ذلك قوله : « وكما هو الحال فى معظم أساطير الفيضان فى أمريكا الجنوبية ، فان هذا الفيضان الغريب الذى تحكى عنه هذه الاسطورة ، لم يحدث نتيجة سقوط الامطار ، بل حدث نتيجة تحطيم أوعية كانت ممتلئة بالمياه •

وبالمثل يحكى « الباماريون » و « الابديريون » و « الكتاوشيون » الذين يسكنون عند نهر « بوروس » أنه قد حدث فى زمن من الأزمنة أن سمع الناس صوت قعقة ينبعث من فوق الارض ومن تحتها ، ثم استحال لون الشمس والقمر الى لون أحمر وازرق واصفر ، واختلطت الوحوش فى غير فزع بالناس • وبعد مضي شهر ، سمع للناس هديرا ، كما أبصروا الظلمة تصعد من الارض الى السماء تحت المياه ، وفقد بعض الناس كمادات بعضهم ، دون أن يعرف الناس سببا لهذا ، اذ كان كل شئ فى حالة اضطراب مفزعة • ثم ظلت المياه ترتفع حتى لم يعد بارزا من الارض سوى فروع الاشجار الشاهقة • وعند ذلك أخذ الناس يبحثون عن مأوى لهم ، وهلكوا من البرد والجوع وهم جاثمون بين فروع الاشجار ، ذلك أن الظلام كان يعم الكون طوال الوقت ، كما

كانت الامطار تسقط بصفة مستمرة • ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل يدعى « أو آسو » مع زوجته • فلما هبط هذان من أعالي الاشجار بعد أن انتهى الطوفان ، لم يجدا أثرا لجسد انسان ، اللهم الا كومة من العظام البيضاء • وبعد ذلك انجب هذان عددا كبيرا من الابناء • ثم قال أحدهما للآخر : « هيا نبتنى بيوتنا فوق الماء ، فاذا علا الماء طفت بيوتنا على سطحه ونحن بداخلها واصبحت متماسكة • ومع ذلك فان « الباماريون » مازالوا يبنون مساكنهم فوق الماء حتى اليوم •

ويرى « الموراطيون » وهم فرع من « الجيباريين » الذين يسكنون في « أكوادور » ، حكاية خاصة بهم عن الطوفان ، يقولون فيها ان موراطيا هنديا خرج ليصطاد في مجرى نهر « باستازا » الضحل • فابتلع تمساح صغير الطعم من سنارته ، فقتل الصياد التمساح أثر ذلك • فغضبت أم التمساح أو بالاحرى أم التماسيح ، وأخذت تضرب الماء بذيلها حتى فاضت المياه وأغرقت ضواحي النهر ، وغرق الناس جميعا عدا رجل واحد استطاع أن يتسلق نخلة ومكث هناك بضعة أيام كان الظلام يخيم فيما على الكون كله • وكان الرجل يقذف بين الحين والآخر بثمره من ثمار النخلة في الماء ، ولكنه كان يسمع لها على الدوام صوت ارتطام قوى • وفي اليوم الاخير رمى ثمرة على الارض فأحدثت صوتا مصمتا ، فادرك لحينه أن الماء قد انحسر • فهبط من الشجرة وابتنى بيتا وأخذ يفلح له حقلا • وقد كان الرجل بدون زوجته ، لكنه سرعان ما صنع لنفسه واحدة بأن قطع جزءا من جسمه وغرسه في الارض ، فأخصبت التربة هذا الجزء ونمت منه امرأة تزوجها فيما بعد •

ويحكى « الاروكانيون » سكان شيلى حكاية عن الطوفان الذى لم ينج منه سوى بضعة أشخاص • وكان هؤلاء الاحياء المحظوظون قد لجأوا الى قمة جبل شاهق يسمى جبل « ثجثج » ومعناه الجبل المرعد أو المتلألئ وقد كان لهذا الجبل ثلاثة نتوءات ، كما كان له خاصية الطفو على الماء • « ومن ثم كان من الممكن الاستدلال » ، كما يقول مؤرخ أسباني ، « على أن هذا الطوفان قد حدث نتيجة بعض الانفجارات البركانية التى

صحبته هزأت أرضية شديدة • فهو طوفان يختلف فيما يبدو عن طوفان نوح • وأينما تحدث هذه الهزات الأرضية العنيفة ، فإن الناس يهربون ، طلبا للأمان ، إلى هذه الجبال التي يحسبون أنها طافية ، ومن الطبيعي أنها تتصف حقا بخاصية الطفو على الماء ، ووفقا لتصورهم • وسبب هذا أن الناس يخافون بعد حدوث هزة أرضية ، أن البحر يفيض مرة أخرى ويغرق العالم • وفي مثل هذه الحالات يأخذ كل فرد معه مقدارا من الزاد ، وأطباقا خشبية يضعها فوق رأسه لكي تحميه من حرارة الشمس ذلك لأن المياه عندما ترفع جبال « ثجج » نتيجة ارتفاع المياه ، فمن الطبيعي أن الجبال تقترب عندئذ من الشمس • فإذا قيل لهم إن الأطباق المصنوعة من الطين أكثر ملاءمة لهذا الغرض من تلك المصنوعة من الخشب التي قد تحترق بتأثير حرارة الشمس ، فإن جوابهم المألوف عن هذا بأن أجدادهم قد فعلوا هذا من قبل •

ويحكى « الأكايون » سكان « جيانا البريطانية » حكاية عن الطوفان الكبير غنية بتفاصيلاتها • فهم يقولون : أن الروح الكبير « ماكونيما » خلق في بداية الحياة الطيور والوحوش ، ثم عين ابنه « سيجو » حاكما عليها • وفضلا على هذا فقد أنبت في الأرض شجرة ضخمة رائعة تحمل على كل فرع من فروعها ثمارا مختلفة ، بينما كان ينبت حول جذعها الموز والطلح والكاسافا والذرة والقمح في وفرة ، كما انتشر نبات الياقوت حول جذورها • وباختصار ، فقد ازدهرت فوق تلك الشجرة العجيبة أو حولها أو أسفلها كل النباتات التي تنمو على سطح الأرض • ولكي يعم خير الشجرة العالم أجمع ، قرر « سيجو » أن يقطع تلك الشجرة وأن يغرس بذورها وشظاياها في كل مكان • وقد فعل هذا بمساعدة كل الوحوش والطيور باستثناء القرد ذي اللون البنّي ، الذي رفض بسبب كسله وولعه بايذاء الناس ، أن يساهم في هذا العمل الكبير • ولهذا فقد أرسل « سيجو » هذا القرد ليحضر الماء من النبع في سلة مخرمة لكي يصرفه عن التفكير في أي عمل شرير ، إذ أنه قدر أن هذا العمل يستغرق حيويته لبعض الوقت ، تلك الحيوية التي

يستنفذها خلاف هذا في الاعمال الشريرة • وفي أثناء هذا انشغل « سيجو » بقطع الشجرة ، واكتشف أن بطن الشجرة كان مجوفا وممتلئا بالماء الذى يسبح فيه كل أنواع السمك • وعند ذلك رأى « سيجو » الطيب أن يمد أنهار وبحيرات العالم أجمع بكميات وافرة من هذه الأسماك ، حتى يتوالد في كل مياه كل نوع من أنواع هذا السمك • ولكن هذا العمل الطيب لم يتم كما كان متوقعا ، لان المياه المخزونة في بطن الشجرة بدأت تتدفق لانها كانت متصلة بخزان كبير في جوف الأرض • ولكي يحول « سيجو » دون تدفق المياه ، سد الجزء الباقي من الشجرة بعد قطعها ، بسلة محكمة النسيج ، فتوقفت المياه حقا عن التدفق • ولكن لسوء الحظ جاء القرد خلسة الى مكان الشجرة ، بعد أن تعب من العمل الذى كلف به ، وأثارت هذه السلة المقلوبة فضوله ، وتصور انها يمكن ان تخفى طعاما طيبا ، فرفعها في حذر واختلس النظر بداخلها ، واذا بالماء يتدفق في قوة مكتسحا القرد أمامه وأغرق الارض جميعها • وعند ذلك جمع « سيجو » صنوف الحيوان التى لم يغرقها الطوفان ، وقادها الى أعلى مكان في البلد حيث تنبت بعض أشجار جوز الهند الطويلة ، ثم ترك الطيور والحيوانات القادرة على التسلق تصعد أكثر هذه الاشجار ارتفاعا • أما تلك الحيوانات التى لم تكن تتمكن من تسلق الاشجار وليست من الانواع المائية أو البرمائية ، فقد حبسها في كهف ذي مدخل ضيق غطاه بالشمع بعد أن سلم الحيوانات شوكة طويلة تثقب بها الشمع لكي تتأكد من انحسار الطوفان • وبعد أن اتخذ « سيجو » هذه الاحتياطات لضمان سلامة هذه الحيوانات الضعيفة ، تسلق مع الحيوانات الأخرى شجرة النخيل ، واحتجب بين فروعها ، وأخذ يقاسى معها آلام البرد والجوع بسبب الظلام الدامس وهبوب العاصفة التى أعقبت تدفق الفيضان • أما سائر الحيوانات فقد تحملت متاعبها في رباطة جأش • أما القرد الأحمر ، فقد أخذ يصرخ من الألم صرخات مفزعة حتى انتفخت رقبتة ولا تزال له حتى اليوم طيلة ناتئة العظام في رقبتة • وفي هذه الاثناء ، كان « سيجو » يقذف بين الحين والآخر بثمار شجرة النخيل في الماء ليختبر من صوت ارتطامها به عمق

المياه • فكلما انخفضت المياه، كانت تزداد المسافة الزمنية بين سقوط الثمرة وارتطامها بالماء • وفي النهاية سمع صوتا مصمتا بدلا من صوت الارتطام وأخذ يستعد مع من معه من الحيوانات والطيور للهبوط من أعلى الشجرة • على أن الطائر النافخ كان في عجلة من أمره في أثناء هبوطه ، بحيث اقتحم عش نمل • فهجم النمل الجائع عليه وأخذ ينهش رجليه وعراهما من اللحم • وهذا هو السبب في أن الطائر النافخ ما زالت له رجلان عاريتان من اللحم حتى اليوم • واتعظت الكائنات الأخرى بفعله هذا الطائر ، فهبطت في حذر وخوف • وبعد ذلك أخذ سيجو قطعتين من الخشب ، وحك أحدهما بالأخرى لكي يولد النار • وما كادت تتطاير الشرارة الأولى ، وكان « سيجو » قد ولي وجهه عنها صدفة ، حتى أخطأها الديك الرومي وابتلعها وطار • فأحرقت الشرارة رقبتة • وهذا هو السبب في أن الديك الرومي له غيب أحمر حتى يومنا هذا • وكان التماسح يقف في هذا الوقت الى جانب الديك الرومي دون أن يتسبب في ايذاء أحد • ولكن لما كان سلوكه في هذا الوقت لسبب ما غير عادي ، فقد اتهمته الحيوانات الأخرى بسرقة الشرارة وابتلاعها • ولكي يسترد « سيجو » الشرارة من بين فكيه فتح فمه ومزق لسانه • وهذا هو السبب في أن التماسيح الأمريكية لم يعد لها ألسنة منذ ذلك اليوم •

ويعتقد « الأراوكيون » سكان « جيانا البريطانية » أن الحياة أصيبت بالدمار مرتين منذ خلقها ، مرة بسبب النار ومرة بسبب الفيضان وكلا الدمارين أحدثهما « أيومون كزنوي » ساكن السماوات العليا ، بسبب فساد الجنس البشري • على أنه أنذر الناس قبل حدوث الدمار الأول ، فأخذ القوم الذين استمعوا لتحذيره ، يستعدون للهروب من النار الكبيرة ، بأن أخذوا يحفرون تحت جبل رملي • وابتنوا لانفسهم مسكنا تحت الارض ذا سقف خشبي ويقوم على أعمدة خشبية • ثم غطوا سقف المسكن بالتراب وطبقة سميكة من الرمل • وبعد ذلك لجأوا إليه بعد أن أبعدوا عنه كل المواد القابلة للاشتعال • وهناك مكثوا في هدوء حتى خمدت ألسنة الفيران التي اكتسحت أمامها كل شيء على

سطح الأرض • أما الدمار الثانى الذى حل بالأرض ، فقد تسبب عن الطوفان • وقد كان زعيم حكيم ورع يدعى « ماريريوانا » يعلم به قبل وقوعه ، من ثم فقد نجا مع أسرته فى مركب كبير • ولما كان يخشى أن يجرف التيار مركبه بعيدا عن الشاطئ ، وبعيدا عن مسكن آبائه ، فقد صنع حبالا طويلا من الألياف وربط به مركبه فى جذع شجرة ، فلما انحسرت المياه ، لم يجد نفسه بعيدا عن مكان الأصلى •

ويحكى « الماكوسيون » الذى يسكنون « جيانا البريطانية » أن الروح الطيب « ماكونيما » الذى يعنى اسمه « الذى يعمل بالليل » ، خلق فى بداية الحياة السماء والأرض • وبعد أن ملأ الأرض بالاشجار والنباتات ، هبط من مسكنه فى السماء وتساق شجرة وأخذ يكشط لحاء الشجرة بفأس حجرية كبيرة ، فتساقط اللحاء فى النهر عند جذر الشجرة وتحول فى الحال الى صنوف من الحيوان • وبعد أن فرغ من خلق الحيوان شرع فى خلق الرجل • وراح الرجل الذى خلقه فى سبات عميق ، فلما استيقظ وجد امرأة تقف الى جواره • على ان الروح الشرير سيطر على الارض بعد ذلك • لهذا فقد أرسل «ماكونيما» الروح الطيب طوفانا الى الارض لم ينج منه سوى رجل واحد هرب فى مركب • ثم بعث هذا الرجل فأرا فيما بعد ليعرف ما اذا كان الطوفان قد انحسر عن الارض ، فرجع الفأر اليه بحفنة من القمح • فلما تراجعت المياه الى منسوبها الطبيعى ، عمر هذا الرجل الارض على نحو ما فعل « دويكاليو » و « بيرها » ، بأن كان يرمى الأحجار من وراء ظهره فتتحول الى شخوص • وتتضمن هذه الحكاية وجوها من الشبه يثير الشك بينها وبين حكاية الكتاب المقدس • وتتمثل وجوه الشبه هذه فى خلق المرأة على هذا النحو الغريب ، وفى ذكر الروح الشرير ، وحادثة ارسال الفأر لاستكشاف عمق الطوفان • وربما كان مرد هذا التشابه الى تأثير المبشرين المسيحيين ، أو الى تأثير أوربى بصفة عامة • على أن الطريقة التى خلق بها الذين نجوا من الطوفان الجنس البشرى بعد أن انتهى الطوفان ، تشبه الحادثة المماثلة لها فى القصة الاغريقية عن « دويكاليون » و « بيرها » ، مما

يصعب النظر الى الحكايتين بوصفهما مستقلتين احدهما عن الاخرى ..

ويروى «هنود أورينوكو» كذلك أساطير عن الطوفان الكبير • وقد دون «هومبولت» ملاحظاته حول هذا الموضوع فقال : ولا يمكنى أن أترك هذه السلسلة الأولى من جبال «انكماردا» دون أن أذكر واقعة لم يكن يعرفها الاب «جيلي» وكثيرا ما كانت تحكى لى فى أثناء اقامتى مع الجماعات الارسالية فى «أورينكو» • فقد احتفظ سكان هذه البلاد الأصليين بعقيدة تتلخص فى أن أمواج البحر ارتطمت بصخور جبال «انكماردا» فى أثناء فترة الطوفان الكبير الذى هرب منه آباؤهم فى قوارب بحثا عن النجاة • ولا تعيش هذه العقيدة منفصلة بين شعب «التاماناكويين» وحدهم ، انما تكون جزءا من تراث تاريخى اكتشفت مقتطفات متفرقة منه بين «المايويين» سكان الشلالات الكبيرة ، وبين الهنود الذين يسكنون عند شلالات «ريير اريفانو» التى تصب فى نهر «كاورا» ، وبين كل القبائل على وجه التقريب التى تسكن أعالى «أورينوكو» • فاذا سئل «التاماناكويين» عن الوسيلة التى هرب بها الجنس البشر من هذا الطوفان الكبير أو من «عصر الماء» كما يسميه المكسيكيون ، فانهم يجيبون بأنه لم ينج من هذا الطوفان سوى رجل واحد وامرأة واحدة لاذا بجبل شاهق يسمى جبل «تاماناكو» ويقع عند شواطئ نهر «أزيڤيرو» • وبينما كان هذا الرجل وهذه المرأة يرميان بثمار شجرة نخيل «ماورينيا» من وراء ظهورهما ، أبصرا رجالا ونساء يخرجون من بذور الثمار ، وهؤلاء هم الذين عمروا الأرض بعد الطوفان ، وكانا قد ملأهما الاسى للخراب الذى حل بالعالم • أما بذر الثمار التى رماها الرجل فقد تحولت الى ذكور وأما بذور الثمار التى رمتها المرأة فقد تحولت الى اناث •

ويحكى «الكناريون» وهم قبيلة تسكن فى اكوادور ، أن طوفانا كبيرا حدث فى عهد مملكة «كرينو» القديمة ، ونجا منه أخوان بأن هربا الى جبال شاهقة للغاية تسمى جبال «هاكا — اينان» • وكانت

كلما ارتفعت المياه ، ارتفعت معها الجبال ، وبذلك لم يصل الماء قط الى الأخوين . فلما انخفضت المياه وكانت مؤونتهما قد نفذت ، هبطا من أعلى الجبل وأخذا يبحثان عن طعام لهما بين التلال والوديان . ثم ابتتيا بيتا صغيرا عاشسا فيه وكانا يحتالان على الحياة بتناول طعام شحيح من الاعشاب وجذور النباتات ، ومن ثم فقد قاسيا كثيرا من آلام الجوع والتعب . وذات يوم رجعا الى بيتهما بعد بحث مضنى عن الطعام فوجدا به طعاما ، كما وجدا به « الشيشة » ، دون أن يعلما شيئا عن أعد لهم ذلك أو أحضره لهم . وتكرر حدوث هذا عشرة أيام متتالية أخذا يفكران من بعدها فى وسيلة للتعرف على هذا الشخص الذى يقوم بهذا العمل الطيب فى تلك الأيام القاسية . فاخفى الاخ الاكبر فى مكان ما ، واذا به يبصر ببغاوين قادمين يرتديان زى الكناريين . فلما دخلا البيت أخذا يعدان الطعام الذى أحضراه معهما . ولما أبصر الاخ الاكبر ما هما عليه من جمال ، وأن لهما وجهى امرأتين ، خرجا من مخبئتهما . فلما وقع بصر الطائرين عليهما ، غضبا وطارا دون أن يتركا لهما شيئا يأكلانه . فلما عاد الاخ الاصغر من بحثه عن الطعام ، ولم يجد الطعام معدا كما كان يحدث فى الأيام السابقة ، سأل أخاه الاكبر عن سبب هذا التغير فقص عليه ما حدث ، فجلسا معا مكتئبين . وفى اليوم التالى قرر الاخ الاصغر أن يخفى بالمثل ويرقب قدوم الطائرين . وبعد ثلاثة أيام عاد الطائران وأخذا يعدان الطعام . فتريث الاخوان حتى فرغ الببغاوين من اعداد الطعام ، وأغلقا الباب عليهما . فغضب الطائران أشد الغضب لوقوعهما فى الشرك ، وتمكن الطائر الكبير من الهروب ، بينما وقع الطائر الصغير فى الفخ . فتزوج الاخوان هذا الطائر وأنجبا منه ستا من البنين والبنات تناسلت عنهم قبيلة « كانارى » . ولهذا فان الهنود يعدون تل « هواكا - ايان » الذى سكنه الاخوان بعد أن تزوجا الطائر ، مكانا مقدسا ، كما أنهم يقدسون الببعاء الأمريكى ويقدرون ريشه تقديرا عاليا ويستخدمونه فى احتفالاتهم .

ويحكى هنود « هواروشيرى » وهو اقليم فى « بيرو » يقع فى

« الاندس » فى الشرق من « ليما » ، أن العالم فى سالف الزمان
كاد أن يفنى عن آخره ، فقد حدث أن هندا ترك بقرته ترعى فى مكان
غنى بالمرعى ، لكن البقرة رفضت أن تأكل وأخذت تتن فى حزن على نحو
ما تفعل الابقار • وعند ذاك قال لها صاحبها : « ايتها الحمقاء • لماذا تتنين
وترفضين الطعام ؟ ألم أتركك ترعين فى مكان يطيب فيه المرعى ؟ »
فأجابته البقرة قائلة : « وماذا تعرف أنت أيها الاحمق عن هذا الامر ؟
اننى لا أحزن بدون سبب يستدعى الحزن ، ففى خلال خمسة أيام
سيفيض البحر ويغرق الارض جميعا ويخرب كل ما عليها • وتعجب
الرجل من سماعه الحيوان يتكلم على هذا النحو ، وسألها ما اذا كانت
هناك وسيلة تنقذهما من الطوفان • عند ذاك طلبت منه البقرة أن يأخذ
معه مئونة تكفيه خمسة أيام وأن يتبعها الى قمة جبل « فيلسا — كوتو »
الذى يقع بين بيعة « سان داميان » بيعة « سان جيرونيمو » • فحمل
الرجل مئونته على ظهره وتبع البقرة • وعندما وصل الى قمة الجبل
المعنى ، وجد أنواعا متعددة من الطيور والحيوانات مجتمعة هناك •
وما كاد يصل الى هذا المأوى حتى أخذت مياه البحر ترتفع وتفيض
حتى أغرقت الوديان وغطت قمم التلال جميعا عدا قمة جبل « فيلسا —
كوتو » ، بل ان الامواج كانت تتلاطم بالقرب من هذه القمة ، الى
درجة أن الحيوانات تراحمت فى مساحة ضيقة ، ولم يجد بعضها مكانا
لارجله • وانغمس طرف ذيل الثعلب فى الماء ، فأسود لونه • وهذا
هو السبب فى أن أطراف ذيول الثعالب سوداء حتى اليوم • وفى اليوم
الخامس من الفيضان أخذت المياه تتراجع ، وعاد البحر الى حالته الاولى
بعد أن أغرق الناس جميعا عدا الهندي الذى تتاسلت منه جميع الامم
التي تعيش على وجه الارض •

وكذلك روى عن « الانكاسيين » الذين كانوا يسكنون فى « بيرو »

رواية عن الطوفان • فقد حكى هؤلاء أن المياه فاظت وغمزت أعلى الجبال المستقرة على وجه الأرض ، فهلك الناس جميعا وكل كائن على وجه الأرض • ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل وامرأة طفوا داخل صندوق على سطح المياه • وبعد أن انحسر الطوفان ، جرفت الرياح الصندوق والرجل والمرأة بداخله ، وقذفت به عند « تاهواناكو » التي تبعد عن « كوزكو » بما يقرب من سبعين فرسخا •

وقد حكى المؤرخ الاسباني « هيريرا » أساطيرا من « بيرو » عن الطوفان الكبير ، فقال : « لقد ذكر الهنود القدماء أنهم حفظوا هذه الاساطير عن أجدادهم ، فقد حدث طوفان كبير قبل أن يظهر أى فرد من « الانكاويين » فى « بيرو » • وبعد سنوات وعندما كانت البلاد مزدحمة بالسكان ، حطم حواجزه وغمر الأرض بالمياه وأهلك الناس جميعا • ويضيف « الجرانكيون » سكان وادى « اكسوكسا » وأهالى « تشيكويينو » الذين يسكنون اقليم « كالاو » ، الى ذلك ، أن بعض الناس لجأوا الى جحر وكهوف فى أكثر الجبال ارتفاعا ، وهؤلاء هم الذين عمروا الأرض بعد أن أهلكها الطوفان • ويؤكد قوم آخرون من سكان الجبال ، ان الناس جميعا هلكوا فى هذا لطوفان عدا ستة أفراد طافوا على عوامات • ومن هؤلاء تتاسل سكان هذا البلد • ويمكننا أن نصدق أنه قد حدث فى هذا البلد فيضان على نحو ما ، لان كل سكان الاقاليم المتعددة يتفقون حول هذا الخبر •

وتحكى قبيلة « تشريجوانو » الهندية التى كانت تتمتع ذات يوم بنفوذ قوى فى جنوب شرق « بليفيا » ، الحكاية التالية عن الطوفان الكبير • حدث أن كائنا مهولا شريرا بعينه كان يدعى « أجوارا تونبا » ، أعلن الحرب على الاله الحقيقى « تونبايتى » خالق « التشريجوانيين » • ولا يعرف سبب اعلان هذا الكائن الحرب على الاله ، وان كان يعتقد أن هذا يرجع الى مجرد ضغينة أو الى مجرد اختلاف فيما بينهما • ولكى يضايق هذا الكائن الاله الحقيقى « تونبايتى » ، فقد أشعل النار فى

كل المروج في بداية الخريف أو في منتصفه ، بحيث هلكت النباتات والأشجار وهلكت معها الحيوانات التي كان يعتمد عليها الهنود في معيشتهم ، كما أخذوا يتراجعون أمام ألسنة النيران الى شواطئ الأنهار . ولما كانت الأرض لا تزال مغلقة بدخان النيران ، فقد بذلوا قصارى جهدهم في اصطياد السمك من الأنهار لكي يتغذوا به . وتحير « أجوارا — تونبا » عندما رأى أن بنى الإنسان أوشكوا على الهروب من مخالفه ، وعمد الى حيلة أخرى يحقق بها دسيسيته اللعينة ضد الجنس البشرى ، فجعل الأمطار تهطل من السماء ، على أمل أن يفرق كل أفراد قبيلة « تشيريجوانو » وكاد « أجورا — تونبا » أن ينجح في مهمته . لولا أن سعى التشيريجوانيون لحسن حظهم ، في احباط محاولته . فقد أخذوا يبحثون ، بناء على اشارة تلقوها من الاله الحقيقى «تونبايتى» ، عن ورقة عريضة من نبات « الماتى » ووضعوا فوقها طفلين من أم واحدة أحدهما ذكر والآخر أنثى وجعلوا القارب الصغير يطفوا بنزلائه فوق صفحة الماء . واستمرت الأمطار تهطل في غزارة ، فعلا الفيضان حتى غمر الأرض الى مسافات بعيدة ، وأغرق « الشيريجوانيين » عن آخرهم عدا ورقة نبات الماتى التى كان يطفو فوقها الطفلان . على أن المطر كف عن السقوط بعد ذلك ، وانخفض الفيضان . تاركا وراءه كتلا من الطين . وعند ذاك ترك الطفلان قاربهما الصغير ، لانهما لو كانا قد ظلا يطفوان فوقه ، لكانا قد هلكا من البرد والجوع . ومن الطبيعى أن الطوفان لم يغرق السمك وسائر الحيوانات المائية ، بل انها ظلت تسبح فوق الماء ، وأصبحت ملائمة لان تكون طعاما شهيا للطفلين . ولكن كيف كان يتسنى للطفلين أن يطهيا السمك الذى اصطاداه ؟ هذه كانت مشكلتيهما ، لان كل النيران كانت قد خمدت بسبب الطوفان . على أن الضفدع البرى جاء لنجدتهما فى اللحظة الحاسمة . وقد كان هذا الحيوان الحكيم قد اتخذ حيطة قبل أن يغرق الطوفان الأرض ، ولجأ الى جحر بعد أن أخذ فى فمه بعض قطع الفحم المتقدة ، وظل ينفخ فيها طوال الوقت حتى تظل مشتعلة . فلما رأى أن سطح الأرض قد جف مرة أخرى ، قفز من جحره والفحم المتقد فى فمه ، وجاء مباشرة الى

الطفلين وقدم لهما هدية النار • ومن ثم تمكن الطفلان من شواء السمك واستدفاً جسماهما المرتعشان من البرد وكبر الطفلان على مر الزمن وأنجبا أطفالا تناسلت منها قبيلة « تشيرينجوانو » بأسرها ••

ويحكى أهالى « تيراديل نيجو » التى تقع فى أقصى جنوب أمريكا الجنوبية حكاية غريبة وغامضة عن الطوفان الكبير • فهم يقولون : ان الشمس غطست فى الماء ففاضت المياه بشدة حتى أغرقت الارض جميعا عدا جبلا واحدا شاهقا للغاية • والى هذا الجبل لجأ قلة من الناس استطاعت أن تنجو من الطوفان •

١٣ — حكايات عن طوفان كبير فى أمريكا الوسطى والمكسيك :

وقد عرف الهنود الذين سكنوا بالقرب من « باناما » حكاية طوفان حو ح على نحو ما ، وقالوا ان رجلا واحد هرب من هذا الطوفان فى مركب مع زوجته وأولاده • قد تناسل الجنس البشرى كله من هذه الاسرة وعمر الارض « كما اعتقد هنود « نيكاراجوا » أنه بعد أن تمت عملية خلق الكون ، ابتلى العالم بطوفان أصابه بالدمار ، فاضطرت الآلهة أن تخلق الانسان والحيوان مرة أخرى •

ويقول المؤرخ الايطالى « كلافيجيو » ، « ان المكسيكيين ، شأنهم شأن الامم المتحضرة الاخرى ، لهم تراثهم الروائى الواضح عن خلق العالم ، وعن الطوفان الذى أغرق العالم ، وعن اختلاط الالسنه وتفرق الناس ، وان يكن هذا التراث ينحو منحى خرافى • وقد صور المكسيكيون كل هذه الحوادث بحق فى فنهم التصويرى • فقد رووا أن الطوفان أغرق الجنس البشرى كله ، لم ينج منه سوى رجل واحد كان يدعى « كوكس كوكس » ، (ويطلق عليه البعض اسم « تيوسيبياكتيلى ») وامرأة واحدة توعى « اكسوشيكوتزال » • وقد نجا هذان من الطوفان بعد أن لجأ الى مركب صغير ذى ثلاثة صوار • وبعد أن استقر هذان على قمة جبل يسمى جبل « كولهواكان » أنجبا أولادا ، ولكنهم كانوا جميعا مصابين بالصمم • وظلوا على هذا النحو حتى جاءهم طائر

من شجرة عالية ، وحمل اليهم لغات كانت مختلفة كل الاختلاف الى درجة أنه لم يكن بعضهم يفهم البعض الآخر . وقد ادعى « التلاسكالانيون » أن الناس الذين نجوا من الطوفان مسخوا في شكل قردة ولكنهم أخذوا يستعيدون بعد ذلك لغتهم ومداركهم تدريجيا .

وقد رويت كذلك عن أهالي « ميشوواكان » وهو اقليم في المكسيك حكاية عن الطوفان ذكر فيها أن رجلا كان يدعى « تيزبى » لجأ الى سفينة كبيرة مع زوجته وأولاده عندما بدأ الطوفان يفيض على البلاد ، وأخذ معه عددا من الحيوانات وكمية من الحبوب تكفى لتزويد الحياة بالخير بعد انتهاء الطوفان . وبعد أن انحسر الماء ، أطلق الرجل نسرا في الفضاء . فلما صادف النسر ربما أثارت شهيته ، لم يعد الى السفينة مرة أخرى . فأطلق الرجل طيورا أخرى ، ولكنها لم تعد كذلك . وفي النهاية أطلق طائرا رنانا ، فعاد وفي منقاره فرع أخضر . ومن الواضح تماما أن اطلاق الطيور خارج السفينة بعد انتهاء الطوفان ، يعد أثرا لحكاية نوح وارساله الغراب والحمامة ، تلك الحكاية التى ربما سمعها الاهالى عن المبشرين الاجانب .

وكذلك يروى الهنود « الهويشوليون » الذين يسكنون المنطقة الجبلية الواقعة بالقرب من « سانت كاترينا » فى غرب المكسيك أسطورة عن الطوفان . فهم يقولون ان هنديا من قبيلتهم كان يقطع الاشجار ليعد حقلا للزراعة ، ولكنه كان يصاب بكدر فى اليوم التالى عندما يجد أن الاشجار التى قطعها بالامس قد نمت مرة أخرى على النحو الذى كانت عليه . فاستشاط الرجل غضبا ، كما أنه مل هذا العمل الذى لم يكن يؤدى الى نتيجة . ولكنه قرر فى اليوم الخامس أن يعاود المحاولة ، وأن يستكشف حقيقة هذا الامر . وفى الحال برزت له امرأة عجوز من وسط الغابة تحمل فى يدها عصا . ولم تكن هذه المرأة سوى « الام الكبرى ناكوى » ، وهى الهة الارض التى تنبت كل نبات أخضر من باطن الارض المظلم . على أن هذا الرجل لم يكن يعرفها . وأخذت المرأة العجوز تشير بعصاها ذات اليمين وذات الشمال ، والى أعلى والى أسفل

وفي الحال نهضت الاشجار الهاوية وانتصبت كما كانت • وعند ذاك أدرك الرجل السبب في نمو الاشجار مرة أخرى ، رغم كل محاولاته في ازالتهما وتطهير الارض منها • وعند ذاك قال الرجل لتلك المرأة في غضب : « أنت اذن الذى تضيعين جهودى هباء طوال الوقت ؟ » فأجابته المرأة قائلة « نعم أنا الذى أفعل هذا ، لاننى أود أن أتحدث اليك » • ثم أخبرته أنه يقوم بعمل لا جدوى وراءه ، لان هناك فيضانا كبيرا سوف يغمر الارض في خلال خمسة أيام على الاكثر • وسوف تصحب الطوفان رياح حادة حدة الفلفل الحار وتسبب لك السعال • فاصنع لك تابوتا من خشب شجرة التين في قدر قامتك واجعل له غطاء محكما • ثم خذ معك خمس حبات من الذرة من كل لون ، ومثلها من البقول ، وخذ معك كذلك شعلة من النار ، وخمسة فروع من الغضا لتغذيتها ، وخذ أيضا كلبة سوداء • وفعل الرجل ما نصحته به المرأة ، وفي خلال خمسة أيام كان قد أعد الصندوق ووضع فيه الاشياء التى ذكرتها له المرأة ، ثم دخل الصندوق بصحبة الكلبة السوداء • وعند ذاك غطت المرأة الصندوق وسدت شقوقه بالغراء ، وطلبت منه أن يشير الى الشقوق التى يراها من الداخل حتى تسدها بالغراء كذلك قبل أن يطفو الصندوق فوق الماء • وبعد أن أحكمت المرأة طلاء الصندوق بحيث لم يعد ينفذ فيه الماء والهواء صعدت الى سطحه وجلست فوقه بعد أن وضعت ببغاء على كتفها • وظل الصندوق يطفو فوق سطح الماء على هذا النحو طيلة أعوام خمسة • ففي العام الاول طفا جهة الجنوب ، وفي العام الثانى طفا جهة الشمال ، وفي الثالث طفا جهة الغرب وفي الرابع طفا جهة الشرق • فلما كان العام الخامس استقر الصندوق فوق الماء بعد أن غمر الطوفان الارض جميعا • وفي العام التالى لذلك انحسر الطوفان ، ورسا الصندوق على جبل بجوار « سانتا كاترينا » حيث لا يزال يمكن رؤيته حتى اليوم • وعند ذلك رفع الرجل غطاء الصندوق فوجد أن الارض مازال يغرقها الطوفان • على أن الببغاوات بدأت تعمل في همة في نقر الجبال بمناقيرها حتى حفرت فيها أودية تدفقت اليها المياه التى تشعبت الى خمسة بحور • فلما جفت الارض ، أخذت الاشجار والحشائش تنمو مرة أخرى ، أما المرأة فقد

تحولت الى ريح واختفت • ثم استأنف الرجل عمله الذى كان قد اعترضه الطوفان وأخذ يقتلع الاشجار لكى يعد حقلا للزراعة ، وهناك عاش مع الكلبة فى كهف واحد ، فكان يخرج كل صباح الى العمل ويعود الى كهفه فى المساء • أما الكلبة فلم تكن تغادر الكهف طول الوقت • وعندما كان يعود الرجل الى بيته كان يجد الكعك معدا له ، فدفعه الشغف لان يعرف صانع هذا الكعك • وبعد مضي خمسة أيام ، اختبأ وراء بعض الشجيرات بجوار الكهف وأخذ يراقب ما يحدث • فرأى أن الكلبة خلعت جلدها وعلقته ، وركعت وهى فى هيئة امرأة وأخذت تطحن الحب لتصنع منه الكعك • فاقترب الرجل خلفها خلسة وانتزع الرداء ورماه فى النار • فصرخت المرأة وأخذت تعمل كالكلاب وهى تقول : الان « لقد حرقت ردائى » • ولكن الرجل أخذ بعض الدقيق المزوج بالماء الذى كانت المرأة قد أعدته للكعك ، وغسل لها رأسها فيه • وتزوجها الرجل وأنجب منها أولادا كثيرين تزوجوا بعد ذلك • وبذلك عمرت الارض بالناس الذين سكنوا الكهوف •

ويحكى « الهنود الكوراويون » ، وهم قبيلة تدين بالمسيحية اسما وتتأخم حدودها حدود « الهويشوليون » فى الغرب ، حكاية شبيهة بالحكاية السالفة ، اذ وردت فيها حادثة قاطع الاخشاب الذى حذرتة امرأة من حدوث الطوفان ، والذى تزوج كلبة تحولت الى امرأة بعد أن انحسر الطوفان • ووجه الاختلاف بين الروايتين هو أن الرجل فى الرواية الثانية طلب منه أن يأخذ معه فى السفينة طائر النقار ، وطائر زمار الرمل ويبغاء الى جانب الكلبة • وعندما بدأ الطوفان ، استقل الرجل سفينته عند منتصف الليل • فلما انحسر الطوفان ، مكث الرجل فى السفينة خمسة أيام أخرى ، وأرسل زمار الرمل ليرى ما اذا كان من الممكن السير على الارض • فطار الطائر وعاد وهو يصرخ « أى — وى — وى » • ففهم الرجل من عبارة الطائر أن الارض لا تزال مبتلة فانتظر خمسة أيام أخرى ، ثم أرسل طائر النقار ليرى ما اذا كانت الاشجار قد جفت وتماسكت • فطار الطائر ووقف على شجرة ، ودفع منقاره فى خشبها وأخذ

يهز رأسه يمناً ويسرة ، لكن الخشب كان مبتلا بالماء بحيث انه لم يستطع أن ينتزع منقاره من الخشب • وأخيرا شد منقاره في عنق الى درجة أنه فقد توازنه وسقط على الارض • ثم عاد الى السفينة وهو يصيح « تشو بى — تشو بى » • ففهم الرجل من عبارته أن الارض لا تزال مبتلة • فانتظر خمسة أيام أخرى أطلق من بعدها زمار الرمل المرقط • وكانت الارض قد جفت هذه المرة بحيث لم تغص أرجل الطائر في الطين • فعاد وأخبر الرجل بأن كل شيء أصبح على ما يرام • فترك الرجل السفينة وخطا بحذر خارجها حتى أطمأن الى أن الارض أصبحت مستوية وجافة •

وتحكى رواية أخرى تروى عن « الهنود الكورايين » وتقع في مقتطفات ، عن هرب الذين نجوا من الطوفان في قارب • فلما انحسر الطوفان أطلق الاله النسر ليرى ما اذا كانت الارض قد جفت • ولكن النسر لم يعد الى القارب لانه انشغل بافتراس أجساد الغرقى • فغضب الاله من فعلة النسر ، وأحل به اللعنة ، فجعل لونه أسود بعد أن كان أبيض ، ولم يترك له سوى علامة سوداء في طرفي جناحيه حتى يتعرف الناس منها على اللون الذى كان عليه قبل حدوث الطوفان • ثم أرسل الاله بعد ذلك حمامة مطوقة لكي تستكشف أحوال الارض • فعادت الحمامة وأخبرته بأن الارض قد جفت وان كانت الانهار لا تزال تفيض • عند ذاك أمر الاله صنوف الحيوان أن تبتلع المياه • فجاءت الطيور والحيوانات جميعا لتشرب من المياه ، عدا الحمامة الباكية (بالوما الورونا) التى تخلفت عنها • ولهذا فان هذه الحمامة لا تزال تخرج كل يوم عند المساء لتشرب ، لانها تخجل من أن يبصرها أحد وهى تشرب في وضوح النهار ، أما طوال اليوم فهى تنوح وتبكي • ويبدو أن موضوع الطيور في هذه الاساطير الكورائية ، وبصفة خاصة ذلك الذى يحكى عن دور النسر والغراب في هذه الحادثة ، يكشف بوضوح عن تأثير التعاليم التبشيرية •

١٤ — حكايات عن الطوفان الكبير في أمريكا الشمالية :

ويحكى « الباباجو » الذين يسكنون في جنوب غرب « أريزونا » أن

« الروح الكبير » خلق الارض وسائر الكائنات الحية قبل ان يخلق الانسان . ثم هبط الى الارض وأخذ يحفر في الارض فعثر على بعض الاواني الفخارية ، فحملها معه الى السماء وجعل يقذفها من عل في الحجر الذى قد حفره . فجاءه البطل « مونتيروما » على الفور كما جاءت القبائل الهندية تباعا لمعاونته . وأخيرا جاء « الاباتشيون » يسرعون الخطى وهم فى هيئتهم على نحو ما خلقوا . فى هذه الايام الاولى لخلق الكون كان الناس يعيشون فى سعادة وسلام وقد كانت الشمس أقرب الى الارض مما هى عليه الان . ولذلك فقد كانت فصول السنة متساوية ، كما كان الناس فى غير حاجة الى الملابس وقد كان الناس والحيوانات يحب بعضهم بعضا ، اذ جمعت بينهم لغة واحدة فى رباط من الاخوة . ثم حدثت بعد ذلك كارثة مفرقة وضعت حدا لهذه الايام السعيدة ، فقد حل بالارض طوفان أغرق كل كائن حى فيما عدا البطل « مونتيروما » وصديقه الذئب اللذين تمكنا من الهرب . ذلك أن الذئب كان قد تنبأ بحدوث الطوفان قبل وقوعه ، وأخبر « مونتيروما » بذلك فصنع الاخير مركبا ووضعها معدا للطوارئ على قمة جبل « سانتاروزا » ، وكذلك صنع الذئب قاربا له ، بأن أخذ يقضم قصبة من الخيزران عند شاطئ النهر ودخل فيها بعد أن طلائها بالمطاط . فلما أخذت المياه ترتفع استقل كل منهما مركبه وبذلك أنقذا . فلما انتهى الطوفان تقابلا على الارض الجافة . ولما كان الرجل شغوبا لان يعرف حجم الارض التى جفت ، فقد أرسل الذئب ليستعلم له عن هذا الامر . وبعد فترة عاد وأخبره بأنه لم يجد أثرا للماء جهة الشمال على الرغم من أنه أخذ يتجول حتى أعياه التعب ، فى حين أنه رأى البحر جهة الشرق والغرب والجنوب . وفى هذه الاثناء كان الروح الكبير قد عمر الارض بمساعدة « مونتيروما » بالانسان والحيوان .

وتحكى قبيلة « بيما » ، وهى قبيلة مجاورة « للباباجويين » وترتبط بهم بصلة قرابة ، أن شخصا بعينه يدعى « تشيووتماهى » ومعناه « نبي الارض » ، خلق الارض والانسان . وكان لهذا الخالق ولد يدعى « سيزويكها » كان يعيش فى وادى « جيلا » ، بعد أن اصبحت الارض تغص بالناس . وكان يسكن فى هذا الوادى نفسه وفى ذلك الوقت بعينه نبي عظيم نسي اسمه فيما بعد . وذات ليلة بينما كان هذا النبي نائما ، سمع صوتا خارج بابه أيقظه من نومه . فلما فتح الباب لم يجد أمامه سوى نسر كبير خاطبه قائلا : « هيا استيقظ وانظر حولك ، فلقد حل الطوفان بالارض » . ولكن النبي ضحك مستهزئا به ، ولف رداه حوله ونام مرة أخرى . ومرة أخرى جاءه النسر وحذره ، ولكنه لم يعبأ به . وأعاد الطائر المتعب عليه تحذيره للمرة الثالثة ، وأخبره أن وادى « جيلا » سوف يغرقه الطوفان ، ولكن هذا التحذير كله لم يجد عند الرجل آذانا صاغية . وفى هذه الليلة نفسها بدأ الطوفان يغرق الارض . وفى اليوم التالى لم يكن هناك وجود لاي كائن حتى عدا رجلا واحدا ، ان كان يعد رجلا بحق ، لانه كان «سيزويكها» ابن الخالق الذى أنقذ نفسه بأن طفا على كرة من المطاط أو الراتنج . فلما انخفض الطوفان رسا بقاربه بالقرب من منبع نهر الملح حيث أقام فى كهف على الجبل . ولا يزال هذا الكهف موجودا حتى اليوم ، وكذلك العدد التى كان « سيزويكها » يستخدمها فى حياته . وعلى الرغم من أن النسر الكبير حذر «سيزويكها» قبل وقوع الطوفان حتى ينجو بحياته ، الا أنه غضب من النسر كل الغضب لسبب أو لآخر . ومن ثم فقد تسلق الجبل بحبل بعد أن انتهى الطوفان ، حتى وصل الى مكان النسر وقتله فى وكره . ثم أبصر فى هذا الكور ومن حوله عددا هائلا من أجساد بشرية متراكمة عفنة ، كان النسر قد حملها الى وكره وانهاه عليها يفترسها . فأعاد «سيزويكها» الحياة الى هذه الاجساد وعمر بها الارض .

أما « الهنود الأكاجشيميون » الذين يسكنون بالقرب من « سانت جوان كاىسترانو » فى كاليفورنيا « فلم يكونوا يجهلون كلية حكاية

الطرفان الذى أصاب العالم • على أننى لم أستطع أن أتبين على الإطلاق كيف وصلتهم هذه الحكاية بعينها ومن أى مصدر سمعوها • والى هذه الحكاية تشير بعض أغانيهم • وهم يروون أن البحر فاض فى زمن بالغ فى القدم وأغرق السهول وملاؤ الوديان حتى غطى الجبال • ومن ثم فقد هلك الجنس البشرى كله وصنوف الحيوان ، ولم ينج من هؤلاء جميعا سوى عدد قليل من الناس والحيوان لجأوا الى جبل شاهق لم تصل اليه المياه ••

وكذلك يحكى « الهنود اللويزينيون » الذين يسكنون « كاليفورنيا الجنوبية » حكاية عن طوفان غطى الجبال العالية وأغرق معظم الناس ، ولم ينج منه سوى قليل من الناس كانوا قد لجأوا الى أكمة تقع بالقرب أما الهنود فيسمونه الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان « مورا » ، أما الهنود فيسمونه الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان بأكمله تحت سطح الماء فيما عدا هذه الأكمة التى أقام فيها الهنود حتى انحسر الطوفان • ويمكنك أن ترى حتى هذا اليوم على قمة التل الصغير أكواما من أصداف البحر والقش والرماد والأحجار بعضها بجانب بعض ، وهى تشير الى المكان الذى كان يطهو فيه الهنود طعامهم • أما الأصداف فهى أصداف السمك الصدفى الذى كانوا يأكلونه ، وأما الرماد والأحجار فقد تخلفت عن مواقدهم : ويضيف الكاتب الذى حكى هذه الرواية فيقول : « وتحتوى التلال القريبة من « ديل مار » ، وأماكن أخرى تقع بمحاذاة الساحل على أكوام كثيرة هائلة من أصداف البحر من النوع الذى مازال موجودا على الشاطئ • وما زال « اللويزونيون » يغنون أغنية الطوفان التى يرد فيها ذكر أكمة « كاتوتا » •

وقد حكى امرأة هندية من قبيلة « سميث ريفر » التى تسكن فى « كاليفورنيا » ، الرواية التالية عن الطوفان : لقد هطلت مياه غزيرة فى زمن من الأزمنة ، وظلت تهطل حتى غمرت الوديان • ولجأ الهنود الى النجاد المرتفعة • ولكن المياه ظلت ترتفع حتى أغرقت هؤلاء الهنود جميعا عدا

رجلا وامرأة تسلقا الى أعلى قمة وبذلك نجيا من الغرق • وقد عاش هذان على السمك بعد طهيه تحت ابطيهما ، اذ لم يتمكنوا من اشعال النار لأن كل شيء كان مبتلا للغاية • وبعد ذلك أخذت المياه في الانخفاض بعد أن أغرقت كل من عليها عدا هذا الرجل وتلك المرأة اللذين تناسل عنهما كل الهنود الذين يعيشون اليوم على وجه الأرض • وقد تحولت أزواج الهنود الذين غرقوا في الطوفان الى غزلان ودببة وثعابين وحشرات وأيائل وغير ذلك من صنوف الحيوان التي عمرت بها الأرض كما عمرت بالانسان •

وقد كانت حكاية الطوفان تروى ، وفقا لقول « دى براتز » مؤرخ « لويزياينا » الفرنسي المتقدم ، بين قبيلة « ناتشيز » ، وهي قبيلة هندية كانت تسكن عند أعالي نهر المسيسيبي • فيخبرنا هذا المؤرخ بأنه سأل حارس المعبد الذي يحتفظ فيه في ورع ديني ، بالنار المقدسة مشتعلة على الدوام ، عن موضوع الطوفان ، فأخبره بأن الكلمة القديمة علمت الهنود الحمر جميعا أن كل الناس على وجه التقريب غرقوا في الطوفان ، سوى عدد قليل منهم لجأوا الى جبل شاهق للغاية • وفيما عدا هذا فهو لايعرف شيئا عن هذا الموضوع سوى أن الذين أنقذوا عمروا الأرض من بعد • • ويضيف « دى براتز » الى هذا قائلا « وحيث اننى قد استمعت لهذا القول نفسه من شعوب أخرى ، فقد دفعنى هذا لأن أتأكد من أن كل الأهالى كانوا ينظرون الى هذه الحادثة النظرة نفسها وأنهم لم يحتفظوا بأية ذكرى لطوفان نوح • ولم أتعجب لهذا الأمر كثيرا ، حيث ان الاغريق أنفسهم ، رغم علمهم الواسع ، لم تكن معلوماتهم حول هذا الموضوع أفضل من معلومات هذه الشعوب • بل اننا نحن لم نكن لنعرف أكثر منهم ، لو لم نقرأ عن هذا الموضوع في الكتابات المقدسة » • ثم يحكى المؤرخ الفرنسي الرواية اللويزيانية في مكان آخر بطريقة أكثر اكتمالا فيقول : لقد ذكر الأهالى أن مطرا غزيرا هطل من السماء لمدة طويلة حتى غمر الأرض

عدا جبلا شاهقا لجأ اليه بعض الناس هروبا من الطوفان • ولما كانت النار قد خمدت جميعها من على وجه الأرض ، فان طائرا أحمر اللون يسمى « كويى - أوبى » (وهو الطائر الذى يسمى فى «لويزيانا» بالطائر المغرد) أحضر النار من السماء • وقد أدركت من حديث هؤلاء الناس ، أنهم كادوا ينسون كلية الرواية التاريخية عن الطوفان •

ويروى الهنود « الماندانيون » رواية عن الطوفان الذى هلك فيه الجنس البشرى كله عدا رجلا واحدا هرب فى قارب عند جبل يقع فى الغرب • ومن ثم فان هؤلاء يقومون كل عام بتأدية طقوس معينة فى ذكرى انتهاء الطوفان التى يسمونها « مى - نى - رو - كا - ها - شا » أى انخفاض المياه أو استقرارها • وتؤدى هذه الطقوس عندما تمتد أوراق الصفصاف امتدادا كاملا على طول شواطئ النهر • وسبب هذا ، وفقا لروايتهم ، أن الغصن الذى أحضره الطائر كان غصنا من شجر الصفصاف • وأما الطائر الذى أحضر هذا الغصن ، فهو اليمامة أو الحمامة النائحة • وكثيرا ما يقف هذا الحمام عند جوانب أكواخهم المغطاة بالتراب ، دون أن يتعرض له أحد من الهنود لا يذائه أو قتله • بل انهم قد مرنوا كلابهم على عدم ازعاجه • وقد كان سكان قرية « مادان » يحرصون على الاحتفاظ بهيكل خشبى يمثل القارب الذى نجا فيه الرجل الوحيد من الطوفان • ويقول الرسام « كاتالين » ان فى وسط القرية ميدانا يبلغ قطره مائة وخمسين قدما ، يحتفظ به على الدوام خاليا نظيفا بوصفه مكانا شعبيا تقام فيه الأعياد والاحتفالات الى غير ذلك • وحول هذا الميدان تلتف أكواخهم ذات الشكل المخروطى ويلتصق بعضها بجانب بعض متجهة أبوابها جهة هذا المكان الشعبى وفى وسط هذا الميدان الذى مهد فأصبح كالرصيف الصلب ، حاجز (اشبه بالبرميل المرتكز على حافته) من الألواح الخشبية ، تحيط به أطواق يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ثمانية أو تسعة أقدام ، ويحافظ عليها الأهالى فى ورع دينى ، ويقومون على صيانتها من عام لآخر حتى تظل نظيفة خالية من الخدوش والعلامات • وهم يطلقون عليها اسم

« القارب الكبير » • ومما لاشك فيه أن هذه الأطواق تعد تجسيدا رمزيا لجزء من تاريخهم الشعبي عن حادثة الطوفان التي يبدو تماما من هذا الهيكل ومن الملامح الأخرى العديدة لهذا الاحتفال الكبير ، أن الأهالي قد عرفوها بشكل أو بآخر ويحاولون تخليدها عن طريق تذكير الناس بها بطريقة حية • ويعد هذا الموضع الخرافى ، نظرا لموقعه المتوسط فى القرية ، مكان تجمع الأهالي جميعا • ففيه يقومون بتقديم واجبات التقديس فى المناسبات والأعياد المختلفة والممارسات الدينية طوال السنة •

وفى الاحتفال السنوى الذى حضره « كاتالين » فى ذكرى حادثة الطوفان ، شخص الرجل الوحيد الذى نجا من الطوفان واسمه « نو - موهك - موك - آناه » فى هيئة مهرج يرتدى جلد ذئب أبيض يتدلى على كتفيه ، بينما يغطى رأسه بغطاء زاه لجلدى غرابين ، ويحمل فى يده اليمنى غليوننا طويلا • ويدخل هذا المهرج القرية من جهة المروج ويقترب من مكان العلاج أو كما يعرف بالمكان السرى • وهو يملك وسائل فتح هذا المكان الذى يحكم اغلاقه طوال السنة ، ولا يفتح الا من أجل تأدية الطقوس الدينية • ثم يتجول هذا المهرج طوال اليوم فى القرية ، ويقف أمام كل كوخ ويصيح حتى يفتح له صاحب الكوخ ويسأله عن هو ، وعن سبب مجيئه • وعند ذاك يجيبه برواية حكاية الكارثة المحزنة التى أغرق فيها الفيضان الأرض ويقول : « انه الشخص الوحيد الذى نجا من هذه الكارثة التى انتابت العالم وأنه رسا بسفينته الكبيرة على جبل شاهق يقع جهة الغرب • ومن ثم فهو فى حاجة لأن يقدم له صاحب كل كوخ آلة حادة هدية لتقدم ضحية للماء ، لأنهم ان لم يفعلوا هذا فسوف تصاب الأرض بطوفان آخر لن ينجو منه أحد كما نجا صاحب السفينة الكبيرة التى صنعت ذات يوم بمثل هذه الآلات الحادة » • وبعد أن يزور هذا المهرج كل كوخ فى القرية طوال اليوم ، ويتسلم من صاحب كل كوخ سكيئا أو فأسا أو أية آلة حادة أخرى ، يضع هذه الاشياء فى مكان العلاج حيث تترك هناك حتى عصر اليوم الأخير من الاحتفال • وفى نهاية الطقوس ترمى هذه الآلات فى أعماق النهر من

شاطيء يرتفع ثلاثين قدما في حضرة أهل القرية جميعا . « وهذه الآلات تقدم بدون شك ضحية لروح الماء ، ومن ثم فهي لا تسترد مرة أخرى » . ومن بين طقوس الاحتفالات التي يقوم بها « الماندانيون » في عيد الربيع ، رقصة الثيران ، ويرقصها رجال متتكرون في هيئة الجاموس ، والهدف من هذه الطقوس أن تمدهم الطبيعة بنتاج وافر من الجاموس في العام التالي . فضلا على هذا فان الشباب يعرض نفسه اختيارا لأنواع من العذاب المبرح حتى يرضى عنهم « الروح الكبير » . على أنه لا يتضح في كتابات الكتاب الذين اعتمدنا عليهم ، الى أي حد تتصل هذه الطقوس الغريبة الغامضة بحادثة الطوفان .

وقد كان يسمى هذا الاحتفال عند الماندانيين باسم « أو - كي - با » . وكان « احتفالا دينيا يقام كل عام . ولم يكن هذا الاحتفال بالنسبة لهذا الشعب الجاهل الذي يؤمن بالخرافات مجرد متعة في حياتهم ، بل كان جزءا من كيانهم بحق ، ذلك أن تراثهم المروى ، وهو بالنسبة لهم تاريخهم الوحيد ، قد أورثهم الاعتقاد في أن شعائر هذا الاحتفال تزيد من ثروتهم في الجاموس الذي يعتمدون عليه في معيشتهم ، وان اهمال هذا الاحتفال السنوي بما يتضمنه من تقديم الضحية للماء ، قد يتسبب في حدوث الكارثة مرة أخرى ، تلك الكارثة التي حلت بهم ذات مرة ، كما أخبرهم تراثهم المروى ، وأهلكت الجنس البشري بأسره ، عدا رجلا واحدا استطاع أن يرسو بمركبه على جبل شاهق يقع جهة الغرب . على أنه ليس من الغريب أن تسمع هذه الرواية من قبيلة « ماندان » ، اذ ليست هناك قبيلة من القبائل المختلفة التي زرتها في أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو الوسطى والتي يبلغ عددها مائة وعشرين قبيلة - لم ترو لي حكايات واضحة أو غامضة عن مثل هذه الكارثة التي نجا منها شخص أو ثلاثة أشخاص أو ثمانية ، بأن لجأوا الى الجبال العالية . وبعض هذه القبائل التي تسكن عند سفح الجبال الصخرية وفي سهول « فنزويلا » و « بامبا ديل ساكرامنتو » في أمريكا الجنوبية ، يحج كل عام الى هذه القمم الوهمية التي لجأ اليها من

أنقذ من الطوفان في سفينة أو ما أشبه ذلك وهناك يصلون الى « الروح الكبير » ويقدمون له التضحيات وفقا للتعاليم الملغزة لرجالهم العارفين بأسرار الدين ، حتى يؤكدوا حصانتهم ضد مثل هذه الكارثة .

وقد قيل : ان « الهنود الشيروكيين » يروون حكاية عن الطوفان، مؤداها أن الأرض ظلت غارقة تحت الطوفان حتى هلك الجنس البشرى بأسره عدا اسرة واحدة . وقد كان كلب قد أخبر سيدة بهذه الكارثة قبل حدوثها ، فقد حدث أن هذا الكلب الحصيف كان يذهب يوما بعد يوم الى شواطئ النهر ، حيث يقف ويحلق في الماء وينبح نباحا مثيرا للشفقة . فلما نهزه سيده وأمره أن يعود الى البيت فتح الكلب فاه وحذر سيده من الخطر المحدق به وقال له : « يجب عليك أن تبني مركبا وتختزن فيه كل ما يمكن أن تدخره ، لان مياهها غزيرة سوف تهطل حتى تغرق الأرض » . ثم ختم الكلب نبوءته بأن أخبر سيده بأن نجاته تتوقف على رمى سيده له هو نفسه — أى الكلب — في الماء . ثم رجاه أن ينظر الى خلف رقبتة لكي يرى علامة صدق قوله . فنظر الرجل خلف رقبة الكلب فرأى حقا أنها مسلوخة جرداء وقد برز منها اللحم والعظم . وعند ذاك صدق الرجل كلبه ، وعمل بنصيحة هذا الحيوان المخلص وبذلك نجا هو واسرته التي تناسلت عنها شعوب الأرض التي تعيش عليها اليوم .

وتنتشر حكايات الطوفان الكبير انتشارا واسعا بين الهنود الذين ينتمون الى أصل « الجونكوين » الكبير . كما أن هذه الحكايات تتشابه مع بعضها البعض في بعض التفاصيل . فقبيلة « ديلاواري » وهي قبيلة تنتمي الى أصل « الجونكوين » وكانت تسكن حول خليج « ديلاواري » ، روت حكاية عن الطوفان الذي أغرق الأرض جميعا ، ولم ينج منه سوى بعض أفراد قلائل امتطوا ظهر سلحفاة بلغت من الكبر عتيا الى درجة أن ظهرها العظمى أصبح رخسوا مثل شاطئ الجدول . وبينما كانوا يطفون في يأس على ظهر السلحفاة ، طار طائر مائي أمامهم ، فرجوه أن يغطس في الماء ، ويحضر لهم الأرض الغرقى من أعماق المياه . فغطس الطائر ولكنه لم يهتد الى قاع الماء . فطار

بعد ذلك بعيدا ثم عاد وأحضر معه بعض التراب في منقاره • فسارت السلحفاة في أثره حتى وصلت الى قطعة من الأرض الجافة • فنزل الناس من على ظهرها وسكنوا هذه الأرض وعمروها المياه •

وكذلك حكى « المونتانيون » وهم مجموعة من القبائل الهندية التي كانت تسكن في كندا ، وهم ينتمون بالمثل الى أصل « الجو نكوين » الكبير ، حكى لمبشر يسوعى عاش بينهم في زمن مبكر ، أن كائنا قويا ، أطلقوا عليه اسم « ميسو » ، أعاد الحياة الى العالم ، بعد أن كان الطوفان قد قضى عليها • فقد خرج « مسو » ذات يوم للصيد ومعه ذئاب بدلا من كلاب الصيد • فغاصت الذئاب في بحيرة واختفت • وأخذ « مسو » يبحث عنها في كل مكان ، حتى أخبره طائر بأنه قد رأى الذئاب الضالة في عرض البحيرة • فغاص « مسو » في الماء لينقذها • ولكن البحيرة فاقت حتى غمرت المياه الأرض وأغرقت العالم • فدهش « مسو » لما حدث وأرسل غرابا ليبحث عن كتلة من الطين ليعيد عن طريقها خلق الأرض ، ولكن الغراب لم يجد أثرا للطين • فأرسل بعد ذلك كلب البحر ليقوم بنفس المهمة ، فغاص في الماء ولم يحضر معه شيئا • وفي النهاية أرسل « مسو » فأر المسك فأحضر معه كتلة من الطين استخدمها في إعادة خلق الأرض التي نعيش عليها اليوم • ثم صوب سهامها الى سيقان الاشجار ، فتحولت السهام الى التوالى الى أغصان • ثم انتقم بعد ذلك ممن أغرق ذئابه في البحيرة ، وتزوج فأر المسك وأنجب أولادا تناسلوا فيما بعد وعمروا الأرض •

وفي هذه الحكاية لا نجد ذكرا لانسان • ويمكننا أن نفترض بناء على الدور الذى لعبته الحيوانات فيها ، أن الطوفان حدث في عصور مبكرة لم تكن الحياة قد دبّت فيها بعد على وجه الأرض • على أن هناك مبشرا كاثوليكيا آخر أخبرنا بعد ذلك بقرنين من الزمان أن « المونتانيين » الذين يسكنون ولاية « خليج هدسون » يروون حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق العالم ، ولم ينج من هذا الطوفان سوى أربعة أشخاص ومعهم بعض الحيوانات والطيور ، وقد لجأوا جميعا الى جزيرة عائمة •

وهناك مبشر كاثوليكي آخر روى الأسطورة المونتانية في شكل أكثر اكتمالا على النحو التالي : عندما غضب الاله من الشياطين ، أمر رجلا ببناء قارب كبير . وما أن فعل الرجل هذا واستقل بقاربه ، حتى أخذت المياه تفيض من كل جانب والقارب يطفو فوقها ، حتى لم تعد العين تبصر أى أثر للأرض . ولما تعب الرجل من رؤية مساحات المياه الهائلة من حوله ، ومن كلب البحر في الماء ، غطس وأحضر معه كتلة من الطين . فأخذ الرجل قطعة الطين في يده ونفخ فيها ، وفي الحال أخذت قطعة الطين تتضخم . فوضعها على سطح الماء وحال دون سقوطها فيه . وأخذت قطعة الأرض هذه تكبر تدريجيا حتى أصبحت جزيرة . ثم شاء الرجل أن يعرف ما اذا كانت الجزيرة من الكبر بحيث تتسع لاقامته عليها . فأرسل أيلًا طاف حولها في وقت قصير ، ثم عاد اليه فعلم الرجل أن الجزيرة ليست متسعة بما فيه الكفاية . ومن ثم أخذ ينفخ على سطحها حتى تكونت فيها الجبال والبحيرات والأنهار . وعند ذاك ترك مركبه وعاش عليها . ويحكى هذا المبشر نفسه أسطورة عن الطوفان تنتشر بين قبيلة « كرى » وهي قبيلة أخرى تنتمى الى أصل « الجونكوين » الذى يقطن في كندا . ولكن هذه الحكاية « الكريبيه » تكشف عن تأثيرات مسيحية . اذ يروى فيها أن الرجل أطلق من سفينته غرابا في بادىء الأمر ، ثم أطلق حمامة برية بعد ذلك . أما الغراب فقد تغير لونه فأصبح أسود بعد أن كان أبيض بسبب عدم اتباعه أوامر الرجل . وأما الحمامة فقد عادت والطين عالق بمخالبها ، فعرف الرجل من ذلك أن الأرض جفت وبذلك رسا على الأرض .

ويبدو أن « ه.ا. ماكينزى » هو الذى دون أسطورة جماعة « الجو نكوين » عن الطوفان كاملة لأول مرة . وقد أمضى « ماكينزى » جزءا كبيرا من حياته المبكرة بين الهنود « السالتووين أو التشيياوين » . وهم يكونون فرعا كبيرا قويا من أصل « الجونكوين » . وقد حكى « ماكينزى » هذه الرواية الى النقيب البحرى « و.ه. هوبر » الذى

كان يقيم في فورت نورمان « بالقرب من « بحيرة بير » في حوالى منتصف القرن التاسع عشر • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى •

كان بعض الهنود يعيش فى زمن من الأزمنة ، ومن بينهم طبيب كبير يدعى « ويس — كاي — تشاش » وكان يعيش معهم ذئب وابنان له فى مودة وإخاء • وكان « ويس — كاي — تشاش » ينظر الى الذئب بوصفه أخا له ، كما كان ينظر الى أولاد هذا الذئب بوصفهم أبناء أخيه ، ذلك لأنه كان ينظر الى الحيوانات جميعا بوصفها أقرباء له • ثم حدث أن أخذ الجميع يعانون من الجوع فى فصل الشتاء • ومن ثم فقد عزم الذئب على أن ينفصل عن الجماعة مع ولديه حتى يبحث عن طعام • فشاء « ويش كاي تشاش » أن يرافقه ، ورحل الجميع معا • وفى أثناء السير صادفا آثار أقدام أيل ، فوقف الذئب العجوز والطبيب « ويس » (كما سنسميه اختصارا) عند هذا الاثر وأخذا يدخنان ، بينما سار الذئبان الصغيران يقتفیان أثر أقدام الأيل • ولم يعد الذئبان الصغيران بعد مضى وقت ، فسار الذئب الأب مع « ويس » لبيحثا عنهما • وسرعان ما أبصرا أثر دماء على الثلج • فعلما من ذلك أن الأيل قد قتل • ثم تقابلا بعد ذلك مع الذئبين الصغيرين ، ولكنهما لم يجدا أثرا للأيل ، لأن الذئبين الصغيرين كانا قد افترساه • ثم توصل الذئبان الى « ويس » لكى يشعل نارا • فلما فعل ذلك ظهر جسد الأيل وكان مقطعا الى أربعة أقسام • وكان الذئبان قد قطعا الغنيمة الى هذه الأقسام الأربعة ، بعد أن احتفظ أحدهما لنفسه باللسان ، والآخر بشفة الأيل العليا ، وهما الجزءان الرئيسيان الشهيان فى هذا الحيوان • ولما اعترض « ويس » على هذه القسمة « قدم الذئبان هذين الجزعين له • وبعد أن أكل كل نصيبه تطوع أحد الذئبين أن يصنع لهم حساء دسما من عظام الحيوان المهشمة • على أنهم سرعان ما أحسوا بالجوع بعد أن هضم هذا الطعام • فاتفقوا على أن يفترقوا مرة أخرى • فرحل الذئب الكبير فى هذه المرة مع أحد أبنائه ، ورحل « ويس » مع الابن الآخر •

ثم تترك الحكاية الحديث عن الذئب الكبير ، وتحكى عن مصير

« ويس » وابن أخيه الذئب • فقد حدث أن قتل الذئب الصغير بعض الغزلان وابتلعها ثم تقيأها كما هي عند وصوله ، وأخبر عمه أنه لم يستطع أن يصطاد من الوحوش أكثر من ذلك • فجلس « ويس » طوال الليل يصنع الدواء أو يستخدم التعاويذ • وفي الصباح توصل الى ابن أخيه أن يخرج للصيد ، ولكنه حذره أن يحرص على أن يضع عصا عبر أى واد أو مكان أجوف قبل أن يعبر هو نفسه ، والا فسوف تلتحق به بعض الشرور • فرحل الذئب • وفيما كان يجرى وراء غزال ، نسى أن يتبع تعليمات عمه • فلما حاول أن يقفز عبر مكان أجوف سقط في نهر ومات على الفور وابتلعه حيوانات الماء • ولم يذكر القاص شيئاً عن طبيعة هذا الحيوان ، ولكنه اكتفى بذكر أن الذئب الصغير قد قتل وابتلعه هذه الكائنات • وبعد أن انتظر « ويس » عودة الذئب الصغير فترة طويلة ، خرج لبيحث عنه ، فلما وصل الى المكان الذى قفز عنده الذئب ، أدرك توا أن الذئب قد أهمل نصيحته ، ولهذا فقد سقط في الماء • ثم أبصر « ويس » طائر القاوند يجلس بأعلى شجرة ويحلق بشدة في الماء • فلما سأل عن هذا الشيء الذى ينظر اليه بهذا الاهتمام ، أجاب الطائر بأنه ينظر الى جلد ابن أخى « ويس » الذى يستخدم الآن مساحة للأرجل عند بيت الحيوانات المائية التى ابتلعه • اذ لم تكف هذه الحيوانات المقاسية بقتل هذا الذئب وابتلاعه ، بل أضافت الاساءة الى جريمتها فاستخدمت جلد الذئب على هذا النحو الوضيع • فأسدى « ويس » الشكر للطائر على المعلومات التى قدمها له ، وذلك بأن طلب منه أن ينزل اليه ، وأخذ يمشط له رأسه ويصنع له طوقاً من الريش حول رقبته • ولكنه قبل أن يفرغ من عمله ، طار الطائر • وهذا هو السبب فى أن طائر القاوند لا يحيط رقبته سوى جزء من الشعر خلف الرأس • على أن طائر القاوند أسدى الى « ويس » نصيحة قبل رحيله ، وقال له : ان هذه الحيوانات المائية كثيراً ما تخرج من الماء وتستلقى على الشاطئ ، فان شاء أن يفتقم منها ، فعليه أن يحول نفسه الى كتلة من الخشب ويستلقى بجانبها ، وأن يكون حريصاً كل الحرص على أن يكون جسمه متصلاً للغاية ، حتى لا تشده الضفادع والثعابين التى لا بد أن

ترسلها الحيوانات المائية لكي ترحزحه من مكانه • وبعد أن استجمع « ويس » لهذه الارشادات عاد الى خيمته وأخذ يعاود تعاويذه • كما أنه أعد كل ما يلزمه لهذه المغامرة ، من بينها قارب كبير يسع كل الحيوانات التي تستطيع العوم •

وقبل أن تشرق الشمس ، كان « ويس » قد أعد عدته واستقل مركبه مع الحيوانات المذكورة آنفا • ثم أخذ يجدف في هدوء حتى وصل الى مقربة من الحيوانات المائية • وعند ذاك أرسى مركبه عند نتوء في البحر ، ونزل من المركب وحول نفسه الى كتلة من الخشب وأخذ ينتظر ، وهو على هذا النحو المصطنع ظهور الحيوانات المائية • وسرعان ما ظهر حيوان أسود أخذ يزحف حتى استلقى على الرمل • ثم أعقبه حيوان رمادي اللون فعل ما فعله الحيوان الأسود • وأخيرا أطل الحيوان الأبيض الذي كان قد قتل الذئب الصغير ، برأسه من الماء • ولما أبصر كتلة الخشب تسرب الشك الى نفسه وصاح بأخويه وقال لهما : انه لم يبصر كتلة الخشب هذه من قبل • ولكنهما ردا عليه في غير اكتراث بأن هذه الكتلة الخشبية لا بد أنها كانت موجودة في هذا المكان على الدوام • ولكن الحيوان الأبيض الحذر الذي كان الشك ما زال يساوره ، أرسل الضفادع والثعابين لكي ترحزح كتلة الخشب • ولكن « ويس » قاوم بشدة حتى يحتفظ بانتصابه ، ونجح في ذلك • عند ذاك خمد شك الحيوان الأبيض ، واستلقى على الرمل ونام • أما « ويس » فقد انتظر بعض الرقت ، ثم عاد الى شكله الأصلي ، وأخذ رمحه وزحف في بطن الى الحيوان الأبيض • وقد كان طائر القاون قد نصح « ويس » أن يصوب رمحه نحو ظل الحيوان والا فشلت محاولته • ولكن « ويس » نسي هذه النصيحة ، وصوب سهمه نحو جسم الحيوان مباشرة ، فأخطأ الهدف واندفع الحيوان أثر ذلك الى الماء • وكانت لدى « ويس » فرصة أخرى لكي يضربه ، وفي هذه المرة صوب سهمه نحو ظله فأصاب الحيوان نفسه بجرح بالغ • ومع ذلك فقد حاول الهروب الى الماء وتبعه أخواه • وفي الحال بدأ الماء يفور ويرتفع في الوقت الذي استقل فيه « ويس » مركبه وسار به في أقصى سرعة • وأخذت المياه ترتفع حتى غطت الأرض والأشجار والتلال • أما

مركب «ويس» فقد أخذ يطفو على سطح الماء • ولما كان «ويس» قد جمع في مركبه كل الحيوانات التي لا تستطيع العوم ، فقد أخذ يجمع هذه المرة الحيوانات التي كانت تسبح من حوله وهي تصارع هذا التيار المائى الجارف •

وقد فات «ويس» وهو منشغل فى تلاوة تعاويذه لمواجهة الاخطار المحدقة به ، أن يفكر فى طريقة عاجلة يسترجع بها الأرض بعد أن أغرقها الطوفان • ولم يكن لديه أى قدر من القرب ، ولا حتى ذرة منه تصلح أن تكون نواة لأرض جديدة تتكون من بقايا الأرض العرقى تحت المياه • فلما تذكر هذا الموضوع ، شرع فى الحصول على كمية من الطين فربط خيطا فى رجل طائر ، « آكل السمك » وطلب منه أن يحاول أن يسبر غور الماء وأن يثابر على ذلك ، ولو أدى هذا الى هلاكه • ثم قال : «لاتفكر فى أمر غرقك ، لأنك اذا غرقت ، ففى وسعى أن أعيد اليك الحياة فى يسر » • فشجع هذا القول الطائر واندفع فى الماء كما يندفع الحجر ، وجرى معه الخيط الذى كان «ويس» ممسكا بطرفه • فلما كف الخيط عن الجريان شد «ويس» الخيط من الماء ، واذا بالطير قد مات وهو مربوط فى نهايته فأعاد «ويس» الحياة اليه فى ببطء • وعيد ذاه أخبره الطائر أنه لم يهتد الى قاع الماء • وبعد ذلك أرسل «ويس» كلب البحر ليقوم بهذه المهمة نفسها ، ولكنه لم يكن أسعد حظا من الطائر الأول • وفى المرة الثالثة أرسل حيوان السمور الذى أخبر «ويس» بعد أن مات وبعث للحياة مرة أخرى ، أنه قد غاص حتى وصل الى قمم الأشجار ، ولكنه لم يتمكن من الغوص أبعد من ذلك • وفى نهاية الأمر أرسل «ويس» فأرا ربطه فى حجر ، فغطس الفأر والحجر وارتخى الخيط عن آخره • وعند ذاك شد «ويس» الخيط وكان الفار ميتا فى طرفه ، ولكنه كان يحمل قطعة من الطين بين أظافره • وكان هذا هو كل ما كان يسعى اليه «ويس» ، فأعاد الحياة بعد ذلك الى الفأر ونشر قطعة الطين حتى تجف ثم أخذ ينفخ فيها حتى تمددت الى حد كبير، وهو يتصور أن حجم الأرض على هذا النحو كاف لأن يحيا عليها هو ومن معه من صنوف الحيوان • ثم أرسل الذئب ليستكشف له حجم الأرض • ولكن الذئب عاد على وجه السرعة وأخبره أن مساحة الأرض

صغيرة • فأخذ «ويس» ينفخ فيها فترة طويلة ، ثم أرسل غرابا ليعرف له قدر مساحتها • فلما لم يعد الغراب مرة أخرى ، تأكد «ويس» أن الأرض أصبحت من الاتساع بحيث تكفى الحياة عليها • وعند ذاك نزل اليها «ويس» ومن معه من صنوف الحيوان ••

وقد دونت لهذه الحكاية رواية أكثر اختصارا من الرواية السالفة ، وتختلف عنها بعض الاختلاف • وهذه الرواية الأخيرة كان يرويها «الأوجيويون» الذين يسكنون في جنوب شرق «أونتاريو» (١) • وتجري هذه الرواية على النحو التالى : كان «نينيوجو» يعيش مع أخيه في الغابات ، وكان يخرج كل يوم للقنص ، بينما يبقى أخوه في البيت • وذات يوم عاد «نينيوجو» من القنص في المساء ولم يجد أخاه فخرج للبحث عنه ، ولكنه لم يعثر له على أثر • ثم خرج في صباح اليوم التالى ليواصل البحث عن أخيه • وبينما كان يسير بجوار شاطئ بحيرة لم يبصر سوى طائر القاوند وهو جالس على فرع شجرة يتدلى في الماء • وكان الطائر يحملق باهتمام في الماء أسفل الشجرة • فسأله «نينيوجو» قائلاً : علام تحملق في الماء ؟ ولكن القاوند تظاهر بأنه لم يسمعه • فقال له «نينيوجو» ، « ان أنت أخبرتنى فسأجعل منظرِكَ جميلاً ، اذ أننى سأقوم بتلوين ريشك » • فوافق القاوند على ذلك ، وقال له بعد أن لون له ريشه : « اننى أنظر الى شقيق «نينيوجو» الذى قتلته أرواح المياه وفرشت جلده عند عتبة الباب » • فسأله «نينيوجو» بعد ذلك : « وفي أى مكان على الشاطئ تستلقى هذه الأرواح لتدفىء نفسها بأشعة الشمس ؟ » فأجاب القاوند : « انها تستلقى على الدوام هناك عند أحد الخلجان حيث الرمل جاف كل الجفاف » •

وعند ذاك ترك «نينيوجو» طائر القاوند وقرر أن يذهب الى الشاطئ الرملى الذى أرشده اليه الطائر ، وهناك يتحين الفرصة كي يقتل

(١) مدينة في ولاية كاليفورنيا وتبعد عن لوس انجلوس بحوالى خمسة وثلاثين ميلاً .
(المترجمة)

أرواح المياه • وأخذ بأذى الأمر يفكر في الشكل الذي يتتكر فيه حتى لا تتعرف عليه هذه الأرواح ، وقال لنفسه : « سأحول نفسي الى كتلة خشب قديمة عفنة » • وبالفعل حول « نينيوجو » ، نفسه الى هذا الشكل مستعينا بعمود طويل كان يحمله معه على الدوام • فلما خرجت الأسود من الماء لتستدفئ في الشمس ، أبصر أحدها كتلة الخشب وقال لأحد رفاقه : « لم يسبق لى أن أبصرت هذه الكتلة الخشبية في هذا المكان ، ولا يمكن أن تكون هي « نينيوجو » • فرد عليه الأسد الثانى قائلاً : « لا ، بل اننى رأيته من قبل » • عند ذاك قدم أسد ثالث لينظر الى كتلة الخشب ويتأكد منها • فكسر قطعة منها ووجدها عفنة • فاطمأنت الأسود وخلدت الى الراحة • فلما رأى « نينيوجو » أن الأسود راحت في سبات عميق ، هوى على رؤوسها بعصاه • وبينما كان يضربها كانت المياه ترتفع • فولى هاربا ولكن الأمواج اقتفت أثره • وبينما كان يجرى والأمواج تلاحقه ، تقابل مع طائر النقار الذى أرشده الى جبل تنبت عند قمته شجرة صنوبر عالية • فتسلق « نينيوجو » الشجرة ، وأخذ يصنع لنفسه لوحا من الخشب • وما كاد يفرغ من صنعة حتى كانت المياه قد وصلت الى رقبتة • فوضع على لوح الخشب زوجا من كل صنف من صنوف الحيوان وطفلا الجميع على سطح الماء •

وبعد أن سار « نينيوجو » بقاربه بعض الوقت فوق سطح الماء ، قال لنفسه : « لا أعتقد أن الماء سوف ينحصر على الإطلاق ، ولذلك كان من الأفضل أن أقوم بخلق أرض جديدة » • فأرسل كلب البحر لينغوص في الماء حتى القاع ويحضر له قطعة من الطين • ولكن كلب البحر رجع خاوى الوفاض • فأرسل بعد ذلك حيوان السمور ليقوم بنفس المهمة ولكنه لم يأت له بشيء كذلك • وفي المرة الثالثة أرسل فأر المسك ليحضر له من قاع الماء قطعة من الطين • فلما رجع وجده قابضا يده باحكام • فلما فتحها وجد فيها ذرات من الرمل • كما وجد ذرات أخرى في فمه • فجمع الذرات بعضها الى بعض وجففها ونفخها في البحيرة ببوقه الذى كان يستخدمه في نداء الحيوان • فكبرت حبات الرمل في البحيرة وكونت جزيرة • وعند ذاك أرسل « نينيوجو » غرابا ليكتشف مساحة الجزيرة

ولكن الغراب طار ولم يعد اليه • فأرسل بعد ذلك الصقر الذي يسرع في طيرانه أكثر من أى طائر آخر • وبعد فترة عاد الصقر • فلما سأله « نينيوجو » عما اذا كان قد رأى الغراب ، أجاب بأنه قد رآه يأكل جيفة عند شاطئ البحيرة • فأجاب « نينيوجو » : « من الآن فصاعدا لن يجد الغراب ما يأكله سوى ما يسرقه » • ثم انتظر « نينيوجو » بعض الوقت وأرسل « الكاريو » ليكتشف له حجم الجزيرة • فجاءه وقال له : انها ليست متسعة بما فيه الكفاية • وعند ذلك نفخ « نينيوجو » مزيدا من الرمل في البحيرة واكتفى بعد ذلك بهذا القدر من مساحة الأرض •

وتحكي قبيلة ذوى الأقدام السود « بلاك فوت » وهي قبيلة « جونكونية » أخرى ، كايث تنتشر في المنحدرات الشرقية لجبال روكي ، وفي البراري التي تقع عند سفحها ، تحكي حكاية شبيهة بالحكاية السابقة عن الطوفان الأول الكبير • فهم يقولون : « ان الأرض كانت تغمرها المياه في بداية الحياة ، وكان « الرجل الشيخ » يطفو مع الحيوانات على ظهر لوح من الخشب • وذات يوم طلب « الرجل الشيخ » من السنور « أن يغوص في الماء ويحاول أن يحضر معه قدرا من الطين • فغاص « السنور » ومكث فيه وقتا طويلا دون أن يصل الى قاع الماء • ثم قام كلب البحر ومن بعده عجل البحر بهذه المحاولة نفسها ، ولكنهما لم يتمكنوا من الوصول الى قاع الماء كذلك • وأخيرا غطس فأر المسك ومكث وقتا طويلا الى درجة أن الرجل الشيخ ظن أنه قد غرق • ولكنه عاد في النهاية وقد أوشك على الموت • فلما انتشله من الماء ووضع فوق الرمث ، وجد في أحد فكيه قطعة من الطين • ومن هذه القطعة خلق « الرجل الشيخ » الأرض ، ثم خلق الناس بعد ذلك » •

ويبدو أن مثل هذه الحكايات تنتشر انتشارا كبيرا بين القبائل الهندية التي تسكن في شمال غرب كندا • ولا تقتصر رواية هذه الحكايات على القبائل التي تنتمي الى الأصل « الجونكوني » ، وانما تنتشر كذلك بين جيرانهم الشماليين وهم « التينيهيون » أو « الدينيون »

الذين ينتمون الى أسرة « أثا باسكان » الكبيرة ، وهى أكثر الأسر اللغوية الهندية انتشارا فى أمريكا الشمالية ، فهى تنتشر من ساحل « أكيتيك » الى المكسيك ، كما تنتشر من الباسفيك الى « خليج هدسون » ، ومن « ريو كلورادو » الى منبع نهر « ريو جراندى » .

فقبيلة « كرى » وهى قبيلة جونكوينييه ، تحكى أنه فى بداية الحياة ، كان يعيش ساحر عجوز اسمه « ويساكيثشاك » وكان يصنع المعجزات بتعاويذه . على أن كائنا مهولا من كائنات البحر كان يبغض هذا الساحر وعزم على أن يقتله . فبينما كان الساحر يسبح فى عرض البحر على ظهر لوح من الخشب ، ضرب هذا الكائن البحر بذيله حتى ارتفعت الأمواج وفاضت المياه وأغرقت الأرض . فأسرع الساحر وصنع لوحا عريضا من الخشب جمع عليه أزواجا من كل صنف من صنوف الحيوان والطيور ، وبذلك أنقذ نفسه ومن معه من الكائنات الحية من الفناء . واستمر الكائن المهول يضرب الماء بذيله حتى غمرت المياه الأرض ، بل أكثر الجبال ارتفاعا ، بحيث لم يعد يرى البصر شبرا واحدا من الأرض الجافة . وعند ذلك أرسل « ويساكيثشاك » البطة الغطاسة لكى تغوص فى الماء ، ولكنها لم تستطع أن تصل الى قاع الماء وغرقت . فأرسل « ويساكيثشاك » اثر ذلك فأر المسك الذى مكث طويلا تحت الماء ، ثم طلع بعد ذلك وقد لطخت رقبتة بالطين . فأخذ « ويساكيثشاك » الطين وشكله على هيئة قرص صغير وضعه فوق الماء فطفأ فوقها . وكان هذا القرص الطينى يشبه أعشاش فئران المسك التى تبنيها فوق الثلج . ثم نفخ « يساكيثشاك » فى هذا القرص حتى تمدد وأصبح تلا صغيرا . فواصل عملية النفخ ، وكان كلما نفخ فيه تمدد أكثر وأكثر ثم احترق الطين بتأثير الشمس وأصبح كتلة صلبة . وعند ذاك وضع « ويساكيثشاك » فوقه الحيوانات لتعيش عليه . وفى النهاية ترك لوحه الخشبى ، ووقف على هذا القرص وسكنه . وقد أصبح هذا القرص فيما بعد الأرض التى نعيش عليها .

وشبيهه بهذه الحكاية حكاية أخرى يرويها الهنود « الدوجريبيين » ،

و « السلافيون » ، وهم يكونون قبيلتين من القبائل « التينيهية » .
ولا تختلف هذه الرواية عن سالفها سوى في أن اسم الرجل الذي أنقذ
من الطوفان في هذه الرواية الأخير هو « تشابوي » . وتذكر هذه
الحكاية أنه بينما كان هذا الرجل يطفو فوق الماء على لوحه الخشبي
ومعه زوج من كل نوع من أنواع الحيوانات التي أنقذها ، جعل كل
الحيوانات البرمائية بما في ذلك السنور وكلب البحر تغوص في الماء
لتحضر له قطعة من الطين ، ولكنها لم تتمكن جميعا من احكائها عدا
فأر المسك الذي كان آخر من غاص وعاد وعلى مخلبه قطعة صغيرة
من الطين . فنفخ « تشابوي » في هذه القطعة حتى تمددت وأصبحت
الأرض التي نراها الآن . عند ذلك أنزل « تشابوي » الحيوانات
عليها ، وعاش هو معها كما كان يعيش قبل أن يحدث الطوفان . ثم
انه دعم الأرض بدعامة قوية حتى جعلها صلبة متينة .

ويحكى الهنود « الهاريشكيثيون » ، وهم يكونون قبيلة « تينيهية »
أخرى ، أن رجلا بعينه يدعى « كونيان » ومعناه الرجل الحكيم ، قرر
ذات مرة أن يصنع لوحا خشبيا عريضا . فلما سألته أخته ، وهي في
الوقت نفسه زوجته ، عن السبب الذي من أجله يصنع هذا اللوح قال
لها : « اذا انتاب الأرض طوفان ، كما أتنبأ بذلك ، فاننا سنطفو على
هذا اللوح » . ثم كشف عن خطته لغيره من أهل الأرض ، ولكنهم
استهزءوا به وقالوا له : « اذا حدث طوفان سنأوى الى الأشجار » .
ومع هذا فان الشيخ الحكيم صنع اللوح الخشبي العريض بأن ربط
الدعائم الخشبية بعضها إلى بعض بأحبال مصنوعة من ألياف الشجر .
وفجأة زحف طوفان الى الأرض ، كما لم يحدث قط من قبل ، وكان
المياه كانت تتدفق من كل جانب . وأخذ الناس يتسلقون الأشجار ،
ولكن المياه كانت في أثرهم ، حتى أغرقتهم عن آخرهم . أما الشيخ
الحكيم فقد طفا فوق لوحه الخشبي القوي المحكم الصنع . وبينما
كان يسير في عرض الماء ، أخذ يفكر في المستقبل ، فجمع من كل صنف
من صنوف الحيوان أكل العشب ، ومن الطيور ، بل من الوحوش

المفترسة ، وصاح بها قائلاً : « هيا اتخذي مكانك على اللوح الخشبي ، فلن يترك الطوفان شبراً من الأرض دون أن يغمره » • واختفت الأرض حقا تحت المياه ، وظلت هكذا زمنا طويلا دون أن يفكر أحد في البحث عنها • وكان أول من غاص الى قاع الماء ليبحث عن الأرض هو فأر المسك • ولكنه لم يتمكن من الوصول الى قاع الماء • ولما طفا على السطح ، كان قد أوشك على الغرق ، وقال للشيخ الحكيم : اننى لم أجد أثرا للأرض • ثم عاد فغاص مرة أخرى • ولما رجع قال : لقد شممت رائحة الأرض ولكننى لم أهتد اليها • ثم جاء دور السنور ، فغاص وغاب فترة ثم ظهر أخيرا وهو يسبح على ظهره فاقد الموعى والأنفاس ، واكنه كان يحمل فى منقاره قطعة من الطين سلمها للشيخ الحكيم الذى وضعها بدوره على سطح الماء ونفخ فيها وقال : « لن أكون الا حيثما كانت الأرض » • وفى الوقت نفسه ملأ يده بالطين ونفخ فيه ، ولشدة سعادته أخذ يتمدد • فوضع على قطعة الطين طائرا وأخذ ينفخ فيها فأخذت تتسع رقعة الأرض تدريجيا • ثم وضع عليها ثعلبا دار حول رقعة الأرض فى يوم واحد • ثم عاد الثعلب وطاف حولها وهى تزداد اتساعا حتى أكمل ست دورات ، وفى الدورة السابعة عادت الأرض الى شكلها الطبيعى قبل الطوفان • عند ذاك أنزل الشيخ الحكيم الحيوانات عليها ، كما فعل هذا هو وزوجته وابنه من بعد وقال لهما : « ان الأرض سوف تعمر بأولادنا » • وهذا ما حدث بحق • ثم بقيت هناك مشكلة أخرى كان على الشيخ الحكيم أن يجد حلا لها • وهذه المشكلة هى كيفية ابطال الطوفان الذى كان مازال مستمرا • فلما رأى طائر « الواقة » ما كان عليه الرجل الحكيم من حيرة ، جاء لانقاذه • فابتلع الماء كله ثم استلقى على الشاطئ على دعامة من الخشب وقد تضخمت حوصلته تضخما مفرعا • وقد كان هذا أكثر مما كان يتوقعه الشيخ الحكيم ، فبعد أن كان الماء كثيرا كل الكثرة ، أصبح قليلا كل القلة • فتحدث الشيخ الحكيم ، وهو فى هذه الحيرة ، مع طائر الشرشق وقال له : « ان طائر الواقة يستلقى فى الشمس وحوصيلته منتفخة بالماء كل الانتفاخ ، فاذهب اليه واثقبها » • عند ذلك ذهب طائر الشرشق

الى الواقعة التى لم تكن تتوقع قدومه ، وقال لنفسه فى نعمة ، ملؤها الشفقة : « لا شك أن جدتى تعاني من ألم فى معدتها » • ثم تحسس بيده فى رقة الجزء المتورم فى جسم الواقعة ، كما لو كان يريد أن يسكن الألم • ولكنه وخز هذا الجز الملتهب فى غير عهد بمخالبه وخزة شديدة ؛ وفى الحال سمع صوت قرقرة تدفق على اثرها الماء من معدة الطائر وهو يرغبى ويزبد • ثم انساب الماء مكونا البحيرات والأنهار ، وبهذا أصبحت الأرض قابلة للسكنى مرة أخرى •

ويؤكد بعض الهنود التينيبيين أن الطوفان تسبب عن سقوط كميات هائلة من الثلوج فى شهر سبتمبر • ولم يتنبأ بهذه الكارثة سوى رجل واحد كهل وحذر رفاقه ، ولكنهم لم يأبهوا لقوله وقالوا : « سوف نهرع الى الجبال اذا انتابنا الطوفان » • ولكنهم غرقوا جميعا فيما بعد • أما الرجل الشيخ فقد ابتنى مركبا أبحر به وأنقذ معه كل الحيوانات التى صادفها حية • ولما تعب من الحياة فى المركب على هذا النحو ، أرسل السطور وكلب البحر وفأر المسك والبطة ، كى يغوصوا فى الماء ، ويبحثوا عن الأرض الغرقى • على أن البطة هى التى صعدت الى سطح الماء وفى مخالباها قطعة صغيرة من الطين • فبسط الشيخ هذه القطعة على سطح الماء ونفخ فيها • وبعد ستة أيام رست الحيوانات على سطحها • فلما كبرت الأرض وأصبحت فى حجم الجزيرة ، خطا هو بنفسه عليها • ويحكى بعض التينيبيين أن الرجل الشيخ أرسل أول الأمر غرابا انهمك فى افتراس الأجساد الطافية على سطح الماء ، ولم يعد الى الرجل الشيخ مرة أخرى • فأرسل من بعده اليمامة التى طارت حول الأرض مرتين ثم عادت • وفى المرة الثالثة عادت فى المساء وقد أنهكها التعب وفى فمها فرع من الشجر ذو براعم • وقد يبدو لنا تأثير التعاليم المسيحية فى هذه الرواية الأخيرة •

وقد كانت قبيلة « سارسي » ، وهى قبيلة هندية أخرى تنتمى الى أصل «تينه» الكبير ، تكون أمة قوية فى سالف الزمن ، ثم انقرضت ولم

يعد عددها اليوم يتجاوز بضعة مئات من الأفراد . وهي تنتشر في مساحة غير صغيرة من أرض البراري ، بالإضافة الى انتشارها في « بلاكفيت » في « ألبيرتا » التي تقع على وجه التقريب جنوب « سكك حديد الباسفيك الكندي » . وتتفق رواية هذه القبيلة عن الطوفان في ملامحها الأساسية مع روايتي قبيلتي « أوجييواي » و « كرى » وسائر القبائل الكندية الأخرى . وتحكى هذه القبائل أنه عندما أغرق الطوفان الأرض ، لم ينج منه سوى رجل وامرأة طفيا على لوح من الخشب بعد أن وضعوا عليه صندوقا من الحيوانات والطيور . ثم أرسل الرجل بعد ذلك السنور لكي يغوص الى قاع الماء . فغاص السنور وعاد ومعه قطعة من الطين عجنها الرجل في يده لكي يصنع منها أرضا جديدة . وقد كانت هذه الأرض صغيرة في بادئ الامر ، الى درجة أنه كان في وسع العصفور أن يطوف بها . ولكنها أخذت تكبر تدريجيا بعد ذلك . ويضيف راوى هذه الحكاية الى هذا قائلا : « كان أول من عاش على وجه هذه الأرض هو أبونا الشيخ ، ثم ظهر علينا بعد ذلك رجال ونساء وحيوانات وطيور . ثم خلق أبونا الشيخ الأنهار الجبال والأشجار وكل الاشياء التي نراها أمامنا الآن » . وبعد أن فرغ الراوى من روايته لفت الرجل الأبيض الذي دون هذه الحكاية نظر قبيلة « سارسي » ، أن رواية قبيلة « أوجييواي » شديدة الشبه بروايتهم ، فيما عدا أن الحيوان الذي أحضر قطعة الطين في هذه الرواية الأخيرة ليس هو السنور وانما فأر المسك . وقد أثارت هذه الملاحظة صحيحة الموافقة من خمسة أو ستة أفراد من القبيلة كانوا يجلسون القرفصاء داخل خيمتهم . فصاح هؤلاء في صوت واحد : « نعم ، نعم ، لقد كذب الرجل ، فلقد كان الحيوان هو فأر المسك . لقد كان حقا هو فأر المسك » .

ويلعب غراب بعينه أو كما يسمى « بيل » دورا كبيرا في ديانة قبيلة « التيلنجيت » أو « التيلنكيت » وأساطيرها ، وهي قبيلة هندية ذات شأن في « ألaska » . ولا يعد هذا الغراب جدا لأسرة الأغربة فحسب ، وانما كان خالق الجنس البشرى ، ومنبت النبات وواضع

الشمس والقمر والنجوم في أماكنها • وقد كان لهذا الغراب خال شقى
قتل اخوته العشر بأن أغرقهم أو أنه سطحهم على لوح خشبي وجز
رؤوسهم بسكين • وقد كان دافعه لارتكاب هذا العمل الشرير هو المغيرة •
ذلك لأنه كان متزوجا بامرأة شابة كان يحبها كل الحب • وكان يعلم ،
وفقا لقانون قبيلة « تيلنجيت » ، أن أولاد أخته يرثون زوجته بعد
موته • فلما شب « ييل » عن الطوق وأصبح رجلا ، حاول خاله أن يقتله
كما قتل اخوته من قبل ، ولكنه لم ينجح في هذا ، لان ييل لم يكن طفلا
عاديا • فقد حملت فيه أمه عن طريق ابتلاعها حصة عثرت عليها عند
جزر البحر • ثم ابتلعت حصة أخرى أصبح « ييل » بعدها لا يؤثر فيه
الطعن • فلما حاول خاله أن يقتله ، لم تؤثر فيه السكين • ولكن الخال
لم ييأس ، وحاول أن يعرضه لأخطار أخرى • فنطق في سورة غضبه :
« ليكن هناك طوفان » • فتدفقت المياه بحق حتى غمرت الجبال • عند ذاك
استخدام ييل جناحيه وريشه اللذين كان يستخدمهما كيفما شاء ،
فنشرهما حتى وصل الى عنان السماء ، وهناك ظل معلقا في السماء من
منقاره مدة عشرة أيام ، بينما ظلت المياه تعلو حتى غطت جناحيه • فلما
انخفضت المياه طار كالسهم الى البحر ، حيث سقط في هدوء على جرف
تتبت فيه الأعشاب • وهناك أنقذه من الخطر كلب البحر ، وأوصله الى
الشاطئ في أمان • هذا ما تذكره رواية قبيلة « تيلنجيت » • أما ما حدث
للناس في أثناء الفيضان ، فلا تذكر عن هذا شيئا •

وهناك أسطورة أخرى لقبيلة « تيلنجيت » تروى بطريقة أخرى
كيف أن الغرابان تسببت في حدوث الطوفان الكبير • فلقد وضع هذا
الغراب امرأة تحت الأرض لكي تراقب مد البحر وجزره • وذات يوم شاء
الغراب أن يعرف كل شيء يجرى تحت البحر فطلب من المرأة أن ترفع
المحيط حتى يمكنه أن يسير تحت المحيط دون أن تبطل قدماه ، ولكنه
نصحها في حذر أن ترفعه ببطء حتى يكون لدى الناس متسع من الوقت ،
إذا ما حل بهم الطوفان ، أن يحملوا في مراكبهم المؤن اللازمة لهم ، وأن
يصعدوا الى ظهرها • وبعد ذلك أخذت مياه المحيط ترتفع تدريجيا ، حاملة

الناس في مراكبهم على سطحها • وبينما كانوا يرتفعون تدريجيا فوق سطح الماء ، كانوا يبصرون الدببة وسائر الوحوش تتجول على قمم الجبال التي لم يكن الطوفان قد أغرقهم بعد • وأخذ يسبح الكثير من الدببة من حول المراكب حتى تقفز اليها لأنها كانت ترغب في الحياة على البر • ولكن الناس الذين كانوا من بعد النظر بحيث اضطربوا معهم كلابهم ، سعدوا بتصرفهم هذا ، لأن الكلاب حالت دون صعود الدببة الى ظهر المراكب • وقد رسا بعض الناس على قمم الأبال وشيدوا من حولهم سورا ليحجز عنهم المياه ، وذلك بعد أن ربطوا مراكبهم داخل السور • على أن الناس لم يكونوا قد تمكنوا من أن يأخذوا معهم كمية وافرة من خشب الوقود لان مراكبهم لم تتسع لذلك • ولقد مر الناس بوقت عصيب خطير فوق قمم الجبال ، اذ كانوا يبصرون الأشجار وهي تقطع من جذورها وتنجرف مع التيار ، كما كانوا يبصرون شيطان البحر وسائر المخلوقات الغريبة وهي تطفو على صفحة الماء • وعندما انحسرت المياه ، أقتفى الناس أثر الجزر وهو يتراجع عن جوانب الجبال • ولما لم يجدوا أثرا للأشجار ، وكان وقودهم قد تلفد في الوقت نفسه ، فقد هلكوا من البرد • وعندما عاد الغراب من تحت الماء ، أبصر السمك جافا مطروحا على الجبال وفي الشقوق ، فقال له : « قف حيث أنت وتحول الى حجر » • فتحول السمك الجاف الى حجر • فلما أبصر الناس وهم هابطون من فوق قمم الجبال ، صاح بهم في نفس اللهجة قائلا : « لتحولوا الى أحجار حيثما كنتم » ، فتحول الناس في الحال الى أحجار كذلك • ثم عاد وخلقهم مرة أخرى من أوراق الشجر • ولما عرف الناس فيما بعد أنهم قد خلقوا من أوراق الشجر ، أدركوا أن الغراب لا بد أنه كان قد حول من نجا من الطوفان من الجنس البشرى الى أحجار • وهذا هو السبب في أن كثيرا من الناس حتى يومنا هذا يموتون في فصل الخريف مع تساقط الأوراق • ويقول الأهالي انهم يموتون كما تذبل الاوراق وتتساقط •

وهناك حكاية أخرى تحكى عن الطوفان الذي أنتاب العالم ، تروى عن قبيلة « تيلينجيت » أو « كولوش » كما تعود الروس أن يسموها •

وقد نجا الناس في هذه الحكاية في فلك عائم كبير رسا بعد أن انخفضت المياه — على صخرة ، ثم انشطر الى شطرين • وهذا هو السبب من وجهة نظرهم ، في اختلاف لغات الناس ، ذلك أن قبيلة « تيلينجيت » التي ركبت الفلك ، تمثل نصف سكان العالم ، في حين أن من بقى من الناس على سطح الأرض يمثلون النصف الآخر • وربما كانت هذه الأسطورة الأخيرة تعتمد على أصل مسيحي ، حيث انها تمثل نوعا من الخلط بين حكاية نوح وحكاية برج بابل •

ويحكى الهنود « الهايدا » الذين يسكنون جزر « كوين شارلوت » أنه « قد حدث في سالف الزمان طوفان مهول غرق فيه الناس والحيوانات جميعا ، ولم ينج منه سوى غراب بواحد • على أن هذا الغراب لم يكن طائرا عاديا تماما ، وانما كان يمتلك الى حد كبير — شأنه شأن كل الحيوانات في الحكايات الهندية القديمة — خصالا انسانية • فقد كان في وسعه ، على سبيل المثال ، أن يرتدى رداءه الريشي وأن يخلعه ، كما يرتدى الانسان ملابسه ويخلعها • بل انه ولد وفقا لرواية من روايات هذه الحكاية ، من امرأة لم يكن لها زوج ، وأن هذه المرأة صنعت له الأقواس والسهم التي كان يقتل بها الطيور عندما كبر ، وكانت تخطط له جلود هذه الطيور رداء أو غطاء • وكانت تتألف هذه الطيور التي كان يقتلها الغراب بسهامه ، من الطائر الثلجي الصغير ذى العنق والرأس الأسودين ، ومن الطائر الثلجي الكبير ذى اللون الأسود والأحمر ، ومن طائر النقار المكسيكى وقد كان اسم هذا الغراب هو « نى — كيل — ستلاس » • وبعد أن انحسر الطوفان ، نظر « نى — كيل — ستلاس » من حوله ، ولكنه لم يجد زوجة أو رفيقا ، ومن ثم أصبح يشعر بالوحدة • فأخذ حيوانا من الحيوانات الرخوة ، *Cardium Nuttalli* من شاطئ البحر وتزوج به وأخذ يفقس على الدوام وهو ما زال يفكر جديا في أن يكون له رفيق • ثم سمع في النهاية صراخا خافتا للغاية شبيها بصراخ الطفل الوليد • وأخذ الصوت يعلو شيئا فشيئا ، وفي النهاية بزغت طفلة أخذت تكبر تدريجيا فيما بعد ، ثم تزوجها الغراب • ومن هذا التزاوج تناسل الهنود الذين عمروا الأرض من بعد » •

ويحكى هنود طومسون الذين يسكنون « كولومبيا البريطانية » ، أنه قد حدث طوفان ذات مرة ، وغمر بلادهم جميعا فيما عدا قمم بعض الجبال العالية . ويظن هؤلاء الهنود ، وان كانوا غير واثقين من ظنهم هذا ، أن هذا الطوفان تسبب عن ثلاثة أخوة يدعون « كواكلكال » . وقد كان هؤلاء يتجولون في البلاد ليقدموا معجزاتهم ويحولوا الاشياء الى أشكال أخرى ، حتى تحولوا هم في النهاية الى أحجار . ومهما كان من أمر هؤلاء الأخوة ، فان الطوفان أغرق الناس جميعا عدا ذئبا وثلاثة رجال . أما الذئب فقد أنقذ لأنه حول نفسه الى قطعة من الخشب طفت فوق الماء ، وأما الرجال الثلاثة فقد نجوا لأنهم استقلوا مركبا جرفه التيار حتى رسا بهم عند جبال « نزوكسكى » ، وهتاك تحولوا ومركبهم فيما بعد الى أحجار . ويمكنك أن تراهم هناك على هذا النحو في هيئة أحجار حتى اليوم . وأما الذئب فقد ظل مطروحا على الشاطئ بعد أن انحسر الطوفان ، وهو على هيئة قطعة الخشب التى استطاع أن يحول نفسه اليها بمهارة فى وقت الشدة . ثم عاد واسترد شكله الأصلي وأخذ ينظر فيما حوله فرأى أنه فى بلد نهر طومسون . وعند ذاك اتخذ من الأشجار زوجات له . ومن هذا الزواج تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم . ولم يكن هناك ، قبل أن يحدث الطوفان ، بحيرات أو أنهار بين الجبال ، ومن ثم لم يكن هناك سمك . أما بعد الطوفان فقد امتلأت الكهوف بالمياه وأخذت تتدفق منها المجارى المائية الى البحر . وهذا هو السبب فى أننا نجد الآن بحيرات فى الجبال ، وسمكا فى هذه البحيرات . ويبدو أن حكاية « طومسون ريفر » قد اخترعت لتفسر سبب وجود البحيرات فى الجبال . وقد عزا الفيلسوف البدائى وجودها الى الطوفان الكبير الذى خلف وراءه مياهها فى تجاويف الجبال تماما كما يترك جزر البحر وراءه اخواضا من المياه فى تجاويف الصخور التى تقع على شاطئ البحر .

ويبدو أن أساطير الطوفان الكبير كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن فى « ولاية واشنطن » . فقد حكى قبيلة « توانا »

التي كانت تسكن « بوجيت ساوند » أن الناس أصبحوا آثمين في عصر من العصور • وغقابا لهم على ائتهم انتاب الأرض طوفان أغرق الأرض جميعها عدا جبلا واحدا • فهرب الناس في قواربهم الى أعلى جبل في بلدهم ، أى الى قمة سلسلة جبال « أولبيك » • فلما غمرت المياه هذه الجبال ، ربط الناس قواربهم بحبال متينة في أعلى شجرة • ولكن المياه أخذت في الارتفاع حتى غمرت الأشجار • فتحطمت بعض المراكب وجرفها التيار جهة الغرب حيث تعيش اليوم سلاطات الذين أنقذوا ذات يوم من الطوفان • وهم قبيلة تتحدث لغة شبيهة بلغة قبيلة « توانا » • وهذا هو السبب ، كما يدعى الأهالى ، في أن أفراد هذه القبيلة قلائل • وهم يطلقون على هذا الجبل اسما ، معناه « المربط » ، لأنهم ربطوا قواربهم عنده آنذاك • وبالمثل يحكى الأهالى عن حمامة أطلقت لتستكشف أحوال العرقى •

وقد وجد المبشرون الاول في أثناء اقامتهم بين القبائل الهندية « سبوكانا » و « نيزيرسى » و « كايوزى » ، هؤلاء الذين ألفوا أن يستوطنوا ، مع قبيلة « ياكىما » شرق ولاية واشنطنون — وجدوا أن هؤلاء الهنود يروون حكايات خاصة بهم عن الطوفان الكبير ، الذى نجا منه رجل وزوجته على لوح من الخشب • وكل قبيلة من هذه القبائل الثلاث ، بالإضافة الى قبائل « فلات هيد » ، تحكى عن جبل خاص بها هو جبل « أرارات » الذى لجأ اليه من أنقذ من الطوفان •

وبالمثل روى هنود ولاية واشنطنون الذين ألفوا أن يسكنوا عند المجرى الأدنى لنهر كولومبيا ، وكانوا يتحدثون لهجة « التشينوك الكاثلامية » — روى حكاية عن الطوفان الكبير • وهذه الحكاية تتشابه بصفة خاصة مع الأسطورة « الأجونجوينية » • فهم يقولون : ان طائر « الثرثار الأزرق » نصح فتاة بعينها أن تتزوج النمر الأرقط الذى كان يصطاد الأيائل ، وكان رئيس بلده في الوقت نفسه • فرحلت

الفتاة الى مدينة النمر الأزرق ، وهناك تزوجت خطأ السنور بدلا من النمر الأزرق . وذات يوم عندما رجع زوجها السنور من الصيد ، ذهبت لتستقبله ، فطلب منها أن تنتشل السمك الذى اصطاده . ولكنها رأت أن ما معه ليس سمكا ، وانما فروع شجر الصفصاف فحسب . فولت عنه مشمئزة مما رآته ، وتزوجت فى النهاية النمر الأرقط الذى كان ينبغى عليها أن تتزوجه بادیء الأمر . فلما وجد السنور أنه فقد زوجة شبابه ، جلس وبكى مدة خمس أيام حتى فاضت دموعه على الأرض وأغرقتها جميعا ، بما عليها من بيوت . أما الحيوانات فقد استقلت قواربها هروبا من الغرق . ولما أوشك المطوفان على أن يصل الى السماء ، تدبرت الحيوانات أمرها فى احضار قطعة من الطين من أعماق المياه . فقالت لطائر الثرثار الأزرق : « الآن اغطس فى المياه أيها الثرثار الأزرق ، وأحضر قطعة من الطين » . فغطس الثرثار الأزرق ولكنه لم يغص الى قاع الماء ، لأن ذيله ظل ملتصقا بسطح الماء . ثم حاولت الحيوانات من بعده أن تغوص الى قاع الماء ، فغاص النمس أولا ومن بعده كلب البحر ، ثم عادا دون أن يتمكنوا من الوصول الى قاع المياه . ثم جاء دور فأر المسك فقال للحيوانات : « اربطوا القوارب بعضها بجانب بعض . فربطت الحيوانات المراكب بعضها ببعض ، ووضعت ألواحا من الخشب عبر القوارب . عند ذاك خلع رداءه ، وغنى أغنيته خمس مرات ، ثم غطس فى الماء دون أن يطيل الوداع واختفى عن الأبصار . وهناك مكث مدة طويلة . وفى نهاية الأمر ظهر زهر السوسن على صفحة المياه . ولما حل الصيف ، هبطت المياه وهبطت معها القوارب حتى رست على أرض جافة . وعند ذاك قفزت الحيوانات من القوارب . وبينما كانت تفعل هذا ، خبطت أذيالها بحافة المركز ، فانقطعت أذيالها . وهذا هو السبب فى أن الدب الرمادى والدب الأسود لهما ذيل قصير حتى اليوم . أما النمس وكلب البحر وفأر المسك والنمر الأرقط ، فقد رجعوا الى القوارب واستردوا أطراف ذيلهم ولصقوها فى مكانها . وهذا هو السبب فى أن هذه الحيوانات لا تزال لديها ذيول ذات طول لائق حتى اليوم ،

على الرغم من أنها كانت قد قطعت عند حدوث الطوفان • هذا ولم تذكر الحكاية سوى الشيء اليسير عما حدث للجنس البشرى وكيف هرب من الطوفان • ولكن الحكاية تنتمي ، كما هو واضح ، الى نمط الحكايات البدائية التى لا تميز تميزا واضحا بين الانسان والحيوان • فالمخلوقات الدنيئة تفكر وتتكلم وتتصرف تصرف الانسان وفقا للتصور البدائى ، بل انها تعيش على قدم المساواة معه • وهذه الطبيعة المشتركة تشير اليها الحكاية « الكاثلاميتية » بوضوح بزواج الفتاة بالسثور أولا ، ثم بالنمر الأرقط ثانيا • كما يتضح هذا كذلك فى الوصف العرضى للسثور على أنه رجل منتفخ الحويصلة • ومن ثم ، فربما تصور القاص أن وصفه لنجاة الحيوانات من الطوفان يعد اشارة كافية لنجاة الجنس البشرى كذلك •

ولا تقتصر أساطير الطوفان الكبير على القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية ، وانما يحكيها كذلك الاسكيمو وأقرباؤهم سكان جرينلاند • فقد ذكر القائد « جاكوبسين » نقلا عن سكان « أورويجناراك » فى « ألاسكا » ، أن الاسكيمو يروون حكاية عن طوفان مهول أغرق الأرض فى سرعة مذهلة اثر هزة أرضية مفاجئة ، بحيث لم يتمكن من النجاة منه سوى أفراد قليل استطاعوا أن يهربوا فى قواربهم المصنوعة من الجلد ويلجأوا الى قمم أكثر الجبال ارتفاعا • وكذلك يحكى الاسكيمو الذين يسكنون « توررتون ساوند » فى « ألاسكا » أن الطوفان أغرق الأرض جميعا فى بداية الحياة الأولى سوى جبل شاهق كان يتوسط الأرض • وحتى هذا الجبل غمرته المياه عدا قمته التى لجأ اليها بعض الحيوانات • كما حاول قلة من الناس الهروب من هذا الطوفان ، بأن طافوا على الماء فى قواربهم وعاشوا على السمك الذى كانوا يصطادونه • فلما انخفضت المياه بعد ذلك ، برزت الجبال من وسط المياه ، ورسا الناس بقواربهم فوقها • ثم أخذوا يتتبعون الطوفان المتراجع تدريجيا حتى وصلوا الى الشاطئ • وكذلك استقرت على هذا الشاطئ الحيوانات التى كانت قد لاذت بالجبال وعمرت الأرض بنتائجها ••

ويحكى الاسكيمو « التشيجليتين » الذين يسكنون ساحل محيط « أركتيك » بين « بوينت بارو » في الغرب الى « كيب باثروست » في الشرق ، أن طوفانا كبيرا تدفق على سطح الأرض ، ودفعته الرياح فغمر مساكن الناس . فربط الاسكيمو عددا من القوارب بعضها الى بعض ، فكانت أشبه بلوح خشبي كبير طافوا عليه فوق سطح الماء وهم يتزاحمون طلبا للدفع في خيمة نصبوها . ولكنهم كانوا يرتعشون من لفحات الهواء الباردة وهم يرقبون الأشجار والرياح تثقلها من جذورها . وفي نهاية الأمر رمى ساحر يدعى « أن - أودجيون » ومعناه « ابن البومة الصغيرة » ، بسه في البحر وهو يقول « كفى أيتها الرياح ، لتهدئي الآن » . ثم رمى بعد ذلك قرطه ، وكان هذا كافيا لأن يجعل الطوفان ينحسر .

أما الاسكيمو الذين يسكنون وسط بلاد الاسكيمو ، فيحكون أن مياه المحيط ارتفعت فجأة منذ زمن طويل واستمرت في الارتفاع حتى أغرقت الأرض جميعا . بل انها أغرقت قمم الجبال ، وهي تجرف الثلوج فوقها . وعندما انحسر الطوفان ، ترك الثلوج وراءه ، التي لا تزال تغطي قمم الجبال حتى اليوم . وقد تخلف فوق قمم الجبال كثير من الأسماك الصدفية ومن الأسماك العادية وعجول البحر والحيتان وقد جفت هذه الحيوانات المائية فيما بعد ، ولا تزال قشورها وعظامها بادية للعيان حتى اليوم . وقد غرق كثير من الاسكيمو ، ولكن الكثير منهم هرب من الطوفان في قواربهم .

أما فيما يختص بسكان جرينلاد ، فيحكى لنا مؤرخهم « كرانتر » أن « الشعوب الوثنية كلها على وجه التقريب تعرف شيئا عن طوفان نوح ، وأن المبشرين الأول سمعوا عن « الجرينلاديين » روايات بسيطة طريفة تتصل بهذا الموضوع . وتتلخص هذه الروايات في أن الطوفان أغرق الأرض ومن عليها في سالف الزمان ، ولم ينج من الناس سوى رجل واحد ، كما تحول بعضهم الى أرواح نارية . وضرب

هذا الرجل بعصاه الأرض بقوة ، فبرزت من باطنها امرأة تروجها الرجل ، وعمرا الأرض بنسلهما • ومما يؤكد من وجهة نظرهم ، أن الطوفان قد أغرق الأرض جميعا ، أنه قد عثر على عظام الحيتان فوق الجبال العالية • وقد أيد هذه الأسطورة الرحالة « س • ف • هول » بما رواه عن « الانويتين » أو « الاسكيمو » الذين عاش بينهم • فقد أخبرنا هذا الرحالة أن « هؤلاء الاسكيمو يروون حكاية عن الطوفان الذى يعزونه الى مد غير عادى للبحر • وبينما كنت أتحدث فى مناسبة من المناسبات مع امرأة تدعى « توكوليتو » حول قومها ، قالت لى : « ان « الانويتين » كلهم يعتقدون أن الأرض جميعا قد غمرها الطوفان ذات يوم • فلما سألتها عن سبب اعتقادهم فى هذا الحادث ردت على قائلة : « ألم تر أحجارا صغيرة على الجبال تشبه الحيوانات الرخوية وغيرها من الحيوانات التى تسكن البحار ؟ » •

١٥ — حكايات افريقية عن الطوفان الكبير

انه لمن الغريب حقا أننا لا نكاد نعثر على حكايات الطوفان الذى أغرق العالم فى افريقيا ، بينما تنتشر هذه الحكايات انتشارا واسعا فى كثير من جهات العالم • حقا ان الشك يمكن أن يساورنا فيما اذا كانت هناك رواية واحدة أصلية عن الطوفان الكبير دونت فى هذه القارة الشاسعة • بل انه ن الصعب أن نجد آثارا لمثل هذه الرواية ، فلم يكتشف أثر لهذه الحكاية فى الأدب المصرى القديم • وقد قيل لنا أن سكان « غينيا الشمالية » يروون « حكاية عن الطوفان الذى أغرق الأرض جميعا • ولكن هذه الحكاية ممتزجة بالخرافات والمعجزات ، بحيث يصعب علينا أن نقرنها بحكاية الكتاب المقدس » •

وحيث ان البشر الذى روى هذه الحكاية لم يذكر تفاصيل عنها ، فاننا لا نستطيع أن نحكم بما اذا كانت هذه الحكاية قد نشأت أصلا عن سكان « غينيا الشمالية » أم أنها نقلت عن الأوربيين • على أن هناك مبشرا آخر صادف اشارات لحكاية الطوفان الكبير بين حكايات

أهالى نهر الكونغو الأعلى • فهم يقولون : ان الشمس والقمر تقابلا ذات يوم ، فلطخت الشمس جزءا من وجه القمر بالطين ، وبذلك حجبت بعض ضوئه • وهذا هو السبب في أن جزءا من القمر يكون مظلمًا في كثير من الأحيان • وقد حدث الفيضان عندما تقابل الشمس والقمر • وحمل الناس القدامى الجذور التى يصنعون منها حساءهم (لوكو) على ظهورهم وتحولوا الى قرودة • فالجنس البشرى الذى يعيش الآن على وجه الأرض يعد خلقا جديدا •

وهناك رواية أخرى تقول : ان الرجال قد تحولوا بعد حدوث الطوفان الى قرود كما تحولت النساء الى سحالي ، وأن ذيل القرود هو بندقية الرجل • وقد نفهم من هذه الرواية أن هذا التحول قد حدث ، وفقا لتصور هؤلاء الأهالى ، في زمن متأخر للغاية • وليس لدى أهالى الكونغو حكايات تحكى عن سبب دخول البندقية الى بلادهم • كما أنهم لا يمتلكون أخبارا تحكى عن الزمن الذى استخدموا في صيدهم وحروبهم الرماح والدروع والأقواس والسهام والسكاكين • ويقال ان قبيلة « بابيدى » وهى قبيلة « باسوتوية (١) » تسكن جنوب أفريقيا ، تروى أسطورة عن طوفان أغرق الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وقد قام المبشر المحنك الدكتور « روبرت موفات » باستفسارات مثمرة حول أساطير الطوفان لدى أهالى أفريقيا الجنوبية وقد تبين أن أحد الأهالى الذى صرح بأنه قد سمع حكاية الطوفان من أجداده ، قد سمعها فى الحقيقة من مبشر يدعى « شيميلين » • ويضيف الدكتور « موفات » الى هذا ، « أن مثل هذه الحكايات كان يسمعها الأهالى أصلا من المبشرين أو من بعض الرحالة المتدينين • وهذه الحكايات اختلطت مع مرور الوقت اختلاطا كبيرا ، واكتسبت أفكارا وثنية ، بحيث أصبحت تشبه الى حد كبير للحكاية الأهلية •

(١) نسبة الى باسوتو احدى ولايات جنوب افريقيا • (المترجمة)

ويعلق الدكتور « لفنجستون » حول هذا الموضوع بعد أن دون أسطورة حول نشأة بحيرة « ديلولو » في « أنجولا » التي أغرقت قرية بأكملها بما فيها من سكان وطيور وكلاب ، يعلق قائلاً : « وربما كانت هذه الحكاية أثراً باهتاً لحكاية الطوفان • والجدير بالذكر أنها الأثر الوحيد الذى سمعته فى هذا البلد » • وقد أخبرنى صديقى المجرب « جون روسكو » المبجل ، الذى قضى ما يقرب من عشرين عاماً فى علاقات ودية مع سكان أفريقيا الوسطى وبصفة خاصة مع أهالى محمية أوغندا ، أخبرنى أنه لم يستمع الى حكاية عن الطوفان ترويه القبائل التى تعرف عليها •

على أن الكتاب الألمان اكتشفوا حكايات عن الطوفان الكبير بين سكان « أفريقيا الشرقية » ، ولكن هذه الحكايات ليست سوى روايات لحكاية الكتاب المقدس التى تسربت الى هؤلاء البدائيين بتأثير المسيحيين أو من المحتمل بتأثير المسلمين • وقد دون ضابط ألماني إحدى هذه الروايات عن قبيلة « ماساي » ، وهى تجرى على النحو التالى :

كان « تومباينوت » رجلاً مستقيماً ، ولهذا فقد أحبه الله • وقد تزوج هذا الرجل امرأة تدعى « نايباندى » ولدت له ثلاثة أبناء هم « أوشومو » و « بارتيمارو » و « بارماو » • ولما توفى أخو « تومباينوت » تزوج ، وفقاً لعادة قبيلة « ماساي » أرملة أخيه التى كانت تدعى « ناهابا - لوجوينجا » • ويشير اسمها الى رأسها الطويل الدقيق وهو علامة من علامات الحسن عند هذه القبيلة • وولدت هذه المرأة من زوجها الثانى ثلاثة أبناء كذلك • ولكنها تركت بيت زوجها نتيجة خلاف نشأ بينها وبين زوجها ، بعد أن رفضت أن تعطيه جرعة من اللبن فى المساء • ثم ابتنت لنفسها بيتاً أحاطته بسور من النباتات الشائكة كي تحميها من الوحوش • فى هذه الأيام كانت الأرض تضيق بالناس الذين لم يكونوا أخيئارا وإنما كانوا على العكس أشرارا لا يطيعون أوامر الله • ولكن مهما كانت درجة شرورهم ، فقد أحجموا

عن ارتكاب جرائم القتل • وفي ذات يوم مشئوم ، ضرب رجل يدعى « نامييجا » رجلا آخر يدعى « سواجي » على رأسه • كان هذا أكثر مما يحتمله الاله ، ومن ثم فقد قرر أن يهلك الجنس البشرى بأسره عدا « تومباينوت » الذي أشفق عليه الاله وأمره أن يبنى فلكا من الخشب ، وأن يلجأ اليه هو وزوجته وأولاده الستة ، وأن يأخذ معه عددا من الحيوانات من كل صنف • فلما استقل الجميع الفلك واختزن فيه « تومباينوت » مئونة كبيرة ، أسقط الاله المطر بغزارة ولمدة طويلة حتى نجم عنه طوفان كبير أغرق الناس والحيوانات جميعا فيما عدا هؤلاء الذين أوا الى الفلك العائم • وأخذ « تومباينوت » ينتظر بشغف نهاية سقوط المطر ، لأن مئونته كانت قد أوشكت أن تفرغ • وفي النهاية كف المطر عن السقوط • وشاء « تومباينوت » في شغف أن يعرف حال الفيضان ، فأطلق حمامة من الفلك عادت اليه منهكة آخر النهار • فأدرك « تومباينوت » من ذلك أن الطوفان لا بد أنه مازال مرتفعا لأن الحمامة لم تجد مكانا تستريح عنده • فأطلق النسر بعد ذلك ببضعة أيام • ولكنه قبل أن يطلقه ، أخذ حيطته بأن ربط رمحا في ذيله حتى اذا استقر النسر في مكان ليأكل ، فان الرمح يجرجر وراءه • فاذا أعاقه معوق في أثناء جره ، فانه يلتصق بهذا الشيء ، وينفصل عن ذيل النسر • وقد أثبت ما حدث صحة ما توقعه « تومباينوت » ، ذلك أن الطير عاد في المساء بدون الرمح والريش الذي كان مرتبطا به • فحدس أن الطائر قد انقض على جيفة ، وان الطوفان لا بد قد انحسر • فلما تراجع المياه عن الأرض ، رسا الفلك على أرض البراري ونزل منه ركابه • فلما خطا « تومباينوت » خارج الفلك ، أبصر ما لا يقل عن أربعة من أقواس قزح يتجه كل منها في جهة من الجهات الأربع • فنظر اليها « تومباينوت » على أنها علامة على زوال غضب الاله •

وهناك رواية أخرى لحكاية الطوفان دونها مبشر ألماني كان يسكن المنطقة نفسها • وقد حصل المبشر على هذه الرواية في محطة تبشير

« مكولوى » التى تقع عند « سايسى » أو « نهر مومبا » على بعد عشرين ميلا من مصب النهر فى بحيرة « روكوا » . وقد اعترف الراوى للمبشر أنه قد سمع هذه الحكاية من جده ، وأكد له فى اصرار أنها رواية قديمة أصلية نشأت بينهم ولم ترد اليهم من الخارج . وقد أكد هذا القول رجل آخر من الأهالى اشتهر بحبه للصدق ولم يختلف هذا الراوى فى روايته عن رواية الراوى الأول سوى أن نوحا الافريقى أرسل حمامتين بدلا من حمامة واحدة . وهذه الرواية تجرى على النحو التالى :

فى زمن بالغ فى القدم فاضت الأنهار . فقال الاله للرجلين : ادخلا السفينة وخذا معكما كل نوع من أنواع الحبوب ، وكل صنف من صنوف الحيوان ، الذكر منه والأنثى . ففعل الرجلان ما أوتمرا به . ثم فاضت المياه حتى أغرقت الجبال ، وطافت السفينة فوقها . أما الناس والحيوانات فكانوا قد هلكوا عن آخرهم . فلما تراجعت المياه ، قال أحد الرجلين لرفيقه : دعنا نرى — فربما لم تجف الأرض بعد » . فأطلقا حمامة رجعت للفلك بعد حين . فانتظرا بعض الوقت ثم أطلقا صقرا لم يعد ثانية الى الفلك ، لأن الأرض كانت قد جفت . عند ذاك خرج الرجلان من المركب ونزلا الى الأرض وأنزلا حيواناتهما وحبوبها .

ربما كان العرض السابق لحكايات الطوفان كافيا لأن يثبت أن هذا النمط من الحكايات سواء سميناه نمطا أسطوريا أم خرافيا ، كان منتشرا فى جميع أنحاء العالم . وربما كان من الأفضل قبل أن نتساءل عن علاقة الحكايات بعضها ببعض ، وعن السبب أو الأسباب التى دعت الى روايتها ، أن نشير مرة أخرى باختصار الى الأماكن التى عاشت فيها هذه الحكايات . فاذا بدأنا بآسيا ، فاننا نذكر أننا قد صادفنا

نماذج من هذه الحكايات في بابل فلسطين وسوريا وفيريجيا (١) وفي الهند القديمة والحديثة ، وفي بورما ، والهند الصينية • وفي شبه جزيرة الملايو وكامشكا ، أى أنها باختصار ، تنتشر في جنوب آسيا • وتختفى بوضوح في آسيا الشرقية والمتوسطة والشمالية • والجدير بالذكر أن شعبي آسيا الشرقية اللذين بلغا من الحضارة ثأوا بعيدا ، ونعنى بهما الصينيين واليابانيين ، لم تحتفظا ضمن آدابهما القديمة الهائلة في حدود ما يتسع إليه علمى ، بحكاية أهلية عن الطوفان الكبير من النوع الذى نحن الآن بصددده ، ذلك الذى يحكى عن طوفان أغرق العالم ، كما أغرق الجزء الأكبر من الجنس البشرى •

وفي أوروبا تتدر حكايات الطوفان الأهلية عنها في آسيا ، ولكنها رويت عند الأغريق القدماء ، كما رويت في « ويلز » و « ليتوانيا » ، وعند غجر ترانسلفانيا ، و « الفوجوليين » سكان روسيا الشرقية • أما الحكاية الأيسلندية التى تحكى عن الطوفان الذى تسبب عن انسكاب دم العفريت ، فلا تدخل ضمن هذه الحكايات •

وفي افريقيا بما في ذلك مصر تختفى الأساطير الأهلية عن الطوفان الكبير بشكل ملحوظ ، اذ لم تدون في هذه القارة حقا حكاية أهلية والحدة من هذا النوع •

وفي جزر الأرخبيل الهندى وجدنا حكايات عن الطوفان الكبير في جزر سومطرة ، وفي « بورنيو » و « سيليبس » ، كما وجدناها في الجزر الأصغر منها وهى جزيرة « نياس » و « انجانو » و « سيرام » ، و « روتى » ، و « فلوريس » • كما روت هذه الحكايات القبائل الأهلية في جزر الفيلبين وفرموزا ، وكذلك الأندمانيون الذين يعيشون منعزلين في جزر خليج البنغال •

(١) احدى مدن آسيا الصغرى في الزمن القديم وكان سكانها يرتبطون بالآرمينيين من الناحية الاثنولوجية . (المترجمة)

كما صادفتنا بعض حكايات الطوفان الكبير في الجزر الكبيرة مثل جزر « غينيا الجديدة » وفي قارة استراليا ، كما وجدنا أساطير هذا النمط تعيش في أطراف الجزر الأقل حجما مثل جزر « ميلانيزيا » التي تلتق في شبه قوس حول جزر « غينيا الجديدة » و « استراليا » في الشمال والشرق •

فاذا أوغلنا في المحيط الهادى شرقا فاننا نجد أن حكايات الطوفان تنتشر انتشارا كبيرا بين البولونيزيين الذين يعيشون منتشرين في أصغر جزر هذا المحيط من جزر هاواى شمالا الى نيوزيلنده جنوبا • كما دونت أسطورة عن الطوفان عند « الميكرونيزيين » الذين يسكنون « جزر بيلو » •

وتنتشر روايات الطوفان انتشارا كبيرا في جنوب أمريكا ووسطها وشمالها ، من « تيراديل فويجو » جنوبا الى الاسكا شمالا ، ومن الشرق الى الغرب في كلتا القارتين • ولا تنتشر هذه الحكايات بين الاسكيمو الذين يعيشون من غرب الاسكا الى شرق جرينلاند •

فاذا كان هذا هو الانتشار الجغرافى لحكايات الطوفان بوجه عام ، فانه يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن علاقة هذه الحكايات بعضها ببعض فهل هناك علاقة أصلية فيما بينها ، أم أن هذه الحكايات متميزة ومستقلة بعضها عن بعض ؟ وبتعبير آخر ، هل ترجع تلك الحكايات جميعا الى أصل واحد ، أم انها نشأت مستقلة في بقاع كثيرة من العالم ؟ لقد كان الباحثون يميلون سالفًا متأثرين بحكاية الكتاب المقدس ، الى أن يقرنوا أساطير الطوفان الكبير ، أينما وجدت ، بحكاية طوفان نوح المعروفة • كما افترضوا أننا نجد بين هذه الأساطير روايات مشوهة ومشكوك فيها لهذه الكارثة المهولة التي تعد أكثر روايتها ثقة ، تلك التي يتضمنها سفر التكوين • على أن وجهة النظر هذه لم تعد تؤيدها الأدلة • وحتى اذا سلمنا بوجوه التشويه العديدة ، وشتى التغيرات التي تتعرض لها الرواية الشفاهية بالضرورة في أثناء انتقالها من جيل

الى جيل ومن مكان لآخر عبر الأزمنة اللامتناهية ، فما زلنا نواجهه صعوبة لأن نتعرف في هذا الحشد الهائل من حكايات الطوفان الكبير التي غالبا ما تتسم بالغرابة والطابع الطفولي ، على النماذج الانسانية لأصل ديني واحد . وقد تضاعفت هذه الصعوبة منذ أن أثبت البحث الحديث أن حكاية سفر التكوين ليست هي الحكاية الأصلية على الاطلاق ، وانما هي نسخة قديمة نسبيا لرواية بابلية أكثر قدما منها أو بالأحرى سوميرية . على أنه ليس هناك مسيحي مدافع عن دينه ، يميل لأن ينظر الى الحكاية البابلية بلونها الوثني ، بوصفها وحيا أوليا من الله للانسان . واذا كانت نظرية الوحي الالهى لا تنطبق على الأصل ، فهي بالأحرى لا تنطبق على صورة هذا الأصل .

فاذا تغاضينا عن نظرية الكشف أو الوحي الالهى التي تتعارض مع تلك الحقائق المعروفة ، فما زال أمامنا أن نتساءل عما اذا كانت الأسطورة السوميرية أو البابلية التي تعد بكل تأكيد ، أقدم روايات الطوفان ، هي الأصل الذي استمدت منه سائر الروايات . ومثل هذا السؤال من الصعب أن توجد له اجابة ايجابية ، حيث انه يفتقر الى دليل ، وحيث ان النتيجة التي تنتهي اليها تركز على احتمالات عدة تختلف باختلاف وجهات النظر اليها . ومن الممكن بدون شك أن نحلل الحكايات جميعا الى عناصرها ، وأن نصنف هذه العناصر ، وأن نحصى عدد العناصر التي تعد قاسما مشتركا بين الروايات المختلفة ومن ثم يمكننا ، بناء على عدد هذه العناصر التي تحتوى عليها رواية من الروايات ، أن تنتهي اما الى احتمال تفرعها عن حكاية أخرى أو كونها هي نفسها رواية أصلية . وهذا في الحقيقة ما قام به أحدالذين سبقوني في هذا المجال من البحث ، ولكتنى لا أرى هناك داعيا لأن أعيد ذكر النتائج التي توصل اليها . وفي وسع القراء الذين يميلون الى الاتجاه الرياضى أو الاحصائى اما أن يرجعوا الى أعمال هذا الكاتب نفسه (١) ، أو أن يستخلصوا هذه النتائج من المادة التي

M. Winternitz : Die Flutsagen, p. 312-333.

(١)

(نقلنا عن النسخة الاصلية — المجلد الاول ص ٣٣٥) .

قدمت لهم في الصفحات السابقة • أما الآن فسأكتفى بتقديم نتائجي العامة ، تاركاً للقارئ مهمة التأكد من صحتها أو تصحيحها أو معارضتها معتمداً على الشواهد التي زودته بها • ومن ثم فإننا إذا صرفنا النظر عن الحكاية العبرية التي تعد بدون شك مستقاة من الرواية البابلية ، وإذا صرفنا النظر عن النماذج الحديثة التي تكشف بوضوح عن تأثير واضح للمبشرين المتأخرين أو عن تأثير مسيحي بصفة عامة ، فإنني لا أعتقد في أننا نملك أدلة قاطعة تعيننا على ارجاع أية رواية من روايات الطوفان الى الحكاية البابلية بوصفها أصلاً لها جميعاً • حقا ان بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة في البحث ، قد انتهوا الى أن كلا من الأسطورة الاغريقية أو الهندية القديمة مستمدة من الأسطورة البابلية • وربما كان هؤلاء الباحثون على حق في هذا ، ولكن التشابه بين الروايات الثلاث ، من وجهة نظري ، ليس كاف لأن يبرر لنا أن ندعى التعرف على الأصل • حقا ان الاغريق كانوا في العصور المتأخرة ، يعرفون كلا من حكاية الطوفان العبرية والبابلية ، ولكن حكايات الاغريق أنفسهم عن الطوفان أقدم بكثير من عصر انتصارات الاسكندر الأكبر التي كشفت للباحثين لأول مرة عن كنوز الشرق • ولا تكشف هذه الروايات الاغريقية في أقدم أشكالها أي تأثير بأصول أسيوية • ففي أسطورة « ديوكاليون » ، على سبيل المثال ، التي تعد أقرب الروايات للحكاية البابلية ، لم ينبج من الطوفان سوى « دويكاليون » وزوجته • وبعد أن انحسر الطوفان اكتشفا حاجتهما الى خلق الجنس البشري بطريقة معجزة من الحجر • وليس هناك ذكر بعد ذلك الى اعادة خلق الحيوانات التي كانت قد هلكت في الطوفان بطبيعة الحال • وفي هذا تختلف الرواية الاغريقية عن كل من الرواية البابلية والعبرية كل لاختلاف ، هاتين الروايتين اللتين اهتم فيهما الانسان بتكاثر الجنس البشري والحيوان معا عندما ينتهي الطوفان وذلك بأن احتفظ في الفلك بعدد من الركاب من كل من الجنس البشري والحيواني •

وبالمثل فان مقارنة الرواية الهندية القديمة بالرواية البابلية ،

تبرز تناقضا خطيرا فيما بينهما • فالسمكة العجيبة التي تبرز بوضوح في كل الروايات الهندية القديمة ليس لها ما يناظرها في الرواية البابلية ، وان كان بعض الباحثين قد جادل في حذق ، أن الاله الذي تجسد في شكل سمكة حذرت مانو من قدوم الطوفان في الأسطورة الهندية ، ليس سوى صورة مطابقة للاله « ايا » الذي حذر أوتتابشتيم كذلك ن الطوفان في الأسطورة البابلية • وحجة هؤلاء الباحثين في نظريتهم ، هي أن الاله « ايا » هو اله الماء ، وكان يصور أحيانا في شكل انساني ، وأحيانا أخرى في شكل سمكة ، وإذا كان من الممكن اثبات هذا التشابه بين الأسطورتين ، فانه يمكننا آنذاك أن نربط بين الأسطورتين ربطا وثيقا • ومن جهة أخرى ، فان أقدم شكل للحكاية الهندية وهو الموجود في « ستاباثا براهمانا » ، يحكى أن « مانو » هو الانسان الوحيد الذي نجا من الطوفان • وكان عليه أن يعيد خلق المرأة بطريقة معجزة بعد هذه الكارثة ، من الأشياء التي قدمها ضحية وهي اللبن اللزيب وشرش اللبن والجبن ، وذلك لكي يتمكن بعد الزواج منها ، من العمل على استمرار النوع البشرى • ولم تصور الحكاية الهندية « مانو » وقد أخذ معه مجموعة من الحيوانات والنباتات الا في الروايات المتأخرة من هذه الحكاية • بل ان هذه الروايات لم تذكر شيئا عن انقاذ « مانو » لزوجته وأولاده ، على الرغم من أنها تصوره على ظهر السفينة بصحبة مجموعة من اخوانه الحكماء الذين أنقذهم من كارثة الطوفان • وهذا الحذف لا يكشف عن فجوة في العاطفة العائلية فلهسب ، وانما يكشف كذلك عن نقص في حكمة الفيلسوف ، فضلا على أنه يبرز التناقض البالغ بين البطل الهندي والبطل البابلي ببعد نظره العلمي ، ذلك البطل الذي كان أقل عزاء له في تلك المحنة المحزنة ، أنه كان محاطا بأسرته وسط انلياء المصطخبة ، ومن ثم كان يعلم أنه بمجرد أن ينخفض الطوفان ، سيكون قادرا ، بمساعدة أسرته ، أن يعين على استمرار الجنس البشرى عن طريق العمليات العادية للطبيعة • ليس من الغريب أن نكشف من خلال هذا الاختلاف البين بين

الحكايتين ، التناقض بين الحكمة الدنيوية للعقل السامى والزهد الحالم
للعقلية الهندية ؟ •

وخلاصة القول ان الشواهد التى تثبت أن كلا من أسطورتى
الطوفان الهندية والاغريقية مستمدتان من الحكاية البابلية ، ليست
كافية • فاذا تذكرنا ان البابليين فيما نعلم لم ينجحوا على الإطلاق فى
نقل حكايتهم عن الطوفان الى المصريين القدماء الذين كانوا على
اتصال مباشر بهم طيلة قرون طويلة ، فليس هناك ما يدعو الى العجب
أنهم قد فشلوا فى نقلها الى من كانوا أكثر بعدا منهم من المصريين ،
وهم الهنود والاغريق الذين كانوا حتى زمن الاسكندر الأكبر متصلين
بهم على نطاق ضيق • ثم انتقلت الحكاية البابلية بحق فى جميع أنحاء
العالم فى عصور متأخرة • وكان لها صدى فى الحكايات التى كانت
تدعى تحت أشجار النخيل فى جزائر المرجان ، وفى أكواخ الهنود
ووسط ثلوج القطب الشمالى وصقيعه • ويبدو أن هذه الحكايات
انتقلت بدون وساطة مسيحية أو اسلامية فيما وراء حدود بلادها
الأصلية والمناطق السامية المجاورة •

وإذا بحثنا عن أدلة فيما قدمناه من روايات أخرى متعددة عن
الطوفان ، تثبت أن هذه الروايات قد استمدت من أصل معروف ، ثم
انتشرت بعد ذلك ، فاننا لن نعجز فى الحصول على دليل واضح على
هذا متمثلا فى الحكايات الالجونكوينية فى شمال أمريكا • فحكايات
الطوفان المختلفة التى دونت بين القبائل الكثيرة التى تنتمى لهذا
الأصل الذى كان ينتشر على نطاق واسع ، تتشابه فيما بينها تشابها
كبيرا الى درجة أننا نعدّها مجرد روايات متنوعة لحكاية واحدة
بعينها • وما زال السؤال مطروحا عما اذا كانت حادثة الحيوانات
المختلفة التى غطست فى الماء لتحضر قطعة من الطين ، قد نبعت أصلا
بين أهالى هذه المنطقة ، أم أنها تركز على ذكرى حادثة الطيور فى
حكاية نوح التى وصلت الى الهنود عن طريق الرجل الأبيض •

وقد رأينا أكثر من ذلك ، أن هناك تشابها عاما يمكن اقتفاء أثره وفقا لرأى « هومبولت » بين روايات الطوفان التى انتشرت بين هنود « أورينوكو » ، كما أن هناك كذلك تشابها بين الأساطير البولونيزية وفقا لرأى « وليام اليس » • ومن المحتمل أن الحكايات انتشرت بين هؤلاء الهنود وكذلك بين البولونيين من مركزين محليين ، أى أنها ، بتعبير آخر ، تعد روايات مختلفة لأصل واحد •

على أننا إذا كنا قد استمحننا لأنفسنا أن نعد الروايات السالفة منتشرة من مراكز محلية ، فانه من المحتمل كذلك أنه لا تزال هناك أساطير عن الطوفان نشأت مستقلة •

أصل حكايات الطوفان الكبير :

مازال علينا أن نتساءل : ما الشكل الذى كانت عليه الحكاية الأصلية التى تفرعت عنها روايات الطوفان ؟ • وكيف ألف الناس أن يصدقوا أن الأرض جميعا أو بالأحرى الجزء المأهول منها بالسكان قد غمرته مياه فيضان عتى فى وقت أو آخر ، وأغرق معها الجنس البشرى كله على وجه التقريب ؟ والاجابة القديمة عن هذا السؤال ، هى أن الكارثة قد حدثت بالفعل ، وأن سفر التكوين احتفظ لها بسجل تاريخى كامل • كما احتفظ العدد الهائل من أساطير الطوفان التى انتشرت انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية بذكرى هذه الكارثة المهولة • فصورتها فى كثير أو قليل تصويرا مهوشا مختلطا غير دقيق • وهما يؤيد وجهة النظر هذه ، تلك الأصدا ف والمخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى افترض الناس أنه قد عثر عليها مبعثرة فى الأماكن المرتفعة والصحارى وعلى قمم الجبال ، بعد أن تراجعت مياه طوفان نوح عن تلك الأماكن •

وقد اتخذ « تير توليان » من مواقع البحر التى عثر عليها فوق قمم الجبال شاهدا على أن المياه قد أغرقت الأرض ذات مرة ، ولكنه

لم يربط هذا بحادثة الطوفان التي وردت في سفر التكوين • وبينما كانت تتم عمليات الحفر عام ١٥١٧م لاعادة بناء مدينة فيرونا ، بدت للعيان مجموعة من المتحجرات الغريبة • وقد أدى هذا الكشف الى تأملات عديدة أهمها ، بطبيعة الحال ، حادثة نوح وفلكه • ولكن هذه التأملات لم تترك دون أن تتعرض للمعارضة ، ذلك أن عالم الطبيعة الفيلسوف الايطالى « فراكاستورو » ، كان من الشجاعة بحيث أشار الى الصعوبات التى يتعرض لها هذا الافتراض الشائع • فقد لاحظ « أن هذا الطوفان كان عابرا للغاية ، اذ كان يتكون أساسا من مياه الأنهار • واذا كانت المياه قد خلفت وراءها الأصداف على مسافات بعيدة ، فلا بد أنها قد خلفتها على السطح ، ولم تدفنها فى أعماق بعيدة داخل الجبال • وقد كان من الممكن أن ينهى الجدل حول هذا الموضوع هذا العرض الواضح لهذا الشاهد ، لو لم تتدخل العواطف الانسانية فى هذا الموضوع » • وفى نهاية القرن السابع عشر ، غزا حشد من علماء اللاهوت المجال الجيولوجى فتجمعوا من ايطاليا وفرنسا وألمانيا وانجلترا وجعلوا الظلام يخيم على الرأى فى هذا الموضوع ، حتى تركوه أكثر ايهاا • ومن ثم فان كل من كان يرفض أن يقتنع بأن مخلفات البحر العضوية دليل على طوفان نوح الذى ورد فى الشريعة الموسوية ، كان معرضا لتهمة الكفر بالكتابات المقدسة • ونادرا ما عبر العلماء منذ عهد « فراكاستورو » ، عن آراء تصل الى حد النظريات السليمة •

وبذلك انقضى ما يقرب من مائة عام فى الجدل الذى تلخص فى أن ما عثر عليه من مخلفات عضوية متحجرة لم يكن سوى عمل من أعمال الطبيعة • كما انقضت فترة أخرى تقرب من قرن ونصف قرن فى تأكيد نظرية أن المخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى عثر عليها مدفونة فى طبقات الأرض الصلبة ، هى تلك التى خلفها طوفان نوح • ولم يتدخل بعد ذلك أى منطق نظرى فى أى فرع من فروع العلم بطريقة أكثر جدية من هذا ، وبملاحظة أكثر دقة ، وبتصنيف

علمية • وانما حرصت على أن أشير إليها لما أحدثته من بهجه خففت من ملل المناقشة الطويلة الجادة •

على أننا إذا أهملنا هذه التصورات الخالية ، وهذا هو ما تستحقه بحق ، فما زال أمامنا أن نوجه السؤال عن أصل حكايات الطوفان • فهل هذه الحكايات تعبر عن حقيقة صادقة أو عن كذب ملفق ؟ وهل هذا الطوفان الذى تصفه الحكايات باصرار ، قد حدث حقا أو لم يحدث ؟ اننا يمكننا أن نقول بشيء من الثقة ان هذه الحكايات فى حدود وصفها للطوفانات التى أغرقت العالم جميعا حتى المرتفعات الشاهقة ، كما أغرقت الناس والحيوانات جميعا على وجه التقريب ، حكايات كاذبة • ذلك أنه اذا أمكننا أن نثق فى أكثر الشواهد ثقة لعلم الجيولوجيا الحديث ، فان مثل هذه الكارثة لم تحدث قط طوال عصور سكنتى الانسان على وجه الأرض • أما ما يفترضه بعض الفلاسفة من أن محيطا كونيا غمر الأرض جميعا قبل أن يعيش الانسان على وجه الأرض ، فهذه مسألة أخرى تماما • فقد تصور « لينتزر » ، على سبيل المثال ، أن الأرض « كانت فى الأصل كتلة مضيئة مشتعلة ثم أخذت تتعرض لعمليات التبريد منذ ذلك الوقت • فلما بردت القشرة الخارجية بما فيه الكفاية ، بحيث سمحت للبخار بأن يتكثف على سطحها ، تساقطت الأبخرة الكثيفة مكونة المحيط الكونى الذى غطى أعلى الجبال ارتفاعا وأحدق بالأرض جميعا » • ومثل هذه النظرية التى تقول بتكون محيط أولى من الأبخرة المتكثفة بينما كانت المواد المنصهرة فى كوكبنا الأرضى تفقد حرارتها تدريجيا ، هذه النظرية تتبع بالضرورة فرض « نيببولا » الشهير الذى نادى به « كانت » لأول مرة مفسرا به أصل الأجرام الكونية ، ثم وسعه « لابلاس » فيما بعد • كما كان لامارك كذلك « متأثرا بعمق الاعتقاد الذى كان سائدا بين الطبيعيين القدامى وفحواه أن المحيط الأولى أحدق بالكوكب الأرضى بعد أن سكنتها الكائنات الحية بزمان طويل » • على أنه اذا كانت مثل هذه التأملات قد راودت الانسان البدائى ، فانها تختلف بوضوح عن حكايات الطوفان الذى قضى على

الناس جميعا على وجه التقريب ، لأن مثل هذه الحكايات افترضت وجود الجنس البشرى على وجه الأرض قبل حدوث الطوفان ، ومن ثم فهي لا ترجع الى عصر سبق عصر البلايستوسين .

ولكن على الرغم من أن حكايات الطوفان الكبير ذات طابع خرافى صرف ، فمن الممكن ، بل انه من المحتمل حقا ، أن كثيرا منها يخفى بذرة من الحقيقة تحت غلافها الأسطورى . أى أن هذه الحكايات من الممكن أنها تحتوى على ذكرى حوادث الطوفان الذى غمر أحياء بعينها بحق . ثم صور الطوفان المحلى بشيء من المبالغة فى أثناء انتقال الروايات ، فأصبح كارثة حلت بالعالم . وسجل التاريخ غنى بأمثلة عن الفيضانات الكبيرة التى جلبت معها الدمار هنا وهناك . وقد كان الامر يكون غريبا حقا، اذا لم تكن ذكرى بعض هذه الحوادث قد عاشت طويلا بين سلاسل الأجيال التى عاصرت هذه الحوادث . واذا شئنا أن نسوق أمثلة لمثل هذه الفيضانات المدمرة ، فاننا لن نبعد بعيدا ونشير الى البلد المجاور لهولندا ، الذى كثيرا ما تعرض للفيضانات فى القرن الثالث عشر ، فكثيرا ما هددت الفيضانات الأراضى المنخفضة التى تقع على طول «فلى» حتى غمرتها الأمواج فى نهاية الامر . وبالمثل طغى المحيط الألمانى على بحيرة « فليفو » - الداخلية . وقد بدأ بحر « زويدرزى » وجوده بأن غمر آلافا من القرى الفريزيانية ، وأغرقها بمن فيها من السكان ، ثم فصل بين الاهالى عن طريق أخدود حفره وسط بلادهم . وبذلك طمس هذا الطوفان الكبير معالم هذه البلاد الجغرافية والسياسية معا . وهكذا انعزل الهولنديون عن أقربائهم فى الشرق عن طريق هذا البحر الخطير الشبيه بذلك البحر الذى عزلهم عن اخوانهم الأنجلوسكسونيين فى انجلترا . ثم حدث أن هبت عاصفة من الشمال فى بداية القرن السادس عشر ، فدفعت مياه المحيط الى شاطئ زيلندة المنخفض فى سرعة هائلة بحيث لم تتمكن المياه أن تتدفق فى مضيق دوفر . وقد تحطمت حواجز « بيفلاندة الجنوبية » وغمرت مياه البحر البلاد ، وأغرقت مئات القرى ، وانفصل جزء من البلد عن الضواحي ودفن تحت

الطوفان التي دونت في جزر الباسفيك ، حيث ان هذه الجزر جميعا قد تعرضت على هذا النحو فيما يبدو ، الى غزو الأمواج العالية التي تتبع الهزات الأرضية . وقد يبدو أنه من الاسلم على الأقل ، في حدود معلوماتنا الراهنة ، أن نقبل بصفة مؤقتة ، وجهة نظر العالم الاثنولوجي الأمريكي المرموق ، بدلا من أن نقبل نظرية عالم اثنولوجي ألماني بارز نزع الى تفسير كل الحكايات البولوينزية بوصفها أساطير تجسد حركة الأجرام السماوية هي الشمس والقمر والنجوم .

واذا كانت بعض حكايات الطوفان التي نشأت بدافع فيضان البحار تعتمد على هذا النحو ، على أساس تاريخي ، فليس هناك ما يمنع من أن حكايات الطوفان الذي تسبب عن سقوط الامطار الغزيرة ، ترتكز بالمثل على هذا الواقع الطبيعي . فما نحن هؤلاء الذين يسكنون البقاع المنبسطة من بريطانيا ، قد تعودنا حدوث فيضانات محلية تسببها الأمطار الغزيرة . فقد حدث ، على سبيل المثال ، منذ بضع سنين أن غمرت المياه التي تجمعت من سقوط مطر غزير مفاجيء كان أشبه بالوابل ، أجزاء كبيرة من « نورفولك » بما في ذلك « نورويتش » . وبهذا السبب نفسه غرقت الأجزاء المنخفضة من « باريس » منذ بضعة سنوات مضت ، مخلفة الرعب والفرع لا بين سكان باريس وحدهم ، بل بين عشاق المدينة الجميلة في جميع أنحاء العالم . ولعله من اليسير أن ندرك بعد هذا ، كيف يمكن أن تكبر ذكرى كارثة من هذه الكوارث بين شعب جاهل أمي لا يتجاوز تفكيره حدود رؤياه ، فتصبح في خلال أجيال أسطورة تحكى عن طوفان عالمي لم يهرب منه سوى أفراد مفضلين بطريق أو بآخر . بل ان المسافر أو المقيم الأوربي الذي استمتع من جماعة من البسداثيين الى حكاية عن طوفان محلي صرف غرق فيه كثير من الناس ، يمكن أن يبالغ فيها الى حد كبير ، ويفسر لها في ضوء حكاية طوفان نوح التي ألف هو نفسه أن يسمعها منذ صغره .

وعلى هذا النحو رأى بعض الباحثين أن يفسروا كلا من الحكاية

البابلية والعبرية عن الطوفان الكبير من خلال ظاهرة الفيضانات التي يتعرض لها وادي نهر الفرات ودجلة في كل عام بسبب سقوط الأمطار الغزيرة وذوبان الثلوج على جبال أرمينيا . فقد قيل ان أساس الحكاية البابلية هي ظاهرة سقوط الأمطار وموسم العواصف في كل عام ، تلك الأمطار والعواصف اللتان كانتا تدومان عدة شهور تغرق في أثنائها أحياء كاملة في وادي نهر الفرات . وقد كانت الأمطار والعواصف تسببان دمارا مروعا يستمر حتى ينتظم مجرى نهر دجلة والفرات مرة أخرى وتحل البركة محل اللعنة ، عندما يحل الخصب الذي اشتهرت به بلاد بابل . وتذكرنا حكاية الطوفان العبرية بموسم بعينه حل فيه دمار ترك تأثيرا عميقا في النفوس . وتؤكد مقارنة الحكاية العبرية بأختها البابلية التي عثر عليها دونه على ألواح الطين في مكتبة آشور بانيبال ، وجهة نظر نشأة الحكاية محليا .

وبناء على هذا الفرض ، فان الطوفان الكبير قد تسبب عن سقوط أمطار غزيرة غير عادية وعن ذوبان الثلوج . ولم يكن هذا سوى صورة غير مألوفة لظاهرة عادية . وقد ترك هذا الدمار الذي حل بالوادي أثرا لا يمحي في ذاكرة الأحياء وذاكرة الأجيال من بعدهم . وقد يقال انه مما يؤيد وجهة النظر هذه ، أن كلا من الحكاية البابلية وأقدم صيغة للحكاية العبرية ، تؤكد أن السبب الوحيد الذي يعزى اليه حدث الطوفان هو سقوط الأمطار الغزيرة .

ويمكن الاستشهاد كذلك ، تأييدا لهذه النظرية ، بما تتعرض اليه البلاد حتى اليوم من فيضانات خطيرة بسبب العوامل الطبيعية . فعندما وصل «لوفتوس» أول عالم آثار عمل في حفريات مدينة «وركاء» القديمة في الخامس من مايو عام ١٨٤٩ م وجد أن السكان في أقصى حالات الفرع وتوقع الخطر ، ففي أعقاب ذوبان الثلج السريع على جبال الأكراد ، وتدفق المياه من نهر الفرات عبر قناة « السجلاوية » ارتفعت مياه دجلة في ربيع هذا العام الى مستوى لم تصل اليه من قبل ، اذ بلغ ارتفاعها

الاساطير التليلية ،وهى تلك الحكايات التى تعتمد على ملاحظة المخلفات الحيوانية والنباتية التى عثر عليها فوق الجبال وفى الاماكن النائية من البحر . ومثال هذا النوع كما رأينا ، ما روى عن سكان منغوليا وسكان « وسيليس » الذين يتحدثون اللغة البارية ، والتاهيتين والاسكيمو ، وسكان جرينلاند . فحيث أن هذه الحكايات تعتمد على فرض خاطئ مؤداه أن مياه البحر لا بد أنها ارتفعت حتى غمرت المرتفعات التى عثر فوقها على المخلفات الحيوانية والنباتية ، فهى تعد حكايات استلال خاطئة ، أى أنها تندرج تحت صنف الأساطير التليلية . ولو أنهم افترضوا هبوط هذه المرتفعات سالفا تحت سطح البحر ، لكان ذلك استلالا حقيقيا ، أو حدسا علميا ..

ومن ثم فانه اذا كان هناك سبب معقول يجعلنا نعتقد أن كثيرا من حكايات الطوفان التى انتشرت فى انحاء العالم تركز على ذكرى كوارث حدثت بالفعل ، فانه ليس هناك أدلة مؤكدة تجعلنا نعتقد أن أيا من هذه الروايات أقدم من ثلاثة آلاف سنة على الاكثر . وحيثما وجدنا روايات تصف التغيرات الكبيرة التى طرأت على شكل الكرة الأرضية ، وهى تغيرات حدثت فى زمن ما فى العصور الجيولوجية القديمة ، فان تلك الروايات لا تركز على سجل شاهد عيان معاصر لتلك التغيرات ، وانما تركز على تأملات مفكرين عاشوا فى عصور متأخرة عن عصور هذه التغيرات بزمن طويل . فالانسان ، بالقياس الى الملامح الطبيعية الهائلة لكوكبنا الأرضى ليس سوى ابن الأمس ، كما أن ذاكرته ليست سوى حلم لييلة ..

الفصل الخامس

برج بابل :

من بين المشكلات التي وقفت عقبة دون أية محاولة للبحث عن فجر تاريخ الجنس البشرى ، مسألة أصل اللغة وهى فى الوقت نفسه من أكثر المسائل اثارة وأكثرها صعوبة . على أن الكتاب الذين ضمنوا الفصول الاولى من سفر التكوين آراءهم الساذجة عن الأصول البشرية لم يذكروا شيئاً عن الوسيلة التى يمكن أن يكونوا قد تصوروا أن الانسان قد حصل بها على أهم القدرات التى تميزه عن الحيوان وهى القدرة على الكلام البين . بل انهم على العكس ، قد افترضوا فيما يبدو ، أن الانسان قد منح تلك القدرة التى لا تقدر بثمن ، منذ الأزل . نعم ، بل تصوروا أن هذه القدرة كانت قاسما مشتركا بين الانسان والحيوان ، اذا كان لنا أن نستدل على ذلك من خلال حديث الانسان مع الحيوان فى جنة عدن . ومهما يكن الامر ، فان اختلاف اللغات التى تحدثت بها الاجناس الانسانية المختلفة ، قد جذبت بطبيعة الحال أنظار العبريين القدماء وفسروها من خلال الحكاية التالية .

كان الجنس البشرى بأسره ، يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة . ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من بابل ، وهناك حطوا رحالهم . وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن الصقوا بعضه البعض الآخر بملاط من الطين ، حيث انه كان يتعذر عليهم الحصول على الأحجار فى القرية الرخوة للمسطحات المستنقعية الشاسعة . على أنهم لم يكتفوا ببناء مدينة ، بل رأوا أن يشيدوا برجاً عالياً يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم . والسبب الذى دفعهم الى بناء هذا البرج ، هو أن يكون البرج علامة

الرب » (باب - ايل أو باب - ايلو) • وربما كان الشارحون على حق في ارجاع دافع الحكاية الأصلية الى التأثير العميق لهذه المدينة الكبيرة على عقول البدو الساميين السذج • فهؤلاء الذين كانوا قد اعتادوا الوحدة وسكون الصحراء ، قد أذهلهم ضجيج الشوارع والأسواق ، وبهرتهم الألوان المتغيرة في الزحام المصطخب ، كما دهشوا لضجيج الأصوات التي تنطلق من السنة غريبة ، وذعروا لرؤية المباني الشاهقة وبصفة خاصة تلك المعابد ذات الارتفاع الشاهق وهي تعلو طابقا فوق الآخر حتى كانت تبدو قممها البراقة المبنية من الطوب المصقول وكأنها تمس صفحة السماء الزرقاء • وليس بعيدا بعد هذا أن يتصور ساكنو الخيام أن هؤلاء الذين تسلقوا هذا البرج الهائل عن طريق انحداراته الملتفة حتى كانوا يبدون في النهاية كالذرة المتحركة على قمة البرج ، أنهم كانوا قد اقتربوا من الآلهة بحق •

ولا تزال الآثار الترابية لمعبدين هائلين من هذه المعابد ترى حتى اليوم في بابل • ومن المحتمل أن أسطورة برج بابل تتصل بأحدى هذه المعابد أو بالآخر • ولا يزال أحد هذين المعبدين يبرز بين حطام بابل نفسها ويحمل اسم بابل • أما المعبد الآخر فيقع حطامه عند النهر قرب « بورسييا » على بعد ثمانية أو تسعة أميال جهة الجنوب الغربى ويعرف باسم « بيز نمرود » • وقد كان الاسم القديم لهذا المعبد الذى كان يقع فى مدينة بابل ، هو « أى - ساجيل » (١)، وكان مخصصا لعبادة الاله « مردوك » • أما الاسم القديم للمعبد الذى كان يقع قـرب « بورسييا » فهو « اى - زيدا » وكان مخصصا لعبادة الاله « نبو » • ولم يتفق الباحثون حول أى من المعبدتين كان فى الأصل هو برج بابل ، فالحكاية المحلية واليهودية تربط بين البرج الأسطورى وحطام «بئر نمرود» الذى يقع عند « بورسييا » • ونحن نعلم من مخطوط عثر عليه فى هذا المكان ، أن الملك البابلى القديم الذى بدأ فى بناء برج

(١) كلمة أى فى اسمى المعبدتين سومارية ومعناها بيت •

المعبد عند « بورسييا » ، تركه ناقصا بدون قمة • وربما كان منظر هذا الصرح الهائل في شكله غير المكتمل هو الدافع وراء نشأة اسطورة برج بابل ••

وعلى كل ، فقد كان في بابل الكثير من أبراج المعابد ، وربما كانت الأسطورة ترتبط بأحد هذه الأبراج • فحطام مثل هذه المعابد ، على سبيل المثال ، لا يزال قائما في « أورو » أو « أور الكلدانيين » التي هاجر منها ابراهيم ، فيما يقال ، الى أرض كنعان • ويعرف هذا المكان الآن باسم « المقير » أو « المجير » وهو يقع على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب شرق بابل • ولا تزال مجموعة من الروابي المنخفضة ذات الشكل البيضاضى تشير الى مكان المدينة القديمة • وأرض هذه المدينة التى تلتف حول الروابي مسطحة للغاية بحيث ان مياه فيضان نهر الفرات كثيرا ما تغمرها فى الفترة ما بين شهر مارس الى شهر يونيه أو يوليه • وعند ذاك تبرز هذه الروابي كالجزيرة وسط مستنقع كبير ، ولا يمكن الوصول اليها الا بواسطة القوارب • وتمتد أشجار النخيل على طول شاطئ النهر دون انقطاع حتى تختفى فى الخليج الفارسى • وبالقرب من الطرف الشمالى لهذا المكان ، تشمخ أطلال برج المعبد الى ما يقرب من سبعين قدما • ويتكون هذا الصرح من طابقين فى شكل متواز قائم الزوايا يتجه جانبا الكبيران جهة الشمال الشرقى والجنوب الغربى ويبلغ طول كل منهما حوالى مائتى قدم • أما الجانبان الأصغران فيبلغ طول كل منهما مائة وثلاثين قدما • وتتجه احدى زوايا الصرح جهة الشمال تقريبا ، كما هو الحال فى جميع الابنية المماثلة له • ويرتكز الطابق الأسفل الذى يبلغ ارتفاعه سبعة وعشرين قدما على دعائم قوية • أما الطابق العلوى الذى يبتعد عن طرف الطابق الأسفل بحوالى ثلاثين الى سبعين قدما ، فيبلغ ارتفاعه أربعين قدما وتتوجه أنقاض من الطوب يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام على وجه التقريب • أما مرتقى هذا الصرح فقد كان من جهة الشمال الشرقى • ويشير نفق محفور فى

الرابعة الى أن الصرح كله كان مبنيا من الداخل من الطوب المجفف في الشمس ، تحيط به طبقة سميكة بعضها من الطوب المحروق ذي لسون أحمر فاتح ، وتفصل بين بعضه وبعض عيدان الغاب • ويبلغ سمك هذا كله عشرة أقدام حيث انه مغلف بحائط مرصع بالطوب المحروق في الأفران • وقد عثر على سطوانات محفور عليها كتابات في الزوايا الأربع من هذا المبنى ، وكل اسطوانة كانت موضوعة في كوة هي عبارة عن قالب منزوع من الطوب • وقد أثبتت الحفريات التي تمت بعد ذلك أن الكتابات التذكارية على هذه الاسطوانات ، فيما يبدو ، كان البنّاءون أو الذين يقومون بترميم المعابد البابلية والقصور يضعونها في أركان المصروح الأربعة •

وقد علمنا من إحدى هذه الكتابات أن المدينة اسمها « أور » ، وأن المعبد قد خصص لعبادة الاله « سين » اله القمر البابلي (١) • كما علمنا أن ملك أور — أوك أو «أورينجور» ، كما ينبغي ان ينطق اسمه الذي شيد برج المعبد ، قد تركه غير كامل ، وان هذا الصرح قد أكمله ابنه الملك « دونجى » من بعده • ويختلف تاريخ حكم الملك « أور — أوك » أو «أورينجور» ، فهو يتحدد بعام ٢٧٠٠ ق.م. أو بعام ٢٣٠٠ ق.م. وفي كلتا الحالتين فان بناء المعبد قد سبق التاريخ الذى يحدد عادة لميلاد ابراهيم ، ربما بمئات من السنين • فاذا كان ابراهيم قد هاجر حقا من « أور » الى « كنعان » ، كما تذكر ذلك الرواية العبرية، فان هذا البناء بعينه الذى ما تزال آثاره المقدسة قائمة بهذا المكان حتى اليوم ، والذي كان مسيطرا بارتفاعه الشامخ على طبيعة البلاد المسطحة التى يخرقها نهر الفرات متجها الى البحر — كان يألّفه ابراهيم منذ نعومة أظفاره ، وربما كان آخر ما وقع عليه بصره فى بلده ، عندما رحل ليجث عن أرض الميعاد ، فودعه وهو ينظر وراءه الى وطنه ، والصرح يختفى على البعد وراء غابات النخيل •

(١) هو الاله الذى تحمل اسمه شبه جزيرة سيناء فى الاراضى المصرية •

ولم يذكر كاتبو سفر التكوين شيئاً عن طبيعة اللغة المألوفة التي كان يتحدث بها الجنس البشرى كله قبل أن تتبلبل السنته ، تلك اللغة التي يفترض أن أبويننا الأولين قد تحدثا بها مع بعضهما بعضاً ، ومع الحية ، ومع الرب في جنة عدن . وقد افترض جدلاً في العصور المتأخرة أن اللغة العبرية كانت هي الأولى للجنس البشرى . ويبدو أن آباء الكنيسة لم يعارضوا هذا الرأي . وفي العصر الحديث عندما كان علم اللغة ما يزال في مهده نشيطاً وان كان ناقصاً ، بذلت الجهود لارجاع كل أشكال اللغات الانسانية الى اللغة العبرية على اعتبار أنها أصل هذه اللغات . ولم يختلف الباحثون المسيحيون في تبني هذا الفرض الساذج ، عن علماء الأديان الأخرى ، الذين رأوا أن لغة كتبهم المقدسة لم تكن لغة آبائهم الأولين فحسب ، وانما كانت لغة الالهة أنفسهم . وقد كان أول من وخر هذا الرأي بطريقة مؤثرة هو «ليبنتر» ، الذي لاحظ « أنه كما أن هناك من الأسباب ما يدعو لافتراض أن اللغة العبرية هي اللغة الأولى للجنس البشرى ، فان هناك من الأسباب كذلك ما يدفعنا الى تبني وجهة نظر « جوروبيوس » الذي نشر مؤلفاً في « أنتويرب » عام ١٥٨٠ يثبت فيه أن اللغة الهولندية هي اللغة التي كان يتحدث بها آدم في الجنة » وهناك كاتب آخر ادعى أن اللغة التي كان يتحدث بها آدم في الجنة هي اللغة الباسكية ^(١) . وتحدى آخرون الكتاب المقدس صراحة وادعوا أن اللغات المختلفة كانت موجودة في جنة عدن نفسها ، فأدم وحواء كانا يتحدثان اللغة الفارسية ، كما كانت الحية تتحدث اللغة العربية وأما جبرائيل الملك المفضل فقد تحدث مع أبويننا الأولين باللغة التركية . وهناك باحث شاذ آخر ، يرى جدياً أن الرب قد تحدث الى آدم باللغة السويدية ، وان آدم أجاب خالقه باللغة الدانمركية وان الحية تحدثت مع حواء باللغة الفرنسية كل هذه النظريات منشؤها التعصب الوطني والتفافر بين علماء اللغات .

(١) الباسكيون هم شعب مجهول الأصل يقطن مناطق البرانس الغربية .

وتحكى قبائل افريقية عديدة حكايات تتشابه مع أسطورة برج بابل في وجوه محدده • فبعض أهالى زمبيزى الذين يسكنون فيما يبدو بجوار سلاطات فيكتوريا ، يحكون حكاية تتصل بحكاية بناء برج بابل لكنها تنتهى بأن البنائين الجراء انفلقت رعوسهم عندما سقطت بهم السقالات « وهذه الحكاية التى رواها دكتور « لفنجستون » بايجاز ، دونها مبشر سويسرى فى شكل أكثر اكتمالا • فقبيلة « أ - لوبى » التى تسكن عند أعالى نهر الزمبيزى، تحكى أن آلههم ، نيان بى « الذى يعد اله الشمس عندهم ، تعود فى سالف الزمن أن يسكن فى الأرض ، ثم صعد الى السماء بعد ذلك متسلقا خيوط العنكبوت • وهناك تحدث الى الناس من عليائه وقال لهم آمرا : « اعبدونى » • فتحدث الناس الى بعضهم بعضا وقالوا : « دعونا نقتل الاله نيان بى » • فذعر الاله لتهديدهم ولاذ هاربا الى مسكنه السماوى الذى كان قد هبط منه من قبل • وعند ذاك قال الناس : « لتتصب الآن أعمدة نصل عن طريقها الى السماء » فنصبوا أعمدة ربطوها بأعمدة أخرى تعلوها ثم أخذوا يتسلقونها • فما أن وصلوا الى ارتفاع كبير حتى سقطت بهم الأعمدة ، وهوا صرعى الى الأرض ، وكانت هذه هى نهايتهم • وتحكى قبيلة « بامبالا » التى تسكن فى الكنفو ، أن « الوانجونجين » رغبوا ذات مرة أن يروا القمر على حقيقته • فدكوا عمودا فى الأرض تسلقه رجل يحمل عمودا آخر فى يده ثبته فى نهاية العمود الأول ، ثم صعد رجل آخر يحمل عمودا ثالثا ثبته فى العمود الثانى ، وهكذا حتى وصل البرج الى ارتفاع كبير للغاية بحق ، اذ أن كل فرد من أفراد الشعب تسلق ومعه عمود ربطه بالعمود الأخير • ثم هوى هذا الصرح فجأة ، فهوى الأهالى صرعى وراحوا ضحية حب استطلاعهم الطائش • ومنذ ذلك الوقت لم يحاول أحد أن يتعرف على القمر • ويحكى أهالى « مكولوى » الذين يسكنون فى شرق أفريقيا حكاية شبيهة بالحكاية السالفة • فقد قال الناس ذات يوم لبعضهم بعضا ، وذلك وفقا لرواية هؤلاء الاهالى :

« دعونا نبني بناءً عاليًا حتى نصل إلى القمر » • وعند ذاك غرسوا شجرة ضخمة في الأرض ، ووضعوا فوقها شجرة ثانية وثالثة وهكذا حتى هوت بهم الأشجار وقتل بعض الأهلالي • فقال بعضهم الآخر: « لا تيأسوا من هذه المحاولة » • فرصوا الأشجار بعضها فوق بعض حتى هوت بهم وقتلوا هم كذلك • وعند ذاك كف الناس عن محاولة الصعود إلى القمر • ويحكى الأشانطيون أن الإله القديم كان يعيش بين الناس ، ولكن امرأة عجوزا الحقت به الإهانة ، فصعد غاضبا إلى مسكنه في السماء • فحزن الناس لفراقه وقرروا أن يبحثوا عنه • فأخذوا يجمعون أرجل الخنازير وورصوا بعضها فوق بعض • فلما علا برجهم وكاد أن يصل إلى السماء ، اكتشفوا في فزع أن ما لديهم من أرجل الخنازير لا يكفي لاتمام البرج • فماذا يفعلون؟ عند ذاك هب رجل حكيم وهم في هذا المأزق ، وقال لهم : « ان المسألة في غاية البساطة • خذوا الرجل السفلى وضعوها فوق العليا ، واستمروا في هذا الفعل حتى نصل إلى الإله » • فلما بدءوا ينفذون اقتراحه ، وانتزعوا الرجل السفلى ، هوى البرج كما يمكن أن نتوقع • على أن بعض الأهالي يعززون سقوط البرج إلى النمل الأبيض الذي أخذ يقرض الأرجل من أسفل • وعلى كان فان الاتصال بالسماء لم يتم ولم يتمكنوا قط من الصعود إلى الإله •

ويحكى في المكسيك عن بناء هرم « كولولا » ، أضخم عمل للسكان الأصليين في أمريكا بأسرها ، حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس عن برج بابل • ويقع هذا العمل الضخم الذي مازال المسافر في العصر الحديث يقف أمامه متأملا إياه في إعجاب ، بالقرب من المدينة الحديثة الأنيقة « بوييلا » ، في الطريق من « فيراكروز » إلى العاصمة • هذا الهرم يشبه في شكله الأهرام المصرية ، ولكنه يضارعها في أبعاده • ويبلغ ارتفاع سطح المنحدر حوالي مائتي قدم ، أما قاعدته فيبلغ طولها ضعف قاعدة هرم خوفو • ويتخذ هذا الهرم شكل الـ « تويكالييس » المكسيكي ، أي أنه هرم اقطع • وتتجه جوانبه الأربع نحو الجهات

الأصلية ، كما أنه يتكون من أربعة مصاطب • على ان خطوطه الأصلية انمحت بمرور الزمن وبتأثير الجو ، بينما أصبحت الشجيرات الكثيفة والأشجار تغطي سطحه ، بحيث يبدو وكأنه تل طبيعي أكثر منه رابية صنعتها يد الانسان • وهذا الهرم مشيد من الطوب الأحمر المصقق بالملاط الذى عشقت فيه قطع الأحجار الصغيرة وأجزاء من المسكاكين والأسلحة المصنوعة من الزجاج البركانى الاسود • وبين قوالب الطين وضعت طبقات من الصلصال • وتطل قمة هذا الهرم المسطحة التى تبلغ مساحتها حوالى الفدان على منظر رائع ، هو منظر الوادى الخصب المترامى الأطراف الذى تحيط به الجبال البركانية الضخمة التى تغطي منحدراتها المنخفضة الغابات الكثيفة • أما قممها الرخامية فهى عارية ومجدبة ، وتغطي أعلى أجزائها الثلوج على مدار السنة •

وقد دون المؤرخ الأسباني «دوران» الأسطورة التى تتعلق بهذا الصرح الضخم فكتب عام ١٥٧٩ يقول : « فى بداية خلق الحياة ، كانت الأرض مظلمة عابسة قبل أن تخلق الشمس والقمر ، كما كانت خلوا من كل المخلوقات ومسطحة ليس بها جبال أو تلال أو أشجار وتحيط بها المياه من كل جانب • فلما خلقت الشمس وبزغت من الشرق ، ظهر بعض الناس على سطح الأرض فى هيئة شياطين غلاظ وأصبحوا أصحاب الأرض • ثم دفعهم الفضول لأن ييصبوا الشمس وهى تشرق وتغرب • فاتفقوا فيما بينهم أن يذهبوا للبحث عنها • فقسموا أنفسهم الى مجموعتين ، المجموعة الأولى اتجهت الى الشرق والأخرى الى الغرب وظلوا سائرين حتى وقفوا عند شاطئ البحر • وعند ذاك قرروا أن يعودوا من حيث أتوا • فوصلوا الى المكان الذى يسمى «ازتاكشولين أنيمينيان» • ولما احتاروا فى طريقة توصلهم الى الشمس التى استمتعوا بدفئها وجمالها ، قرروا أن يشيدوا برجاً عاليا تصل قمته الى السماء • وبينما كانوا يبحثون عن مواد للبناء عثروا على طين وقار سميك استعانوا بهما على العمل فى تشييد البرج • فلما ارتفعوا به عاليا حتى كاد أن يصل الى عنان السماء ، غضب منهم الاله وقال لساكنتى الجنة:

هل رأيتم كيف شيد سكان الأرض هذا البرج الشامخ وأصابهم الزهو فشاءوا أن يتسلقوه اذ بهرتهم الشمس بضوئها وجمالها ؟ دعونا الآن نفرقهم في الأرض ، اذ لا يصح أن يختلط بنا البشر بأجسامهم الدنيوية » • وفي لمح البصر كان سكان السماء منتشرين في جهات الأرض الأربع ، وحطموا الصرح الذي شيده الناس بضربة كالصاعقة • عند ذاك فزع هؤلاء العمالقة وملاهم الرعب وتفرقوا في كل جهات الأرض •

ولا يتمثل تأثير حكاية الكتاب المقدس على هذه الحكاية في تفرق مشيدي البرج في انحاء العالم فحسب ، وانما يتمثل كذلك في بناء البرج من الطين والقار • اذ بينما نجد أن برج بابل قد شيد ، كما قيل ، من هاتين المادتين ، نجد أن المكسيكيين لم يستخدموا قط مادة القار في مثل هذا الغرض ، هذا فضلا عن أن القار لا وجود له في أى مكان قريب من « كولولا » • « على أنه يبدو أن حكاية بلبله الألسنة قد انتشرت في المكسيك بعد غزو الأوربيين لها بزمن قصير ، اذ أنه من المحتمل أنها قد ذاعت بتأثير المبشرين • ولا يبدو أن الحكاية العبرية لها صلة بأسطورة برج « كولولا » • ولكنه من المحتمل على الأقل أن هناك حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس مدونة في قائمة « جيميلى » للمهاجرين المكسيكيين ، تلك القائمة التى نسخت في « هومبولت » • وتحكى هذه الحكاية أن طائرا كان يقف على شجرة أرسل عددا من اللغات الى حشد من الناس كانوا يقفون أسفل منه • وربما كان « تايلور » على حق في اتهام أسطورة « كولولا » بأنها « ليست أصيلة ، أو أنها على الأقل جزء من تلفيق متأخر » •

وربما انطبق مثل هذا الحكم على حكاية تروى عن قبيلة «كارن» في « بورما » ، وهى قبيلة أبدت ميلا غريبا لاستعارة الحكاية المسيحية بعد أن كانت تخلع عليها طابعا محليا شفافا • وتجري حكاية برج

بابل كما ترى عن « الجايكهوويين » ، وهم فرع من هذه القبيلة ، على النحو التالي :

« يرجع » الجايكهوويون « سلسلة نسبهم الى آدم . وعندما بنى برج بابل كان قد تناسل منهم ثلاثون جيلا ، وفي هذا الوقت انفصلوا عن « الكاريين الحمر » . وفي عصر « بان — ان — مان » ، استقر رأى هؤلاء على أن يشيدوا هيكلا متعدد الأدوار يصل الى عنان السماء . أما المكان الذى شيد فيه هذا الهيكل فهو ، فيما يرون ، كان يقع فى مكان ما فى بلاد « الكاريين الحور » . وقد كان الكاريون ، كما يذكرون ، على صلة بهذا المكان حتى زمن حادث هذا البرج . ولما أتموا بناء نصف هذا الهيكل ، هبط الاله من السماء وبلبل السنة للناس ، بحيث لم يعد بعضهم يفهم البعض الآخر . ومن ثم تفرق الناس ، واتجه « ثان — ماو رأى » جد قبيلة « جاىكو » جهة الغرب ومعه ثمانية من الزعماء ، واستقر فى وادى « سيتانج » .

وقد عادت حكاية برج بابل وبليلة الألسن الى الظهور بين قبيلة « ميكير » احدى قبائل « التبت البورمانية » المتعددة التى سكنت فى أسام . فهم يقولون أن نسل « رام » كان قويا فى الزمن القديم . ولما لم يقتنع هؤلاء بسيادتهم على الأرض ، فكروا فى غزو السماء . ومن ثم فقد بدعوا فى تشييد برج يوصلهم الى السماء . وأخذ البرج يعلو تدريجيا حتى خشييت الآلهة والشياطين أن يسيطر هؤلاء المردة على السماء كما سيطروا من قبل على الأرض الأربعة . فبلبلت الآلهة ألسنتهم وشقتهم فى أركان الأرض الأربعة . ومن ثم فقد تعددت لغات الجنس البشرى . ومرة أخرى نجد الحكاية القديمة بعينها تنتشر فى شكل خفى بعض الشيء بين « الأيسلنديين » و « الأيرالين » فهم يقولون : ان تعداد أسرة أو قبيلة « لوهى » كان يبلغ مائة وثلاثين نسمة ، وكان زعيمهم يسمى « مويكيو » . ثم قال هذا الزعيم لقومه « دعونا نشيد بيتا يطاول السماء » . فبدأوا فى تشييد هذا البيت . وما كادوا يقتربون من السماء حتى أتاها رجل من « كالى »

يدعى « بواوى » منعهم من الاستمرار فى بناء البيت وقال « لويكيو » :
« من الذى أمرك أن تشيد بيتا عاليا على هذا النحو ؟ » • فأجاب
مويكيو اثنى زعيم اللوهيين • ولقد قلت لقومى : « دعونا نشيد بيتا
يطاول السماء » • ولو كنت طوع ارادتى ، لشيدت بيوتنا
جميعا عالية تطاول السماء • أما الآن ، فقد نفذت رغبة قومى ، وأصبحت
البيوت منخفضة » • وبعد أن انتهى من كلامه نثر الماء على قومه ،
فتلبت السنتهم ، ولم يعد الواحد منهم يفهم الآخر ، وتفرقوا فى بقاع
الأرض ، وبذلك أصبح لكل بلد لغته • وقد لايساورنا أدنى شك فى أن
هذه الحكاية ليست سوى صدى لتعاليم المبشرين المسيحيين •

على أن هناك غير قليل من الشعوب حاولت أن تفسر اختلاف
اللغات عن طريق حكايات لا تمت لحكاية برج بابل بسبب أو بأية حكاية
أخرى تشبهها فى تكوينها المعمارى • فقد حكى الاغريق أن الناس
عاشوا أحقابا طويلة فى سلام • ولم يكونوا آنذاك يعيشون فى مدن أو
يحكم بينهم قانون سوى حكم الاله زيوس ، ولا يتحدثون سوى لغة
واحدة • ولكن الاله «هرمس» ، جعل لغة الناس مختلفة فقسم الجنس
البشرى الى شعوب • فلما دب النزاع بين الناس فى بادىء الأمر ،
استاء « زيوس » لخلافاتهم ، فاعتزل العرش وتركه للبطل اليونانى
« قورونيوس » ، أول ملك حكم من بين الناس • وتحكى قبيلة
« واسانيا » التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية ، أن القبائل كلها
لم تكن تتحدث فى الزمن القديم سوى لغة واحدة • ثم حدثت مجاعة
قاسية أصابت الناس بالجنون ، فتفرقوا فى كل بقاع الأرض وهم
يثرثرون بألفاظ غريبة ، فنشأت اثر ذلك اللغات المتعددة • وتفسر قبيلة
« كاششاناغاس » ، وهى قبيلة تسكن التلال فى أسام ، اختلاف اللغات
على نحو آخر • فقد كان الناس جميعا ، وفقا لروايتهم ، جنسا واحدا
قدر لهم بعد ذلك أن ينقسموا الى أمم متعددة • وقد كان للملك الذى
كان يحكم بين الناس ابنة تدعى « ستيولى » ، وكانت تتميز بسرعة معجزة
فى السير • وكانت «ستيولى» تحب التجول فى الأحراش طوال النهار بعيدا

عن البيت ، الأمر الذى كان يسبب قلقا لأبويها ، اذ كانا يخشيان أن تفترسها الوحوش . وذات يوم فكر أبوها فى حيلة ليبقيها فى البيت ، فأرسل فى طلب سلة مملوءة ببذر الكتان ، ثم نثر الحب على الأرض ، وأمر ابنته أن تجمع البذور بذرة بذرة وتضعها فى السلة وتعدّها فى الوقت نفسه . ثم تراجع عنها وهو يحسب أن هذا العمل سيشغلها اليوم كله ولكن الفتاة فرغت من العمل عند الغروب . وعدت الحبوب ووضعتها فى السلة ، ثم أسرع على التو الى الأحرار فلما عاد والداه وتفقداهما ، لم يعثرا لها على اثر . فأخذا يبحثان عنها أياما عديدة حتى اعترض طريقهما تين مهول كان يأكل فى نهم فى ظل الأشجار . فاجتمع الناس حول التين وطعنوه برماحهم وسيوفهم . وما أن فعلوا هذا حتى تغيرت أشكالهم ووجدوا أنفسهم يتحدثون لغات مختلفة . ثم انفصلت كل جماعة تتحدث لغة واحدة عن الجماعات الأخرى ، وأصبحت هذه الجماعات المختلفة اجدادا للأمم المختلفة التى تعيش الآن على وجه الأرض . على أن الحكاية لم تذكر شيئا بعد هذا عن الأميرة ومصيرها وعما اذا كانت قد عادت لوالديها الحزينين أم أن التين قد ابتلعها .

ويفسر « الكوكيون » فى « مانبيور » وهم عنصر آخر يسكن تلال « أسام » ، اختلاف اللغات فى قبائلهم من خلال الرواية التالية : كان ثلاثة أحفاد لزعيم بعينه يلعبون معا ذات مرة داخل البيت ، عندما طلب منهم جدهم أن يصطادوا له فأرا . وبقيما كانوا منصرفين الى اصطياد الفار أصيبوا بلعثة فى ألسنتهم ، وأصبح كل منهم يتحدث لغة لا يفهمها الآخر ، ولذا فقد هرب منهم الفار . أما أكبر هؤلاء الأخوة فقد تحدث اللغة « اللاميانجية » ، وأما الأوسط فقد تحدث اللغة « التادوية » . وأما الثالث فقد قيل أنه تحدث اللغة « الوفيية » ولكن البعض يعتقد أنه قد تحدث بلسان « انكونترباى » التى تسكن فى جنوب استراليا أصل اللغات الى امرأة عجوز حادة المزاج ، توفيت منذ زمن بعيد . وقد كان اسم هذه المرأة « ورورى » ، وكانت تسكن جهة الشرق ، وتسير فى العادة وهى تحمل عصا فى يدها تفرق به النار التى ينام الناس من حولها . فلما ماتت ابتهج الناس لتخلصهم منها ، الى درجة أنهم أرسلوا الرسل فى كل مكان لتعلن نبأ وفاتها .

ومن ثم فقد اجتمع الرجال والنساء لا لتأبينها ، ولكن ليبتهجوا بموتها و يقيمون وليمة كانيبالية • كان « الرامينجيراريون » هم أول من سقطوا على الجسد وأخذوا يلتمهون لحمه • وما كادوا يفعلون هذا ، حتى أخذوا يتحدثون لغة واضحة • أما القبائل الأخرى التي كانت تسكن جهة الشرق ، فقد وصلت متأخرا ، ومن ثم فقد أخذت تلتهم الأمعاء ، ولهذا فقد أخذت تتحدث بلغة تختلف بعض الشيء عن لغة القبيلة الأولى وما نبئت أن وصلت القبائل التي تسكن جهة الشمال في نهاية الأمر ، فأنت على سائر الأمعاء وما تبقى من الجسد ، فتحدثت بلغة تختلف عن لغة « الرامينجيراريين » • أكثر من اختلاف لغة القبائل الثانية منها •

ويحكى الهنود المانديون في كاليفورنيا أن الناس جميعا كانوا يتحدثون لغة واحدة حتى زمن معين • وبينما كان الناس يشعلون النار ، وكان كل شيء معدا لليوم التالي ، أخذ كل منهم في الليل يتحدث بلغة لا يفهمها الآخر ، وان كان كل زو حين كانا يتحدثان بلغة واحدة • وفي تلك الليلة ظهر الاله الذي يسمونه « الأرض الأول » لرجل بعينه اسمه « كوكسى » ، وأخبره بما حدث ، وأرشده الى ما ينبغى عمله في اليوم التالي عندما يبدأ الناس يتحدثون لغات مختلفة • ومن ثم فقد جمع « كوكسى » الناس جميعا وتحدث اليهم ، اذ كان يعرف اللغات جميعا ، فعلمهم أسماء الحيوانات المختلفة ، وغيرها من أسماء الأشياء باللغات المتعددة كما علمهم كيف يطهون طعامهم ويقتنصون حيواناتهم ، وشرع له القوانين ، وحدد لهم أوقات الرقص والاحتفالات • ثم سمى كل قبيلة باسمها ووزعم في جهات الأرض المختلفة بعد أن حدد مكانا لسكنى كل منها • قد سبق أن رأينا أن « التيلينجيين » في « ألاسكا » يفسرون اختلاف اللسان من خلال حكاية الطوفان التي ربما أخذوها عن المبشرين المسيحيين أو من التجار • وقد حكى « الكويتشيون » في « جواتيمالا » عن زمن ما في بداية الحياة ، كان الناس فيه يعيشون معا ويتحدثون لغة واحدة ، ولا يعرفون آنذاك عبادة الحجر أو الخشب ، ولا يذكرون سوى كلمة الخالق « قلب السماء والأرض » • وبمرور الزمن

تكاثر القبايل وتركوا موطنهم الأصلي ووصلوا الى مكان يسمى « تولان » • وهناك في المكان ، وفقا لرواية « الكويتشين » تغيرت لغة القبايل ، ونشأت اللغات المختلفة • وعند ذاك لم يعد الناس يفهم بعضهم وتفرقوا في بقاع الأرض بحثا عن مساكن جديدة لهم •

هذه الحكايات الأخيرة التي تتحو الى تفسير اختلاف الالسنه لا تمت بحكايات برج بابه بسبب • ومن ثم فاننا يمكننا أن نعوها باستثناء الحكاية التيلنجية ، حكايات مستقلة حاول العقل الانساني عن طريقها أن يتصارع مع المشكلات المعقدة ، مهما يكن مقدار النجاح الذي أحرزه في سبيل حلها •

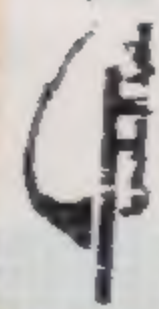
فهرس


الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة بقلم المترجمة
٢٣	مقدمة الطبعة المختصرة
الباب الأول	
٧٧	عصر الحياة الأولى
الفصل الأول	
٧٩	خلق الانسان
الفصل الثاني	
١٠٥	سقوط آدم
الفصل الثالث	
١٣٧	علامة قابيل
الفصل الرابع	
١٥٩	الطوفان الكبير
الفصل الخامس	
٣١٧	برج بابل

رقم الايداع ١٦٥٢ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب

١٧/٠٨

 Bibliotheca Alexandrina



0701666

٢٦.